فرانسيس جانسون

سيمون دو بوفوار

أو مشروع الحياة

فرانسيس جانسون

سيمون دُو بُوفوار

أو مشروع الحياة

ترجمة : ادوار الخراط

الى سارتر بالطبع
فلم أكف عن التفكير فيه لحظة واحدة
منذ أن شرعت في هذه الدراسة
التي كان هو وحده القادر على أن يقوم بها
على خير وجـه

المقدمة

عندما عرفت سيمون دوبوفوار كانت توشك أن تبلغ الأربعين عاماً من العمر ، وكانت زميلة سارتر ، وكانت الشهرة قد أخذت ، ولما تكد ، تدين لها ، لما قامت به بنفسها : أي أنها في خلال سنوات أربع كانت قد نشرت ثلاث روايات ، ودراستين ، ومُثّلت لها مسرحية . أما اليوم فقد أصبح جمهورها بحيث لا يمكن للمرء أن يتفادى اتخاذ موقفه بالنسبة لمـا قالته سيمون دوبوفوار في شتى الموضوعات ، وبحيث يبدو أن مغزى عملها نفسه قد أصبح يكمن في شيء أشبه « بالانتاج المشترك » — حيث يشارك جمهورها فيه بقدر ما تشارك . ومجموع عملها الآن قد أوشك أن يبلغ عشرين كتاباً ، خلال فترة لا تزيد عن عشرين عاماً الا قليلاً ، الى جانب قدر وفير من المقالات نشرت في الصحف ، وعدد لا يحصى من المحاضرات ألقيت في كل مكان من العالم تقريباً ، وبضع حقائب ضخام من الخطابات تشهد وحدها ، أكثر مما يشهد شيء آخر ، بحقيقة أثرهـا على قرائها .

أما عنها ، هي ، فعمّن يتحتم عليّ أن أتكلم ؟ انها الروائية ، وكاتبة الدراسات ، وصاحبة الحملات ، والمؤلفة المسرحية ، وهي أيضاً صاحبة تحقيق عن أمريكا ، وصاحبة شهادة ملتزمـة أعظم الالتزام عن حرب

الجزائر ، وقد كتبت سيرتها الذاتية في ثلاثة مجلدات ، وكتبت قصة مثيرة للشجن والمضض عن موت أمها ... لا ، لم يغب عن ذاكرتي « الجنس الثاني » وهو قطعاً أكثر من دراسة – ولا أن هذا العمل الحاسم ، بجزئيه ، قد كتبته امرأة : هي ليست بالكاتبة التي تتحدث عن الحياة (حياتها أو حياة الآخرين) فحسب ، بل هي أيضاً لم تكف قط عن أن تريد نفسها مسئولة ، و « صاحية » وجودها نفسه .

فاذا أضفت إلى ذلك أنها قد ذرعت الأرض طولاً وعرضاً ، وأنه قد أتيح لها أن تلتقي بأغلب من تتكون منهم الصفوة الحقة في هذا العالم ، على كل المستويات ، وأن ثقافتها السياسية ، والفلسفية ، والأدبية ، والفنية ، والسينمائية ، ثقافة مخيفة حقاً ، وأن شهوتها المشبوبة للاحاطة بالواقع (سواء كان مجرد أحداث صغيرة أو كان في الاحداث الجسيمة) ما زالت قوية كاملة العنفوان ، فكيف يتأتى لي أن أبرر – للقارىء – هذا المشروع الذي آخذ الآن في تقييمه ؟

انني لا أرى لذلك ، في الواقع ، تبريراً غير تلك الحاجة التي استبدت بي ، في العام الماضي ، أن أعيد قراءة العمل الذي قامت به سيمون دو بوفوار وأن أعيد موقفي بازائه . ولا شك أن ذلك يرجع ، من ناحية ، الى أنني قد أخذ يزداد اهتمامي ، باطراد ، بالمشاكل المتعلقة بوضع المرأة ، والى أنني من ناحية أخرى ، حاولت أن أفهم ماذا دار بذهن ذلك العدد الكبير من الناس ، رجالاً ونساء ، يوم قرأوا هذه العبارة : « انني أرى ، بذهول ، الى أي حد قد رحت ضحية للخديعة » ولكن الواقع أنني منذ اللحظة التي أخذت فيها أعالج هذا الجبل الشامخ من أعمال سيمون دو بوفوار ، لم يعد ثم شيء بوسعه أن يوقف جهودي في أن أنهض به – مهما بدت لي هذه الجهود ، يوماً بعد يوم ، قاصرة لا طائل وراءها . ومع ذلك فقد استأثر بي مضض حقيقي في خلال الشهور الأولى ، وإن ذلك ليحتفي حقيقة مهما كان فيه من برهان على ما سبق تحرير هذا الكتاب من إعداد لانهائي .

فالمادة التي جمعتها خلال هذه الفترة ، وكل تلك المراجع التي تراكمت لديّ ، وكل تلك المذكرات التي دونتها ، كانت تتيح لي أن أكتب اليوم ثلاث دراسات حقيقية ، دراسات فكرية بحتة ، وأن أؤلف ، فوق ذلك ، مجموعة جميلة من مختارات أعمالها تسهم في القاء الضوء على تلك الأعمال بقدر ما كانت لتسهم به تلك الدراسات .

وكان عليّ بالطبع أن أختار . وانا إذ أتحدث عن امرأة يتسنّى لها ، فيما يتعلق بها هي ، أن تصل ، دون توقف ، الى أقصى قدر من الدقة ، فقد كنت لأخون الأمانة ، حتماً ، لو انني لم أضع في اعتباري تلك اللمسات التي لا عداد لها والتي لا تكف عن أن تصحح بها وجودها نفسه ، كلما تناولت ماضيها من جديد لكي تحاول أن تفهم نفسها في الحاضر . ومن ناحية أخرى ، فسرعان ما اتضح لي أن كتبها في سيرتها الذاتية انما تشكل حقاً مركز الثقل في عملها كله ، وان الغنى الخارق الذي تتسم به هذه المجلدات الثلاثة (مذكرات فتاة مستقيمة ، وقوة العمر ، وقوة الاشياء) انما يغطي الى حد كبير مجموع الموضوعات التي تعبر عنها في أعمالها الأخرى ، وأنه من الممكن أن يحلم المرء مع روايات سيمون دو بوفوار ، أو أن يتأمل دراساتها ، أما في نهاية الأمر فقد كان هناك مجال لانهائي لفهمها في كل ما تقوله لنا عن نفسها مباشرة .

على ألا يسيء القارىء فهمي . فلست أنوي هنا أن أسلّم أدنى تسليم بوجهة النظر النقدية التي يغريها أصحابها دائماً بأن نغفل الجانب الأدبي عند الكاتب لصالح الفكر ، أو أن نغفل فكره حتى نولي أدبه اهتمامنا : إن وجود سيمون دو بوفوار وحده (شأنه في ذلك شأن وجود سارتر أيضاً) فيه الكفاية لدحض مثل هذا الموقف . بل أريد على العكس أن أجلو الوجود الذاتي المستقل لهذا العمل ، وهو عمل أدبي فيما هو واضح ، وأن أضع بين يدي قرائه ، في الوقت نفسه ، حقّهم في تقييمه تقييماً حراً ، على النحو الذي تمليه عليهم أذواقهم – بحيث يكون من شأن الوجود الذاتي المستقل

للعمل الأدبي أن يعدّل ذلك التقييم الحر ، الى حد ما ، وأن يؤيده ويؤكده ، في الوقت نفسه ، الى حد كبير . ان دور الناقد ، في نطاق هذه النظرة ، ليس هو الحُكْم على العمل الأدبي ، بدلاً من القارىء ، بقدر ما هو تجريد العمل من كل امتداد له ، في حدود الامكان ، استهدافاً لالقاء الضوء على أسسه ، وأصوله ، والمعنى العميق الذي يستمده العمل الأدبي من كل ما أعدّه للوجود : من كل الثروات المتاحة ، من العقبات التي صادفته ، من المتطلبات والمقتضيات التي تتخلق باطراد والتي أتاحت للكاتب أن يغدو صاحبها . واذن فانه من المتعين أن يقوم الناقد ، بازاء بعض الأعمال الأدبية ، بعملية فك للرموز وازالة للغموض ، نتيجة للمظهر الأدبي الذي تتخذه تلك الأعمال (سواء كانت من نمط الرواية أو المسرحية أو الدراسة العقلية) : ولكن الأمر ، عند هذه الكاتبة بالذات ، يختلف عن ذلك ، إذ أنها قد تولت ، تحت أنظارنا ، مهمة الرجوع إلى مصادرها بنفسها — الى الدرجة التي تتيح لها أن تشير اليها ، بعد ذلك ، تعليقاً على نفس الكتب التي استمدتها من تلك المصادر .

ولذلك فانني ، في هذه الدراسة ، قد أوليت «مذكرات فتاة مستقيمة» اهتماماً خاصاً ، وآثرت أن أمدّ القارىء بأعمق مفهوم ممكن للمستوى الذي تنعقد فيه المقومات الجوهرية لهذا الكتاب ، بدلاً من أن أشتت جهودي في احصاء شامل — بقدر ما يتسع له الشمول — للموضوعات التي تعالجها سيمون دو بوفوار (أو للكتب التي وضعتها ، أو للشخصيات التي خلقتها) ، وإلا فما كان قد أتيح لي إلا أن أكتب موجزاً مسطّح الأبعاد عن فكر سيمون دو بوفوار .

ولعله ينبغي أن أضيف ما يلي : ان هذا الكتاب هو عندي قبل كل شيء مغامرة شخصية . نعم ، انني اسلم بذلك ، في نهاية الأمر ، وهي مغامرة من أكثر المغامرات مقدرة على القاء الضوء أمامي ، فيما يتعلق بالوضع الانساني . ومن خلال هذه المغامرة ، في الواقع ، تتكشف لنا امرأة أخذت

على عاتقها أن تعيش ملء حياتها ، وفقاً لمتطلبات ومقتضيات ذاتها – ومن هذه المقتضيات ، على وجه الدقة ، أن يتم التواصل بينها وبين أشباهها من الناس ، أن تقول لهم عن خبراتها وتجاربها الذاتية ، دون أدنى تنازل أو تسليم ، وبأكبر قدر من الأمانة الصارمة .

إن هذه الدراسة كلها ، على نحو ما ، يتضمنها عنوانها نفسه : اما البدء في تناول مضمونها فهو على وجه الحتم أن ألقي بنفسي ، بـكل جوارحي ، في خضم الأشكال المتعددة التي يتخذها « عدم الرضى » الذي لا يمكن اشباعه الا بحديث لا نهاية له ، ولا نهاية لاستئنافه ، وتصحيحه ، واعادته . وبين هذين الطرفين (ارهاب الايجاز والاختصار من ناحية ، وإرهاب الاتساع والشمول من ناحية أخرى) فلست أنوي أن أقدم لقرائي وقارئاتي الا قصوراً يوصف له – ولكنه قصور يقترن بنوع من الاستفزاز يدعو القارىء الى ان يعالجه وأن يستكمله – ذلك أملي الوحيد .

انني لم أشرح سيمون دو بوفوار ، لم أنهض بعبء « الاحاطة » بعملها ، ولا بحياتها ، ولا بفكرها . وانما حاولت أن أشير الى المحاور الكبرى التي يبدو لي أن كلاً منا يستطيع أن يفهمها ، وفقاً لها ، وأن يحسن فهمها في كل مرة يقرأ فيها أعمال سيمون دو بوفوار ، وبعيد قراءتها ، بناءً على ما يجده في ذاته ، وفي هذا العالم الذي نتشارك فيه .

الجزء الأول

العوامل الثابتة في موقفها « الطبيعي »

١ – الاستعدادات الطبيعية الأولى

هناك أولاً حيويتها الخارقة، التي لا هوادة فيها: «كنت أتفجر صحة، وشباباً، وظللت حبيسة البيت، والمكتبات: كل تلك الحيوية التي لم اكن أنفق منها شيئاً كان ينطلق جماحُها في دوّامات لا طائل من ورائها، في رأسي وفي قلبي». [١] ولم يعرف عنها، اذا لم اكن مخطئاً، أنها قد اعترّاها مرض بلغ أدنى حد من الخطورة الا ما انتابها وهي في نحو الثلاثين من العمر: كانت رئتاها قد أصيبتا، وكانت احداهما «تشبه قطعة من الكبد»؛ ولكنها بعد بضعة أيام كانت تذرع جبال «المور» [٢] (وان كان من الحق أنها كانت تتخذ لنفسها أكبر الحيطة: «كنت آكل قشرة الكستناء حتى الغصة... وكنت أنام في العاشرة مساء؛ كنت أدلل نفسي»). وفيما عدا ذلك لا يجد المرء ما يذكر في هذا الصدد الا نكسة طفيفة وجلة سرعان ما استمدت منها فائدة، باتباع نفس المبدأ («كنت أذرع التلال المجاورة») وبعد عشرين عاماً، في البرازيل، نوع من التيفوئيد لم يشارك فيه المناخ، والارهاق، وربما فيروسات المرض، بلا شك، بقدر ما شاركت فيه «وحشة البلاد» نفسها مقترنة بالقلق على.. صحة سارتر.

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٢٥٨ من الطبعة الفرنسية.

٢ – جبال المور Maures سلسلة جبال صغيرة الارتفاع على ساحل البروفانس، في شرق فرنسا، على البحر الابيض المتوسط.

وهي مشّاءة لا ينالها الوهن من المشي ، ولا تسلم عن طواعية بإرهاق الآخرين : فليس يعنيها في شيء أنهم يتكبدون المشقة بل يشقون في متابعتها اذ تسير ، فليس لهم على أي حال أن ينتظروا منها أن تتلبث في سيرها أو تختصر طريقها ، فاذا لم يعد في وسعهم على الاطلاق أن يواصلوا السير فعليهم أن يتوقفوا ، أو أن يستقلوا القطار . أما هي فسوف تمضي في طريقها ، بلا هوادة . كتبت تقول : «كنا نتمتع ، كلانا ، بصحة الثيران »[1] ولكن اذا كان من الحق أن سارتر يتمتع أيضاً ببنية على قدرٍ من متانة الأسر ، فانه لن يفوز بازائها ، على أي حال ، في امتحان لقوة الاحتمال .

ان مثل هذه الصحة ، في نهاية الأمر ، توشك أن تكون أشبه بالمرض ، ويتأتى لها على أي حال أن يصيبها الحرج منها ، أن تنوء بثقلها ، أن تحار فيم تصرّفها : «كنت أتفجر صحة » ، «كانت الصحة تفيض بي فيضاً » .[2] والواقع أنها كانت تفيد منها إلى أقصى حد ، ولكن هناك ، في السخرية الخفيفة التي تضعها في تعبيرها عن رضاها بهذه الصحة («انني معجبة بصحتي ..[3] ») شيء أشبه بحاجة الى التماس المغفرة عن هذا الامتياز ، الى طلب المعذرة عنها ، من الناس العاديين .

وبالقدر الذي لا يكون فيه السياق هنا عقبة خطيرة ، فان هذا الفيض من وفرة الحياة المليئة ليس الا بهجة بالحياة : «يبدو مجرد الوجود ببساطة شيئاً يدير الرأس بالثَمَل » . «كنت أحب الحياة ، بشغف مشبوب »[4] ان الطرائق الدقيقة الرياضية التي يستخدمها خبراء «القياس الاسلوبي » لم تستطع أن تقنعني بفعاليتها النقدية ، ولذلك لم أعن باحصاء عدد المرات التي جرى فيها قلم سيمون دو بوفوار بكلمة السعادة أو الكلمات التي

---

١ – « قوة العمر » ص ٢٣ من الطبعة الفرنسية .

٢ – « قوة العمر » ص ٦٨ و ٣٢ من الطبعة الفرنسية .

٣ – « قوة العمر » ص ٣٣٧ من الطبعة الفرنسية .

٤ – « مذكرات فتاة مستقلة » ص ٢٢٣ و ٢٢٩ من الطبعة الفرنسية .

تمت لها بصلة القربى . ومع ذلك فان اكثر قرائها شرود بال لن يغيب عنه تردّد هذه النغمة الرئيسية على نحو متواتر ، عبر أعمالها جميعاً ، وهو ما يكفي وحده أن يشير ، بلا ادنى نزاع ، الى مقر رئيسي تنتظم حوله ، وتنجذب اليه الموضوعات المختلفة في المـدار الكوكبي لسيمون دو بوفوار . فمنذ طفولتها الغضة نراها تجد متعة في الحياة ، وهي سعيدة على نحو تلقائي ، وتبدو لها السعادة أمراً طبيعياً . ونحن نسمعها تقول ذلك ، وتكرره بكل النغمات ، دون أن يعتريها كلل ، كأنه تسبيحة بالحمد على النعمة ، ترددها باستمرار : «كنت صبية صغيرة مرحة غاية المرح » — «كنت أرى في الحياة مغامرة سعيدة » — «كنت قد وهبت ما يطلق عليه الطبع السعيد » — «كنت أملأ صفحات من كراستي . نحكي ، بلا نهاية ، فرحتي .. » ، فاذا هـذه المقتطفات ترد في «مذكرات فتاة مستقيمة »[1] ولا تتعلق من ثم بفترة الطفولة أو الصبا ، فاننا نجد صداها ، على أيسر نحو ، في الجزء الثاني من سيرتها الذاتية (في الفترة التي كانت فيما بين العشرين والسادسة والثلاثين من العمر) : « كان كل يوم عيداً » — «كنت أنتقل من مفاجأة الى بهرة العجب ، من متعة الى بهجة العيد » — «كانت السعادة تغرقني » — « في انطلاقة الجسد الذي يحتفل بعيده كان يبدو لي أنني ألمس حميا سورني في أن أحيا » — «كانت السعادة أكثر من مرة ، توقظني من نومي » — «انني افكر في حياتي وأنا راضية عنها رضىً عميقاً » — «أفكر في كل تلك الحياة وراني ما من مستقبل بقادر على أن ينتزعها مني »[2] ولكن عندما تأتي « قوة الاشياء » عقب « قوة العمر » فان الصدى يبدو في بعض الاحيان كأنما يخدش السمع ، وتتغير تسبيحة الحمد ، هنا وهناك ، الى مرثية جنائزية ، ويفقد موضوع السعادة سحره ويتحوّل الى حوار قاتم كئيب . والملاحظات

---

١ — نفس المرجع صفحات ١٥ و ٥٠ و ٤٨ و ٣٢٠ من الطبعة الفرنسية .

٢ — « قوة العمر » صفحات ١٧ و ٦٠ و ٦٤ و ٣٦٠ و ٣١٤ و ٤٠٩ و ٤١٢ من الطبعة الفرنسية .

الايجابية النادرة (من نوع : «انني راضية، حتى لا أتغير» – «أو «ان لي، قطعاً، طبعاً سلبياً»[1]) لا تعوض كل تلك الملاحظات التي تضفي بهجة الحياة، على العكس، بقسوة، في نطاق ماض غابر : «هذه الشمس أيضاً ظلت مركوزة في ذاكرتي كأنها لواء من ألوية السعادة التي مضت» – «كنت أعود فأجد من جديد طعم سعادة قديمة سحيقة القدم» – «عدت فوجدت، لحظة، طعم ألوان من السعادة ولت وانقضت» – «في تلك اللحظة، كنت أحس نفسي، مع ذلك، سعيدة : ولكنني كنت أقف على الجانب الآخر من خط لن أعود قط فأعبره من جديد»[2].

ان سيمون دو بوفوار ترجع هذا التغير في النظرة – وهو التغير الذي أثار إنفعالاً بالغاً عند جمهورها المتابر على قراءة أعمالها – الى سببين يبدو أنها تراهما سببين حاسمين : اقتراب الشيخوخة والأهمية التي يتخذها، في حياتها، بعدٌ تاريخيٌ يغدو مخيباً للأمل يوماً بعد يوم. فاذا لم يبد أن هذين السببين كانا، دائماً، قادرين على اقناعنا، فذلك، بلا شك، لأن عدداً كبيراً من قرائها (ومن قارئاتها أساساً) كانوا قد اتخذوا طريقاً خاطئاً بقراءتهم للجزئين السابقين، ونتيجة للتصور الذي وجدوه فيهما، عن السعادة. كأنما يبدو أنهم لم يحتفظوا من هذين الكتابين الا بأقرب المظاهر منالاً وأكثرها سطحية، وقد دعمه – الى حد لا مبرر له – ترداد هذه الكلمة نفسها، او مرادفاتها المقاربة، ترداداً غلاباً، حتى لو كان ذلك يتأتى في صيغ من العبارات توحي رهافتها ودقتها بمعنىً أكثر تعقيداً.

وقد حرصت بداءة ذي بدء ألا أشير الى هذه العبارات، اذ انني أحاول، على وجه الدقة، أن أضع هنا معادلاً لمثل هذا الفهم ببساطة، في صورة مركزة، وأن أضع بالتالي معادلاً للمفارقة القاسية التي لا بد أن تنجم عنه عند الانتقال الى الجزء الثالث من السيرة الذاتية. ولكن الأحرى بنا الآن

١ – «قوة الأشياء» صفحات ٩٦ و ٤٥٤ من الطبعة الفرنسية.
٢ – نفس المرجع صفحات ٢٢٤ و ٢٥٠ و ٦٢٥ و ٢٧٥ و ٥٣٢ من الطبعة الفرنسية.

أن ننظر في الأمر نظرة أعمق .

لقد رأيناها تقول عن نفسها انها قد « وُهبت » منذ طفولتها طبعاً سعيداً . وهي اذ تتحدث عن صحتها التي تشبه صحة الثيران ، وعن صحة سارتر ، تذكر أيضاً « ميلهما الى الضحك » كأنه هبة أخرى من السماء . ولا شك أن المرء يلحظ ما تدين به من عقيدة تؤمن بالبهجة والفرح ، والتقدير الذي تكنّه ، على الفور ، كأنه رد فعل انعكاس مباشر ، لأولئك الذين ينضوون بدورهم تحت هذه العقيدة ، والالحاح الذي تجعل به أقرب الشخصيات إليها يعبرون عن انفسهم « بمرح » في أعمالها الروائية [1] . ولم يكن بين ذلك وبين ان تتصور نفسها موهوبة للسعادة الا خطوة واحدة . والواقع أنه قد اتفق لها انها قد خطت هذه الخطوة ، بخفة . وحتى في الكتاب الصغير المثير للشجن الذي نشرته أخيراً بعنوان « موت عذب غاية العذوبة » نراها تعود ، مرات كثيرة ، الى المرح الذي يوشك أن يكون طبيعياً عند أمها : « كانت رقيقة ، كانت مرحة ، وكانت ابتسامتها تسحرني » — « عدنا فابتسمنا من جديد تلك الابتسامة التي كانت تسطع على طفولتنا الصغيرة ، ابتسامة مشرقة من ابتسامات المرأة في ريعان شبابها » — « تفصدت على فمها الحزين ابتسامة : يحبني الناس لأنني مرحة » ، هذه الأم التي « وهبت مزاجاً قوياً وطيد القوام ومشبوب الحميّا » لها للحياة « شهوة عارمة حيوانية » [2] كانت تقول أحياناً لابنتها « انما منّي انا تستمدّين حيويتك » [3] ، هذه الأم هي التي

---

١ — هذه السمة المميزة التي تكاد تكون لازمة عصبية من لوازم الكتابة عندها ، نجدها أيضاً عند سارتر . وإنما ينبغي هنا ، بلا شك ، أن نجد ، تحت هذا التشابه الشكلي ، تبايناً في موقف كل منهما : فالأمر هنا يتعلق ، باختصار ، بتصورين مختلفين للمرح ، يرتبطان بأسلوبين مختلفين للوجود ، لمواجهة الحياة .

٢ — موت « عذب غاية العذوبة » صفحات ٥٣ و ٧٦-٧٧ و ٣٧ و ١٦١ من الطبعة الفرنسية .

٣ — نفس المرجع صفحة ١٠٦ من الطبعة الفرنسية : « كنت أود ، من كل قلبي ، أن أقرها على رأيها » (هذه النغمة المتحفظة لا تستهدف إلا ملاحظة غير سارة أبدتها أمها ، في نفس الوقت ، ولكن بشأن موضوع آخر يختلف عن ذلك كل الاختلاف) .

تعرّفت فيها البنت في الواقع ، على نفسها ، في هذا الصدد .

ذلك إذن « استعداد طبيعي » لا تزعم صاحبته أنه فطري كامن بل تدعي كذلك أنه وراثي ... ومع ذلك فان كاتبتنا ، في الوقت نفسه ، لا تدعنا في جهل بأن قوة الأشياء قد قضت على هذه الموهبة في النهاية ، سواء في حالة أمها أو في حالتها أيضاً . أعرف ان هناك تفسيراً يقترح علينا ، للفور ، تفسيراً يبدو أن الثقافة والظروف تلعب فيه الأدوار الرئيسية الأولى ، على النحو التقليدي الكلاسيكي . أما دور القارىء ، على أي حال ، فلست أعتقد أنه يتكون من افتراض البساطة عند الكاتب ، بمجرد أن تظهر أولى بادرة للتيقظ والحذر . اننا بازاء امرأة تأتي لتقول لنا تقريباً : «كنت دائماً أتمتع بموهبة السعادة ولكنني لم أعد سعيدة » ، وهي تلح ، بلا كلل ، على تبيان هذا التعارض ، وتؤكد طرفيه كأنما في ذلك مدعاة للسرور ، فهل ينبغي اذن أن نظن ذلك كله انما يستهدف غرضاً واحداً ، هو أن تستثير لدينا بضع تأملات عميقة من الطراز الذي يقول « الحياة ليست سعيدة » « السعادة لا تتفق مع الوضع الانساني » أو على نحو أميل الى المسيحية « لسنا في هذا العالم لكي نعرف السعادة » ؟ اذا كان هذا الحوار بين الحياة المعاشة وبين حب الحياة ما زال يشغلها الى ذلك الحدّ ، واذا كانت ما تزال قادرة على خوض هذا الحوار تحت أنظارنا ، فانما ذلك بلا شك يرجع إلى أنها لم تنته من ذلك الحوار ، وأن الأمر ليس عندها بالقضية المفروغ منها ، وليس مجرد حوار لا طائل وراءه لم تعد هي بعد الا ضحيته الشقية .

فلنستمع اليها ، من ناحية أخرى ، تحدثنا عن لهجتها بالحياة عندما كانت في نحو الثالثة والعشرين من العمر : « السعادة التي كنت أتخبط فيها ... » [1] حوار غريب لا يدور اذن بين السعادة وبين العقبات التي تقف في طريقها ، بل يدور في داخل نطاق السعادة نفسها ، بينها وبين السعادة ؛

---

١ — « قوة العمر » ص ٧٠ من الطبعة الفرنسية .

ذلك ، فيما أعتقد ، هو المعنى الحقيقي لهذه المسألة التي تشغلنا . هذه المسألة التي ما تزال تحتفظ عند كائنيتنا بنبضها الحيّ الساخن ، وهو معنى يتجاوز كل تحديد . قد نميل الى تصوره بين فترة «سعيدة» في وجودها ، وبين فترة «عدم السعادة» . ان الحياة في الواقع ، لا يمكن أن تقف موقف المعارضة للسعادة ، اذ ان الحياة هي الشرط الأولي للسعادة ، وموهبة السعادة ليست التمتع بمقدرة سحرية تجعل المرء سعيداً بالرغم من الحياة وبحيث تتغلب الحياة ، ان آجلاً وان عاجلاً ، على هذه المقدرة : وانما موهبة السعادة هي أن يكون للمرء ، في حياة آنية محددة بالذات ، أيا كانت ، ميلٌ للسعادة ومقدرةٌ على تذوقها ورغبةٌ عارمة في ان يكون المرء سعيداً . وانما تُعطى السعادة في الطفولة الغضة ، منذ نعومة الأظفار ، أو لا تعطى أبداً ؛ ولكن ما أن يبدأ هذا المنحى للكينونة يعي بذاته ، حتى ينبغي له أن يكون منحى للوجود . ومن ثم فان السعادة كمشروع لا تكف عن أن تنازع السعادة كإحساس فعليّ . وأن يشغل المرء نفسه بأن يكون سعيداً هو بالفعل ألا يكون سعيداً ، وهو أيضاً أن يرى المرء نفسه مضطراً الى أن يجد السعادة التي يراها مشروعاً لنفسه ؛ إنه يرسم خطوطها المحيطة بها اذ يجعلها تتوقف على سلسلة من المشروعات المحددة ، وهو ، في النهاية ، وبالتساوق ، أن يجد المرء نفسه في نزال وصراع مع وجوه مختلفة للسعادة - هي مجرد «امكانيات» لأن يكون المرء سعيداً في المستقبل ، وهي امكانيات تميل لأن تبدو ، للفور ، متناقضة مع بعضها بعضاً .

أنخلص من ذلك الى أن السعادة لا توجد ؟ بلا شك ، اذا فهمنا من ذلك أنها لا تأتي من تلقاء نفسها ، وأنّ علينا أن نوجد في السعادة بأن نلقّن لها شكلها المتحرك أبداً يوماً بعد يوم ، في نطاق الأوضاع المختلفة حيث تعبّر حريتنا عن نفسها (مشروطة بهذه الأوضاع أو شرطاً لها) . ومع ذلك فان هذا لا يعني أن السعادة وهم بحت ، واننا اذ نطلق عليها اسمها فانما نحكم على

أنفسنا بألا نقول شيئاً. ان السعادة، شأنها في ذلك شأن كل ظاهرة إنسانية، وشأن كل مظهر من مظهاهر الوعي. لا تكون. ذلك أن «كينونتها» اما أن تكون دائماً جامدة في الماضي أو معلقة في المستقبل. ولكننا، على وجه الدقة، شأننا في ذلك شأنها، لا «نكون» الا من حيث أننا مستقبل (أو ماضٍ) سائرين بدون توقف نحو أنفسنا، ولذلك فاننا لا نستطيع أن «نوجد» في هذه اللاكينونة، على نفس النحو الذي لا يمكن أن يوجد فيه حضورنا الذي لا يمكن اقتناصه، بالنسبة الينا. واذا كان لكلمة السعادة معنى ما عندنا فهو أنه محظور علينا، باعتبارنا وعياً، أن نتفق في الزمن، أبداً، مع الكيان الذي هو نحن. اما اذا كنا نستطيع أن نتمتع بسعادة لم تكن بعد، أو لم تعد كائنة، فذلك بالقدر الذي يعطى لنا فيه، بالرغم من كل شيء، أن نحيا هذا الانعدام للكينونة الذي هو نحن. ان الوجود السعيد هو في نهاية الأمر وجود يقامر بأن يكون سعيداً: السعادة في الواقع تعطي نفسها له في هذا المشروع ذاته، ولا يحس الوجود مباشرة بالسعادة الا باعتبارها سعادةً بالوجود، شأنها في ذلك شأن تغمية كل مشروعاته المحسوسة[1].

ونحن نرى الدور المبهم الذي يقوم به هنا بُعدنا الجسدي، يقوم به الجسد

١ – هذا النص الذي يبدو صعباً ومعقداً لا يمكن فهمه الا بالرجوع الى الافكار الرئيسية للمذهب الوجودي. ومن المعروف أن الوجودية تتصور الانسان وفقاً لما يصنع نفسه، وأنه لا «يكون»، مسبقاً، بل «يكون» فيما بعد، اي انه «يوجد» وفق مايريد نفسه، ومن ثم فان الانسان هو اولا «مشروع» يحيا نفسه، ملقياً بنفسه نحو المستقبل، وعلى ذلك تتضح هنا فكرة استحالة الجمع، في الزمن، بين الانسان كوعي والانسان باعتباره كينونة، وهي الفكرة التي يعالجها جانسون هنا. الوعي بالسعادة، اذن، بعبارة تبسيطية، إما أن يسبق «السعادة» أو يلحق بها. والواقع ان الفكرة الرئيسية عند جانسون هنا، هي أن السعادة مشروع يقع في المستقبل، أو وعي بوضع مضى في الزمن. وجانسون هنا انما يتبنى فكرة اساسية من افكار الوجودية التي ترى ان الانسان يعي ذاته كمشروع في المستقبل وأنه، أولا وقبل كل شيء، مشروع يحيا نفسه، كما قلنا، ولا يوجد ثم شيء قبل هذا المشروع، اذ أنه ليس هناك طبيعة انسانية ثابتة مسبقة، والتفرقة بين «الكينونة» و «الوجود» من المعطيات الاساسية في المذهب الوجودي، كما هو معروف. (المترجم).

باعتباره الجلد (أو التجسيم) للمظاهر المختلفة للعرضيّ فينا. ذلك أنه في الجسد وبالجسد يمكن أن تُحَسّ، أن تُبتَلى، هذه السعادة بالوجود، ولكن منه أيضاً، ومن خلاله، تأتي اليها كل تكذيبات العالم لها، وكل منازعاته لها. والحيوية نفسها، بهذا المعنى، تقدم بدورها في كلا الاتجاهين: فاذا اتيحت لها حرية الظهور أصبحت بهجة بالحياة وتقوم مقام السّند للسعادة بالوجود، اما اذا واجهتها العقبات فانها قد تحقق وتفشل اذ تستحيل الى نفاد للصبر، الى احتراق مستعر للحياة. ان الحياة ليست الا ارادة – حياة، اما الوجود، فهو على العكس، اذا استند الى الحياة فانما لكي يتجاوزها. واذن فإنها، بمعنى من المعاني، تتكون دائماً، الى حد ما، من انكار الحياة، من رفض الحاجة الى الكينونة ورفض التلقائية المباشرة – وفقاً لمتطلبات الممارسة العملية المدروسة، لمتطلبات العمل الواعي الواقع على العالم (وعلى الذات ايضاً، بالتساوق). إن الوجود ليس بالتأكيد معادياً للحياة باكثر مما يكون الملاح معادياً للريح التي تملأ أشرعة سفينته: ولكن قد يحدث أن يضطر المرء للملاحة في ريح موات لا تهب فيها نسمة، ونحن نعرف من ناحية أخرى ان الزعازع العاصفة ليست دائماً مما يفيد السفن. ولاشك انه من الاسهل أن يحس المرء بهجة الوجود عندما تحمله الحياة في تيارها، وعندما «تهب الرياح رخاءً مواتية»، ولكن ينبغي مع ذلك ألا يغوص المرء في وحل تلك البهجة، والا يدعها تتدهور – بفعل الطاقة المهدورة التي توثّي أثرها في خفاء – حتى تصبح مجرد بهجة بالحياة يؤدي خمودها الناعم السهل الى انخفاض شعلة الوجود حتى تغدو ذبالة خافتة، والى مجرد الحلم بالكينونة، والى الاستقالة من العمل والتنازل عنه. ان مثل هذه السعادة، في الواقع، لن تكون الا وهمية: ومضطرة الى أن تزيد من حدة ذاتها، دون توقف، والا راحت في غيابات اللاوعي، ولن يطول بها الزمن حتى تدخل في صراع مع العالم الخارجي، وسوف تُمنى، مسبقاً وعلى أي حال، بالهزيمة سواء

كانت هزيمة خفية أم صارخة سافرة مدوّية .

والسعادة الوحيدة التي تتاح لنا فرصةً ما في أن نحياها ، هي وجودنا نفسه الذي يحمل هذه السعادة ، بالقدر الذي لا تنتهي فيه جهوده للاقلاع عن أرض الحياة الى حد أن تحول دونه والاحساس بنفسه يوجد ، والاستمتاع بحركة نفسها — وليس ذلك الا النّزاعاً لذلات .

واذن ، فاذا كانت السعادة هي هذا الوجه الجانبي المفقود ، هذا الانعتاق المنطلق الهارب أبداً (على العالم وعلى أنفسنا) لحركة وجودنا نفسها ، فانا من ثم نرى أي صلة وثيقة بالضرورة بين السعادة والحرية . ذلك أنه يتعين على السعادة ، كما يتعين على الحرية ، أن تنتصر على ذاتها في الوقت نفسه ، دون هوادة ، أن تستعيد نفسها من «كينونتها» المعطاة ، من وهم كينونتها ، وأن تبلو ذاتها في اوضاع مجددة ، أن تغترب عن ذاتها في هذه الاوضاع ، من ثم ، بقدر يقل أو يكثر ، حتى تستطيع أن تتجاوزها . ان المرء لايوجد حياته بدون أن يحيا وجوده ، بدون أن يجد فيه حداً أدنى من المتعة . واذا كانت الحرية قادرة على ان تريد ذاتها بازاء العالم ، وضده ، فلنك بلاشك أنه يترتب لها عن ذلك شيء من السعادة — وهي ليست ، على ذلك النحو ، وبعد أن تضع كل شيء موضع الاعتبار ، الا طريقتها في تذوق ذاتها ، في الميل الى تذوق ذاتها وتذوق ممارستها نفسها .

انني اذ اسمح لنفسي بهذه الملاحظات عن شروط امكانية السعادة ، عن جوهرها نفسه ، فلست أزعم أنني اقرر ، مسبقاً ، الآفاق الخاصة لسيمون دو بوفوار في هذا الصدد . ان التحليل الذي وضعت خطوطه العامة فيما سبق يستهدف أساساً أن أمهّد الأرض ، وان انتحي بالقارىء ، جملة واحدة ، بعيداً عن تفسيرات معينة تتخذ شكل مأزق لا مخرج منه — حيث يكون دور الناقد الحق ، بالتأكيد ، الا يدعه يضل سبيله ،

ولكن من المسلم به أنني لم اكن لاقترح « افتراض القراءة » ذلك بالذات ، لولا أنني عندما أعدت قراءة أعمال دو بوفوار وجدت هذا الاتجاه مفروضاً عليّ بقدر ما . ويبقى بعد ذلك أن نتحقق من صحته (وان نتعمقه وندققه اذا اقتضى الأمر) اذ نلرع – والنصوص في أيدينا – هذه المنعطفات المعقدة في موقف سيمون دو بوفوار من السعادة .

لقد لاحظنا من قبل ماعند سيمون الطفلة . بضع تعبيرات عن سعادة الكينونة ، وقد اخترنا عن عمد اشد هذه التعبيرات ايجازاً . وعلينا الآن أن نأتي بتوضيحات اكثر دقة وأبعث على الاهتمام ، عن هذا « الطبع السعيد » اللذي تتمتع به تلك « الصبية الصغيرة البالغة المرح »

« لم اكن أتصور نفسي بوجه آخر ولا في إهاب آخر : كنت استمتع بجلدي » – « كنت راضية عن المكان اللذي اشغله في العالم ، وكنت اراه مكاناً ممتازاً . – « كان والداي مخلوقين ممتازين خارقين .. وكان تفوقهما يعود فينبثق عليّ من جديد ... كنت أنتمي الى صفوة من الناس » –[1] « كنت اعتبر من حظي العظيم أن السماء قد اختارت لي هذين الوالدين على وجه الدقة ، وهذه الأخت ، وهذه الحياة »[2] . ومع ذلك فان طريقة الحياة في هذا البيت لم يكن فيها ما يدعو للنشوة والتحليق (« كنا نجرّ الشيطان من ذيله »)[3] وكانت تتاح الفرصة أحياناً حتى تدرك سيمون مدى هذا الوضع (« كان يحدث لنا أن ندعى ، أنا وأختي ، الى حفلات تتسم بالبذخ اللذي يدير الرأس ») : ولا شك أن عائلة دو بوفوار كانت قد احتفظت ببعض الصلات الاجتماعية ، ولكنها لم تكن تحتفظ بيسر الحال ورخاء الأوضاع التي كانت مثل هذه الصلات الاجتماعية تفترضها .

---

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٤٩ من الطبعة الفرنسية .

٢ – المرجع نفسه ص ٤٨ من الطبعة الفرنسية .

٣ – مثل شائع يوحي برتابة الحياة والتخلف عن المباهج من ناحية ، ومحاولة اللحاق بالمتع واستدراك ما يفوت منها ، من ناحية أخرى . (المترجم)

ومع ذلك فانه يبدو أن الفتاة الكبرى للعائلة قد استطاعت أن تحتفظ برد فعلٍ هو أوفق ما يكون في هذا الوضع ، وذلك بفضل موقف العائلة من جانب ، وبفضل ميولها نفسها من جانب آخر : « كانت كل تربيتي تدعوني الى اليقين بأن الفضيلة والثقافة أجدى من الثروة : وكان ذوقي وميولي تحملني الى اليقين بذلك ، ومن ثم فقد كنت أقبل ظروفنا المتواضعة في هدوء وسلام »[٢] وذلك بالضبط ما يسمى بعبارة أصح أن نجعل من الضرورة فضيلة .

وقد كان من شأن هذه الحكمة ، مقرونة بالاحساس بأنهما محبوبتان ، انْ أسعدت الفتاتين . فهي من ثم « راضية » — « قانعة » — « تفيض بها السعادة » — مليئة بالسعادة ، فتاتنا سيمون ، كما يقول البعض عن العذراء إنها « مليئة بالنعمة » : سعادةُ حالٍ حقيقية ، على شكل امتلاء ... فهل هناك مع ذلك ، في موضع ما من هذا الامتلاء ، ثغرة ؟ ذلك ان هذا « الهدوء » الحكيم يبدو في الحقيقة متوتراً قليلاً ، متقبضاً على نفسه بقدرٍ ما ، ومشغولاً ، على نحو غريب ، بأن يمجد هذا الوضع الذي لا ينِي يؤكد أنه مدعاة للرضى ، يمجده على حساب كل وضعٍ آخر . فقد رأينا ان هذه الطفلة ترى في المكان الذي تشغله من العالم مكاناً ممتازاً ، وتحس بأنها متفوقة ، بأنها تنتمي الى صفوة مختارة . ويُقال لنا ، بعبارة أدق ، ان « ظروفها المتواضعة » نفسها تشكل في عينيها علامة على امتيازٍ مرموق جوهري : « كنت قد اقتنعت ... أن هذه الظروف المتواضعة شيء نحسد عليه : ورأيت أن توسط أحوالنا هو الوسط العادل »

والتعبير وحده جدير بأن نتوقف لديه : واذا كان الاستعمال الشائع قد جعل منه بالفعل تعبيراً مُسيئاً ، فان المرء يميل قليلاً الى نسيان أنه يحدد بعبارته الخاصة قصوراً مازال شائعاً جداً في مجتمعاتنا الغربية « الوسط

٢ — « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٥٠ من الطبعة الفرنسية .

العادل » اي الموضع الذي تجتمع فيه معاً فكرة العدالة وأختها غير الشقيقة فكرة التوسط : بلاء التوازن. ومازال يقال : « الميدي[1] العادل » و « الاتزان الذي يتسم به البحر الابيض المتوسط » و « الفضيلة في أوساط الأمور » in medio statirrtus وهي كلها طرائق في محاولة لرفع الوضع الذي يجد فيه أعضاء « الطبقات الوسطى » أنفسهم ، الى مستوى المثل العليا ، بتغييره الى رسالة ، بروية الجدارة فيه ، بتصويره على أنه فضيلة ، وذلك في كل نظام اجتماعي قد استقر بقدر ما نتيجةً لتوازن نسبي بين العوامل الاقتصادية فيه. والبورجوازي الصغير ، اذ يجد نفسه حبيس هذا المصير بروغة مستنقعاته ، وقد وَحِل في طين صعوبات حقيقية ، ولكنها ليست مع ذلك صعوبات جذرية بحيث تدعو الى مطالبات جماعية عميقة ، فانه يظل معزولاً ، كفرد ، في داخل نطاق طبقة ، ومن ثم فهو مضطر فعلاً ، أكثر من البروليتاري الى اسباغ مسحة اخلاقية على تصرفاته. ذلك أن الحياة ليست سهلة أمامه ، ولكنه مع ذلك يعيش في يسر ورخاء بقدر ما ، بالنسبة الى كثيرين غيره ، ومن ثم فسوف يعاني الحاجة ، بالضرورة ، وسوف يلتزم بالصرامة والتقشف لكي يبرر لنفسه ذلك : إنها فضيلته أن يأتي ما تأباه عليه ظروفه (« العنب ما زال أخضر فجاً ») وهو يدين بالامتيازات المشكوك في أمرها التي ما زال يتمتع بقدر ما يحق التصرف فيها ، يدين بها الى جدارته واستحقاقه وحده — وهي امتيازات تتأتى له على اي حال نتيجة لوضع إجتماعي يفلت تماماً من قبضته. ان الضمير البورجوازي الصغير ، اذ يقف على هذه الأعالي المثالية ، وقد توفرت له ضمانات قيمه الغيبية[2] ، يمنح نفسه ترف الحكم على الأغنياء

١ — الميدي منطقة الجنوب في فرنسا بما اشتهرت به من مزايا.

٢ — في حالة طبقة صاعدة تشرع في الاستيلاء الفعلي على السلطة ، نجد أن الدعوى الأخلاقية في التصرف باسم قيم عالمية (كالعدالة ، والحرية ، والمساواة ... الخ) ليست بالدعوى الوهمية تماماً ، بقدر ما تغطي ، وتدعو الى قبول تقدم معين ، محدود لكنه حقيقي ، في اتجاه العالمية المحددة المحسوسة. ولكن الطبقة الوسطى المتشبثة باصرار بالقليل الذي تملكه ، والمتقيضة

والفقراء ، وأن يدينهم ادانة الاستنكاف لها : «كنت أرى في المعوزين البؤساء والصعاليك ، منبوذين مطرودين ، ولكن الأمراء وأصحاب الملايين كانوا أيضاً معزولين عن العالم الحقيقيّ : فقد كان وضعهم غير العادي ينحيهم عنه » .

ولكن هذا التوسّط المبتذل الذي كان يبدو للطفلة كأنه « الوسط العادل » هو موضع عبارة رائعة تقولها عنه الكاتبة الناضجة التي تمرست بالسياسة : «كنت أظن أن أعلى الأجواء في المجتمع ، وأدناها ، مفتوحة لي معاً ، ولكن الحقيقة أن الأولى كانت مغلقة عليّ ، وأنني كنت مبتوتة الصلة ، على نحو جذري ، بالاوساط الدنيا في المجتمع . »[1] ولكن ما يهمنا هنا هو ما كانت تتصوره سيمون الصغيرة ، بالطبع ، ما كانت « توقن » به بالفعل : ومع ذلك فان مضمون هذا « اليقين » نفسه ، هو بلا شك أعقد بكثير مما يبدو لأول وهلة .

نستطيع مثلاً أن نلاحظ أن خبرتها الحقيقية بالعلاقات الاجتماعية لم يكن من شأنها على الاطلاق أن توحي لها بوهمٍ من هذا القبيل . فاننا لا

— بالقلق خشية أن تفقده يوماً ما ، لا تفرز أبداً ، على المستوى الاجتماعي ، الا قيماً زائفة ، مهمتها أن تبرر مجرد الامتثال لمصير يوضع لها ، لا أن تبرر مشروعاً ثورياً الى حد يقل أو يكثر . ويبقى مع ذلك أن هذه « القيم » اذا لم تلبث أن تصبح جزءاً مكملا من الظروف الموضوعية لكل من أعضاء هذه الطبقة الوسطى ، فانها مع ذلك تؤخذ ، وتعاش ، وتقيم ، على المستوى الفردي — من جانب كل عضو من اعضاء هذه الطبقة ، وذلك في ظروف من التنوع والاختلاف بحيث تترتب عليها تصرفات ذاتية شديدة الاختلاف والتنوع بل متناقضة أحياناً . هل يمكن أن نتصور ، من ثم ، أن الضمير البورجوازي الصغير يستطيع لحسابه الخاص (وبأية طريقة ، والى أي حد) أن يتجاوز أخلاقية طبقته وفقاً لموقف أخلاقي أصيل ، أي موقف فيه القدر الضروري من الابداع والخلق والثورية بحيث يتأتى له أن ينفتح على نمط انساني حقاً للسلوك . هذا على أي حال سؤال من الاسئلة الجوهرية التي حفزتني شخصياً على العودة الى هذا العمل ، على محاولة فهمه فهماً أفضل اذا أمكن ، مما حدث حتى الآن .

١ — « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٥٠ من الطبعة الفرنسية .

نراها ، قط ، في أية حالة من الحالات ، تحس نفسها مرتاحة حقاً عندما يتعين عليها أن تخرج من وسطها ، وهو وسط ينحصر على كل حال في أقل القليل ، في داخل أبعاد عائلتها . والحقيقة أن يقينها هو أشبه ما يكون بمرسوم أو قانون موضوع : كل شيء يدعو للظن أنها كانت تقرر ، مسبقاً ، أنه ما من تجربة بوسعها أن تدحض هذا اليقين . ان هذا العالم الذي تعيش فيه هو خير عالم ، وهو فوق ذلك « العالم الحقيقي » الوحيد ، وقد اختارت أن ترضى به ، ومن ثم فسوف تكون « راضية » به . وذلك على حساب أن يتعين عليها ، غالباً ، أن « تعيد وتزيد » في وصف رضاها . وتقول لنا كاتبة سيرتها الذاتية : « ليس هناك مسافة بعيدة بين الرضا والكفاية » ، ولا شك أن هذه القسمة من قسمات طبعها كانت من القوة والبروز بحيث تحددها لنا من جديد ، بقوة ، بعد خمس عشرة صفحة : « ان الصورة التي اعود فأجدها عن نفسي ، وانا في حوالي سن الرشد ، هي صورة فتاة صغيرة مستقيمة ، سعيدة ، ومتكبرة الى حد مقبول »[1] .

ولنحيّ هنا ظهور التفاؤل البوفواري . ولندع للكاتبة اولاً مهمة ترسّم أولى آثاره .

كانت لسيمون نزواتها ، وكانت خاصّتها تضحك من ذلك : « شجعتني هذه الانتصارات الصغيرة على ألاّ أرى في القواعد ، والطقوس ، والروتين ، أشياءً لا يمكن التغلّب عليها . وهي جذور تفاؤل معين تعيّن فيما بعد أن يبقى ويستمر على الرغم من كل التقويمات »[2] وقد حدثني النزوة شخصياً أن أختار هذه الملاحظة في البداية — وهي أولى الملاحظات التي تنطبق على الموضوع ، من ناحية التسلسل الزمني ، ولكن لعلها الملاحظة الوحيدة التي لا تتضح الرابطة بينها وبين تأملاتنا السابقة ، لأول وهلة . ولكن هذا الاختيار ليس مجانياً تماماً : فعندما تستخدم سيمون دو بوفوار ، فيما بعد ، تعبيرات

١ — نفس المرجع صفحات ٤٦ و ٦٣ من الطبعة الفرنسية .
٢ — نفس المرجع صفحة ١٧ — ١٨ من الطبعة الفرنسية .

من قبيل «وفية» لانحيازي الى التفاؤل» (كما تفعل بالضبط في تلك الصفحات التي رأيناها فيها تصف نفسها بأنها «راضية» عن مصيرها) فانه من المهم الاّ يغيب عن البال الأصل الذي ترجع اليه هذا الموقف، بنفسها، ونمط التفسير الذي تقدمه له، على الفور.

عندما كانت سيمون في الخامسة عشرة من العمر، بهرها المستقبل اذ كانت تستدير اليه: «كنت ابتسم لهذه الفتاة المراهقة التي سوف تموت غداً وتبعث في مجدي: ما من حياة، ما من لحظة في أية حياة كان بوسعها أن تفي بالوعود التي كنت اهدهد بها قلبي الساذج، الى حد الجنون».[1] وفي السابعة عشرة من عمرها، كانت صديقتها زازا تمر «بأزمات من التشاؤم» وهي تأخذ عليها انهزاميتها، ويأسها، وتضع تفاؤلها هي في مقابلهما: «أمل مجنون».[2] وفي السابعة عشرة أيضاً، بضع شهور قبل ذلك، هل نجد أن لها موقفاً مختلفاً لحظة واحدة؟ «لم يعد المستقبل أملاً بعد: كنت ألمسه»: فهو الحضور اذن – في متناول اليد... ولكن لا، ليس ذلك الا الوعد الذي يحدو الى الجنون: «كانت حياتي سوف تصبح قصة جميلة تتحقق فيما أنا أرويها لنفسي».[3]

«كانت حياتي سوف تصبح» حياتي سوف تصبح.. يتعين أن تكون... أما في الصيغة الأولى، فان القانون الموضوع الذي كنا نتكلم عنه لا ينطبق: ذلك أن المرء لا يقرر أن يكون سعيداً في الحاضر. وانما يقرر المرء (في الحاضر) أن يكون سعيداً في المستقبل. والتفاؤل أن يوقن المرء اليوم بسعادة الغد. ولكن ماذا لو أن المرء توقف عن هذا اليقين؟ «كنت أحث نفسي على التفاؤل».[4]

---

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٤٨ من الطبعة الفرنسية.
٢ – نفس المرجع ص ١٨٣.
٣ – نفس المرجع ص ١٦٨
٤ – نفس المرجع ص ٢٥٦.

السعادة هبة، هبة يمتلىء بها المرء، ولكن مهما كانت سعادة المرء، فان عليه مع ذلك، بلا هوادة، أن يقرر أن يكون سعيداً، أن يصير سعيداً... على هذا النحو يتصرف المؤمن، فمن المعروف حق المعرفة أن المرء لا يملك من أمره شيئاً ما لم تكن النعمة قد حلت به، وأن النعمة مع ذلك لا جدوى منها دون أن تتبعها سلسلة غير محدودة من أعمال الايمان. والتي تقول لنا ذلك هي واحدة من المختارات، واحدة من هذه المخلوقات التي لم يقع عليها الاختيار الا لكي يرين أنفسهن مرغمات على استحقاق اختيارهن، حتى النهاية: «السعادة رسالة أقل شيوعاً مما يتصور المرء».[1] نعم، هذه هي الكلمة. ان هذه المرأة لها رسالة نُذِرت لها، الا تستطيع أن تطيق نفسها اذا كانت غير سعيدة، ومن باب أولى اذا كانت شقيّة، بالطبع[2]. ولكن فلنتذكر هذا الاعتراف الآخر: «يشقيني الا أحس نفسي سعيدة». الواقع أنها محكوم عليها بمطاردة السعادة نفسها، طيلة حياتها. وإذا كان مما يدعو الى الحرج أن نعرف ماذا يقتضي الموت من ثمن، فلنحاول على الأقل أن نتصور الثمن الذي يتعين اقتضاؤه للحياة، بلا حد، تحت سوط رسالة من هذا القبيل: «كان ذلك مشروعاً طويل النَّفَس اعطيت له نفسي دون تحفظ، خلال أعوام طوال. ففي أثناء وجودي كله، لم ألتق بأحدٍ وُهب بقدر ما وهبت للسعادة، ولا بأحد بذل من الحمية في سبيل ذلك ما بذلت، وبهذا العناد. ومنذ أن مست السعادة أصبحت شغلي الشاغل الوحيد»[3].

سوف يسلم المرء بلاشك أنه ليس مما يتأتى كثيراً أن نسمع حديثاً عن السعادة بمثل هذا المزيج من الثقة المتعالية والعنف الخشن الحرّيف. فهذا من ناحية

---

١ – «قوة العمر» ص ٣١ من الطبعة الفرنسية.
٢ – «كنت قد قررت أنه اذا ما أصابني شقاء بالغ فسوف أقتل نفسي» (نفس المرجع ص ٣٠)
٣ – نفس المرجع ص ٣١.

يوشك أن يكون الغرور الارستقراطي عندما يحس المرء أنه « فوق عامة الناس » ، وهو من ناحية أخرى الاصرار الشرس الأعمى لوعي مشبوب الأوار يسارع على نحو مغالى فيه قليلاً إلى أن يطلق على سعيه وراء متعته اسم « الحرب المقدسة » ... واعترف أن هذا الاسراف ، من ناحية ومن أخرى ، يمسّني .

ذلك أنه ينبغي ان تكون السعادة ، على نحو ما ، معطاة ، أن تكون هبة ، اذا كان صحيحاً (كما حاولت أن أقول منذ قليل) أن هذا التذوق للحياة يجب أن تتناوله من جديد حركة الوجود نفسها حتى لتتحد مع الاحساس بالوجود ، حتى لا يكون الا التجاوز الذي لا يكف لكل قالب من قوالب الكينونة . وهو من ثم امتياز ، فمن الواضح أن الحياة لأول وهلة ، ليس لها طعم مستحب (وليست لأول وهلة مما يستحب « تذوقه ») بالنسبة للجانب الاعظم من الناس ، والسعادة أيضاً عمل ، وجهد ، وكفاح ، كما يدلنا (على سبيل البرهان العكس ، سلبياً) مثال كل اولئك الاشقياء التعيسين الذين يحملون ثقل طفولة كانت سعادتها سهلة موطأة .

ها نحن قد عدنا الى البورجوازية الصغيرة المثقفة ، الى هذه المنطقة الهجينة من مجتمعاتنا البورجوازية الراهنة ، التي يستطيع المرء منها أن يرتفع ، عقلياً ، الى ما يتجاوز بكثير ظروفه الحقيقية ، دون أن يكف عن أن يتجشم العناء وان يكبّد نفسه المشقة حتى يحتفظ بهـذا اليسر اليسير من ظروف المعيشة . ما دام يكسب ، في هذه الظروف ، عيشه خـيراً مما يكسب البروليتاري عيشه ، فهو من ثم يستطيع أن يزيد من كسبه أيضاً ، وما دام يملك ثقافة تتيح له أن يستفيد خـيراً مما يستفيد البورجوازيون من ثقافتهم ، فذلك أن النجاح الاجتماعي ليس كل شيء وان التفوق الحقيقي لا يتوقف على الظروف المادية العَرَضية . ولما كان من الضروري مع ذلك مكابدة عناء لا هوادة فيه للاحتفاظ بمستوى المعيشة الذي وضعه المصير ، فان هذا التفوق المطلق انما هو من طراز أخلاقي إذ انه يتطلب

ان يكون المرء جديراً به . المغزى اذن : المال ليس مصدر السعادة (لكنه يسهم فيها) والمرء لا ينال شيئاً دون عناء . اما ذلك الذي يريد أن يكون من أصحاب القيم المتسامية فعليه أن يدفع الثمن بأن يدبر أمره هنا تحت ، على الأرض ، بحيث يحتفظ بحد أدنى من التكوص عن الضرورات الحيوية المباشرة ، يوماً بعد يوم . ذلك أنه اذا كان المرء في وضع يسمح له بأن يشتري « بنطلوناً » فانه عندئذ يستطيع أن يتصور الاختيار بين ان تكون له سمعة طيبة أو أن يكون له حزام مذهب للبنطلون . ويبقى بعد ذلك أنه في اللحظة التي يبدو فيها مثل هذا الاختيار ممكناً من الناحية العملية ، فان المرء سوف يريد أن يغيّر الحزام بأي ثمن — الا اذا كان للمرء صورة ثابتة لنفسه يمكن له فيها ان يستغني عن البنطلون وعن الحزام معاً .

وفي الحالة المحددة التي تشغلنا الآن ، يبدو لي أن الظروف الاجتماعية ، والظروف التاريخية الشخصية قد تدخلت على نحو معقد بالغ التعقيد ، غني بامتدادات من كل نوع . سيمون بالفعل طفلة سعيدة : مليئة بالحياة تعرف أنها محبوبة من والديها اللذين تعجب بهما . وفي الوقت نفسه رأيناها تقول إنها راضية بمصيرها بعبارات وفي نغمة تدعو قليلاً الى الشك : هذه السعادة التي كانت أولاً تفيض بها ، يخيل إلينا أنها قد أخذت تفلت منها ، كما لو لم تعد الا سراباً . ينبغي عليها أن تسعى اليه وتطارده بلا نهـاية . ولكننا قد رأينا أيضاً أنها « لا ترضى » بأن تزعم نفسها راضية : انها لتريد أن تكون راضية ، وهي تجاهد في سبيل ذلك ، وهي على إستعداد لأن تدفع الثمن أياً كان . ان « رسالتها » ليست سلبية ، والصورة التي تتصورها لنفسها ، في هذا الصدد ، لن تحديها في أن تترك نفسها تطفو على سطح الماء ، في أن تمتثل لظروفها : بل هي ستجعل من هذه الصورة ، على العكس ، الخطة الموجهة في العمل ، في البناء الحقيقي ، وعليها في هذا السبيل أن تلتزم لا بمجرد الفضائل الشكلية أو أوجه الجدارة السلبية ، بل عليها أن تلتزم باصرار نشيط كل النشاط ، بعمل فعلي . بسلسلة لا نهاية لها مـن

العمليات المحددة، تنصبّ على نفسها أو على العالم، استهدافاً لتحويل وتغيير موقفها الحقيقي. ومنذ فترة مبكرة جداً، عند هذه الفتاة المراهقة، نجد أن عامل «العناد»، وهو احد مقومات «العقلية» البورجوازية الصغيرة، يتغلب على عامل «المثالية»: ان الأسطورة تدعو الى تحقيقها، والرجوع إلى المطلق يقتضي موقفاً عملياً لا تكاد تشوب صرامته شائبة.

وقد رأينا انه ليس من قبيل الغلو أن نتحدث فيما يتعلق بهذه الحالة عن «صوفية السعادة» ولكن فلنسلم مع ذلك أن هذه الصوفية لا تأتي على الاطلاق في صورة تأملية. فاذا كان لهذه الروح ايمانها، واذا كان خلاصها يهمها أكثر مما يهمها أي شيء في العالم، فانما تعتمد على أعمالها حتى يتحقق لها الخلاص في العالم. هذا الهوى المشبوب بالسعادة هوى خلاق مبدع: وليس بالاستسلام السهل لسعادات المغامرة بجزرها ومدها، ولكنه العزم الشرس العنيد أن تجعل نفسها سعيدة سعادة مطلقة، ان تنسج حياتها من نسيج السعادة، وأن تشبع به كل شيء حولها. وأنا أجد على بعد بضع صفحات من احداهما الأخرى، هاتين الملاحظتين المتوازيتين: «كنت أنظر إلى هذه المدينة العظيمة المجهولة التي ذهبت اليها، بلا نجدة، أنحت حياتي يوماً بعد يوم» – «كنت ابني سعادتي، بلا نجدة، يوماً بعد يوم»[1].

يجب أن نقدر هذه الجدية وهذه المثابرة، وهذه الصرامة، قدرها.

عندما كانت طفلة بعد، كانت تقول: «كنت أريد أن نلعب بجد» – «كنت بحاجة الى أن أقبل في اطارات تبرر صرامتها وجودي» – «كنت أعتقد أن الوقت والمال محسوبان حساباً دقيقاً – وليس ذلك في عائلتي فقط بل في كل مكان – بحيث ينبغي أن نتصرف بادق ما يمكن من الصرامة: وكانت هذه الفكرة تلائمني اذ أنني كنت أريد عالماً لا نزوة فيه» – «ظللت على يقين من أنه يجب استخدام كل الاشياء، ونفسي، استخداماً

---

١ – «قوة العمر» صفحات ٩٣ و ١٠٥ من الطبعة الفرنسية.

كاملاً » . وكانت أمها هي التي غرست فيها « الاحساس بالواجب ، وتعليمات نسيان الذات والصرامة » – « كان والداي يدينان البطالة . وكنت أراها جديرة باللوم بقدر ماكنت أضيق بها » – « ومنذ ذلك الحين كان واجبي يمتزج بمتعتي . ولذلك كان وجودي ، في تلك الفترة ، سعيداً غاية السعادة : لم يكن عليّ الا أن أتبع هواي ، وكان الناس جميعاً سعداء بي » وفي فترة الاجازات (في ميرينياك) : « كانت أيامنا هناك اياماً صارمة ... ولكني لم اكن بحاجة الى التسلية »[1] كانت « طفلة عاقلة » و « تلميذة مجدة » و « صبية صغيرة نموذجية » ، ان تلك الفتاة المستقيمة كانت منذ ذلك الحين « صبية صغيرة مستقيمة »[2] .

ولكن الموقف يميل الى التغيّر ، من هذه الى تلك ، والجدية تتخذ مظهراً آخر ، كما لو كان الانتقال عبر المراهقة قد اكسبها نوعاً من التوتر البالغ . كما لو كان الأمر لا يتعلق بعد باشباع الميول ، بالاستسلام للحوافز والنزعات . وانما هو أمر المكابدة حقاً هذه المرة على طرقٍ تزداد وعورة . « لم أكن أحب قط أن أضيّع وقتي ... ومنذ ذلك الحين أخذت استغل كل لحظة استغلالاً دقيقاً » – « لم أكن قادرة على الامتثال والتسليم ، واذ اخذت ادفع بالصرامة التي كانت من نصيبي حتى درجة التشنّج ، فقد جعلت منها رسالة ونذراً ، وقد فُطمت عن المتع فاخترت الزهد ... كنت قد دخلت ، دون إنتظار بعد ، الى طريق البطولة »[3] وتحولت التلميذة المجدة الى « شغالة مسعورة بالشغل ، وكان ذلك يسرّها بالتأكيد ، فتلك سعادتها ، ولكن على أن يكون ذلك دائماً بشرط أن تعطيه نفسها بلا تحفظ ، بشكل مطلق : « كنت قد وضعت بنفسي هذا البرنامج ، وكانت صعوبته تسليني ، ولكن

---

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » صفحات ٣٠ و ٦٣ – ٦٤ و ٦٧ و ٦٨ و ٤٣ و ٦٨ و ٧٨ – ٨٠ من الطبعة الفرنسية .

٢ – نفس المرجع صفحات ٣٠ و ٣٤ و ١١٨ و ١٢٠ و ٣٢ و ٦٣ .. الخ .

٣ – نفس المرجع صفحات ١٨١ و ١٨٢ .

مثل هذا الجهد حتى يفرض نفسه عليّ باعتباره متعة للقلب ، كان ينبغي الاّ تكون الدراسة مجرد جانب ثانوي في حياتي ، بل ان تكون حياتي نفسها »[1] . فهل كانت تقبل على ذلك الجهد بكل تلك الطواعية ورضا القلب ؟ هذا النوع من السعار الذي يستأثر بها (« كنت أواصل العمل مُطلقة الجماح » — « كنت أواصل العمل دون توقف » كنت « اعمل أكثر مما يجب »[2]) والذي لم يكن الا سعيها المفيد والمثابر وراء السعادة ، هو في الواقع ردّ ، هجوم مضادّ ، طريقة للدفاع عن نفسها أمام ظروف جديدة تميل إلى السلبية . ذلك أن المشهد قد تغيّر منذ سنوات الطفولة تلك التي كانت سيمون الصغيرة تحس فيها نفسها منسجمة أكمل انسجام مع العالم المحيط بها ، ولعل الفتاة الصغيرة أيضاً قد صارت لا تطيق ، الى حد ما ، تلك الظروف التي كانت الطفلة تتلاءم معها على نحو طبيعي تقريباً : «كانت حياتي تبدو لي خاوية وعقيمة الى حد يدعو لليأس » — « الملل المجدب القفر الذي كنت أغوص فيه »[3] .

ذلك اذن ما سوف يصير اليه التفاؤل البوفواري : هذا النوع من البناء العنيد الذي لا ينال منه الوهن ، الذي يوشك أن يكون جنونياً ، للسعادة . هذا الاصرار العنيف على تحقيقها مهما كان الثمن ، وفي أقل الظروف مواتاة . أو هذا على أي حال ما يبدو أنه المظهر الذي استرعى نظر زميلها في الكلية عندما أطلق عليها هذا اللقب الذي لصق بها : « القندس »، فقد قال لها : « أنت قندس .. وللقنادس روح البنّائين »[4] .

---

١ – نفس المرجع ص ١٧٨ .

٢ – نفس المرجع صفحات ٢٩٧ و ٢٩٤ و ٣٠٥ .

٣ – نفس المرجع ص ٢١٩ .

٤ – Castor . انظر « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٣٢٣ من الطبعة الفرنسية . وللقب تبرير أكثر في عين صاحبه (وهو هيربو صديق سارتر ونيزان) اذ أن « قندس » باللغة الانجليزية هي beaver وفيها جناس واضح من Beauvoir . (المؤلف) ولعل في اللقب ايضاً إيحاء من Castor القسطور وهي أحد الديوسكورين Dioscuri ابني زيوس في الأساطير اليونانية القديمة ، مع أخيه الذي يتناوب مع الحياة والموت يوماً بعد يوم بولوكس Pollux .

واعترف أن هناك لحظات يبدو لي فيها هذا العناد الذي لا يصدق مما يوحي بطريقة « الدكتور كويه » الشهيرة: انني سعيدة ، انني سعيدة ، انني سعيدة يا إلهي سوف أصير بالفعل سعيدة في النهاية — وهي طريقة من الواضح انها مستوحاة من العبارة التي لا تقاوم التي كان يهيب بنا باسكال بمقتضاها : « اركعوا على الركبتين ، وصلّوا ... » ولكن من المسلم به أنّ حالة كاتبتنا تختلف عن ذلك اختلافاً عميقاً : فقد رأينا أنها لا تكتفي باستظهار يقينها وانما تجهد في تنفيذه بالعمل دون هدنة ودون هوادة ، وتجاهد خطوة فخطوة حتى تنتصر قضيتها . وفي هذا الصراع الفريد الذي يبدو أنها تخوضه من اجل الحياة ، ضد الحياة ، أتردد في أن أقرر ما سلاحها المفضل : أهو السيف أم المحراث . أهي بطولة الكفاح حتى الموت ، أم شجاعة العمل اليومي ؟ انني أتصورها ، عن طواعية ، موثقة اللجام بالعالم تحرث حيانها ، أو أتصورها حاطبة متفائلة ، تنقضّ بضرباتها القوية المكتومة الصدى على شجرة الواقع الهائلة . ولكنني سرعان ما اتخذ حذري ، ذلك شبح لاجارديير الفخور الذي يحل ، تحت عينيّ ، محل هذه العاملة الاستخانوفية التي تصنع لنفسها بهجة الحياة ، هذه الشغالة للسعادة ، الخارقة : فاذا لم تأت السعادة الى سيمون ، فان سيمون تذهب الى السعادة ... «كان سارتر يقول لي كثيراً : انت مصابة بفصام الشخصية : بدلاً من ان اوائم بين مشروعاتي وبين الحقيقة ، كنت اتابع هذه المشروعات في اتجاه كل شيء ، وضد كل شيء ، واعتبر الواقع مجرد أداة ثانوية ... كان هذا الفصام في الشخصية يبدو لي شكلاً متطرفاً ومنحرفاً من أشكال تفاؤلي ، كنت أرفض ، كما كنت في العشرين من عمري ، أن تكون للحياة ارادة أخرى غير إرادتي . »[١]

اننا نرى الأمر هنا : انها كل مسألة علاقتها بالواقع التي نجدها موضع النظر ، في هذا النوع من هذيان التفاؤل الذي سرعان ما انفتح عليه تذوقها

---

١ – « قوة العمر » ص ٩٧ من الطبعة الفرنسية .

الأولى للسعادة. ذلك هو الاتجاه الذي سوف ينبغي أن نتخذه منذ الآن، اذا أردنا أن تتاح لنا فرصة ما لفهم هذه المرأة، وأعمالها، وجمهورها الغفير.

وينبغي مع ذلك، حتّى نتجنب اتخاذ طريق مضلل، ألاّ ندفع بهذا الكاريكاتير – مهما بلغ من قوة ضمانة روح الفكاهة السارترية في أعيننا – حتّى نسقط على كاتبتنا تلك الصورة السخيفة: صورة المتفائلة التعسة. وما دامت هي نفسها التي تفسد علينا مجرد امكانية نقدها، فعلينا على الأقل أن نعرف من بين كل عناصر الإعلام التي تمدنا بها ما العناصر التي تشهد بزيف محاولاتنا النقدية. ان هناك نصوصاً لا عداد لها يمكن ان نوردها في هذا الصدد، ولكن من أكثر هذه النصوص دلالة – لأنها تقوم فيه بنفسها بتحليل لا يعرف الهوادة لهذا «العناد» – هو بلا شك في الصفحات التي تخصصها لأول اتصال لها بمارسيليا[1]. كانت تتكلم عن العناء الذي كبدته نفسها في تلك المناسبة حتّى تبقى على تذوقها للحياة، وهي تحرص هنا على تأكيد أنها نجحت في ذلك بالفعل، وأنه «ما من شعار مطلق» كان ليكفي أن يفرض عليها مثل تلك الجهود الدائبة، اذا لم تكن تحس مباشرة بالفائدة التي تعود عليها من موقفها: «ذكرت المتع التي كانت من حظي نتيجة لذلك». والواقع أن الأمر كان يتعلق هنا بألوان من المتع عارمة وقوية، وأنها تبدو جديرة بهذه المتع، بطريقتها في مواجهة الواقع.

عندما وصلت هذه المرأة التي تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً الى مارسيليا لتشغل فيها وظيفة مدرّسة، وعندما تقف بلا حراك «في أعلى الدرّج الكبير» في المحطة كأنما لتقيس المدينة، وتدرسها، قبل أن تغوص فيها، فلا يستطيع المرء أن يقول إنها كانت سعيدة على نحو خاص: «كنت هناك، وحيدة صفر اليدين، منفصلة عن ماضيّ وعن كل ما كنت أحب،

١ – «قوة العمر» ص ٩٣ – ٩٩ من الطبعة الفرنسية.

وكنت أنظر الى المدينة الكبيرة المجهولة التي كنت أذهب اليها ، بلا نجدة ، أنحت فيها حياتي ، يوماً بعد يوم . حتى ذلك الحين ، كنت أعتمد على الغير اعتماداً وثيقاً ، فرضت عليّ اطارات وأهداف ، ثم أعطيت لي بعد ذلك سعادة عظيمة . اما هنا فلم أكن أوجد من أجل أحد ... » .

في هذه اللحظة من لحظات حياتها ، هذه اللحظة التي تعدّها من بين تلك التي تبرز من ماضيها « في سطوع الأحداث العظيمة » والتي يبدو أنها تشير الى « منعطف جديد كل الجدة » في تاريخها ، فان الامور تجري كما لو أنها بعد أن افادت مرتين (في طفولتها المدللة ، ثم بلقائها مع سارتر) من سعادة معطاة تماماً ــ كان ينبغي عليها الآن أن تدخل فترة مغايرة تماماً ، من حياتها ، حيث لا يمكن أن تكون السعادة الا ثمرة غالية الثمن لجهودها نفسها . ونحن نعرف بالطبع أن ذلك تخطيط فيه الكثير من الخشونة ، لم يكن ممكناً الا نتيجةً لابتعاد عن الماضي : لقد رأيناها منذ المراهقة بالفعل تناضل شهوةً للسعادة تزداد حدة بقدر ما تصير الظروف أقلّ مواتاة . ولكنّ ما يعدّل الموقف تعديلاً جذرياً ، عند وصولها الى مارسيليا ، هو أن مثل هذا النضال الذي خفّت حدته نسبياً خلال عامين من وجود سارتر معها ، سوف تعود اليه الحدة في غيابه ، وان عليها هذه المرة أن تخوض النضال وحدها ، وهي تعرف انها مسئولة مسئولية تامة ومحددة عن حياتها « في مكان ما ، تحت أحد هذه السقوف ، سوف يكون عليّ أن ألقي الدروس طوال أربع عشرة ساعة كل أسبوع : وليس هناك شيء آخر قد أعدّ لي ، ولا حتى السرير الذي كنت سأنام فيه ، اما مشغولياتي ، وعاداتي ، ومتعي ، فقد كان عليّ أن أخترعها » .

ذلك هو نوع الوحي الذي يستأثر بتلميذتنا المجدة ، بشغّالتنا الرهيبة ، في أعلى دَرَجها الكبير . انها في نظرة واحدة تقدّر أبعاد كل ما هو منتظر منها لكي تستمر في أن تنهض برسالتها الثابتة ، في ظروف جديدة . وكأنه رهان تغامر به مع نفسها ، أن تنتصر على هذه المدينة ، الاّ تعرف فيها

أبعاد ألمها ، حتى تنال فيها متعتها ، يوماً بعد يوم . « أخذت أهبط الدرج ، كنت أتوقف عند كل درجة من درجات السلّم » تهزّني تلك الاشجار ، تلك البيوت ، تلك الصخور ، تلك الأرصفة في الشوارع التي سوف تتكشف لي ، شيئاً فشيئاً ، وسوف تكشف لي عن ذاتي » . انها تكتب « شيئاً فشيئاً » وهي تفكر في العمل الذي لا ينال منه وهن والذي يتطلبه ، في نهاية الأمر ، هذا الكشف المزدوج والدائم . ولكن ينبغي أن نسلّم بأن القرارات الحقيقية ، تلك القرارات التي تكمن في جذور متطلبات من العمق بحيث يمكن لها أن تقسم ، سلفاً ، انها لن تتخلى قطّ عما اعتزمت تحقيقه ، هذه القرارات الحقيقية تتضمن في طياتها ، وعلى الفور ، نوعاً من الفعالية . لقد ذكرت الوحي لكي أصف وأحدد هذا الوعي بمهمة حقيقية ينبغي اداؤها : وها هي ذي على الفور تبدأ في اداء المهمة ، هذه الناحية للحياة ، تبحث عن غرفة ، وتجدها (ليست جميلة ، ليست من النوع الذي يهواه قلبها أبداً ، ولكن مائدة العمل كافية الاتساع ، والايجار معقول) ، وتعود لتأتي بحقيبتها ، وتضعها في الممر ، وتجري لتقابل مديرة الليسيه ، وتحدد معها برنامج عملها ، ولا تتركها الا لكي تلقي بنفسها ، أخيراً ، في نَفَس واحد ، منطلقة تكتشف مارسيليا . وعندئذ فان السماء ، على الأقل هذه المرة ، تبدو كأنما ارادت أن تعوض نقاد الصبر الأرضيّ : وبعد خطفة البرق من الشجاعة المستثيرة ، تأتي على الأثر خطفة برق من البهجة ، البشير الذي يهز القلب بمتع ومسرات لاعداد لها سوف تذوق طعمها هذه المؤمنة بالمتع والمسرات ، بطبعها المدقق الصارم ، يوماً بعد يوم ، في دأب ومثابرة . « أحببتها من نظرة واحدة ، كمن أصابته ضربة الصاعقة » .

ولن نحاول أن ننكر : هنا أيضاً « مر بالذهن » خاطر ليس فيه من الأمانة شيء ، مهما كان خفياً . وانـي لأخشى ، اننا مع هذه المرأة ، معرضون الى حد يقل أو يزيد ، لاقتراف هذا الخطأ ، بالتأكيد ، أن نستولي على الأسلحة التي تمدنا هي بها ، لكي نغلبها ـ ثم نكتشف على الأثر ،

بعد قليل من الوقت، أنها، من جانبها ولحسابها، قد مضت بالتحليل الى أبعد مما وصلنا قليلاً، وان هذا التحليل يرن في الأذن أصدق وقعاً، وان سخريتنا من ثم تبدو عزلاء من كل سلاح. ذلك أنكم بلاشك قد رأيتم، كما رأيت، لحظة من الزمن، في تلك المسافرة الشابة بلامتاع، واقفة بلا حراب عند مخرج المحطة، تتأمل مارسيليا، رأيتم فيها «راستينياك» العارم العنف — وقد اتخذ صورة امرأة — والرأس يدور بأصداء المدينة العظيمة المنبسطة تحت قدميه، بكل هذا الطنين الانساني الهائل، بكل هذه الحياة التي تنتظر ان تؤخذ غِلاباً. وهو ليهتف لنفسه، بطريقته الخاصة: «والآن، ها نحن الاثنان وحدنا، أيْ مارسيليا!» ولكن الطموح عاطفة شيقة، تضطر كثيراً الى الاستخفاء بنفسها، الى الخديعة، الى التآلف في خبث، مع العقبات، ولا يبدو أنها قادرة على الحياة الا وهي تصرّ على أسنانها، يتقبض وجهها، وتحتل روحها حسابات وتقديرات غثة: وهو ما يختلف كل الاختلاف، اذا لم اكن مخطئاً، عن ذلك الحب من أول نظرة، ضربة الصاعقة تلك التي تتكلم عنها كاتبتنا. «ان العاطفة العارمة التي كانت قد نهشت قلبي عندئذ ظلت ترفعني خلال أكثر من عشرين عاماً، ولم يمحها الا تقدم العمر وحده، هذه العاطفة هي التي انقذت لي تلك السنة من الملل، من ألوان الأسف، من كل كآبة وضيق، وأحالت منفاي الى عيد».

والواقع أنها بالفعل عاطفة عارمة — وأنها قد ظهرت على الفور — في هذا المثال المحدّد — عاطفةٌ ملتهمة، نهمة، كآبة شهوة أخرى مشبوبة الأوار. بل أضيف أنها عاطفة عارمة «شمولية» كآية من العواطف العارمة الأخرى. ذلك أنه اذا كانت مارسيليا، والبروفانس قد شاركتا في هذه العاطفة، فان مئة مغامرة أخرى عاشتها صاحبتنا العنيدة الباحثة عن المتع والمسرّات، تدعونا الى الاعتقاد أنها كانت، في هذا المنعطف من وجودها، لتنتصر أيضاً لو أنها كانت في ليموج أو سان نازير أو رومورانتان. ان هذه

المدينة التي ألقاها اليها القدر، هي عندها العالم كله، هي الرمز عن الواقع الكلّي، والبديل المؤقت[1] عن الطرف الوحيد الذي يحق له أن يدخل معها في حوار، الشريك الوحيد والخصم الوحيد معاً، هذا الواقع الكلّي، الذي يمكن لها أن تقبله في سعيها الذي لا يكفّ عن السعادة.

وهي تقول لنا إنّ هذه العاطفة «ليس فيها شيء أصيل مبتكر»، فلنفهم مع ذلك أن نزوعها الهم الى الاستكشاف، في مارسيليا، وإماطة اللثام عن واقع العالم نفسه، بكل مجده، لن يكون فيه مدعاة لدهشة أهل المدينة، اذا نظر اليه من الخارج: «كانت الرحلات هي الرياضة المفضلة عند أهل مارسيليا، ويتفق في نفس الوقت أن زملاءها كانوا يمارسون هذه الرياضة في جماعات، على سبيل الترفيه عن النفس، ولكن الحال مع سيمون دوبوفوار لم يكن فيه ما يشبه الترفيه الذي كان يمارسه هؤلاء الهواة، في هدوء، اذ يتنزهون كل يوم أحد. «كان تفردي أنني لم أنضم الى أية جماعة وأنني جعلت من ترجية الوقت واجباً من أشق الواجبات صرامة وتطلباً». هذا اذن هو احد الوجوه الأولى المحددة، الموضوعية، التي لا يتنابها وهن من عكوفها العنيد على السعادة: إنها محترفة الكشف، وإماطة الحواجز والأقنعة. لست أوحي بأية اشارة الى ما يمت بخفاء الذوق ونبوّه، ولكن هذه العبارة — التي أهدف بها الى توضيح الطريقة التي تتقصى بها سيمون دو بوفوار الأشياء وتحاول أن تتملك بها العالم — قد توحي بفن «الستربتيز»، ولما كان قد أخذ عليها من ناحية أخرى أنها تبسط تحت أنظارنا حياتها، فانني أود أن أشير على الفور الى اعتزامنا أن نثير مسألة مغزى العمل الأدبي الذي يتكون عندها، في أن «يتجرّد من أوراقه»، صفحة بعد صفحة.

اما فيما يتعلق بالقضية الأولى في هذه العبارة، قضية الاحتراف، وهي

---

[1] – المشابه l'analogon كما كان ليقول سارتر.

الوحيدة التي تهمني الآن . فانها لا تبدو مغالى فيها اذا أخذنا بمعناها الأصيل . فكلمة «الاحتراف» Profession تعني الاعلان عن الايمان أو الموقف أو الحال . كما تعني أيضاً الصنعة والمهنة ، أي الخدمة : «من حيثما نظرت ، من كل وهدة بين المرتفعات ، كنت أجد كشفاً جديداً ، وكان جمال المشاهد الطبيعية دائماً يتجاوز ذكرياتي ويفوق كل ما أنتظر منها . كنت أعود فأحس برسالة عنيدة في أن انتزع الأشياء من ليلها . واذا كانت هذه الفقرة تبدو لي رئيسية ، فذلك اننا نرى فيها ان رسالة السعادة تكتسب مضموناً أكثر وأدق ، وتستهدف هذا المضمون بتوفيق ونجاح ، بقدر ما يتولد عن متابعتها والسعي وراءها من متعات مجسمة محددة . وينبغي الآن أن نفحص مظهر هذه «الرسالة» الخاصة وأن نتعمق معناها .

ونحن نعرف الآن أن سيمون دوبوفوار كانت تعيش في حال تتخذ شكل «جنون» حقيقي ، يوماً بعد يوم ، وهي لا تخفي أنها تحس شيئاً من «الذهول» عندما تدرك مدى اصرارها و «استماتتها» في السعي وراء تحقيق هذه الرسالة . ومن ثم فهي تحاول أن ترجع الى أصل ما اطلقنا عليه اسم «العناد» عندها : «ان الارادة التي كانت تتأكد في نزهاتي الجنونية المتعصبية كانت لها عندي جذور قديمة جداً . ففيما مضى ، في ليموزان ، على طول الطرق الغائرة ، كنت أزعم لنفسي أنني سوف أذرع فرنسا ، وربما العالم ، طولاً وعرضاً ، دون ان اترك فيها برية أو دغلة . . » وصحيح أنها تضيف الى ذلك على الفور : «لم اكن أصدّق ذلك حقاً ، وعندما كنت في فرنسا ، وزعمت أنني رأيت كل شيء ، فقد كنت أعطي هذه الكلمة معنى فضفاضاً للغاية» . وذلك يعني أن المسألة هنا هي نوع من التساوق العرضي الناجم عن الظروف بين ذلك المشروع الطفلي وبين صغر نطاق العمل الفعلي ، نسبياً ، هذا الصغر الناشيء عن قيود نشاطها في التعليم في منطقة البروفانس وحدها . ولكننا اذا عدنا ، بضع صفحات الى الوراء ، الى قصة رحلتها في اسبانيا ، وجدنا ، على سبيل المثال ، ما يلي : «كنت قد أخذت على

عاتقي أن أعرف كل شيء عن العالم، ولكن الوقت كان محسوباً عليَّ، ولم اكن أنوي أن أضيّع لحظة واحدة» – أو ما يلي: «كنت أجهل أنصاف الحلول، ففي المناطق التي لم نكن قد وضعنا بالنسبة لها قاعدة تقضي برفضها والحكم بعدمها، في هذه المناطق لم أكن اعترف بأولوية أو أفضلية ما. كنت أنتظر كل شيء، من أي شيء: كيف يمكن أن نقبل ألا يغيب عنا شيء؟» أو ما يلي: «كنا ننوي العودة الى اسبانيا، ولكن الصبر لم يكن من سجاياي: لم أكن اعتزم أن أؤجل – ولو عاماً واحداً – الكشف الذي قد تأتيني به هذه اللوحة في هيكل كنيسة، أو تلك الواجهة على بابها...». وهنا، أيضاً، نجد أن نجاحاً حقيقياً يتوج المشروع: «والواقع أن المتع التي استخلصتها كانت بقدر النهم الذي حفزني اليها: ففي كل لقاء مع الواقع كان يفجأني ويدهشني. بل كان أحياناً ينتزعني من نفسي...»[1]

فالأمر اذن، كما توحي كل الدلائل، يتعلق بموقف أساسيّ لا يعتمد اطلاقاً على امكانيات الانتقال والسفر: ليست النية منعقدة على رؤية كل شيء في العالم كله، بل على رؤية كل شيء حيثما يجد المرء نفسه، على تكشف كل الواقع حيثما كان هذا الواقع. وسوف نرى التعبير عن هذا الموقف، مرة بعد مرة، بنغمتين مختلفتين: ولكنه في كلتا الحالتين طلب لنوع من الشمول، وعكوف على استنفاد الواقع الى أبعد حد يمكن الوصول اليه، فاذا كان المنهج لا يتغير اطلاقاً، واذا كانت الطاقة والجهود التي توضع في خدمة لا يعتريها نقص ولا يتحيّف منها شيء، فان النغمة تتغير على نحو محسوس، ويبدو أن الهدف نفسه يتخذ لنفسه مواضع متغيرة. وبعبارة أدق، نجد أن هدفاً محدوداً، نسبياً، يأتي فينضاف الى تلك الغاية المطلقة التي كانت تعبر عن نفسها، تلقائياً، على شكل رسالة، ومهمة واجبة الاداء، ووكالة وتفويض. ونجد أن ذلك النهم الذي كان يتسم به ذلك

١ – «قوة العمر» ص ٩٢ من الطبعة الفرنسية.

الموقف يميل الى تغيير اتجاهه ، أو أن يغدو ، على الأقل ، غامضاً مبهماً ، ان يكتسب معنى مزدوجاً : فالمشروع المباشر نحو اسعاد النفس بامتلاك العالم تغشاه غاشية خفية دقيقة من جراء الاهتمام بسدّ كل الثغرات ، بالحيلولة ، بأي ثمن ، دون اقتحام يدخل به انعدام السعادة على الحياة ويُعْتِمها بالشقاء . وتكفي بضع أمثلة لتصوير الشقة بين هاتين النغمتين .

ولنضرب مثلاً ، أولاً ، بهذه الرسالة اذ تتخذ اكثر صورها تلقائية وعفوية . في الخامسة او السادسة من عمرها : « كانت وفرة الألوان والروائح وتشابكها تثير عندي النشوة . في كل مكان ، في مياه المصايد الخضراء ، في ربوات البراري ، وتحت نباتات الخشار في الغابات ، كانت تختفي كنوز أحترق شوقاً لاكتشافها »[1] وبعد ذلك بسنة او سنتين : « عندما كنت أنام ، كان العالم يختفي ، فقد كان بحاجة اليّ حتى يُرى ، ويُعرف ، ويُفهم ، كنت أحس نفسي مكلفة برسالة أؤديها بفخار واعتزاز .. »[2] أو « كان من اول الوان السعادة التي عرفتها ، أن أفاجيء ، في استهلال الصباح ، يقظة البراري .. كنت الوحيدة التي احمل جمال العالم ، وأحمل مجد الله .. »[3] ، أو بعد ذلك (وهي في نحو الثالثة عشرة من العمر) : « .. اتخذ حبي للريف ألواناً صوفية .. كنت أحس حواليّ حضور الله .. وكان يبدو لي انه كان بحاجة اليّ ، على نحو ما ، حتى تكتسي الأشجار بألوانها ... والرسالة التي أحسست دائماً بغموض أنني مكلفة بها ، كان هو الذي أعطانيها ... فاذا حرمت الخليقة من حضوري ، انزلقت الى نوم غامض مظلم ، واذ كنت أوقظها فانما كنت اوّدي أقدس

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢٨ من الطبعة الفرنسية .
٢ – نفس المرجع ص ٧٠ .
٣ – نفس المرجع ص ٨٠ .

واجباتي ... كان ينظر اليّ ، برضى ، وأنا أنظر الى هذا العالم الذي خلقه حتى أراه . »[1]

ولكن هذه الثقة الهادئة تتغير الآن ، على النحو الذي سوف نبيّنه . واذا كانت القدرة على العجب والانبهار تبقى كاملة ، منذ الرحلة الى اسبانيا التي أشرنا اليها ، فان نوعاً من التوتر يظهر . (« لم اكن أنوي أن أضيّع لحظة واحدة ») وكأنما ذلك يظهر بالتساوق ، تقريباً ، مع اختفاء الله : « لم أعد أتصور كما كان الحال في ليموزان أن الأشياء بحاجة الى حضوري .. » .[2] ولكن ما أن تمر بضعة أيام برحالتنا في البروفانس حتى يستحيل هذا التوتر الى الجنون ، الى النشاط الاستكشافيّ المحموم ، ويتخذ مظهراً منهجياً يعتمد على العزم والتصميم . ويبتعد عن حوافزه الأولية (الواجب المقدس) حتى يتدهور الى نوع من التكتيك المولّه المتحجر في خدمة إلحاح متعجل مرهوب الجانب : « اذا تخليت ، عن نزوة ما أو بلامبالاة ، عن نزهة أو رحلة ، واذا قلت لنفسي مرة واحدة : « ما الفائدة ؟ » فانني كنت لأقوّض كل النظام الذي كان يرفع المتعة والمسرة عندي الى مستوى الالتزامات المقدسة . » وبعبارة أخرى ، لم يعد مشروع كشف العالم تفويضاً مطلقاً ، ولم يعد من الممكن تبريره الا بالاصرار على متابعته لا يفقد ، بل بحدة الجهد المبذول في أدائه واستمرارها على نحو صارم لا يعرف حولاً ولا زيفاً . كان الكشف والسعادة معطيين معاً ، في دعوة واحدة وإلهية : فهاهما الآن يعتمدان على عمل لا يبرره ولا يكفله أي مرجع علويّ . فهذه الآن نسبية مؤلّهة في أسطورتها الأولية — وهي متعاصرة الى حد يقل أو يكثر بلاشك مع أول بوادر وعيها باستقلالها الذاتي ومسئولياتها العملية . وتختار سيمون دو بوفوار في الواقع أن تردّ على هذه النسبية بتدعيم النظام الذاتي الذي تفرضه على نفسها ، ورفعه الى

١ — « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٢٦ — ١٢٧ من الطبعة الفرنسية .
٢ — « قوة العمر » ص ٩٢ من الطبعة الفرنسية .

مستويات عالية، وبتوطيد هذه الجدية التي كانت تتضح من قبل في موقفها بازاء السعادة على نحو يوشك أن يكون طبيعياً. ولنستمع اليها الآن تقول لنا على وجه الدقة أن مارسيليا لم تكن في الحقيقة أولى تجاربها في هذا الشأن، ولا آخرها بالطبع: «كنت غالباً ما ألوذ بهذه الحيلة، في الحياة، أن أضفي على نشاطي ضرورة ينتهي الأمر بي أن أصير فريستها أو ضحية خديعتها: ومن ثم فعندما كنت في الثامنة عشرة انقذت نفسي من الملل والضيق، بالجنون والسعار..»[١]

ان هذا الموقف، على الصورة التي تصفه بها الكاتبة الآن، يتخذ في الواقع معنى أميل الى السلبية منه الى الايجابية، معنى الردّ والمقارعة، معنى التظاهر الموكيّ، مجرد رد الفعل الدفاعيّ، ولكن من السهل أن نرى أن مظهره يغدو أكثر ابهاماً والتباساً: فإما أن الكاتبة تمدنا بتحليل عنه أشمل وأميل الى الكمال، وإما أنه قد أتيح لها أن تتقدم حقاً باطراد، على طول السنين، نحو نوعٍ من التركيب والتوفيق الديالكتيكي بين الطلب المطلق للسعادة وبين نفاد الصبر المحتق المحموم المتولد عن عدم الاشباع — بين السعادة منصورةً على سبيل الهبة والعطية، وبين «مجرى الأشياء» الذي يبدو لحظة كأنه عقبة في سبيل السعادة. والفرض الثاني يبدو لي هو الأرجح، وان كان ذلك قليل الأهمية في الواقع اذ أن الفرضين كليهما سرعان ما ينتهيان الى نفس الموقف العملي الذي نرى له وصفاً متميزاً، من بين عدة نصوص، في تفصيل تلك الجولة التي قامت بها سيمون دو بوفوار سيراً على الأقدام، خلال اسابيع ثلاثة، في وسط فرنسا، وهي في نحو الثامنة والعشرين من العمر: «كنت قد غصصت حتى الاكتظاظ بالكلوروفيل والزرقة اللازوردية، وكان يعنيني أن اتوقف في المدن أو القرى، أمام الاحجار التي كان الرجال قد صفّوها. لم تكن تثقلني

---

١ — نفس المرجع ص ٩٧. كنا قد أشرنا فيما سبق الى بعض ملاحظات الكاتبة عن هذه الفترة من حياتها (انظر «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٨١ — ٨٢).

الوحشة قط . وكنت في دهشة لا ينتابها الوهن من الأشياء ومن حضوري ؛ وفي اثناء ذلك فان صرامة الخطط التي وضعتها لنفسي كانت تحوّل هذه العرضية العابرة الى ضرورة لازمة » . واذن فها نحن بازاء نفس العملية ، ولكننا سوف نرى أنها تنبع من حوافز أعمق مما سبق ، وأكثر ايجابية على أي حال ، وأقل جنوناً وسعاراً : « ولا شك ان ذلك كان هو المعنى — بلا صياغة محددة — من وراء غبطتي : كانت حريتي الظافرة تفلت من قبضة النزوة ، وتنتصر على العقبات ، اذ ان مقاومة العالم بدلاً من أن تبلوني وتضعني في محنة ، كانت في الواقع تستحيل الى سند ومادة خام لمشروعاتي . وكنت ، بتشردي العنيد الذي لا يبالي بشيء ، أضفي حقيقةً على هذياني المتفائل العظيم ، كنت أنا نفسي خالقة هذه الهدايا التي كانت تغرقني . »[1]

فلم يعد الأمر اذن صراعاً ضد الملل والضيق ، ولم يعد الأمر يتعلق بدحض اللامعنى (عبث الحياة المتهدِّد ، السؤال الشيطاني الصغير : « ما الفائدة ؟ ») بل الأمر يتعلق بتجاوز العرضيّ مع الاستناد عليه على نحو واعٍ للغاية مع ذلك ، ويتعلق بتبرير السعادة بخلقها وابداعها ، بتحويلها الى عمل ، أنها الحياة توجد وتدخل في الحساب حتى يفرض عليها معنى .

اننا نرى ذلك كله بالتأكيد ، ولكننا نرى ايضاً الفخ الجديد الذي يُنصب لها ، وما كادت فتاتنا المثالية الشرسة تفلت بعد من الفخ السابق . ان عنادها الذي لا يهاب شيئاً سوف ينصب لها أحابيل أخرى ، في الواقع ، وما من شك أن عليها أن تمر بتجارب كثيرة قبل أن تخلص حقاً من سخرية سارتر . فليس تأسيس « الغبطة » بهذه السهولة ، ولا يمكن تصوّر الحرية ، طويلاً ، « ظافرة » وسعادة الوجود لا يمكن ، الا نادراً ، أن يمتزج باحساس المرء أنه إله بازاء نفسه ... وسوف يكون علينا أن نقتفي أثرها في هذا الطريق الوعر ، حيث يرى كل منا ، في ظروفه الخاصة ، أن متطلباته الكلية

---

١ — « قوة العمر » ص ٢٢٦ .

(طلب المطلق نفسه الذي يحكم كل المتطلبات) تخضع باطراد للقيود التي تفرضها مواجهة نسبية ظروفنا ، و « تقبل الحلول الوسطى » مع العالم ، وان يتعرّض فيه للخطر ويتورّط إلى حد ما . وانما ينبغي علينا أولاً أن نثبت خطانا بأن نستعرض الحساب الختامي للمعطيات التي أوضحناها حتى الآن . فلعلنا نستطيع بذلك ، هنا وهناك ، أن نصل الى فهم لها أفضل وأعمق وأكثر جذرية .

لم تأتني هذه الكلمة الأخيرة من قبيل الصدفة : فعندما كتبتها لم أكن افكر كثيراً في الجذور الفرضية لهذه الاستعدادات الطبيعية الاولى التي حاولنا أن نصوّرها عند سيمون دوبوفوار ، بل كنت أفكر في هذا النوع من « الراديكالية » التي تتميز بها في الواقع — أياً كانت الأصول الطبيعية أو الاجتماعية التي يمكن للمرء أن يشرحها به . أما فيما يتعلق بي فلست أنوي طالما وسعني ذلك ، الا أن أهتم بالفهم : فالمواقف التي أسجلها لا تهمّني الا بصفتها تلك ، أي وفقاً للمعنى الذي اتخذته هذه المواقف عند سيمون دوبوفوار نفسها ، أو المعنى الذي تعتقد أنها تستطيع أن تعزوه اليها ، فيما بعد .[1] ولكن ما يسترعي اهتمامي قبل كل شيء ، في هذه المواقف ، هو ما فيها ، كل مرة ، من كليّ ، من جذري ، من تطرف ، أي صلتها العنيدة بالمطلق ، في نهاية الأمر .

وقد رأينا طلب السعادة يستقر ، من دخول في اللعبة ، الى مركز البنية بكل ما فيها من استعدادات أولية ، ثم يبقى في ذلك المركز بعد ذلك ، بينما

---

١ — ان هذه الامكانية الثانية بالتأكيد ، أمر رئيسي ، ولكنها تنتمي الى نمط آخر يختلف كل الاختلاف عن الامكانية الأولى : ذلك ان الحوار الذي تبدأه سيمون دو بوفوار ، والذي لابد أن نواجهه قريباً ، يقع كلية في زمنية الوجود الذي تضعه موضع الاعتبار . ولكن الحوار ، على العكس ، بين « الشرح » وبين « الفهم » سوف يطردنا ، للفور ، من هذا الوجود ويبعدنا عنه ، ويضطرنا الى أن نضع — على نحو مختلق — ذاتية ليست الا ذاتاً ، في مقابل ذاتية ليست الا موضوعاً .

كان لا بد له أن يتطور ، أن يتحول ، أن ينتقل من المرحلة « الراضية » الى مرحلة ظافرة ، عبر تقلبات من طراز دفاعيّ على الأكثر . وقد رأينا النعمة ، الامتياز ، الهبة ، تتغير الى عمل ، والسعادة تتحول الى سعيٍ وراء السعادة ، الى تفاؤل مسعور ؛ ولكننا لم نر هذه الطفلة . هذه المراهقة، هذه المرأة في شبابها، تبتعد لحظة واحدة عن يقينها العنيف الشرس اننا لسنا هنا لكي نتسلّى، وانه ينبغي حقاً أن نفعل شيئاً ، أن نؤدي واجباً ، أن نكفل خدمة ما ، وأنه لا يمكن أن نكون سعداء في نطاق السهولة . وقد اتيحت لنا الفرصة أن نسجل بعض ضروب الفشل في مثل هذه الصوفية التي سرعان ما يكف الله عن ان يكون جزءاً مكملاً لها . وها نحن الآن نجد وضعاً أكثر حسماً :

« فلنرسم الآن صورةً لي في قلب الخريف ، انّ ما دونته فيما سبق هو ما اطلقت عليه اسم الجديّة التي كنت أتميز بها : جدية صارمة ، متصلبة جامدة لا أفهم لها سبباً ولكني أخضع لها كما أخضع لضرورةٍ ساحقة[1] . كنت منذ طفولتي أبدو كلاً غير متجزىء . متطرفة لا أعرف التوسط ، وكنت بذلك فخوراً معتزة . كان الآخرون يقفون في منتصف الطريق ، في الايمان أو في الشك ، في رغباتهم ، في مشروعاتهم : كنت أحتقر هذا الفتور في الحرارة . كنت أمضي حتى نهاية عواطفي ، وافكاري ، ومشروعاتي . لم أكن أتناول شيئاً بخفة ، وكنت أريد ، كما كنت في طفولتي الغضة ، أن تكون حياتي كلها مبررة بضرورة ما . وكان هذا العناد يحرمني من مزايا معينة ، كنت أدرك ذلك ، ولكن لم يكن ثم ما يدعوني أن أتخلى عنه قط . جديّتي ، تلك كانت « أنا » بكليّتها ، وكنت أحرص حرصاً شديداً على هذه الأنا » .

ها نحن نقترب ، فيما أعتقد ، من الشيء الجوهريّ : وسوف نصل بلا عناء الى الحساب الختامي الذي كنا ننوي أن نضعه ، والى التعميق

---

١ – هي عندئذ طالبة ، في الثامنة عشرة من عمرها ، وتكتب مذكرات خاصة (الفقرة مؤكدة في الأصل) مذكرات فتاة مستقيمة ص ٢١٥ .

المساوق لمعطياته الرئيسية ، اذا اقتصرنا على صياغة هذه الفقرة التي كتبتها سيمون دوبوفوار بنفسها ، صياغة أخرى .

ولنأخذ من هذه الفقرة ، أولاً ، عبارة «الضرورة الساحقة» التي ينبغي أن تخضع لها دون أن تفهم لها سبباً . ان المرة الأولى التي تظهر فيها هذه العبارة كانت فيما يتعلق بطفولتها ، وهي في طور تعلّم الدين ، وهي تدين البطالة ، مقتدية بوالديها ، ويتضح أنها عاجزة عن أن تبقى بلا عمل : «كنت انتظر ، كنت موضع الانتظار . وكنت ألبّي ، دون توقف ، تطلّباً يوقّر عليّ التساؤل : « لماذا أنا هنا؟» وانا اذ كنت أجلس الى مكتب أبي ، اترجم نصاً من الانجليزية أو انسخ موضوعاً انشائياً ، انما كنت أشغل مكاني على الأرض ، وأفعل ما كان ينبغي فعله . وكانت ترسانة منافض السجائر ، والمحابر ، وسكاكين الورق ، والاقلام ، والريش ، متناثرة حول النشافة الوردية ، تشارك في تلك الضرورة : كانت تتغلغل في العالم بأسره . ومن مقعد دراستي كنت أسمع أنغام الأفلاك المتناسقة »[1] وهي ، في هذه الصفحات ، تقول لنا (كنا قد أشرنا من قبل إلى ذلك) انها كانت عندئذ «سعيدة للغاية» اذ لم يكن عليها الا أن تتبع ما عليه عليها هواها . إن واجبها كان ممتزجاً بمسرتها ومتعتها . ألم تكن يد الضرورة الحديدية الا قفازاً من حرير ، عند هذه الصغيرة التي يبدو أنها تستطيع ، بكل تلك السهولة ، أن تمزج العمل المدرسيّ بالغبطة السماوية ؟

نستطيع أن نلاحظ هنا أن هذه الفقرة نفسها تتضمن تناقضاً : فتلك غبطة غريبة في الواقع ، تلك التي يشغل المرء نفسه فيها بأنه ليس مضطراً الى التساؤل : «لماذا أنا هنا؟» وربما اعترض المرء بأن تفكير المرأة الناضجة هو الذي تدخل هنا على نحو خارجي ، على نحو تجريدي ، بالنسبة الى موقف الطفلة ، بالنسبة للوعي الحقيقي عند سيمون الصغيرة . الا أن

١ - «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٦٨ - ٦٩ .

بقية الوصف ، على أي حال ، يصبح من الوضوح والمباشرة والتحديد بحيث يتعذر معه قبول هذا التفسير : «لم أكن أطيق الملل والضيق ، كان يستحيل عندي على الفور الى مضض وقلق : ولذلك ، كما قلت ، كنت أمقت البطالة ... »

وهي اذ كانت صبية مراهقة تحلم بزوجها المستقبل ، تضع لنفسها فكرة دقيقة عن علاقاتهما : «سوف أحس باعجاب مشبوب به ؛ وفي هذا المجال ، كما كان الأمر في كل مجال آخر ، كنت ظامئةً الى الضرورة . يجب أن يفرض الشخص المختار نفسه عليّ ... بنوع من الوضوح البديهي ؛ والا فانني سوف اتساءل : لم هو بالذات ، وليس غيره؟ » وهي تقول بعد ذلك بقليل ، اذ تتناول الفلسفة ، أن ما يفتنها في هذه الدراسة أنها تبدو لها كانت كما لو تتجه «مباشرة الى الجوهريّ » : «كنت دائماً أتمنى أن أعرف كل شيء : وكانت الفلسفة تتيح لي أن أشبع هذه الرغبة ، ذلك أنها كانت تهدف الى كليّة الواقع ، وتستقر ، مباشرة ، في قلب هذا الواقع الكلي ، وتكشف لي عن نظام ، عن علّة ، عن ضرورة ، بدلاً من دوامة الاحداث الخادعة ، أو القوانين التجريبية »[1]. وهي إذ تقع في حبّ ابن عمها جاك ، تحسب حساب كل ما يفصل بينهما ، كل ما يحظر عليهامشروع حياة مشتركة معه : فمهما ألحت عليه أن يكتب أو يرسم أو يصوّر ، كان يكتفي أن يرد عليها «وما الفائدة ؟ » وهذا بالضبط هو السؤال التي تستخدم كل طاقتها لدحضه ، اذ تلقي بنفسها في سلسلة لا نهاية لها من الأعمال . ومن فقرات مذكراتها الخاصة في تلك الفترة : «ان الاستمتاع بالأشياء الجميلة يكفيه ، وهو يقبل الترف ، والحياة الرخيّة ، يحب السعادة . اما أنا فتلزمني حياةٌ نهمة ملتهمة .. »[2].

---

١ - «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٥٨ - ١٥٩ . كلمة «كل شيء» مؤكدة من الكاتبة .
٢ - نفس المرجع ص ٢١٦ .

« تلزمني ... » بعد عشر صفحات يتردد هذا الصدى في مذكراتها الخاصة ، ولكن بصيغة الشرط هذه المرة : « اما أنا فكنت لأريد تطلباً لا يدع لي وقتاً اشغل فيه نفسي بشيء ! » (وذلك بالطبع بالمعنى الذي يشير الى ما رأته من النساء حولها ، وخاصة أمها ، اذكن ّ « تتوالى عليهن أيام حية .. ويكتفين بأن يشغلن أنفسهن »)[1]. ان بين هاتين الصياغتين ، مهما كان من توازيهما الغريب ، هوة واسعة من « خيبة الأمل » و « فقدان الأوهام » الذي تصفه بأنه « قاس » ، هوة تدفعها الى أن تكتب : « كان جاك محقاً : ما الفائدة ؟ » وسوف يكون علينا أن نعود إلى ذلك فيما يلي ، بعد أن نقدر أننا قد نجحنا في الاطاحة بمفهوم هذه « الضرورة » المعقدة التي اتخذت ، تحت ابصارنا ، عدة وجوه ، مرة تلو المرة .

ولكنني ألاحظ نقطة مشتركة بين هذه الوجوه المختلفة : ان الضرورة هنا تتصور دائماً باعتبارها غريبة على الوعي ، تفرض نفسها عليه من الخارج ، تنقض عليه آتية من مكان ما آخر ، من حيث تتجاوز نفسها . فهي لا بد أن تكون « ساحقة » ، مسيطرة ، « نهمة ملتهمة » ، ولا بد أن تكون لها سلطة المطلق التي لا ترد ، على نسبية الحياة العرضية العابرة . أما وجه الاختلاف الحق ، في المظاهر التي رأيناها لها حتى الآن ، فهي أننا نراها أولاً ، معاشة بالفعل بصفتها تلك ، ثم يبدو ، بعد ذلك ، أنها تستدعى ، كما لو أن حضورها الحقيقي ، وقد تخلى عن مكانه باطراد ليحل محله تعريف مجرد لها ، يميل الى الغياب المستحوذ : لم تعد الضرورة كائنة بعد ، يجب أن تكون . هذه الضرورة من الدرجة الثانية هي تطلب أن يكون المرء ضرورياً ، أن يكون مبرراً ، أن يخلص ، هي تطلب التأكيد بأن يكون المرء موضوع تطلب ما (« كنت موضع الانتظار .. كنت أفعل ما ينبغي فعله ») .

وقد يتعرف المرء هنا على الوصف السارتري « لروح الجدية » وهو

---

١ - نفس المرجع ص ٢١٦ .

الموقف الذي يخفي فيه الانسان عن نفسه حرية بأن يتأتى له «أن يكون موضع انتظار من أعمال موضوعة في طريقه». ولا تتردد سيمون دوبوفوار كما رأينا منذ قليل، أن تتحدث بنفسها عن «جديتها» –كما تحدث إلينا سارتر عن جديّته، اذ أوضح أنه كان يظن نفسه، فترة طويلة، تحت تأثير جده «موكلاً» بانقاذ العالم (الانسان..) اذ يكرّس نفسه للأدب، اذ يدخل الأدب كما يقال عن مؤمن يُدخَل الكهنوت». أما سيمون دوبوفوار فنحن نعرف أن رسالتها الاصلية لم تكن أن تكتب بل أن تحيا، وهذا النص بلا شك هو التأبين الساطع لذلك: «اما انا، فقد كان مشروعي هو حياتي نفسها التي كنت اعتقد انني أمسك بها بين يديّ. وكان لا بد أن تلبي طلبين لم أكن أفرّق بينهما، في تفاؤلي: أن أكون سعيدة، وأن أهب نفسي العالم..»[1].

وفي المستوى الذي تقع فيه هذه الفكرة عن شبابها، نرى أن التطلّب قد جاء في مكان الصدارة على الضرورة على نحو حاسم، وعلى الوهم بأنها مطلوبة، بأنها ضرورية موضع انتظار، منشودة: وحلّت الارادة محل الوكالة المزعومة. ولكن هذا التحليل الذي يسهم في التصوير «الوجودي» لروح الجدية اذ يدخل في اعتباري، عن عمد، موضوع المسئولية[2]، لا يتأتى، بالقدر الذي يمكن لنا تصوّره، نتيجة للموقف المتباعد الذي قد تكون الكاتبة قد اتخذته سذاجة من اعتقاداتها الأولى: ذلك ان الموضوعين الرئيسيّين– موضوع الطاعة لوكالة إلزامية، وموضوع الإستقلال الذاتي للوعي– يوجدان ممتزجين فيه على نحو لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر فيه، في الواقع. ان هذا التضامّ بين الموضوعين يبدو لي رئيسياً، لأنه أصيل وجديد.

---

١ – «قوة العمر» ص ٣٦٨.

٢ – وقعت بالصدفة على فقرة من مخطوط لسارتر لا أذكر الآن موقعه من كتاباته، أورد فيها هذه العبارة التي تضع الجدية في موضعها الصحيح، بخشونة وفي غير رفق: «لست استطيع، بطبيعتي، ان آخذ على عاتقي شيئاً الا وكالة لم يفوضني بها أحد..»

وسوف أصوره هنا ببضع مقتطفات (اضافية تماماً فيما يتعلق بالموضوع الأول، وأكثر جدة فيما يتعلق بالموضوع الثاني، اذ أننا لم نتناول هذا الموضوع الأخير الا على نحو غير مباشر).

موضوع الوكالة:

في ميريبنيان: «كان كل شيء، وأنا، لنا مكاننا الحق، هنا، الآن، والى الأبد» — «هناك في الأعالي، كان هناك الله، وكان ينظر اليّ» — «كنت فريدة، وكنت مطلوبة»[1]. وفيما يتعلق بالمسيح: «كنت أحس نفسي ضرورية لمجده»[2]. وفيما يتعلق بجاريل وهو زعيم طوائف اجتماعية كانت تظن، فترة من الزمن، أنها قد وجدت فيه مرشداً وهادياً: «.. كان وجوده يجسم فكرة، اذ وُهب غاية، ومعنى، وكانت له في ذلك ضرورة رائعة... واتضحت لي بديهية جعلتني المجد مذهولة: كانت هناك أعمال لانهاية لها تنتظرني، كنت مطلوبة، بكليتي، فاذا سمحت لنفسي بأقل تفريط، كنت لأخون رسالتي وأضير الانسانية»[3]. وفيما يتعلق بسوزان بوانيّ، وقد التقت بها في اثناء المحاضرات التي كان يلقيها جاريل: «كانت تتمنى، مثلي، أن تجد مكانها الحقيقي في هذا العالم»[4] وفي نحو هذه الفترة، وبصفة عامة: «بمجرد أن كنت أحس نفسي مفيدة ذات جدوى أو محبوبة، كان الأفق يستضيء من جديد وكنت أروح أمنّي نفسي بالوعود: أن اكون محبوبة، ان اكون موضع الاعجاب، أن أكون ضرورية،

١ — «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٨٠ و ٨٢ و ١٢٦.
٢ — نفس المرجع ص ٧٤.
٣ — نفس المرجع ص ١٨١.
٤ — نفس المرجع ص ٢٣٣.

أن اكون على مكانة مرموقة »[1] وفيما يتعلق بسارتر التي كانت قد تعرفت اليه منذ قليل : « وجدت صلة قربى وثيقة بين موقفه وموقفي باستثناء بضع فروق طفيفة .. لم يكن ليزعم لنفسه قط – كما كان يحدث لي – أنه كان « شخصاً ذا مكانة مرموقة » أن له « قيمة » ، ولكنه كان – يرى أن هناك حقائق هامة .. قد تكشفت له ، وان من رسالته أن يفرضها على العالم »[2] . وأخيراً في مارسيليا ، اذ أن ذلك بالنسبة الينا ايضاً اشبه شيء بنقطة الانطلاق : « كنت مدعوة الى أن اخرج في الفجر ، شتاء وصيفاً على السواء ، ولا أعود الا في الليل »[3] .

موضوع الاستقلال الذاتي :

عندما كانت طفلة صغيرة بعد ، إذ تفكر في هذا الوعي الذي هو هي ، الوعي الذي يتيح لها أن ترى ، وأن تسمع ، وأن تتحدث الى نفسها ، تراه ، للفور ، ابدياً خالداً ، يضمه الله ، ولكنها تأبى على نفسها مع ذلك أن ترى فيه خَلْقاً إلهياً : « هذا الحضور فيّ الذي كان يؤكد لي أنني أنا ، لم يكن يعتمد على أحد ، ما من شيء ابداً يمسه ويصل اليه ، ومن المستحيل على أحد ، ولو كان الله ، أن يكون قد صنعه .. »[4] وفي نفس هذا العمر الغض الذي يرضى بالاعتماد على الغير عن طواعية : « ذلك معنى رسالتي :

---

١ – نفس المرجع ص ٢٢٩ والفقرة المؤكدة في النص مقتبسة من المذكرات الخاصة التي كانت تكتبها اذذاك .

٢ – نفس المرجع ص ٣٤٠ – ٣٤١ . هذه السطور جزء من تطور لفكرة سوف يكون علينا أن نرجع اليها ، اذ أن سيمون دو بوفوار هنا تمدنا هنا باشارات تبدو من ناحية اخرى قادرة على أن توضح حالتها هي ، بطريقة رقيقة للغاية ، وذلك على اساس جذور النقد السارتري لفكرتي الكينونة والضرورة .

٣ – « قوة العمر » ص ٩٥ .

٤ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٥١ .

عندما ابلغ النضوج سوف استعين لنفسي طفولتي وسأجعل منها رائعة لا تشوبها شائبة . كنت أحلم لنفسي بصياغة نفسي بشكل مطلق ، وبصياغة تآليهي لنفسي » .. كنت ، وما أزال دائماً ، سيدة نفسي » أو « السيادة التي كنت أعزوها لنفسي » – « لم اكن طفلة ، كنت أنا . »[1] وفي نحو الثالثة عشرة من عمرها : « اذا كنت تمنيت فيما مضى أن أصبح مدرّسة ، فذلك أنني كنت أحلم بأن أكون أنا قضيتي نفسها ، وغايتي نفسها : وكنت أفكر الآن أن الأدب كان ليتيح لي أن أحقق هذه الأمنية .. فإذ أكتب عملاً تغذوه حكايتي نفسها ، سأعيد خلق نفسي من جديد ، وسأبرّر وجودي »[2] والى ذلك ينبغي ان نضيف الفقرات الكثيرة التي تسجل فيها سيمون دو بوفوار نفورها العميق من انطلاقات الجسد ، ونزوات الحس .

وسوف نعود الى ذلك لنحاول أن نوضح موقفها بإزاء الجنس ، وانما يكفينا الآن أن نورد أي نصّ من هذه النصوص لاعطاء القارىء فكرة عن الابعاد التي يمكن أن يتخذها انشغالها بان نكون ، في هذا الصدد أيضاً ، مستقلة كل الاستقلال : « .. كان الحرج الذي أبلوه في اثناء دروس الرقص يستفزّني ويخنقني لأنني كنت أتحمله بالرغم مني ، لم أكن أقبل أن أول وافد غريب يستطيع أن يجعلني أنقلب رأساً على عقب ، بمجرد لمسة ، بضغط على جسمي ، بالعناق . سوف يأتي يوم أنثني فيه بين ذراعي رجل : وسأختار تلك الساعة بنفسي ، وسوف يكون قراري مبرراً بعنف حب أكنّه له . »[3]

تبرز فكرة التبرير بوضوح في الفقرتين اللتين أوردناهما هنا . ولكن

---

١ – « مذكرات مستقيمة » ص ٥٩ – ٦١ .

٢ – نفس المرجع ص ١٣٤ – انظر أيضاً : « كنت افكر أن المرء يبرر العالم اذ يخلقه من جديد ، بالأدب ، في نقاء الخيال ، وفي نفس الوقت يخلص المرء وجوده نفسه » (« قوة العمر » ص ٨٣) .

٣ – نفس المرجع ص ١٦٦ .

هذه الفكرة كانت بالتأكيد مجاورة لكل النصوص الأخرى التي اقتدنا منها فيما سبق لتصوير موضوع الوكالة وموضوع الاستقلال الذاتي مرة تلو المرة. ولكننا نرى، في مجموعة من النصوص أو في المجموعة الأخرى، أن هذه الفكرة (سواء كانت متضمنة أو مصوغة صراحة) قد تغير معناها على كل حال: لقد انتقلنا من الثقة بأن يكون المرء مبرراً، الى طلب أن يبرر المرء نفسه.

وبين هذين الطرفين، نجد، بالطبع، بلا عناء عدداً كبيراً من الملاحظات التي تقع بين الطرفين، بل لا تتردد أحياناً في أن ترجع، في وقت معاً، الى الاتجاهين معاً. فعندما بدأت مثلاً تهتم بالسياسة (في السنة التي حصلت فيها على شهادتها في تاريخ الفلسفة)، فهي تتطلب أن يكون هذا النمط من السلوك قائماً، سلفاً، على أساس وطيد: «سوف أستمر في أن أضع المسائل الاجتماعية موضعاً ثانوياً من الميتافيزيقا والاخلاق: ما جدوى الاهتمام برخاء الانسانية اذا لم تكن لها من علة للوجود؟»[1] وهو تطلب مزدوج، في الحقيقة، اذ أنها تضع هذه «الصلة للوجود»، في نفس الوقت، في جوهر الواقع (اي في المستوى الميتافيزيقي، وفي طريقتها لممارسة الواقع (اي في المستوى الخلقي). ومهما بدا لنا من مثاليتها في تلك الفترة، فاننا قد اقتنعنا بأن موقفها الاخلاقي لم يكن من الممكن أن يندمج بحال من الأحوال ـ ولم يندمج قط بلاشك ـ في مجرد «احترام» سلبي بحت للقيم التي تلتزم بها. ولا يجوز أن نخلط بين جديتها وبين الامتثال الخسيس الذي نجده عن اولئك الذين يقنعون بانتظار أن تتحقق مُثُلهم العليا، من غيرهم، وأن تتغلب هذه المثل على العالم، دون مشاركة منهم. فقد رأينا هذه المرأة، منذ طفولتها، وفي كل اعتقاد لها، في كل أسطورة تدين لها، رأيناها تلتزم، وتسفر عن ذاتها، وتدفع الثمن من شخصها:

---

١ ـ نفس المرجع ص ٢٣٦.

ولنعتبرها مضللة في الغايات ما أحيينا ذلك . مادامت هي التي ترجونا بنفسها أن نفعل ذلك . ولكن فلنسلم على الاقل أنها لاتبدي أي ميل للأوهام المريحة[1]. مثال آخر على هذه الثنائية في الاتجاه : « كنت على مكانة مرموقة . وكنت سوف أفعل شيئاً ذا قيمة »[2].

ولكننا لا نستطيع هنا أن نتوقف عند مجرد ملاحظة هذا التعايش بين الاتجاهين . فاننا اذا لم نحاول أن نفهم وحدة « عميقة » ما . أو على الأقل شيئاً من التفاصيل التي يمكن الرجوع اليها . في مصدر هذا التناقض الظاهري في نطاق نفس الوعي الواحد – بين هدفين متباعدين على هذا النحو الواضح بحيث لا يسع المرء الا أن يذكر بصددهما التقابـلات الكلاسيكية بين الكينونة والفعل . بين الايمان الصوفيّ والمشروع المحدّد . بين المثالية النظرية والعناد العملي – اذا لم نحاول أن نفهم ذلك فانما يعني ذلك الاستسلام والتخلي عن الفهم . وفوق ذلك فان الكاتبة نفسها ، مرة أخرى ، هي التي توحي الينا باتجاه البحث . اذ تعطينا مادة للتأمل في هذه العبارة المبهمة الملتبسة على نحو عجيب : « كنت موضع انتظار : من جانب نفسي »[3]

ولنضع هذه العبارة في سياقها : ان سيمون (وهي في الخامسة عشرة والنصف من العمر ، وقد انتهت من سنتها الدراسية في المدرسة الثانوية)

---

١ – من المسلم به أن هذه الملاحظة ، في المستوى السياسي ، ليس فيها من شيء حاسم : لا يكفي أن يتجشم المرء العناء حتى يتصرف بفعالية ، وهناك الكثير من الاساطير يفضح أنها في الواقع تشتت الاحتشاد وتفتت تعبئة الجهود ، أياً كانت وفرة كنوز الجهود الفردية المبذولة باسمها . تلك قضية يجب أن نتتبعها ، ولكن ملفها ، في النقطة التي وصلنا اليها ، ما زال هزيلا لا يتيح لنا ذلك .

٢ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢٣٩ .

٣ – نفس المرجع ص ١٤٨ – وهي عبارة كان سارتر ليرى فيها بلاشك واحدة من « الملقات الحديدية القابضة » التي يتورط فيها فكرنا ، عن طواعية ، و « يعض ذيله » بحيث تعكس احدى المظاهر الجوهرية لوضعنا ، لعلاقتنا بالكينونة بقدر ما يتعين علينا أن « نوجد » هذه الكينونة .

تقضي بضع أيام عند اهل ابن عمها جاك ، وتدرك الى أيّ مدى لا يهمّ بها ، بالمقارنة بطالبات أُخَر أحسن تدريبهن وتربيتهن كأنهن من «الشرطة» يلعبن التنس على أصوله الصحيحة ، ويخرجن للحفلات والنزهات ، ويرقصن ، ويعرفن كيف يتأنقن في ملبسهن» . وهي تقول لنا «ومع ذلك فقد كانت لامبالاته بي تنزلق من عليّ ، لم أكن لأسف لحظة واحدة على تعثّري وهوَج حركاتي في اللعب ، ولا على التفصيل الأولي الساذج لفستاني البونجية الوردي» . ذلك أنها في الواقع تعي ، على نحو عنيف شرس ، بأنها تتفوق على هاته المنافسات المزعومات : «كنت أفضل منهن .. وهو نفسه سيدرك ذلك يوماً ما » ان قيمتهن سطحية ومصطنعة ، ولن تكون الاشياء عابراً لا دوام له ، اما قيمتها — وهي خفية ما تزال ولكنها حقيقية وعميقة — فهي على العكس مكفولة النجاح والانتصار . «كنت اترك هذه السنّ الحرجة ، وبدلاً من أن آسف على طفولتي ، كنت استدير الى المستقبل . كان المستقبل ما زال من البعد بحيث لا يخيفني وكان يهرني . وفي ذلك الصيف ، من بين كل صيف قضيته ، كنت انتشي وأتمل من روعة .. كان النور يتسايل بي ، وكان العالم يرقد تحت قدمي كأنه حيوان أليف كبير ، وكنت ابتسم لهذه الفترة المراهقة التي سوف تموت ، غداً ، وتبعث من جديد ، في مجدي : ما من حياة ، ما من لحظة في أية حياة ما ، كانت لتفي بالوعود التي كنت ادفع بها قلبي الساذج الى الجنون .. »

لعل القارىء يتذكر اننا قد «وعدنا» أنفسنا ، من ناحيتنا ، أن نوثق بقدر ما يتسنى ذلك ، العلاقة المباشرة «الفورية» بين كاتبتنا وبين الواقع : وها نحن الآن ، اذا لم أكن مخطئاً ، قد اصبحنا نملك بعض المعطيات الجوهرية ..

هذه الفتاة اذن ، اذا صدقنا المرأة التي تذكّرنا بها ، قد اختارت ، في تصميم وعزم ، أن تغفل الصورة التي يتصورها الآخرون عنها (ومنهم ذلك الذي تحبه) وهي تصل إلى أن تدحض هذه الصورة ، على طريقتين في نفس الوقت : بأن تضع في مقابلها حقيقةً عميقة — هي كينونتها نفسها —

ليس للآخرين من مدخل اليها ، ثم بأن تضع في المستقبل القيمة الحقيقية لهذا الجوهر النفيس . ولا شك أننا قد لاحظنا من قبل أنه يكفي أن نفسّر موقفها في اتجاه التفاؤل ، هذا التفاؤل المبني على الثقة بالمستقبل ، حتى نرى أنفسنا ، للفور ، مضطرين الى تصوّر تفسير آخر مختلف كل الاختلاف وذلك على سبيل التقويم والتصحيح ــ هذا التفسير الأخير مؤسس ، هذه المرة ، على نوع من الثقة المباشرة ، بل من الاكتفاء تقريباً ، وأقصد على أي حال ، أنه مؤسس على ثقة مطلقة بالذات . ولكننا لعلنا لاحظنا ، في نفس الوقت ، أن التبادل أيضاً حقيقي ، وأن بطلتنا تحرص على وضع مجدها في مستقبل يفلت من قبضتها ؛ فهي تمني نفسها « بالوعود » وهي اذ ترى نفسها « بنتظرها » مجدها نفسه ، وسعادتها ، فلا يغيب عنها الجهد الذي ينتظره منها هذا « المجد » . وعلى ذلك فان موقفها يبدو ، بالتناوب ، اما سحرياً أو واقعياً : فهي من ناحية تعتبر من المؤكد أن قيمتها هناك ، كائنة بالفعل ، كامنة في أعماقها ليس عليها الا أن تسفر عن نفسها (الماهية تسبق الوجود) ، ومن ناحية أخرى فان كل شيء يتوقف قطعاً على هذا الإسفار (الوجود يسبق الماهية) ، وليست القيمة شيئاً ، ولا تساوي شيئاً في خارج تقيّمها العملي ، وعندئذ فانها تستشف أنه لن يكفيها على وجه محدد ، أن تؤمن بقدرها . وليس لنا أن ننسى فهم هذا القلب الساذج ، التي تعرضه لسخريتنا بكل هذا اللطف في الأسلوب ، ذلك أنه ليس بهذه السذاجة على أي حال ، قلب هذه الفتاة ، فانه يعرف ــ منذ سنوات ــ أنه يجب دفع الثمن حتى يثبت المرء قيمته ، وحتى يثبت جدارته بما هو عليه ، دون توقف . وبعبارة أخرى فان « الاكتفاء » فيها لا يتعلق بحقيقتها « في الإمكان » . وعندما نراها تعكف عكوفاً عميقاً على ذاتها ، فلندرك أن ذلك ليس بغرور الكينونة من ناحيتها ، بل هو كبرياء المقدرة على الكينونة اذ أن الأمر في نهاية المطاف هو رهان تقامر به على مقدرتها على الوفاء بذاتها وفاء كلياً .

ونحن اذ ندقق ، على هذا النحو ، نقطة كنا قد أشرنا اليها من قبل ، فهل تقدمنا حقاً نحو هذا الموقف الأساسيّ الذي لا شك (فيما نفترض) قد صدرت عنه تلك الثنائية التي أظهرها تحليلنا فيما سبق؟ نعم ، ولا ، فيما يبدو لي. فالواقع أنني أعتقد أننا قد وصلنا إلى زحزحة المشكلة ونقلها عن موضعها. فهذه الثنائية التي اصطدمنا بها ، في صياغتها الأولية ، قد تغيرت إلى وحدة مبهمة ملتبسة ، يتمثل معناها ، فيما يبدو ، في تطلّب أن يكون المرء ذاته. وذلك موقف واحدٌ بعينه ، ذلك لأنّه هو الحرية (باعتبارها تطلّباً) التي تريد ذاتها (باعتبارها كينونة). أو اذا آثرنا ذلك إنه الكينونة باعتبارها معطاةٌ ذاتها (الكينونة ـ الواجب الحرّة) التي تريد ذاتها باعتبارها تحقيقاً للذات (الكينونة الحرة). وفي هذا المستوى من بحثنا فليس علينا أن نتساءل عن مشروعية مثل هذا التصور للحرية ، بل علينا فقط أن نحاول فهم نوع العلاقة بالعالم التي يفترضها ويميل الى ان يقيمها. وهنا ، على وجه الدقة ، نتعرض لأن نرى هذا التصوّر ينفجر ، من جديد ، في ثنائية ـ بل في تعدد الكثْرة ـ من الاتجاهات ، والميول ، والمحاولات ، والنوايا المتغايرة. ومن الصعب أن نتصور في الواقع كيف يتسنى لهذه الوحدوية في المعنى المؤسّسة على الرجوع جوهرياً الى المطلق ، الى ملء الكينونة ، أن يحتملها وعيٌ يواجه ، باطراد ، عرضية وضعنا ونسبيّته.

٢ – العلاقة بالعالم الطبيعي

سوف نتناول ، أولاً ، هذه العلاقة بالعالم ، تيسيراً للوصف ، على اعتبار أنها علاقة بالطبيعة . وليس هذا التمييز ، في حالة كاتبتنا ، بالتمييز التعسفي كما يبدو بصفة عامة ؛ فمن الحق أن المرء لا يلتقي كثيراً في العالم الراهن بالطبيعة دون الانسان ، الا أنه يبقى للمرء حرية أن يشغف بها شغفاً مشبوباً ، سواء كان ذلك لما يوجد متجسماً فيها من نشاط انسانيّ يحوّل مظاهرها ، او لما فيها ، بالعكس ، من جوانب طبيعية باقية تعارض مشروعات الانسان . وفي نطاق النظرة التي ننظر بها الى المسألة ، في بحثنا ، فمن المهم بلا شك أن نلاحظ أن الواقع ، عند سيمون دوبوفوار ، يمكن أن ينقسم بسهولة قسمين متمايزين : الطبيعة من ناحية ، والانسان من ناحية أخرى . مع وجود تحفّظ بالطبع ، هو أن بعض التدخلات لا تلبث أن تظهر هنا وهناك ، وعلينا أن نتساءل هنا عما اذا كانت هذه التدخلات تلغي ذلك التقسيم حقاً ، أم أنها لا ترجع إلا الى التقاءات سطحية .

وقد اتيحت لنا فرص كثيرة ، على أي حال ، لتقدير حدة حبها للطبيعة عندما أوضحنا المتعة التي تمدها بها اكتشافاتها لها . ولكن الواقع أن هذا الحب لا يلبث أن يظهر في عدد معين من الأشكال تختلف عن بعضها البعض اختلافاً محسوساً . فهذا الريف في ليموزان ، مثلاً ، حيث عرفت أولى

نشواتها في هذا السبيل ، يظهر لها مرة كأنما يكشف عن «كنوز» تحترق شوقاً الى «اكتشافها»[١]. ويظهر لها مرة أخرى باعتباره الموضع الصوفيّ لمشاركة خارقة في كليّة الكينونة : «كنت أفقد نفسي في اللانهاية وأنا مع ذلك أظلّ أنا نفسي ... كانت الريح تدوّم حول أشجار الحور : آتيةً من مكان آخر ، من كل مكان ، تهزّ الفضاء ، وكنت أدور كالدوّامة ، وانا بلا حراك ، حتى آخر تخوم الأرض : وعندما كان القمر يصعد في السماء ، كنت أتصل بالمناجاة بالمدن البعيدة ، بالصحاري ، بالبحار ، بالقرى[٢] التي كانت تسبح ، في الوقت نفسه ، في ضوئه . لم أكن بعد وعياً خاوياً ، نظرة مجردة ، بل عبق غيطان القمح السوداء المتموجة ، عبق نبات الخلنْج الحميم ، وحرارة الظهر الكثيفة ، أو ارتعاشة الغسق ، كنت ثقيلة رازحة الثقل ، ومع ذلك فقد كنت اتبخّر في الزرقة اللازوردية ، لم تكن تحدني بعد حدود»[٣].

ها نحن اذن بازاء هذا الوعي الفتيّ (انها في الثالثة عشرة من العمر) الذي يعاني ، في الوقت نفسه ، من أنه محدود جسمانياً في نقطة في الفراغ ، وأن ليس له ، في نفس هذه النقطة ، أي حضور فعليّ ، ولا أية كثافة ، ولا أية أهمية حقيقية ؛ ولنقل إنها تعاني من أنها لا تحس بوجودها ، وأنها تعوض هذا النقص بأن تحلم أنها كل شيء وأنها هي ذاتها على وجه الاطلاق ، في وقتٍ معاً . ولما كانت لا تستطيع بعد أن تتصور أنها تتخذ لنفسها قواماً ثابتاً ، على طريقة بعض الشخصيات السارترية (الذين يحاولون أن يختبروا ثقلهم ، في مكانٍ ما من العالم ، باعتبارهم أناساً ، بأن يثقلوا حريتهم المجردة اذ يحمّلونها بوطأة عملٍ لا رجوع فيه) فانها تلجأ الى

---

١ – مذكرات فتاة مستقيمة ، ص ٢٨ .

٢ – نلاحظ أن المدن والقرى ليست متصورة هنا باعتبارها أوساطاً أنسانية على الاطلاق ، بل باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من كل يحتفظ بكل خصائص عالم طبيعي .

٣ – مذكرات فتاة مستقيمة ص ١٢٦ .

الطبيعة لكي تستعيد ، بالامتزاج بها ، كينونتها المطلقة ، كينونة حريتها نفسها — على شكل احساس مزدوج ، بالامتلاء ، وباللانهاية . وإذا كان الله ، كما رأينا ، متضمناً ، لحظة ، في هذه الرؤى ، فليس في ذلك ما يدهشنا ، ولكن ليس مما يدهشنا ، من باب أولى ، أنه قد كفّ عن أن يلعب أي دور فيها بعد ذلك . ذلك أن طلب المطلق الذي تعبر عنه هذه الرؤى يتضح للفور على حقيقته عارياً : اهتمام بالذات لا أكثر . وعلى العكس من بعض المؤمنين الذين يصلون الى معرفة المطلق الالهي بأن يذلّوا المخلوق في داخلهم (على أمل «خلاص» يكفل لهم استعادة كينونتهم استعادة كلية ونهائية ، بالطبع) فان سيمون دوبوفوار قد أوضحت أنها تؤثر طريقاً مباشراً أكثر : وعندما كان الله يبدو لها كائناً له السيادة الكاملة ومصدراً علوياً للمطلق كانت تريد أن يسهم في اشباع طلبها للمطلق اذ يكل اليها رسالة ان تمنح الوجود ، بنظرتها ، لهذا العالم الذي خلقه . ولكن لم يكن ثم مجال لأن يستفيد من ذلك بأن يتصور أية صورة غير حقيقية عن طبيعة علاقاتهما . ذلك أنه هو الذي يظل مديناً لها ، اذ أنه بحاجة اليها . لقد مضى عهده ، كخالق ، ولم يعد هناك إلاّها هي ، كي يمد اليها يده ، في المرحلة التالية ، مرحلة الكشف . «لم تكن سيادته تنزع عني سيادتي ... وبدلاً من أن ينزلني عن عرشي كان يضمن لي عهد سلطاني» .

أنا ، لا شيء الا أنا — نعم ، منها هي يصدر كل شيء ، قطعاً ، واليها كل شيء يجب أن يعود . لا يكفيها أن تتصور نفسها «مطلوبة» بل تريد أن تكون وحدها [1] هي المطلوبة : «كنت متفرّدة فذّة .. وعندما أمضي ،

---

١ — كانت تحس بتلك الحاجة ، قبل ذلك ببضع سنوات ، في فترة كانت ماتزال فيها «تقية جداً» حين كانت تعبد المسيح عبادة والهة : «قالوا لي إنه يحب كل مخلوق من مخلوقاته كما لو كان هو المخلوق الوحيد الذي لا يوجد سواه ، لم تكن نظرته تتخلى عني لحظة واحدة ، وكان كل الآخرين مبعدين عن هذا اللقاء بيني وبينه وحدنا ، كنت أمحوهم ، ولم يكن في العالم الا هو وأنا ، وكنت أحس نفسي ضرورية لمجده : كان لوجودي ثمن «لا نهاية»

تنحلّ عرى المشاهد الطبيعية وتتفكك ، ولا تعود توجد عند أحد : بل لا تعود توجد على الاطلاق ». وعندما يمارس أي وعي آخر هذا الدور نفسه ، أو عندما يحس تحت أنظارها بنفس المتع والمسرات ، فانه قد يجعل محاولاتها للافلات من النسبية ، محاولاتٍ هي نفسها نسبية : «كنت أحس على جفوني حرارة الشمس التي تسطع للجميع ، وهي التي لا تداعب أحداً الاي أنا ، في هذه اللحظة ، هنا . »

هذه الرغبة في أن تكون متفردة ، نسيج وحدها ، نجدها فيما بعد ، في سياقٍ مختلف : سياق العلاقات المحددة المجسمة بالوعي عند الآخرين . ولنقتصر الآن على أن حاجتها الى اعتبار نفسها مركزاً مطلقاً ، على أي حال ، يظهر عند سيمون الصغيرة ، في نفس مستوى تواصلها بالطبيعة ونجواها لها . المشاركة ، الامتزاج ، التواصل ، ذلك كله حسن : ولكن لما كان الأمر يتعلق عندها ، جوهرياً ، بالاحساس بكينونتها نفسها الى أقصى حد ، فانه ينبغي لها أن تستطيع ، بنفس الحركة ، أن تتميز عن العالم وأن تتوحد به . وقد رأينا أنها تتطلع الى ذلك («وكنت أفقد نفسي في اللانهاية وأظل مع ذلك أنا نفسي ») ولا شك أنها استطاعت ، الى حد ما ، أن تتمسك بهذا الوهم ، عن طريق تناوبٍ سريعٍ بين الموقفين المتعاكسين ، وعندئذ يظهر نوع من البلبلة ، لا يعرف المرء فيها بالضبط اين يقف العالم واين تبدأ سيمون : «...كانت رياح المساء تداعب نباتات عرقية الراهب ، وتمسني ، وتوشوش لي ، وكنت أسلم نفسي الى عذوبتها ، الى عنفها ... كان النور يتسايل بي ، وكان العالم يرقد تحت قدميّ كحيوان أليف كبير ... (الخ) » .

= له » . أنا ، دائماً أنا ... إن نرجسية هذا الوعي النهم إلى ذاته (« لم اكن ينتابني الكلل من الاعجاب بنفسي في تلك المرآة الصافية بلا بداية ولا نهاية ») تتيح لنا أن نفهم كيف أنها بعد أن كف الله يوماً عن أن يكون هو الطرف الآخر الصحيح في الحوار ، استطاعت بكل هذه السهولة أن تحل محله الطبيعة بدون الانسان .

وأقل ما يمكن إن يقال إن الاستسلام عندها ليس طريقة للتلقائية. فعندما تصف نفسها بأنها «تسبح» في العالم، فلندرك أنها كانت قد عقدت العزم على أن تقذف بنفسها لكي تغوص فيه، أو على الأدق، أنها عقدت العزم على أن تسلم نفسها الى عملية إحكام قبضتها على العالم: وهي قبضة غريبة في أنها تختار وتنتقي، في أنها خفيفة، في أنها ما تكاد تمس سطح العالم، وليس فيها ما يمت بصلة الى هذا الالتصاق للكينونة كلها «بالقوى الأرضية» التي تميز، غالباً، التواصل بالعالم الطبيعي. ان الطبيعة هنا ليست هي الأرض ولكن الفراغ والحركات التي تتموج وتنتشر فيه، الرياح، الروائح، الألوان أو الأصوات[1]: ليست المادة، بل ما ينبعث عنها وحده، أي ما يميل، في الواقع الموضوعي، الى التشتت على هيئة صور، وما يرمز، على أفضل نحو، الى الحركات التي توشك ان تكون لامادية، لذاتيتنا. «.. كنت أهيم يوماً بعد يوم في الطرق الغائرة، وكنت أظل ساعات طوالاً بلا حراك تحت قدمي شجرة، وعندئذ كانت تمسّني أقل ذبذبة في الهواء، وكل تغيّر في ألوان الخريف.»[2].

هناك كلمة لها دلالتها الكبيرة تأتي قبل هذه الفقرة التي قرأناها: عندما

١ – مثال واحد من بين مئة مثال: «كنت أنشق عبق العشب المجلوذ منذ قليل... كانت التموجات الخفيفة، والشمس، في عبابها العظيم، تداعب الاوراق التي تصدر عنها أصوات الحفيف.» («مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٣١٧).

٢ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٢٨ – في بعض الأحيان، مع ذلك، كانت المظاهر الطبيعية تقيم علاقة لا بحركات «الروح» فقط، بل بالظواهر البيولوجية أيضاً: فهي تجعل الحياة نفسها، إذن، وعرضيتنا، تشارك في الضرورة وفي القوام الثابت المطلق للكينونة، كما تجعل انعدام الكينونة لوعي، لحريتنا، تشارك فيهما، من ناحية أخرى. «الروائح، الأنوار، الظلال، النسمات، والعواصف كلها كانت تنتشر في موجات هادئة أو مضطربة، في شراييني، في عضلاتي، في صدري، الى حد أنه كان يبدو لي أن ضجيج دمائي، وهذا العجيج في احتشاد خلاياي، وكل هذا السر في داخلي، الحياة، استطيع أن أصل اليه في صرير الجنادب، في العواصف الزعزع التي كانت تشعث غدائر الأشجار، في هسيس الطحلب تحت قدمي.» (قوة العمر ص ٢٢٦).

تهم على وجهها ، وتتربص بالأشياء ، على ذلك النحو ، فانما كان ذلك «لكي تروِّض ركناً من اركان الريف » . ان بين القناة الوثنية التي تتواصل بالطبيعة وتسبح في الكل العظيم ، وبين المشاعة المتينة الأسر التي تذرع العالم بخطى واسعة ، بين هذا الاستسلام الظاهري ، وهذا الغزو الجافي الخشن ، يظهر لنا هنا طراز ثالث من العلاقة بالطبيعة ، والأهمية الرئيسية لهذا النوع الثالث من العلاقات بالطبيعة ، هي أنها تشير الى موقف متوسط بحيث يتاح للنوعين السابقين أن يبدوا أقل تعارضاً وأقل استعصاءً على التوافق . فلدينا ، على سبيل التبسيط ، موقف أول هو موقف الالتصاق الذي يوشك أن يكون سلبياً والذي يفترض أن هناك نوعاً من التناسق المستقر سلفاً بين سيمون وبين الخليقة : هذا هو صعيد التفاؤل الساذج ، حيث تبدو السعادة ، في الواقع ، معطاة ، وحيث يستطيع المرء أن يقول عن نفسه ، في النهاية إنّه سعيد . وعلى النقيض من هذا الموقف ، تتخذ العلاقة بالطبيعة شكل مشروع ، جديّ ، منهجيّ ، يوشك أن يكون منطق الجماح ، يستهدف تملّك عالم يجبل أن يعرّف ، هذه المرة ، بحرونته وشكاسته ، بالمقاومات التي يبديها لجهودنا في أن تمسك به : هذا هو صعيد تفاؤل عدواني ، حيث لم تعد السعادة معطاة الا بالامكان ، حيث ينبغي أن تخطط وأن تبنى السعادة بدون هوادة . وبين الموقفين ، في النهاية ، يقع موقف أكثر مرونة ، أكثر رهافة في المدخل وتنوعاً في الظلال ، يبدو أنه حريص على التحوط من الوقوع في أوهام الغبطة ومن اسراف العناد الارادي : في وقت معاً : فالمرء هنا لا يفكر في الاستيلاء على السعادة بالصراع المحتدم ، ولكنه لا يتنظر ، من ناحية أخرى ، أن تخلع عليه خلعة السعادة على سبيل الحق الالهي .

وبعبارة أدق فان هذه المحاولة لترويض كينونة الأشياء (العالم باعتباره طبيعة) يمكن أن تكون بداية توفيق بين مشروع ترويض الذات وتكيفها مع العالم ، وبين مشروع تملّك العالم . ففي اللحظة التي أكف فيها عن التسليم بأن العالم ، وأنا ، مصنوعان أحدهما من أجل الآخر (بأنني قد وكلت

رسالة الوصول الى ذاتي فيه بأن أكشفه) في اللحظة التي لا أعود أنتظر، فيه، من العناية الالهية أن تحقق ذاتي، في هذه اللحظة ينبغي حقاً أن أبدأ، بنشاط، في العمل على البحث عن ذاتي. والمسألة كلها عندئذ أن أعرف كيف أسد الهوة التي فغرت فاها - على هذا النحو - بين العالم وبيني: هل أختار استعادة كينونتي بأن أجعل العالم يأخذني، أو بأن آخذه أنا؟ وهنا يمكن أن يتخذ التوفيق المنشود مكانه. فلم تعد المشكلة اخضاع الطبيعة ولا تسليم السلاح لها، وانما المشكلة، اذا حق لي القول، هي ممارسة العشق مع الطبيعة: الوصول اليها في نفس الوقت التي تصل هي فيه إلي. ينبغي الاستيلاء عليها، هذا مؤكد، ولكن في نفس الوقت الذي تستولي هي فيه علي. وما من جدوى في الاستسلام للملكة ما اذا لم يكن المرء سيداً لنفسه بحيث يتاح له أن يحقق ذاته، باعتباره مستحوذاً عليه. فالهدف، بعبارة أخرى ليس هو الانتصار على الخصم، وجعله عدماً، و «فك» عراه وتفتيت قوامه، بل على العكس، الهدف هو أن نعهد اليه بانعدام قوامنا حتى يرده الينا على شكل كينونة: كما يحلم المرء أحياناً بأن يأخذ «حماماً» لاستعادة الشباب، والأمر هنا هو أخذ «حمام للكينونة». ليس هذا صراعاً مدمراً بل نزال عشق ومحبة، حيث المرء بحاجة الى أن يعبر من خلال الآخر حتى تتأكد ذاته. ومعنى ذلك أن يهب المرء نفسه للآخر، ويستفزه، ويكشف نفسه الى الحد الكافي لقبضه، حتى يتم التماس والاتصال، حتى يمر التيار، أن يريد المرء اغراء الآخر، من ثم، أكثر مما يريد اخضاعه. ومن هنا جاء موضوع الترويض حيث يمكن للمرء أن يستبعد، في وقت معاً، اغراء الاستيلاء على الآخر بالقوة (خطر الا يتلقى منه شيئاً بعد) كما يستبعد خطر ان يستولي عليه الآخر بالقوة (اغراء الغاء الذات فيه). ان العالم هناك لكي يؤخذ، وفتاتنا العاشقة للطبيعة تشتهي أن تأخذ لنفسها كينونة: فكيف تضمن لنفسها ان تتمكن اذا تابعت صوفية التواصل حتى تتوحد بموضوع حبها، أو اذا أصبحت، على العكس، ونتيجة لعنادها

الاراديّ المنتصر ، لا تتأثر بسحره؟

وها نحن نورد بضع نماذج لموقفها المتغيّر أشد التغير في هذا الصدد ، استكمالاً لما بدأنا ، من بيانات . ولنأخذ أولاً تلك النماذج التي تتجه نحو معنى الترويض : «.. كانت لي بالطبيعة علاقات حميمة الى الحد الذي لا يسمح لي أن أراها تهبط هنا الى مستوى تسلية يروح بها المتنزهون عن أنفسهم . كانوا يقدمونها اليّ في شرائح ، دون أن يدعوا لي لا الفراغ ولا الوحدة الضرورية لكي اقترب منها : فاذا لم اكن أهبها نفسي فلن أتلقى منها شيئاً .. وستصمت اشجار الصنوبر وجداول المياه[1] .. » او اذ تؤكد ضرورة ــ كشف الذات للعالم ، واستفزازه تقريباً ، حتى يصل العالم الى الذات : «كنت منحنية على البوابة ، أقدم وجهي للريح ولهبوات الفحم غير المحترق التي يحملها الهواء ، وأقسمت لنفسي الا أكون قط شبيهة بأولئك المسافرين الذين يتكومون تكوماً أعمى في حرارة مقاصير القطار .. »[2] ولنضف الى ذلك هذه اللمحات عن موقف الاستيلاء المنهجي ، هذه المرة : «كان سارتر مثلي سائحاً مجداً مثابراً .. كنت أحب دائماً أن استولي على المشاهد الطبيعية بقوة ساقيّنا .. » ــ «انني استكشف نيويورك ، حيّاً بعد حيّ ، انني سائحة مدققة » ــ «كنت أحرث المنطقة حرثاً منطقياً جيئة وذهوباً .. » ــ «جنوني القديم .. أن أذرع المناطق التي كنا نمرّ بها ذرعاً منهجياً . »

ومن الممكن أن نستدعي نصوصاً لا عداد لها ، سواءٌ في الاتجاه الأول أو في الاتجاه الثاني ، وليست أكثر دلالة هي التي اخترتها هنا اعتباطاً .

---

١ ــ «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٢٠٤ .

٢ ــ نفس المرجع ص ٢٥٤ ــ وبعد خمسة وعشرين عاماً ، عندما استطاعت أن تتمدد وأن تنام نوماً لا بأس به في قطار كان يحملها الى لوزان ، أخذت تلوم نفسها على ذلك : «أتذكر رحلة بالقطار إلى ليموزان ، عندما كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، وقضيت الليل كله ووجهي في النافذة ، آكل الفحم وأحس نفسي متفوقة على نحوٍ فيه كل السيادة ، على الكبار الذين أخملتهم وخدرتهم حرارة مقصورة القطار . من مثل هذه الاشياء أحس أنني أخذت في الشيخوخة» («قوة الاشياء» ص ١٠١) .

ولكن النقطة التي يهمنا أن نؤكدها (فنحن قد أشرنا اليها من قبل) هي أن علاقات سيمون دوبوفوار بالعالم الطبيعي تتوج دائماً، تقريباً، بنجاح فعلي". وسواء زعمت أنها تهب نفسها، اواعترت الاستيلاء، فالنتيجة واحدة: ان التيار يمر. ويحدث شيء ما، وهناك دائماً لحظة تكون فيها، حقاً. «مستحوذاً عليها»، «مبهورة»، «مفتونة»، «منتشية» - وبعبارة واحدة «سعيدة».

سعيدة بالكينونة، كما هو واضح، وعلى نحو أدق سعيدة بأن تكون ذاتها، بأن تصل الى الكينونة باعتبارها وعياً. وما من شك أنها لم تصف هذه الغاية القصوى الكاملة من المتعة التي تدين بها الى فهمها الاستكشافي، بأفضل ما وصفتها به في السطور الأخيرة من فقرة اوردناها فيما سبق حيث يبدو مع ذلك انها تتجه الى نتيجة مختلفة كل الاختلاف. وهي اذ تلاحظ في الواقع أن كل لقاء لها بالواقع «يفاجئها» (نحن بصدد رحلتها الأولى الى اسبانيا)، تضيف الى ذلك: «كان (هذا الواقع) ينتزعني أحياناً من نفسي». واليك الآن ما يحدث في هذا النص. الحركة الأولى: «كنت اغادر نفسي، لم اكن أصير أخرى، ولكني كنت اختفي». الحركة الثانية: «وربما كان ذلك امتياز الناس... فريسة للمشروعات دون توقف، أن تأتي هذه الوقفات، هذه الهدنة، حيث يتوقف الزمن فجأة، حيث يمتزج الوجود بالامتلاء الساكن الذي لا حراك فيه للأشياء: اية راحة! أي ثواب!» الحركة الثالثة: «في آتيلا، في الصباح، دفعت مصراعي النافذة في غرفتي، ورأيت أبراجاً قائمة على نحو رائع، بازاء زرقة السماء، الماضي، والمستقبل كل شيء يختفي، لم يعد هناك الا حاضر مجيد، حاضري، حاضر هذا الاسوار، حاضر واحد بعينه، وكان يتحدى الزمن». وكثيراً ما حدث في خلال هذه الرحلات الأولى، أن" ألواناً مشابهة من السعادة كانت تجمدني بلا حراك».

من الدهشة والمفاجأة الى التجمد والتحجر، يختلف هذا النمط، يختلف

من العلاقة التي نراها الآن، اختلافاً مؤكداً عن حيل الترويض، واختلافاً أكثر بلا شك، عن موقفها في الاستيلاء والانتصار: ولكنها علاقة لا تمزج مع ذلك بفكرة التواصل الأولية، في صورتها المادية التلقائية التي كنا قد رأيناها تتخذها في طفولة ومراهقة كاتبتنا. ويبدو أن الخفة وعزة النفس الساذجة التي كانت تحمها سيمون الصغيرة قد نزلت عن مكانها لاحتياجات أكثر خشونة وحرافة تتناسب مع نموّ الشخصية، وعلى اساس من عدم اشباع متزايد: فلم يعد ممكناً بعد أن تترك نفسها تكون، بل لم يعد لديها صبر على الاقتراب من الكينونة لكي تتشبع به بأن «تغازله» غزلاً خفيفاً.

وفي أعقاب المشاركة المباشرة النابعة من البراءة الأولى، جاءت المعرفة، والانفصال: لقد طردت سيمون من الجنة، وشعارها في أن تكون سعيدة يحكم عليها أن تستخدم أقصى الوسائل تطرفاً لكي تحاول أن تعود سعيدة. وعندئذ تسقط في التناقض الذي كان في ظنّنا منذ لحظة، أنها تستطيع أن تفلت منه: ذلك أنها سوف تناضل، بالتأكيد، لكي تكون جديرة من جديد بهذا الفردوس المفقود. ولكن طريقتها الوحيدة في أن تعود فتستحوذ على الكينونة، هي أن تجعل من نفسها فريسة هذا الكينونة، على نحو لاشرطي للغاية، من وقت الى آخر. ولا بد في الواقع أن يكون قد حدث «شيء ما» حتى أن هذه الحياة التي كانت تغمرها السعادة، تعود فتبحث الآن من جديد عن الفرص التي يتاح لها فيها أن تصعقها السعادة.

اما ما حدث، فسنحاول وشيكاً أن نحدده، وأن نحدد اللحظة التي وقع فيها، ولكن علينا أن نضع في الاعتبار موقف سيمون دي بوفوار من الحقائق الانسانية المحددة المجسمة، وما زال علينا أن نصل الى تدقيق أكثر فيما يتعلق بسعيها وراء الكينونة، على صعيد علاقاتها بالطبيعـة، وبالعالم عامة.

وقد استطعنا كثيراً فيما سبق أن نرى مدى الشجاعة العنيدة لهذا «القندس» الذي يركب رأسه في بناء سعادته، وقد رأينا أن مثل هذا الدأب والمثابرة

انما يصدر عن أصول بعيدة ، وانها متعاصرة تقريباً مع تذوقها نفسه للسعادة . ولكن عندما تبدأ كاتبتنا بعد ذلك في السعي وراء سعادتها عن طريق تجمدات متعاقبة ، فلم يعد الأمر هنا يتعلق بعملٍ مستميت دؤوب ، بل هو نوع من التهم يبدو معه أن هذا العناد الكادح يقتصر على أن يكون اداةً في خدمة .[1] وقد تكلمت منذ قليل عن السعادة والحنق ، عن نفاد الصبر ، وهذه في نهاية الأمر هي فكرة العنف التي تميل للظهور هنا .

ومن الخطأ أن نتصور مع ذلك ان ذلك هو أول مدخلٍ لها على مسرح الوعي البوفواريّ : ان ذكريات كثيرة عن الطفولة تُظهر لنا سيمون مختلفة كل الاختلاف – على الرغم من أنها متعاصرة تقريباً – عن سيمون التلميذة المجدة التي لاحظنا ، فيما سبق ، حكمتها وعقلها ودماثتها . هذه « البنت الصغيرة المستقيمة » ، ليس لنا أن نجعل منها ملاكاً للعذوبة (ولو كان ذلك على سبيل تربية أطفالنا نحن) . واقتبس هنا ، اعتباطاً : « كنت موضع الوقاية والحماية ، مدللة ، تسليني وتشوقني جدّة الاشياء التي لا تتوقف ، كنت بنتاً صغيرة مرحة جداً . ومع ذلك فقد كان ثم شيء لا يستقيم على وجهه ، اذ أن ازمات عنيفة كانت تقذف بي الى الأرض ، محتقنة الوجه ، متشنّجة .. » – « وأسقط على الاسمنت أصرخ » – « أصرخ على طول بوليفار راسباي » – « كنت اصرخ بقوة ، ولفترة طويلة ، حتى ظنّني الناس احياناً في لوكسمبورج بنتاً ضحيةً للتعذيب » (وقد رفست

---

١ – أو يستخدم ، اذا شئنا ، في تمهيد الأرض ، في تهيئة الظروف للذات لهذا الكشف المزدوج (لنفسها وللعالم) التي يمكن أن نقول أيضاً إنها تسعى اليه ، بنشاط ، وأنها محكوم عليها بانتظاره . انها التضحية الجديرة بأن تبذل والتي تهدف الى استرضاء الآلهة ، والتي يحاول المرء بها أن يغري الآلهة على أن يمنحوه حظوتهم ؛ انها طقوس القداس ، تمهيداً لتهيئة المرء لنشوة التواصل والقربان . فهذه الأداة اذن تستخدم على مستويين معاً : مستوى الواقع (المشي باعتباره ممارسة فعلية هو أحد الوسائط التي ينبغي المرور بها لكشف العالم) ومستوى الخيال (الجهد الذي يستلزمه تعزى إليه ، باعتباره سلوكاً « خلقياً » أو « روحياً » ، فعالية من نمط سحري) .

بضربة من قدميها امرأة رثّت لها فقدمت لها قطعة حلوى – على سبيل الشكر) – « ادفع بنفوري الى درجة القيء ، وبنهمي الى درجة الجواز » – « في تمزقه الصرخات » – « ألقي بنفسي على الرصيف وأنا أزعق صارخة معولة » « وكنت أسقط كالمصروعة » وهكذا ... [1]

انها تقول لنا أن ثم شيئاً ما كان لا يستقيم على وجهه . والواقع : أن أمها حظرت عليها أن تقشر خوخة حمراء أعطيت لها ، وأرادوا أن يطيبوا خاطرها دون أن يفهموا شيئاً مما يشقيها ، وكانوا يعجبون بساقيها وهم يتحسسونهما كأنها كلب صغير ، وطلبوا منها أن تحل فزّورة سهلة جداً – وباختصار كانوا يجرحونها ، كانوا يهينونها ، اذ يرغمونها على أن تحس باعتمادها على الكبار . ان مالم تكن تطيقه هو أن تحس نفسها منكورة من جانب تفوق يفرضه الأمر الواقع ومن الواضح لها أنها سوف تستسلم له ، ان آجلاً أو عاجلاً .. «كنت مغلوبة على أمري منهزمة ، لكني لم أستسلم . كنت أزدري العمل الذي تتطلبه الهزيمة . كانت انقلاباتي ووثباتي وسقطاتي ، والدموع التي تعمي باصرتي ، تكسر الزمن وتمحو المكان وتلغي ، في وقت معاً ، موضوع رغبتي والعقبات التي تفصلها عني . كنت أغوص في ليل العجز ، ما من شيء عاد هناك الا حضوري العريان ، وكان يتفجر في صرخات طويلة » .

ولعلنا قد عرفنا في هذه السطور الموقف نفسه الذي وصفناه فيما سبق باعتباره سعياً وراء المطلق ، محاولة للتوحد بين الذات والكينونة ، والاستشاق من النفس – بالفرار في ضربة واحدة ، سحرياً ، من الواقع العرضي ، ومن كل تغيّرات العالم وتحولاته . ان هذا « الحضور العريان » الذي يفلت من قبضة الزمان والمكان ، هو جوهرها الخالد ، امكانيتها النقية البحت ، السند الحقيقي والمصدر الوحيد لاستيلاء على السعادة سوف يتأكد عما قليل

[1] – « مذكرات فتاة مستقيمة » صفحات ١٥ و ١٦ و ١٧ .

باعتباره مشروعها الأكثر جذرية من كل مشروع . والفرق الوحيد انها لا تصل اليه هنا الا بالصراخ ، ودقّ الأرض بقدميها ، على أن الأمر فيما بعد لن يكون الا نشوات وانبهاراً . ولكن لعلنا نستشف منذ الآن نوعاً من القربى بين هذه « الارتعاشات » عند الطفلة وعند المرأة الناضجة ، « بين هذا العمل الذي تتطلبه الهزيمة » الذي تعكف عليه سيمون الصغيرة ، وبين كل ذلك العناء الذي تجشمه نفسها فيما بعد حتى تحس ، من وقت لآخر ، ملكيتها الكاملة للكينونة : بين عنف هذا الشقاء وعنف ذلك التفاؤل . وما من شك أن نفس الحنق والسعار هو الذي يحفزها ويحركها ، هنا أو هناك - بل يكاد يغرينا القول : نفس اليأس . ومن الخير على كل حال أن نعطيها الكلمة .

« سامت نفسي كثيراً عن علة ومعنى غضباتي . واعتقد أنها تُفسَّر الى حد ما ، بحيوية مندفعة منطلقة الجماح ، وبتطرف لم أتخلّ عنه قط تماماً ». وقد التقينا « بحيويتها » تلك فيما سبق ، ولكن ذلك كان اساساً فيما يتعلق بتذوقها للحياة ، للمرح ، لمعنى السعادة : وها هي ذي تظهر لنا الآن باعتبارها مصدراً للعنف ، منها يأتي أيضاً رجوعها بنفاد صبر الى المطلق ، والعدوانية الغريبة في تفاؤلها اللاحق . اما هذا « التطرف » الذي فعلته بكل هذه الصراحة ، فكيف يغيب عنا أنه النقيض والذروة معاً « للجدية » التي رأيناها تنسبها الى نفسها ، بعد ذلك ببضع سنوات ، بشيء طفيف لا يكاد يحس ، من السخرية ؟ ويبدو في كلتا الحالتين أننا نجد أنفسنا بإزاء الظاهرة نفسها ، هي ظاهرة التطلّب الجذري - وهو الذي نضطر الى نطلق عليه ، مرة بعد مرة ، وتيسيراً للتحليل ، وفق نظرتين هما في الحقيقة غير منفصلتين احداهما عن الأخرى : احداهما « بيولوجية » (مزاج مليء يفيض بالحيوية) والأخرى « أخلاقية » (وعي ظامىء الى المطلق) . فالمزاج يمدها بالتقبّض العضلي (العنف) ، والوعي يحدد الهدف (الكينونة) . بحيث يبدو أن التطرف نفسه يظهر في النهاية كأنه نوع من التوفيق الوجوديّ بين عنف

النغمة وجذرية الغايات. والسعادة، في هذه الظروف، تصبح مرارةً على نحو متطرف، باعتبارها نقاد صبر حيوياً، وفي الوقت نفسه، باعتبارها تطلّباً لكينونة الذات، لان يكون المرء «الأساس المطلق لنفسه».

ومهما أفضنا في القول فيبدو لي أننا لن نؤكد حق التأكيد هذا الحضور في وقت معاً لهذين المقوّمين عند سيمون دو بوفوار، منذ طفولتها: اي في سن لم يكن قد حدث فيها في حياتها، بعد، شيءٌ ما يتيح لها أن تأخذه على عاتقها وأن تضيفه الى حسابها. اننا نراها، منذ البداية، تشبّ في توتر، وتهبّ ثائرة ضد «عسف الاوامر والنواهي» وضد النفي الذي يوقعه الكبار على «الشخص الحقيقيّ» فيها الذي تعرف أنها هو — مهما كان القصور الواضح في معلوماتها وامكانياتها، من ناحية أخرى. نستطيع أن نبتسم لهذه «الصرخات» وهذا «العويل» ولكننا لا نستطيع بالتأكيد أن نبتسم من هذه الارادة الشرسة في أن تُعرف، وتُحترم من الناس الذين ليس لهم من وعي يوجد بأكثر مما يوجد به وعيها، والذين يستخدمون معها سلطة زائفة (أو يمضون في الاهانة الى حدّ أنْ يتظاهروا بأنهم يعاملونها معاملة الكبار) ولا يرون فيها الا طفلة، حيواناً، شيئاً. «كانت حساسيّتي كحساسية المقعدين».

ولكن أين اذن نضع «البنت النموذجية الصغيرة»؟ في هذا الصعيد نفسه، على وجه الدقة. ذلك أن هذه الغضبات، بالتأكيد، لم تكن الا ردود فعل للعجز: «وبالاجمال، كانت غضباتي تعوّض عسف القوانين التي تستعبدني. ولم أضع مسألة السلطة قط موضع الشك. لم يكن سلوك الكبار يبدو لي مريباً الا في الحدود التي يعكس فيها غموض وضعي الطفليّ: كنت اتمرد في الواقع على هذا الوضع. ولكني كنت اقبل دون أدنى تحفظ تلك العقائد والقيم التي كانت تقدّم إليّ».

دون أدنى تحفظ؟ ربما كان في ذلك مغالاة في القول. وهاك نصاً يذهب

الى أبعد من ذلك من كثير ، وعلى نحوٍ استخدمه سارتر كثيراً حتى جعلنا نألفه :[1] « لا يتطلب الأمر الكثير حتى يتغير الطفل الى قرد ، كنت فيما سبق أتبختر واتمخطر عن طواعية ، ولكني أخذت أرفض أن أشارك في الكوميديات التي يدبرها الكبار ، كنت قد بلغت الآن من السنّ حداً (كانت في السادسة من العمر ، وكانت الحرب قد أعلنت من قليل) لا يسمح بأن يداعبني الكبار ، ويدللوني ، ويلاطفوني ، كنت في حاجة تتزايد حدة الى تأييدهم وموافقتهم . كانوا يقترحون عليّ دوراً سهل الأداء ، ومن أليق ما يكون ، فألقيت بنفسي فيه القاءً » ولم تلبث النتيجة طويلاً حتى ظهرت : « اكتسبت بالفضيلة ، لم تعد ثم غضبات ولا نزوات ، فقد قالوا لي إن الأمر يتوقف على حكمتي وتعقلي وتديّني حتى ينقذ الله فرنسا . وعندما تولى أمري راعي كنيسة مدرسة « ديزير » أصبحت بنتاً صغيرة نموذجية .. كنت أجمّع اوجه الجدارة تجميعاً » ومغزى الحكاية واضح بالفعل : « تحولت نهائياً الى طفلة عاقلة . كنت ، في بداية الأمر ، أؤلف شخصيتي ، فكان يكال لي من الثناء وكنت استمـــد من الرضا حتى انتهيت الى تقمص هذه الشخصية ، واصبحت حقيقتي الوحيدة .. وهكذا تنازلت عن الاستقلال الذي حاولت في طفولتي الغضة أن أنقذه . وخلال سنوات كثيرة جعلت مني الانعكاس المطواع لوالديّ »[2] .

ولكن الواقع أن الثورة لم تخمد الا موقتاً (لم تُكْبَت لتكون الكلمة الأصح) وذلك لتخلي مكانها لتعميةٍ من القوة بمكان — ولكن ليست من القوة مع ذلك ، في عينيها ، بحيث توفر عليها عناء البحث عن تفسير ما لهزيمتها : « كان دمي أقل جيشاناً مما كان من قبل ، وكان النموّ ، والحصبة قد اصاباني بفقر الدم .. » والحق أن خضوعها لم يكن الا ظاهرياً ولم يحل دونها وأن تحس نفسها « مصنوعة من جديد » مستحوذاً عليها ، كما توضح

---

١ – انظر على الأخص « سان جينيه » و « كين » و « الكلمات » .

٢ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٣١ و ٣٢ و ٣٤ .

حادثة وقعت لها عندما اعتنقت «قضية الغير باندفاع» : «كنت مستشيطة بالغضب، فقد خُدعت» ولا بد أن تقاد صبرها العميق لم يتخل عنها في تلك الفترة من الدماثة المزعومة، اذ كان حسبها، بعد بضع سنوات، ان تصطدم بحظر مفروض عليها، حتى تدرك من جديد مدى استعبادها : «خضعت. ولكني كنت اختنق بالغضب وبالحزن أساساً. كنت خلال اسابيع طويلة، أنتظر بشغف مشوب هذا اللقاء، ولكن نزوةً من أمي كانت كافية لحرماني منه! أدركت، باستبشاع، مدى اعتمادي على الغير.. وللمرة الأولى في وجودي، فكرت بإخلاص أنه من الأفضل أن أكون ميتة عن أكون حية»[1] وامتداداً لنزوات الطفلة التي كانت تتمرغ على الأرض عند أقل رفض (والتي كانت أمها تقول عنها، بلطف: «عندما يلمس المرء سيمون يحتقن وجهها») ها نحن نرى التطرف والعنف عند الفتاة الناضجة التي وجدت نفسها، فيما بعد، مقلسة لا تملك شروى نقير في ميلانو، فلم تقبل أن يكون من المتعين عليها حرمان نفسها من الأيام الثلاثة التي منّت نفسها بقضائها على شواطىء البحيرات الايطالية : «ذرفت دموع الغضب، فقد كنت أضيق ذرعاً، الى ذلك الحد، بأقل تضحية»[2].

ونحن ندرك أن هذا الغضب، هذا السعار على أي حال، هذه اللهفة التي استشففنا فيها عنفاً ما عميقاً، لا يستطيع الوعي الذي يحس بها ان يشبعها، في بعض الأحيان، سواء كان ذلك الوعي سعيداً أو غير سعيد، الا بأن يقلبها ضد نفسه. ذلك أن من يطلب المطلق يجد كل انتصار واقعي غثاً، وانما يجب الاستسلام للمطلق نفسه، ويجب ان يهب المرء ذاته لقبضته، حتى يمكن أن يُولّاه.

وفوق ذلك فان الحاجة الى الدهشة والمفاجأة (تماماً كالحاجة الى الاحساس

---

١ - نفس المرجع ص ٢٠٩ - ٢١٠.
٢ - «قوة العمر» ص ١٦٢.

بلذعة الخمر أو لذعة اللذة) لا تكف عن التزايد ، بنفس القدر الذي تُشبع فيه : اذ أن الأمر يتعلق بأن يُدهَش المرء ويفاجأ بالنسبة الى الدهشات والمفاجآت نفسها التي كان قد استطاع أن يتمتع بها . واذن فيجب ، في كل مرة ، « الاستزادة منها » والاستيلاء على الكينونة هنا يبلغ ذروته في الحاجة بالمرء الى أن يُستباح .

وبدرجات متفاوتة (حيث ان حدّة النتيجة تتوقف أيضاً على السياق الانساني ، على العلاقات التي تقيمها مع الآخرين) فان كائنتنا تبدو كأنما تنتظر من العالم الطبيعي نوعاً من الاستباحة ، في كثير من الحالات . وتمضي الأمور كما لو أنه كان يلزمها في كل مرة أن تحس نفسها ، على هذا النحو ، موضعاً للهجوم والارغام حتى تعود فتجد بهجتها في الحياة ، حتى تعود فتتوامم مع نفسها — أو أنها تكون على هذا النحو قد أعادت تعبئة مراكم خفي للطاقة يتوقف عليه وجودها نفسه ، بأن تجذب الى نفسها هذه الصاعقة السماوية . ولكن الطريقة التي تتحدث بها عن ذلك طريقة خداعة أحياناً . ذلك أن العنف ليس محسوساً مباشرة فيها ، في كل الأحوال : وهو ما لا يدعونا للدهشة قط اذا سلمنا بأنه ما من أحد يستباح عن طيب خاطر تماماً ، في أي مجال أياً كان ، وأنها لا بد لها اذن من أن تجهد لتنسى انها اختارت أن تستباح . ومن هنا جاءت البساطة العجيبة التي يبدو أن مفاجآت الهية تهبط بها عليها ، هنا وهناك ، وهي المفاجآت التي ليست بالاجمال الا الأسلوب العادي لعلاقاتها بالسماء ، بالكينونة ، بالمطلق : «كانت الاشياء دائماً تتجاوز خيالي » — « لم يثلم الزمن حدة هذه البهجة : الاكتشاف ، يوماً بعد يوم ، ساعة بعد ساعة ، لوجوه جديدة من العالم »[1] . انها في آفيلا ، وهي تفتح نافذتها ، وتحدث المعجزة ... ولكن يحدث في نهاية الأمر ، أن الله ينسى أن يظهر للقديسة تيريز نفسها ، فهل تسلم سيمون السعيدة بالنعمة

---

١ — « قوة الأشياء » ص ٤٨ و ٣٧ .

من هذه المحنة ؟

ان نصوصاً أخرى توضح أنها لا تسلم من ذلك : « ذلك نادر ، حتى في اثناء الرحلات ، بداية حقيقية » — « .. ومن وقت لآخر كنت أشكو أن كل شيء حوالي تبهت ألوانه ، واتنهد في لوعة : انني لا أحس شيئاً. كنت ماازال قادرة على الاحساس « بالارتعادات » ومع ذلك فقد كنت أحس احساساً لا يعوض بالفقدان » . ان ما تحبه ، فوق كل شيء في الرحلات ، هو أن تجد نفسها فجأة في مكان مجهول : « وذلك لا يلبث أن يحدث دائماً ، مفاجأة اليقظة ، عندما أجد نفسي ، بعد نوم طويل ، قد انتقلت فجأة الى فجر بعيد جداً » . وعندما اقتنت سيارة ، كانت تخشى (مع سارتر أيضاً) أن تفقد « شيئاً ما » : « مفاجأة أن أجد نفسي ملقاةً بي فجأة في قلب مدينة »[1]. ولكننا بلاشك نجد في كتاب « أمريكا يوماً بعد يوم » أكثر الملاحظات استرعاءً للاهتمام ، عن تلك الحاجة الى أن تكون موضع المفاجأة ، والتملك ، والدهشة ، أن تبلو الصدمات ، أن تحيا لحظات خارقة ، ان تحس نفسها موضع الهجوم من شيء مجهول وجديد كل الجدة .

ومنذ السطور الأولى ، منذ طيرانها الى نيويورك (في ٢٥ يناير ١٩٤٧ وهي في التاسعة والثلاثين من العمر) نراها بالفعل تنتظر المعجزة : « ان شيئاً ما يحدث . ان المرء يستطيع أن يحصى في حياة ما عدد اللحظات التي يحدث فيها شيء ما . » لم تكن تلك قطعاً رحلتها الأولى ، كانت قد غادرت فرنسا قبل ذلك نحو خمس عشرة مرة ، وكانت قد عرفت كشوفاً أخرى ، ولكنها تقنع نفسها ، مرة واحدة ، أن اللعبة هنا من نوع مختلف (وتظن أنها وجدت سبب ذلك في المظهر « الاسطوري » الذي كانت نيويورك تتخذه دائماً في عينيها) . وهي تبشر نفسها بأن الأمر ، هذه

١ — نفس المرجع ص ٢٢٤ ، « قوة العمر » ص ٢١٧ ، قوة الاشياء ص ١٠١ و ٣٠٣ .

المرة، ليس استيلاءً على العالم بل هو تطوّر حقيقي في كينونتها نفسها (أي اقتناء للكينونة، واستحواذ للكينونة عليها): «ان السفر، في العادة، هو محاولة ضم موضوع جديد الى عالمي[1]: وهذا مشروع يدعو الى شغف مشبوب. ولكن الأمر مختلف اليوم: يبدو لي أنني سأخرج من حياتي، ولست أدري ما اذا كان ذلك عن طريق الغضب أو الأمل. ولكن شيئاً ما سوف ينكشف، عالماً من الامتلاء، من الغنى، عالماً غير منتظر، بحيث سوف أعرف المغامرة الخارقة بأن أصير، أنا نفسي، أخرى»[2].

وما أن تصل، ما تكاد تهبط بها الطائرة، حتى تعنى بأن تسترضي الآلهة، بالتأكيد، وهو استرضاء لا يمكن أن يمدّها لا برحلتها في الطائرة ولا بركوبها بعد ذلك، في السيارة الذلة التي أنت لاستقبالها: «أسير على قدميّ في برودواي... أسير...». وقد قلت إنه ينبغي أن نرى في ذلك النشاط الحبيب اليها، الى جانب أنه عمل فعليّ، نوع من الطقوس، ومحاولة سحرية لتملك كينونة العالم. وبعبارة أدق: ان تجعله ملكها باعتباره ما هي غائبة عنه. «وغداً، سوف تصير نيويورك مدينة. ولكن هذا المساء ملك للسحر... وأقول: نيويورك، ولكني لا أعتقد بصحتها تماماً... لست في باريس بعد، ولكنني لست هنا... ليس لي مكان على هذه الأرصفة، هذا العالم الغريب الذي سقطت فيه فجأة لم يكن ينتظرني، كان مليئاً من غيري، إنه ملء من غيري؛ هذا عالم لست فيه، انني أدركه في غيابي الكامل»[3].

---

١ – نحن نعرف، في هذا الصدد، ما المقصود بذلك. الا ما يحدث لها «في العادة» ليس بهذا التواضع.

٢ – «أمريكا يوماً بعد يوم» ص ١١ – ١٢.

٣ – أمريكا ص ١٥. – وفيما يتعلق بمدينة تعرفها مع ذلك من قبل، نجدها تقول، عندما تعود اليها: «احسست أني انتقلت الى شيكاغو بالسحر: ذلك أنه بالسحر وحده سوف =

اذا كان هذا العالم في عينيها هو الكينونة بالذات ، فذلك أن وجودها نفسه هو موضع النزاع الجذري فيه ، فانها لم تستول عليه ، لم تمش حتى تصل اليه ، بل اكتفت بأن سقطت فيه : « لم أخطّ طريقي على سطح الأرض ، هذه المدينة ، وباريس ، ليستا مرتبطتين كعنصرين في نسق واحد .. انهما لا يوجدان معاً ولم استطع أن انتقل من احداهما الى الأخرى » . ولأنها لم تستطع أن تلحق نيويورك بعالمها ، عن طريق جهد حقيقي ، فان الوحشة الكاملة التي تحسها فيها تغريها بأن تأمل تملكاً من نوع مضاد ، خضوعاً عاشقاً لهذه الكينونة التي تنكرها ، استمتاعاً بأنها منكورة من هذه الكينونة .

ويبدو أن المعجزة المنتظرة قد وقعت : « شيء ما قد حدث لي .. لست أدري بعد ما اذا كان ذلك سعادة كبيرة او كارثة أنقضّت عليّ .. ولعلي ميّتة ، كما يحدث لي كثيراً في أحلامي . ولعلي سوف استيقظ على الشاطىء الآخر من الموت . وانا إذ افتح عيني ، خائفة . وأذكر نفسي : ليس هذا هو العالم الآخر تماماً . هذه نيويورك »[1] .

وعلينا أن نذكر هذه الفقرة عندما نتناول موضوع الموت الذي تصل أهميته تقريباً الى نفس الأهمية التي عرفناها لموضوع السعادة : في الهول العميق الذي يحسه هذا الوعي بازاء الموت (والذي لا يصح أن نخلط بينه وبين هذا النوع من الرفض الذي تعارض به الشيخوخة بكل كيانها) وهناك بلاشك نوع من ازدواج الميل حيث يتمثل جانب الرغبة (المتجاور مع كل حلم) في الاغراء بتملك الكينونة وذلك بالتنازل عن الوجود — اذ يتدخل الموت هنا باعتباره الحدث الأسمى ، الشكل الحدّيّ للملكية ، الاستباحة المطلقة . و « الخوف » الذي يتعلق الأمر به هنا ، على الأقل

— يتسنّى لي أن أخرج منها » (« أمريكا » ص ٣٤٢) وهذا النوع من الاحساس الذي يمكن أن نقول أنه ما من أحد يحسه قط الا اذا أحس الحاجة اليه .

١ — « أمريكا » ص ١٦ .

الآن ، هو الوجه العكسيّ لنشوة جياشة . ونحن مدعوون ، الى حد ما ، الى اساءة فهم هذه النشوة ، في البداية . اذ أنها توصف لنا هنا ، من جديد ، بعبارات الاستيلاء والضمّ والالحاق . فهل كنا ضحايا وهمٍ من الدرجة الثانية عندما طردنا شبح راستينياك بمجرد أن استشفعناه ؟ فها هو ذا المشهد من جديد ، على أي حال ، بكل نمطيّته : «انني لا أتحرك ، انني أنظر . انني هناك وسوف تكون نيويورك لي . وأتعرف على هذه البهجة ، انها قديمة قِدَمَ خمسة عشر عاماً . كنت أخرج من المحطة ، ومن أعلى الدَرَج الشامخ رأيت كل سقوف مارسيليا تحت قدميّ .. »

ولكن لا ، ان اللبس لن يلبث طويلاً حتى يختفي ، مرة أخرى . فبعد بضع سطور سوف نجد من جديد فيما يتجاوز بعيد المطامح النسبية للشخصية البلزاكيّة — هذا الحوار الجوهري بين جهد الاستيلاء وتطلّب ان تكون موضع الاستيلاء ، الذي ألفناه ، ولو قليلاً ، من قبل : «سوف تكون نيويورك لي ، وسوف أكون لها ، فاذا بقي عندنا بعد ذلك أقل شكٍ في المعنى الحقيقي لهذه الصيغة الكاملة التوازن فنسارع الى تقليب بضع صفحات ، والى تذوق طعم التفسير الذي تمدنا به الكاتبة نفسها : «انا لا أوجد بعد . هذا اذن هو الأمر . انني أفهم ما جئت سعياً إليه : هذا الامتلاء الذي لا يعرفه المرء قط الا في الطفولة أو في ميعة الشباب الأولى ، عندما يُلغى المرء لحساب شيءٍ آخر غير ذاته . تذوقت بالتأكيد ، في سفراتٍ أخرى ، هذه البهجة ، هذا اليقين ، ولكنها كانت مراوغة هاربة ... انني لم أهبط في بلاد غريبة فحسب ، بل في عالم آخر . عالم مستقل بذاته ، منفصل ؛ انني ألمس هذا العالم ، انه هناك . وسوف يعطى لي . بل هو لن يعطى لي أنا ، انه يوجد بوضوح بديهي باهرٍ حتى لا أستطيع أن أفكر في أن أوقعه في حبائلي ، سوف يكون كشفاً يتحقق فيما يتجاوز حدود وجودي نفسه . وهأنذا مرة واحدة ، قد خلصت من همّ هذا المشروع الرتيب الذي اسميه حياتي . لست الا الوعي المسحور الذي يتكشف فيه الموضوع صاحب السيادة

كلها »[1].

ان كل شيء يبدو واضحاً هذه المرة : سيمون دو بوفوار وقد أصبحت امرأة ، تحاول بلا وهن أن تجد من جديد السعادة القديمة للبراءة ، ويجب أن تستولي عليها الكينونة نفسها ، المطلق نفسه ، حتى تحس من جديد ، بين وقت وآخر ، وعلى هيئة متع عنيفة « وارتعادات » لا ترد ، معادل ذلك الامتلاء الطبيعي .

فهل ثمّ ، هنا أيضاً ، شيءٌ ما لا يستقيم على وجهه ، كما حدث من قبل لسيمون الصغيرة وهي في وسط سعادةٍ مشابهة ، أنها تشنجت من الغضب اذ اكتشفت المهازل التي كان يلعبها الكبارُ عليها ؟ « هذا هو الأمر ، انني افهم .. » كما قالت لنا كاتبتنا . وتعود لتقول لنا ، بعد خمسة عشر عاماً « انني افهم .. » ولكن لتقدم لنا تفسيراً جديداً نستطيع أن نرى الاختلاف في نغمته : « لا ، ان وعود هذه السماء ، وهذه الأضواء ، لا يمكن أن يوفى بها في أي مكان ، لا يوجد ثم شيء مصنوع جاهز يتسق مع روعة هذه الليالي ؛ هذا الامتلاء الذي احلم به ، الذي كان سيعطى لي من خارج ذاتي ، لن يكون أبداً الا شبحاً : ولن أوعَد شيئاً أبداً الا نفسي ، وأنا نفسي لا شيء اذا لم يكن لديّ ما أفعله من نفسي .. ينبغي أن يحدث لي شيء ، شيء حقيقيّ ، وسوف يعطى لي كل شيء آخر فوق ذلك »[2] .

فاذا لم اكن مخطئاً فان فكرتها عن « الموضوع الذي له كل السيادة » هو موضع التساؤل والشك هنا : ان الحدث الحاسم الذي ينبغي أن يُظهره بالفعل ، هذا « الشيء » الذي يجب أن يحدث ، رأيناه أولاً باعتباره منتظراً ، ثم بدا أنه قد وقع ، ثم نجده من جديد مسألة قد تحدث في المستقبل ، وها هو ذا الآن شرطيّ على شكل أمنية لا يكاد المرء أن يجروْ على تمنّيها ... ولكننا

---

١ – نفس المرجع ص ٢١ – ٢٢ .
٢ – « أمريكا يوماً بعد يوم » ص ٧٥ .

نلاحظ أن الحدث نفسه يبدو كأنما قد تغيرت طبيعته. فليس المطلوب منه فحسب أن يكون « حقيقياً » بل من الواضح أنّ المطلق الذي يجب أن يصدر عنه هذا الحدث لا يمكن أن يختلط بالعالم الطبيعي: « ليس الليل الا مجرد واجهة ديكور، فاذا حاولت أن أمسك به، بأن اجعل منه مادة اللحظات التي أعيشها، فانه يذوب بين يدي ». وبعبارة أخرى، فان وعيها، بازاء الطبيعة، يظل شديد الوعي بذاته، بالدور الحقيقي الذي يُصرّ على أن يقوم به في هذه الدراما التي لا توجد فيها الا شخصيةٌ واحدة، حيث لا تعبّر الكينونة ابداً عن ذاتها، الا من خلاله. ان ما يستشفه وعيها هنا، هو بكل بساطة أن الكينونة باعتبارها طبيعة، المطلق باعتباره موضوعاً، كائنة بالفعل، بالاطلاق — ولكنها لا تفعل شيئاً لأحد: ان ما يأتيه منهما، ما « يحدث » له من خلالهما لا معنى له قط الا المعنى الذي يختار أن يراه فيه. ان الاحداث الحقيقية الوحيدة هي التي ينتجها الوعي اذ يمارس الفعل على العالم...

انني مذنب! فقد تركت نفسي انساق وراء المنطق الداخلي لتعليقي نفسه، فليغفر لي القارىء هذه اللحظة من الشطط.. ذلك ان النص لا يتحدث، بأي شكل، عن فعلٍ يقع على العالم: بل تشكو كاتبتنا، على العكس، من انها لا تدري كيف تستخدم نفسها، ويبدو أنها تنتظر، على وجه الدقة، أن تظهر لها الأمارات والعلامات، عن طريق حدثٍ ما يتعلق بها شخصياً.

واذ أحاول هذه المرة أن اتجنب كل شطط في التفسير، أزعم أن سيمون دو بوفوار، وقد وصلت إلى هذه اللحظة من تطورها، تفهم أن كل شيء يمر من خلالها (من خلال الوعي بكل الاشياء نفسه) ولكنها لم تكف عن أن تحس الحاجة الى أن يحدث « شيء ما » يتيح لها أن تكون هي ذاتها أخيراً — اذ يكون عليها أن تفعل شيئاً ما من نفسها. ان هذا التطلّب مألوف لنا، انها، كما كانت تماماً في طفولتها وفي مراهقتها، تريد نفسها مطلوبة، منتظرة، مختارة. ولكنها اذ كفّت عن الايمان بالله، وما دام

الحدث الحاسم لا يمكن أن يحدث لها الا عن طريق مجرد لقاءٍ (معطىً ، يستولى عليه بالعناء والمشقة أو ينال بالسحر) بالعالم الطبيعي ، الا يتعين علينا أن نفهم أنه لا يمكن منذ اللحظة ، أن يظهر لها « حقيقياً » الا اذا جاءها من الانسان ؟

٣ – العلاقة بالعالم الإنساني

فلنسلّم على الأقل أن هذا هو الاتجاه الذي تستشفّه بالفعل ، في اللحظة التي كتبت فيها تلك السطور التي كنا منذ قليل نُعمِل فيها بمعولنا . وذلك لا يعني بالمرة أنها منذ الآن ستمتنع عن كل رجوعٍ الى الاتجاه السابق ، ولا تعود تنتظر الا من الناس هذا « الخلاص » التي تصر على تطلّبه .

فقد كتبت قبل ذلك بأقل من عشرة أيام ان « أعظم معجزة في هذه المرحلة » هي أنها أتاحت لها أن تعرف ، في نيويورك ، « ذلك الامتلاء الذي يعطيه للروح بعد خلاصها تأمل فكرةٍ نقية صرف » « وأن هذه المعجزة لم تكن قط » أكثر مدعاة للانبهار « وأنها في البارحة ، عندما كانت تستمع الى الجاز في سافوي ، أحسّت أنها تمس « شيئاً لا يُفضي الى شيء غير الذات »[1] وتضيف : « خرجت من الكهف » وتحرص على أن توضح ، بهذه الاشارة الى افلاطون ، أنها قد « خلصت » بالفعل من المظاهر – من هذه البلبلة النكدة التي تغشي الواقع الحقيقيّ ، واقع الماهيات النقية ، عندما ندركه على صعيد وجودنا العرضيّ .

فهل تطورت من ٣ الى ١٢ فبراير بما يكفي ليتسنى لها أن تقبل وتمتثل ، أن تعود فتهبط الى العبيد ، وأن تبقى معهم ؟ لا ، لا بالرغم من كل شيء .

---

١ – « أمريكا يوماً بعد يوم » ص ٤٣ .

فهي، منذ الغد، سوف تطلب، في السينما هذه المرة، المعجزة التي أتى بها إليها الجاز في الاسبوع الفائت: «كانت الشاشة تحوّل أشكال الموضوعات اليومية... عن طريق هذه الصور السوداء والبيضاء كنت قد عرفت أمريكا في البداية، وكانت ما تزال تبدو لي كأنها المادة الحقيقية. الشاشة سماء افلاطونية كنت ادرك فيها من جديد، بكل نقائه، المثال الذي لم تكن البيوت المبنية من الحجر، وانوار النيون، الا تجسيماً له غير يقيني»[1].

وبعد خمسة عشر يوماً، ومن خلال «الاغاني القديمة الآتية من العصور الوسطى... التي تناولها منذ القرن الثامن عشر الموسيقيون الشعبيون في أمريكا»، سوف تظن أنها قد وصلت، دفعة واحدة، الى الكيان الشامل لأمريكا: «أمريكا ليست كائنة في أي مكان. ولكن الموسيقى تفلت من مقتضيات المكان الصارمة: يمكن أن تحتوي على ما ليس في اي مكان.

---

١ - «أمريكا يوماً بعد يوم» ص ٧٧. من الجدير بالملاحظة أن حاجتها للذهاب الى السينما خلال رحلتها في الولايات المتحدة، تبدو كما لو كانت جنونية تقريباً (فقد كانت تشهد في بعض الأيام ثلاث أو أربع حفلات سينمائية على التعاقب) بقدر ما كانت حاجتها الى المشي جنونية، لكي تشبع جوعها الممض الى الاستكشاف. وايّاً كان الاختلاف بينهما، في أكثر من ناحية، فاننا نرى فيها نفس العلاقة بالعالم الحقيقي-البعيد بإزائه-التي يتيح لها هذان النوعان من السلوك أن تقيمها: الشاشة: «تقيم بين محل المبيعات وبيني ذلك البعد، تلك المسافة التي يبدو أنها تتلاشى كلما شربت كوباً من عصير البرتقال والتي تستمر مع ذلك باقية» (نفس المرجع ص ٧٧). مثال آخر لأفلاطونية فكرة المثال هذه: «هذا أيضاً ظل من هذه الظلال التي لمحتها في كهف الطفولة يجد الآن حقيقته: ليس هذا مجرد سيرك بل هو السيرك بالذات...» (نفس المرجع ص ٢٥٣). وغرابة هذه الاشارة الثالثة الى الكهف تتمثل في انها تضع المظاهر العرضية على صعيد الطفولة؛ بدلا من أن تجعلها، كما كان الحال فيما سبق، هي نصيب وضعنا اليومي باعتبارنا كباراً ناضجين: ذلك أننا نتوقع، أكثر، وعلى الأخص فيما يتعلق بالسيرك، أن تكون رؤيا الطفولة أكثر اسطورية، وأدنى الى مثال السيرك المطلق من رؤيا الشخص الناضج التي قد تكون أكثر نسبية نتيجة لكل انواع الاعتبارات التحليلية. ويبدو لي، من هذه المفارقة، أن سيمون دوبوفوار لا تعطي أية قيمة لهذا النوع من الرؤيا الشاملة التي تستطيعها الطفولة: ان الوصول الحق الى المطلق يفترض مسبقاً تحدياً لتحليل، وعملا شاقاً في الملاحظة المنهجية والفهم التأملي.

تحتويه ، وتعطيني اياه »[1] ولكن هذه الفضيلة التي تكتسبها الموسيقى في عينيها ، كانت قد تحدثت سيمون دو بوفوار الينا عنها ، على نحو أكثر دقه : « ان الموسيقى تدخلني الى عالمٍ آخر حيث تسود الضرورة ، عالم تطيب لي مادته ، ونغمه ، جسمانياً . إنّه عالمٌ من البراءة – على الأقل حتى القرن التاسع عشر – لأن الانسان غائب فيه »[2].

ولك أن تقول إن الموسيقى والسينما هي أعمال انسانية ، وان الاستناد اليها ، للابتعاد عن العالم ، هو ، شاء المرء أم لم يشأ ، الاستسلام للناس . ولكن يبدو لي أن العملية الحقيقية التي تقوم بها سيمون دو بوفوار انما تتم في الاتجاه العكسيّ . وبدلاً من أن تستسلم للعالم الانساني الذي يحيط بها ، فانها تفيد من بعض منتجاته ، في الحاضر او الماضي ، لكي تتفصم عنه ، اذ تُحلّ محل واقعه المحدد المجسم ، ماهية تتطلب منها أن تكشف لما عنها : مما ينتهي الى الافادة من هذه المنتجات ، كما تفيد ، من جانب آخر ، بمظاهر العالم الطبيعيّ . وفي هذا الخلْط المقصود الذي تقيمه ، عن طيب خاطر ، بين النسبيّ والمطلق (ما فوق العرضيّ) فان الخطة الثانية من بين هاتين الخطتين هي التي تسود على الخطة الأولى ، كما هو مفهوم . ولاشك أن هذه العملية من التمهية[3] ، الى حد يقل أو يكثر ، أكبر دور في مجال الفنون ، ولكننا نستطيع أن نلاحظ أن سيمون دو بوفوار تنجح جزئياً في استخدام هذه العملية أيضاً بالنسبة الى أشكالٍ اخرى من النشاط الانسانيّ . فهذا مثال جديد على أحـد منتجات التكنيك (القطار) وتحت نوعٍ من الترف (مقصورة صغيرة معزولة) تعتمد سيمون دو بوفوار هذه المرة في خدمة وهمها بأنها « التي خلصت » بحاجتها الى أن تكون في مكان آخر : « هذا المضجع الصغير الذي أرقد

---

١ – نفس المرجع ص ١٢٧ .

٢ – « قوة الاشياء » ص ٥١٠ .

٣ – essentialisation تحويل « الوجود » الى « ماهية » (المترجم) .

عليه هو اكثر من سرير : انه مسكن ومقام كامل مختزلاً الى أبعاد سرير .. انه ملاذ ، وحدة ، انفصام .. ان حياتي لا تعارضه بعد أحداً ، ولا تتصل بعد بأحد ، ولا بشيء ، انها مغلقة على ذاتها في صمت الموت . واطفىء النور ، وأغمض عينيّ . وأحس الحركة الايقاعية للقطار الذي ينطلق في المجهول ، هذه الحركة أيضاً تحمل الي السلام : سلام الشهادة أنني في مكان آخر . فلست منفصمة عن كل شيء فقط ، بل أنا لم أعد أقع في أي نقطة من العالم : لست الا انتقالاً .. لهذا السبب بلاشك أجد أن نومي في القطارات نوم سعيد دائماً »[1]

ان الخلاص الذي يتعلق الأمر به هنا لايتخذ قطعاً مظهر استيلاء ، ان وضعاً عرضياً هنا يستخدمه الوعي تعلة لكي يتصور نفسه وقد أفلت من كل وضع . إنه هروب ، حلم بعودةٍ الى البراءة . والسعادة لاتصدر ، كما كانت تفعل في مواضع أخرى ، من ممارسة حرية تفرض على الواقع صرامة خططها ، ولا تُستهدَف بعد من خلال جهدٍ يستحق أن يبذل من اجل الحصول عليها ، بل هي تدرك ، دفعة واحدة ، بحركة الهروب ، انها هي هذا الملاذ نفسه في قلب غيابٍ غير مسئول . وسيمون دو بوفوار تلح على ذلك ، على نحو ما ، بنفسها : « ان هناك ذكريات من الطفولة في أساس هذه المتعة : أذكر شجيرة صفصاف باكية جعلت منها بيتاً ، وسريراً ريفياً ضخماً بأعمدة مغلقاً بستائر ثقيلة ، وهذا الصندوق المعتم الذي كنت أحب أن أتكوّم فيه على نفسي تحت مكتب أبي . » ولكننا نراها للفور – متعللة بأنها ترفض سلفاً التفسير النفسيّ التحليلي « الرمزي » ، لفرط سهوته – (« رغبة العودة الى داخل الأم ») – نراها تحاول أن تدحض أيضاً تفسيراً آخر يبدو لي مع ذلك سائغاً الى حد كبير ، فهي تؤكد لنا أن هذا المضجع « ليس ذكرى سعادةٍ مفقودة » فلو كان الأمر

---

٣ – « أمريكا يوماً بعد يوم » ص ١٠٦ . ولنلاحظ ، عابرين ، عودة الرابطة التي كنا قد أوحينا بها بين موضوع السعادة وموضوع الموت ، الى الظهور من جديد .

يتعلق بالرجوع حتى صدمة الميلاد الشهيرة ، لكانت الخيطة مسلماً بها ، فلن تكون للسعادة قبل الميلاد أية قيمة قابلة للتحقق منها ، بالنسبة الينا ، حتى تمكن اقامة الدليل العكسي (اي حتى يتسنى اجراء حوار مع جنين) . اما فيما يتعلق بالطفولة المعاشة ، فان هذا النفي ، مسبقاً ، لايبدو لي على العكس مبرراً أدنى تبرير ، بل أنا أميل الى أن اعتبره من قبيل الاعتراف . وقد لاحظت من قبل أنه لابد قد وقع حدث ما ، في حياة سيمون الصغيرة ، حتى دفعها الى أن تُحل التفاؤل محل السعادة ، والجهد والاستيلاء محل المتعة المباشرة الفورية بامتياز يكاد ان يكون طبيعياً . فاذا وضعنا موضع الاعتبار العناصر الجديدة التي استطعنا أن نجمعها بعد ذلك ، فلست أظن من المغالاة في القول أن نستشف ، في حاجتها الى أن تُحدث «شيئاً ما» ، رغبة عميقة في علاج هذا الحدث الذي يوشك ان يكون أصيلاً (في الغالب بتعويضه بحدث في اتجاه مضاد) وان نستشف في الهروب نفسه (وهو نوع من النكوص) وقد رأيناها تطيب نفساً به ، رغبةً في إنكار أن ذلك الحدث قد وقع قط . والا فكيف نفهم أن تلك المرأة التي تنيط أهمية ثابته دائمة بمعنى وتبرير اقل تصرفاتها شأناً ، تصل الى حد اعتبار العفوية المؤقتة في وضعها مصدراً للبهجة ، وضرباً من السعادة هو ، من جديد ، هبة من السماء؟ «كان الجو صحواً ، وسحرتني فكرة أنّ على قضاء ثلاث ساعات في قرية امريكية صغيرة لاسبب عندي اطلاقاً أن اكون فيها .. كان حضوري يبدو لي ، لذلك ، أكثر عفوية .. الخ» أو : «إن عبث وجودي هنا يتفجر بعنف اكبر مما كان في ردشستر ، وامتلأ قلبي لذلك فجأة بالبهجة .. لست في أي مكان ، لقد أفلتّ من قوانين المكان» [1] ولعله لم يكن من قبيل الصدفة أنها في أولى هاتين المرتين ، تجد أيضاً ، في نفس الوقت تقريباً «احساساً بعلاقة حميمة بهذه البلاد» و «الاحساس الذي يدير الرأس بأنها (تشهد) طفولة العالم» : ان من

١ — «أمريكا يوماً بعد يوم» ص ٢٢٨ و ٩٣ .

يزعم انه يستعيد علاقة الحميمة بكينونة الاشياء لا يصعب عليه أن يتصور العالم نفسه في سبيله الى العودة لبدايته..

ويبدو حقاً بالفعل أننا نصل هنا الى احدى النقط التي تصل فيها محاولتنا المطلق، الى الذروة. فالعالم «الطبيعي» او العالم «الانساني» شيء واحد، من مثل هذا الارتفاع. والترّمت المدقق المعتاد في ألفاظها يجب أن يسلم هنا بأن يترك نفسه، الى حدما، يهتز. ونحن نرى أيضاً في أدلّ هذين المثالين «الاحساس بعلاقة حميمة» ينبثق في قلب «وحدات شاسعة» حيث ندعى الى الالتقاء «بكرم المكان الرائع»، ولكن هذا النوع من اضفاء خلقية ما على الطبيعة (أو من تمجيد الحرية الانسانية) ليس عرضياً من قبيل المصادفة: فهي تقول لنا بعد قليل: «انني أحب هذه الرتابة الكريمة» (في المشاهد التي تتتابع عند النفق الكبير Grand Canyon)، «هذه الهضبات العمياء التي تسلقها الشمس حتى تلين وتسوغ، انما توجد بعناد رائع، من أجل ذاتها»[1].

مهما صار المرء غريباً عن كل شيء، فان القطار يصل به الى مكان ما، بين الناس دائماً. ومهما كانت احدى المدن الكبيرة «موحشة» عند أول لقاء بها، فلا بد بعد ذلك أن يصيب المرء مرانة بها، ببطء، يوماً بعد يوم، في نسبية كاملة. ومهما كان العالم الراهن موحياً بالمطلق، فلا يستطيع المرء أن يخفي عن نفسه طويلاً أن الكيان الذي يلقاه فيه ليس هو دائماً الكيان الذي نطلبه منه. يتسنّى للمرء أن يمنح نفسه فيه أعياداً حميمة، وأن يحتفل بالطقوس فيه وحده، وأن يستقي منه، كلما سنحت الفرصة، متعةً عارمة: ولكن هذا «الرضى» نفسه لن يرضى به المرء حقاً، أبداً، اذ ينبغي ان يحيا المرء أيضاً خلال الفواصل بين هذه اللحظات، وليست تناقضات الواقع اليومي بقابلة للاختفاء مهما طال وجودها. ما من وسيلة

١ - «أمريكا يوماً بعد يوم» ص ١٨٠.

لافراغ العالم الانساني ، ولا للفرار منه : فالمرء عندما يحمل نفسه انما يحمل هذا العالم معه ، ولذلك فهو في كل مكان — بما في ذلك « اللامكان » ...

الطبيعة من غير الانسان؟ نعم ، في أيام الأعياد والسعادة ، يستطيع المرء بلا شك ، اذ يسلم نفسه بكل جوارحه للروعة الخشنة العتيقة في بقعة من الأرض توشك أن تكون خاوية من الناس ، أن يسوق نفسه بالبساط حتى يحس نفسه « كائناً » . ومع ذلك فينبغي أن يكون الناس مرجعاً في ذلك ، حتى تُستمد ، من غيابهم النسبي ، تلك الرعشة التي من شأنها أن تفضي الى النشوة : « ما زالت هذه البلاد أكثر بلاد العالم عذرية ، فالانسان ، بمظاهر أبهته ، وباعماله ، ما زال فيها ظاهرة جديدة ومتناثرة ولا تصل كل جهوده الكادحة الا الى خدش القشرة الأرضية » . وهناك أيضاً التخوف من الانقلابات التي قد تحدث من جراء مثل هذا الانتقال الى الحد الأقصى : « ان الآكام الصخرية (نحن في كاليفورنيا) أكثر نبواً عن الانسانية من جبال الألب المستدقة كالابر ، فما من أحد يقيم في ظلالها أو يرعى فيها ماشيته ، وما من سائح يغامر بالذهاب اليها ، ومن وراء هذا الحاجز الأوّل ثم سلاسل وسلاسل من الجبال لم تتأملها عينٌ قط ، فهي غريبة حتى لتبدو معادية ، ووجودها عفويٌ ، عنيد ، كوجود القمر في السماء . وتتكشف الأرض كلها فجأة كوكباً قد نُذر هو أيضاً الى أهوال السلام الأبدي » [١] .

وهكذا يحدث أن الكينونة ، التي يحاول هذا الوعي أن يجعلها تستولي عليه حتى يعالج انعدام الكينونة فيه هو نفسه ، تتغير دفعة واحدة فتصير النفي المطلق لكل وعي ممكن . وهي اذ تتكشف جملةً واحدة باعتبارها الكينونة التي هي بحيث لا تتكشف ، فانها لا تلغي نفسها ، لا تصبح « لا شيء » : بل تفرض نفسها ، على هذا الوعي ، في هول ، باعتبارها كينونة العدم ذاتها — اي عكس المطلق الذي كان يستهدفه هذا الوعي ، على وجه الدقة ؛

---

١ — نفس المرجع ص ١٢٩ و ١٥٧ .

ذلك أنه قد حان الوقت ، فيما أعتقد ، لكي نذكر أن هناك أيضاً عند سيمون دو بوفوار طريقة أكثر ايجابية للاتجاه الى العالم. فلا يمكن أن تُتصور حاجتها الى أن يُستحوذ عليها ، وهي على ما نعرف من النشاط ، والتدقيق الصارم ، بكل معنى الكلمة الا اذا كان نزوعهـا الى التوحد مع الكينونة نزوعاً مبرراً ، في عينيها ، بالتطلّب العملي الى أن تتوحد الكينونة بوعيها نفسه ، وان يستند هذا النزوع الى ذلك التطلّب العملي ، بأن تأخذ في الكشف الكامل لهذا النزوع ، وان تشرع في تحقيقه .

ولكن تلك فيما هو واضح مهمة لا نهاية لها وما من وجود انساني بقادر على بلوغ غايتها : ونحن نعرف أنها تعي كل الوعي بهذا التباين في الأبعاد (تباينٌ في الابعاد كامن في « رسالتها » في « نذرها ») . ومن هنا جاء التقريب الخارق ، في علاقتها بالعالم ، بين هذين الموقفين اللذين رأيناهما تتناوبان ، بالتناوب ، واللذين يلوح للمرء أنهما غـير قابلين للتوافق بين أحدهما الآخر : موقف حرث الأرض وتقليبها على نحو منهجي (رؤية كل شيء ، الا يفوتها أي عنصر من عناصر الواقع) وموقف الاشراق والسطوع (استشفاف الكلّي بفضل لحظة امتياز وعلوّ ، بفضل وضع خارق ، حيث يتاح لها أن تختزل ذاتها) . والواقع أن هذين الموقفين المتناقضين يتضحان باعتبارهما متكاملين ، في نظرة ديالكتيكيةٍ ببسيطة الخطوط غاية البساطة فلما كان الهدف هو كشف الكينونة في كليتها ، فان الحركة الأولى هي العمل على ترسّم آثارها ، في سعار الموله ، حتى في أدنى مظاهرها . ولكن لما كان من المستحيل أن نصل اليها على هذا النحو ، ولما كان المرء لا يلبث طويلاً حتى يدرك ذلك ، فان الحركة الثانية تميل ، كرد فعل ، الى بلوغ الكينونة الكلية في جملتها ، في أشكالهـا الشاملة (ومن ثمَّ ، الى البحث ـ معها ـ عن لقاءات حاسمة تنبثق منها ماهيتها الحقيقية دفعة واحدة) .

ونحن نجد في الديالكتيك أن « القضية » و « نقيضها » يتحددان ، عامة ، على نحو دقيق ، اما النقلة الى التركيب فتبقى متميعة الى حد ما ، كما لو كان

المرء ينفذ خلال نوع من الضباب ، بحيث يكون من غير السهل غالباً أن يعرف المرء ما اذا كان هذا التركيب قد وقع بالفعل ، او ما اذا كان المرء ما زال بعد أمام ذبذبة دائمة وسريعة بين طرفي النقيض . اما في الحالة التي نحن بصددها ، فأنا أراهن أن التركيب قد حدث بالفعل .

استشف عند سيمون دو بوفوار ، وسأحاول أن أجلو ذلك – تطوراً مزدوجاً في علاقتها بالعالم : فيما يتعلق بالمناهج التي تفيد منها لكي تدرك الواقع «الحقيقي» فيه ، وفيما يتعلق بنمط الظاهرة التي يشغلها أن تستخلص ماهيتها . وعلى مستوى التحقيق الممتاز «امريكا يوماً بعد يوم» فيلوح أنها ما تزال في حالة طفو كامل : ان تعاقب النصوص وحده ، حيث تجهد أن تحدد سمات علاقاتها بالولايات المتحدة ، وعلى الأخص بنيويورك ، أمرٌ بالغ الدلالة .

وقد أوردنا فيما سبق أول هذه النصوص (ونذكر منها على الأخص ، «سوف تكون نيويورك لي ، وسوف أكون لها») وها هي ذي بضع نصوص أخرى تتخذ نفس الاتجاه تقريباً ، وان كانت تميل الى التنازع فيما بينها البعض ، تحت مظهر يبدو معه أنها تؤكد بعضها البعض . «هذا الانفصال (كانت قد غادرت المدينة لفترة شهرين تقريباً لتطوف عبر البلاد) قد روّض نيويورك . اختفى فيها كل مظهر للسحر» . «أحس أخيراً ما كنت أبحث عنه بلا طائل في ليالي «التايمز سكوير» : انني ملك لنيويورك ، ونيويورك ملكي» . «هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها الفجر يولد فوق نيويورك ، وتهزني هذه الموثقة الجديدة من مواثيق علاقتنا الحميمة . ولكن أمارة أكثر استخفاء تبشرني بأنني أبداً حقاً في المشاركة في أمريكا : لست مبهورة بها بعد ، ولا مخيبة الأمل منها ، أتعلم ، كبعض ابنائها ، ان أحبها حباً مضنياً مُبَرِّح الألم» . – من خلال السفر والعودة ، استأثرت أخيراً بما كنت اسعى اليه بكل ذلك الوله العارم منذ ثلاثة شهور : إنني في نيويورك . هذا على الأقل ما يخيل اليّ» . – «أحس نفسي قد أصبحت من أهل نيويورك الى درجة انني لم أعد أقوم بهذه الجولات الواسعة في الصباح ، أما الآن ، فبدلاً من

ان استكشف بخطى واسعة ، أهيم في نيويورك كما لو كانت لي »[1] .

وها هو ذا الآن نص من آخر النصوص (عشرة أيام قبل سفرها) : « تطيب لي الحياة هنا ... ولكن على نحو غريب : « انني أبداً أحسّ من ذلك احساساً لا أستريح اليه » . والسبب الذي تعزو اليه ذلك هو المفارقة بين « الاحساس بأن نيويورك قد تبنّتني » ، بالانتماء الى هذه المدينة كأني من أهلها ، وبين الوعي الذي بدأت تحسه بزيف وضعها : « على الرغم من راحة مثل هذه الاحساسات ، وشاعريتها ، فليست الا أحابيل خادعة . ان لاصدقائي هنا عملاً يرتزقون منه ، وهموماً يومية » أما أنا فانني ابقى في الخارج . وعندما أناقش فلكي أفهم ، لكي أعرف ، ولكني لست طرفاً ... لا أخاطر قط بشيء . وأظل متفرّجة . وكلما زادت حميمية علاقتي بهذا العالم ، احسست بالحاجة الى أن اتخذ فيه مكاناً حقيقياً ... ليست نيويورك سراباً يلزمني أن أحوّله الى مدينة من لحم وعظم : هي حقيقة تصيب المرء بالدوار ، لعتامة الواقع ومقاومته . لن أتلقى منها شيئاً الا اذا وهبت نفسي لها ، ولكن يلزمني تغيّر جذريّ في الوجود حتى تصبح هذه الهبة ممكنة . ان نصيبي هنا أن اكون زائرة ، رحّالة »[2] .

ان الطفو الذي أشرت اليه يميل ، بالرغم من كل شيء ، كما نرى ، الى ان ينحلّ الى حد يقل أو يكثر (في نحو نهاية الكتاب ان لم يكن في نحو نهاية المرحلة نفسها)[3] ذلك أنّه قد اتضحت عدم كفاية الموقف الثاني ،

---

١ – « أمريكا يوماً بعد يوم » ص ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦٤ – ٢٦٥ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ .

٢ – نفس المرجع ص ٣٣٨ – ٣٣٩ . سوف تدون ما يلي ، بعد أن عادت بضعة أيام إلى شيكاغو ، قبل سفرها مباشرة من الولايات المتحدة الأمريكية : « كانت لي بهذه المدينة ألفة لم أعرف قط أن أقيمها بيني وبين نيويورك » (ص ٣٦٨) ولكن الوضع الزائف الذي قاست منه ، قد خف هنا كثيراً (انظر « قوة الأشياء » ص ١٣٩) بلقائها بنيلسون ألغرين : فهي إذ ارتبطت به ، أحست بالفعل انها تشارك على نحو أفضل ، على نحو أقل خارجية ، في الواقع الامريكي .

٣ – نحن نعرف بالفعل أن هذا الكتاب الذي قدم الينا على شكل مذكرات تكتب « يوماً بعد يوم » —

موقف الكشف المختزل . ويبقى بعد ذلك أن سيمون دو بوفوار قد نشرت هذا الكتاب مع ذلك ، مما يعني ، من ناحية ، أن جهودها لادراك الواقع الامريكي لم تنته ، في عينيها ، الى اخفاق حقيقي ، ومما يزوّدنا ، من ناحية أخرى ، بفرصة حسنة لتقدير ايجابيّة عملها في هذا السبيل .

لم يكن من الممكن أن تنجم هذه الايجابية عن مجرد التناوب بين الحركتين المتعاكستين اللتين أوضحناهما أولاً . بل يلوح على الأرجح أن سيمون دوبوفوار تجهد في أن تحفزنا على أن نكشف ، تحت المظهر الخشن المتناقض غالباً لعباراتها المتعاقبة في صياغة المبادىء التي تصدر عنها ، عن مدخل مطرد لموقف ثالث — وهو موقف لا يمكن ادراكه هنا ، من نتائجه ، بل ترغمنا هذه النتائج ، بالدقة ، على أن نعتبره مغايراً للموقفين الآخرين ، في اختيار الموضوعات التي تستهدفها نفسها ، وفي الطريقة التي تستهدفها بها .

هناك أولاً تلك الأهمية المتزايدة الممنوحة للعالم الانساني اثناء مشروع كشف أمريكا . ففي الصفحات الأخيرة من الكتاب ، رأينا هذا التطوّر يصل إلى ذروته في تأكد وعي جذري بالزيف الذي فرض على الكاتبة بوضعها نفسه كسائحة ، كمجرد متفرجة ، كشاهدة غير ملتزمة . ومهما يبدُ ذكر ذلك فجأة ، أمراً غير منتظر بعد كل صيحات الانتصار، فان ملاحظة هذا التصور ليس من شأنها أن تفجأ القارىء الى ذلك الحد، اذا كان قد حرص على التيقظ للنضج الخفيّ الذي تمّ خلال سياق الكتاب نفسه والذي يجعل هذا الكتاب في عينيّ جذاباً محبباً . [1]

= قد كتب في الحقيقة خلال شهور أربعة . وقد كتبت منه صفحات معينة ، فيما بعد ، فيما يتعلق برحلتها الثانية الى الولايات المتحدة الامريكية . (انظر « قوة الاشياء » ص ١٥١) .

١ — ان ما يفتنني ، أكبر الفتنة ، من بين أشياء أخرى في هذا التطور ان سيمون دوبوفوار تفي فيه أمام أعيننا بالوعد الذي كانت قد منت به نفسها (والذي يأخذه كل منا على عاتقه ، عن طيب خاطر ، مهما كان يكتشف في نفسه من شجاعة على ذلك نزرة يسيرة) والوعد الذي بمقتضاه تتكشف أمام نفسها، إذ تجهد ان تتكشف العالم . وبعبارة أصح : ان ما تكشف لنا=

انظر مثلاً كيف أن كاتبتنا – التي لا يبدو أولاً أنها تعتمد الا على الطبيعة وعلى المظاهر الممعنة السطحية للعالم الانساني لكي تكتشف أمريكا – تأخذ باطراد ، في أن تحس الواقع الانساني . ففي شيكاغو : « ألقيت نظرة إلى ما وراء اللوحات المرسومة ، وتراءت لي مدينة حقيقية ، فاجعة ، يوميّة ، ساحرة ككل المدن التي يعيش فيها ناسٌ من لحم وعظم ويكافحون ، بالملايين » – « هذه المدينة مصنوعة من عجينة معتمة صفيقة ، دون خميرة ، تفوح منها رائحة الانسان كما لا تفوح من اية مدينة أخرى في العالم .. وبين أصوات اصطفاق المعادن تصاغ هنا وتتشكل أقدار الناس ، وفي التراب أيضاً » ، في هباب الفحم – وفي لوس انجيلوس (وكما لو كان ذلك رداً على « أهوال السلام الأبدي » في كوكب لا انسانيّ على نحو مطلق) : « وتظل الانوار تومض وتتشعع ، انما هي أيضاً ، حقيقة ولعلها تَهز النفس هزاً أعمق لأنها لا تعبر عن شيء الا الحضور العريان للناس . يعيش ناسٌ هنا ، وها هي ذي الأرض تدور في سلام الليل وفي جنبها ذلك الجرح الباهر السطوع » – وفي كاليفورنيا : « يخترق الطريق الوحدة الواسعة ثم يرقى ، في بسطات مسطحة ، الى القمة المواجهة ، في ذلك الموقع المعادي للانسان ، انه تأكيد انسانيّ يهز المشاعر . انـه هو الذي يعطي معنى للبلاد التي كانت طويلاً موقعاً للنقلة الشاقة الخطيرة ، وتختزل في هذا الشريط الأبيض المتصلب كل تلك الهجرات الفاجعة للرواد الأول »[1] .

= هنا ، هو ما يبدو أنها لم تتوقعه قط ، هو أن كل كشف (للذات أو العالم) يتضمن نوعاً من تحول الذات .

١ – « أمريكا يوماً بعد يوم » ص ١٠٥ و ٣٤٢ – ٣٤٣ و ١٢٣ – ١٢٤ و ١٥٤ – ١٥٥ . ولن ينتهي المرء من احصاء الفقرات التي تبدو فيها مشغولة بمعرفة ظروف العمل والحياة التي يحياها المواطنون الامريكيون – وعلى الأخص منهم أقلهم امتيازاً . لقد نشر ميشيل هارنجتون ، في الولايات المتحدة ، عام ١٩٦٢ كتاباً بعنوان « أمريكا الأخرى » يصف فيه الجانب العكسي من الديكور ، أمريكا الفقر . واولئك الذين قرأوا هذا الكتاب يستطيعون أن يقدروا مدى الوضوح الدقيق الذي أتاح لسيمون دوبوفوار أن تتلمس ، منذ رحلتها الأولى في الولايات المتحدة ، « أمريكا الأخرى » تلك .

اننا لا نلفق هنا حكايات .. ان رؤيا العالم الانسانيّ الذي تقترحه علينا تلك الصفحات القلائل التي أوردناها، ما زالت بالتأكيد رؤيا شاملة اجمالية ، ويبدو أنها تترجم عن تذوقٍ لما هو خارقٍ يلفت النظر ، وعن عكوف على اسباغ مسحة درامية على الأمور ، مما يجعلها تشير ، طواعية، الى ما هو « فاجع » في الموضع الانسانيّ بدلاً من أن تشير الى الصعوبات المحددة التي يلقاها ناسٌ حقيقيون . اما الصفحات الكثيرة التي تشير اليها ملاحظتنا السابقة والتي تستهدف هذه الصعوبات عينها ، فلا شك أنه يعيبها أنها لم تتكامل حقاً مع سائر الكتاب بمعنى ، على الأقل ، أنه يلوح أنها توحي ، من جانب الكاتبة ، بموقف جد مختلف عن الموقف الذي نراها تتخذه سائر الوقت . أفلا تهتم سيمون دو بوفوار هنا بعالم الناس الا لكي تستمد منه نفس النوع من الارتعاد والنشوة التي تتطلبها من المشاهد الطبيعية (أو من ذلك التبعيد الذي تفرضه الشاشة على الواقع) ، ويبقى لها بعد ذلك أن تستمد من ذاتها ، من حين الى آخر ، قرباناً للمشاغل المشروعة لقرائها اليساريين ، بضعَ شذراتٍ من الاستبسال على هيئة تحليلٍ سياسيّ – اجتماعيّ ؟ وبعبارة أوجز : أذلكَ أيضاً من قبيل العرض السينمائي ؟

لست أعتقد ذلك : وانما ألاحظ انها ، فيما يتعلق بالواقع الانساني ، تقع في قبضة نفس التناقض الذي رأيناه يعمل في علاقتها بالطبيعة ، ففي كلتا الحالتين ، توضع جذريّة تطلّبها موضع التساؤل : انها نهمة الى تكشف الماهية الانسانية للولايات المتحدة بقدر ما كانت نهمة ، تحت أعيننا ، الى الالتقاء بماهية الكينونة نفسها ، في قلب الطبيعة . والاختلاف ، على نحوٍ ما ، غير قائم ، اذ ان المناط ، هنا وهناك ، هو بلوغ المطلق . ولكن اذا كان القصد العميق ما زال واحداً بعينه ، فان الموقف الحقيقيّ يتعدل بالضرورة عندما يتغيّر الموضوع الذي يستهدف هذا المطلق من خلاله : وسواءٌ أن يختزل وجود الناس الى مجرد مشهد ، فان هذا الوجود ، حيثما كان، لا يمكن أن يتوحّد بمجرد مشهد طبيعي . ولا يمكن اكتشاف ماهيّة من نوع من

سورة النشوة ، بل يمهد للفهم : لم يعد المناط بعد هو بلوغ الكينونة ، بل التعرف على معنى ، ولا يعتمد هذا المعنى فقط على الطريقة التي يبلغه المرء بها ، اذ أن « ما يكون » لا يكفّ عن أن يكون في سبيله الى صنع نفسه باستمرار . والدراما حقيقية في هذه « المشاهد » الانسانية ، وانما الاخراج وحده هو الروائيّ : ان التاريخ غير مكتوب في اي مكان ، ولكن المسرح مفتوح أمام كل الرياح ، وكل ممثل حر ، والعالم كله يشْرُط الممثلين جميعاً . ان الزعم بالوصول الى الرجل الامريكيّ (أو المرأة الامريكية ...) هو الاشتباك في داخل ديالكتيكية لا نهاية لها ، مختلفة جذرياً عن تلك التي قد تتضمنها العلاقة بالطبيعة . ان الكينونة يمكن أن تهب نفسها للوعي (او الوعي يمكن أن يقذف بنفسه الى الكينونة) بنفس الحدة ، في مشهد طبيعي من مشاهد البروفانس ، أو في قلب كاليفورنيا ، ولكن البروفانسيّين ، أو اهل كاليفورنيا – أياً كانت المشاعر الجمالية التي يمكن أن يستقيها المرء منهم على صعيد فهم شامل – هم أيضاً أناس ، يوجدون بذواتهم ، يتطلبون أن يُفهموا بصفتهم تلك . اي بصفة أن كلا منهم ، هو نفسه وعيٌ مهما كان مشروطاً فانه لن يكون مشروطاً على أي حال بالنظرة المطلقة المزعومة لوعيٍ ممتازٍ ما .

في طفولتها ، تصورت سيمون دو بوفوار نفسها – بمساعدة الظروف – كأنها مركز العالم ، كأنها وعي له كل السيادة . ولم يكن من الممكن أن يشتت حوارها الزائف مع الطبيعة هذا الوهم : فالتناقض الذي كان يتضمنه لم يكن ، اجمالاً ، الا تناقضاً من طراز تكتيكيّ (هل يجب استهداف المطلق جملة واحدة أم تفصيلا ؟) ولم يكن من الممكن أن يفضي الا الى التعارض بين موقفين متضادين ، الى ذبذبات لا طائل وراءها بين أحد الموقفين والآخر . اما علاقاتها الانسانية ، فقد رأينا بالفعل (وسوف نرى ذلك على نحو أفضل بكثير فيما بعد) أنها ظلت ، طويلاً ، علاقات توفر لها حظ الامتثال ، والوقاية ، والكفالة ضد النزاعات العميقة . وهي اذ

كانت فتاةً بورجوازية صغيرة فرنسية لم تتصور قط أنه يمكن أن توجد انفصامات اجتماعية في وسط بلادها نفسها. وإذاً كانت عذاباتها الشخصية الخاصة بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ فان الحرب العالمية الثانية، في النهاية، كانت أميل إلى تدعيم موقفها الانساني المثالي الذي تهدده النازية فترةً من الوقت. ويترتب على ذلك أنها استطاعت، اذا جرؤت على القول، ان تأتي علراء الى أمريكا، وقد رأيناها، عندئذ تنتظر صدمة، وترغبها، وتحسها بالفعل، ثم تتعرض بلا هوادة، بتوفيق يقل أو يزيد، لكي تحسها من جديد. لقد كانت تلك، عندها، فيما يلوح لي، خبرة مبهمة ملتبسة كل الالتباس.

كانت الولايات المتحدة في البداية غريبة عليها الى الحد الذي استطاعت فيه أن تظل بعيدةً عن الواقع الانساني، اذ تنظر اليه على نحوٍ شامل اجماليٍّ ولكنه سرعان ما صار في متناولها الى المدى الذي احست فيه أنها مضطرة الى فهمه بنفسها، فيما وراء التوضيحات الشديدة التباين التي كانت قدمها اليها، في الميدان، تلك الظواهر الاجتماعية التي لم تكن حتى ذلك الحين، بالنسبة اليها، في الصعيد الفرنسي، الا موضوعات للمعرفة، وأفكاراً تتلقاها من الخارج. وإذن فقد بدأ التكوين السياسي لهذه الوجودية الفرنسية، في الولايات المتحدة الامريكية، على نحوٍ ما. هناك، على الأقل، فهمت أنه لم يكن يكفي ان نعطي العالم معنى، بل يجب، بالاضافة الى ذلك أن نضع المعنى الذي يعطيه اياه الآخرون، موضع الاعتبار: فلتكن الطبيعة ما هي (بالنسبة لوعيي ...) لكن الناس يفعلون بها شيئاً ما، الناس يفعلون منها شيئاً ما.

ولكي تتمثل سيمون دو بوفوار هذا الاكتشاف، فمن الجدير بالذكر أنها اضطرت الى اللجوء، في نفس اللحظة، إلى احد تراكيبها الزائفة التي تتيح لها كثيراً أن تلغي التناقضات الحقيقية:

«ان ما يهز المشاعر، سواءً كان ذلك في قلعة أو كنيسة، هو تأكيد حضورٍ إنساني في قلب هذه الجبال المتوحدة الموحشة، المهجورة، ولكنها

متناسقة، هذه الجبال التي ما تزال تبدو، في هجرانها، مصنوعة لكي ترحب بالانسان كتلك الأديرة العتيقة التي تتحدث وحشيتها الى المروج، ذلك مكان يجعل المرء يحلم بسرّ القران الذي يربط جنسنا بهذه الأرض»[1].

«... ما جعلتني أمريكا أحس به كثيراً: ليست هناك مسافة بين العصر الانساني وعصر الطبيعة.. ان الانسان لا يستولي على الارض الا لأنه ينبعث منها»[2].

لقد رأينا أن الصراع الذي تحاول هنا أن تتفاداه، سحرياً، لا يقع بين العالم الطبيعيّ والعالم الانسانيّ، ولكن بين اتجاهين لعلاقتها هي بالعالم: أحدهما يوشك أن يكون أصيلاً، يهدف في كل مناسبة الى اقامة هذه العلاقة في الطبيعة، والثاني، وقد جاء متأخراً عن الأول، يجهد في أن يدرك الواقع الانساني في الطبيعة. ويلوح لي أن هذا الصراع يتضمن – ويميل في الوقت نفسه الى حلّ التناقض الأوّل – وهو تناقض في حد ذاته يوشك أن يستعصي على الحل – ذلك التناقض الأوّل الذي كان يقسم تطلبها الى صوفيتين: صوفيّة المشاركة المباشرة في الكينونة وصوفية المشروع اللانهائي لاسترداد الكينونة.

يتضمن، بالقدر الذي يتجه في داخله، وعندئذ تتطبق هذه الصوفيّة المزدوجة على كلٍ من طرفي النقيض: يجب إدراك كليّة العالم الانساني أيضاً، وان كان، وان تحاول من ناحية أخرى استنفاد التنوّع والتباين في مظاهره. ويميل الى حله، اذ ينقله نقلة جديدة، اذ يدخل عليه الديالكتيكيّة، اذ يدخل إليه، بالفعل، فرصة حوار، فرصة اختصام له دلالته، فرصة مناقشة حقيقية – وهو ما لا يكفي العالم الطبيعي قط لكي يستثيره في وحدة وعيي ما: فان المرء لا يمكن أن يحس نفسه موضع تساؤل وشك، على نحو

---

١ – «أمريكا يوماً بعد يوم» ص ١٩٢.
٢ – نفس المرجع ص ١٣٤.

مجد ، الا فيما يتعلق بالناس ، وبينهم ، وبهم . ومن وجهة نظر ثالثة ، أخيراً ، يمكن للمرء أن يضيف الى أن هذا الصراع « الثاني » متعاصرٌ الى حد يقل أو يزيد مع ذلك التناقض « الأول » وان نوعاً من الديالكتيك قد قام ، للفور ، بين هذين المتعارضين : اذ يجب أن نسلم ، في نهاية الأمر ، أن سيمون دو بوفوار ، شأنها في ذلك شأن أيٍّ منا ، قد لقيت الآخرين منذ نعومة حداثتها الأولى ... وذلك بلا شك هو الذي أتاح لها أن تتغلب ، منذ ذلك الحين ، بنجاح متفاوت ، على موقفيها المتطرفين بازاء الطبيعة ، الى الحد الذي تعطينا فيه أوصافاً بكل تلك الدقة للمشاهد الطبيعية الامريكية في فترة كانت الانسانية الامريكية لا تقدم نفسها لها الا على شكل تجريدات خارقة لأفقة للنظر . بل على شكل سلسلة من التحف الجذابة ، كما يقال في السينما ، اذا جاز لي أن أمط قليلاً معنى الكلمات ...

والواقع أن سمة العرض والمشهد المسرحي أو السينمائي هو أن يكون جذاباً ـ ومسلياً « مروحاً عن النفس » الى حد يقل أو يزيد ـ بالقدر الذي يُوضع فيه على مبعدة ، بالضبط : اما « التجريد » من ناحية اخرى ، فهو تشكيلٌ (ابتداء من واقع ما أياً كان) موضوع للتأمل ، يستطيع المرء بازائه أن يتجرد هو نفسه ، بالتساوق .. أي أن يقف على مبعدة من الواقع ، « يروّح من نفسه » عنه .. أو لعل التعقيد الواضح للموقف البوفواري ، بمجرد تراوح معنى الكلمات ، قد أصبح أكثر دلالة . اننا نستطيع أن نرى نوعاً من الميل المزدوج يتضح بازاء الوقائع الحقيقية المهددة ، تحت هذا التكافل بين تجاذبٍ ما ، ونكوصٍ ما الذي يتكشف عنه هذا الميل المزدوج ، وهي وقائع محددة ، باعتبارها ذاك ، جذابة وخداعة في وقت معاً : فالمرء مغرى بها كأنما يغريه جسد الكينونة نفسه ، كما انه مغرى ، في نفس الوقت ، بأن يفرّ من تشعّبها وتكرّرها اللانهائي ، حتى يستطيع ، اذ يستدير اليها ، أن يدرك ماهيتها دفعةً واحدة . ولكن عندما يتعلق الأمر بالناس الآخرين ، فان التواصل المطلق ، والتكوص المطلق غير قابلين للتحقق الا في اللحظة

من الزمن. فعلى الحدّ النهائي من التواصل تقع الحاجة للاقتراح بحشود الجماهير (وستعود الى ذلك عما قليل) . اما على الحد النهائي من النكوص فيقع الهرب الى الطبيعة . في أحياء شيكاغو القديمة ، تنبت اشجار خضراء في الأفنية الخلفية ، بين النفايات ، وصفائح القمامة ، والاشياء الحديدية الصدئة : «انها أعرق من البيوت التي تتجاور معها ، هي الكائنات الباقية على قيد الحياة من استزراع خارق للأرض ، وهي تذكّر ، دون صوت ، بوجود العصر اللاانساني . وفي عالم مؤلّف موفّق حيث العرضية دائماً هي الوجه العكسيّ للارادة ، حيث تتخذ كل فوضى سمة الشقاء ، فهذه الاشجار هي لا مبالاة الاشياء الطبيعية ومرآها يريح القلب »[١].

يبقى بعد ذلك أنه يجب أن نعيش في ديمومة الزمن المحدد ، حيث سرعان ما تصبح الطبيعة من غير الانسان – كما رأينا من قبل – وازحة تنوء بالثقل ، بنفس وطأة الجماهير الانسانية ومشاكلها المخيفة . ففي ديمومة الزمن اذن يجهد المرء في أن يجعل من الميل المزدوج الذي يعاني منه ، أمراً نسبياً : لا يلقي المرء نفسه ، مكشوفاً ، بكل جوارحه ، الى لهب العالم المزدوج ، ولكن المرء أيضاً لا يزعم انه يقرّمنه بأن ينكره . بل «يضعه» المرء ، نوبة بعد نوبة ، تحت اشكال متباينة (يجعله يتخذ أوضاعاً متعاقبة) وتلك طريقة للتخفف من وطأته ، لافراغه موقتاً من ثقله حتى يمكن اكتشاف معنى له . وعلى هذا النحو يفتنّ المرء ، وفقاً للأحوال المختلفة ، بهذا الاخراج المسرحي أو بذاك ، وهو نفسه الذي يرسم هذا الاخراج أو ذاك ، وانما يصنع ذلك كله وهو يعرفه ، وهو يعرف في الوقت نفسه أنه ينبغي له أن يجرب ضروباً كثيرة اخرى من الإخراج قبل أن يصل الى فهم مرض نسبياً .

وبين اختيار اللحظة ، واختيار الديمومة ، انتقل المرء من الخرافة المحالة للكليّة المطلقة ، الى نوع من المنهج يصدر عن كليات جزئية قابلة

١ – «أمريكا يوماً بعد يوم» ص ٢٤٨ .

دائماً للدحض، اذ من الواضح أنها لا تلبث أن تتنازع وتتصارع بين بعضها البعض. ونورد على سبيل المثال: النتيجة المزدوجة التي ينتهي اليها هذا التحقيق عن الولايات المتحدة. الصورة الأولى: «ان الجاذبية التي تصيب الرأس بالدوار والتي تمارسها أمريكا علي – حيث ما تزال تهيم ذكريات الروّاد القريبة، هي أنها تبدو مملكة التعدي. ان تاريخها، منقبضاً في الزمن، متحدراً منبسطاً على نحو رائع عبر المكان، هو تاريخ خلق العالم. ذلك ما يهزني في ناطحات السحاب، انها تعلن بصوت جهير بأن الانسان ليس كائناً راكداً في كينونة، بل هو انطلاق، توسعٌ، واستيلاء.. ان الانسان قد أوقع الشيء الغفل الخام في أحبولة رغباته، انه يؤكد سلطان خياله على المادة. نيويورك، شيكاغو تعكسان وجود هذا النصف اله ذي الاحلام المسبطرة، ولذلك فانهما اكثر المدن التي أعرفها حظاً من الانسانية واستثارةً للنشوة... ان الامريكيين قومٌ أحياء حقاً، يعيشون لا في أفق الموت بل في أفق الحياة، لا يطيقون نقصاً الى الجمود.. والمرء محبوبٌ بأعماله: ينبغي أن يفعل، حتى يكون... ويحس المرء احساساً بدعو للنشوة ان كل شيء يمكن أن يبدأ الصورة ثانية: «الاساس القحل المجدي في الحياة الامريكية هو السأم والملل... ليس فيهم نار داخلية. ولأنهم فقدوا أنفسهم في الموضوع، وجدوا أنفسهم من غير موضوع... والفرار من السأم، ومن الوحدة يجمعهم في الوحدة والسأم.» – (والنتيجة الحقيقية: «لنا طرقٌ مختلفة عن الامريكيين نشقى بها، ونكون غير اصلاء، زائفين، هذا كل شيء... انني أرى ما ينقصهم وأوجه قصورهم، ولكنني لا أنسى أوجه قصورنا. ومن خلال ما أحبه من هذه البلاد، وما أمقته منها، هناك فيها شيء ما فاتن: هو ضخامة الفرص التي تسنح لها وضخامة المخاطرات التي تتعرض لها، هي والعالم معها.. ها هنا احدى النقط في العالم التي سوف يتقرر فيها مصير الانسان »[1].

١ – «أمريكا يوماً بعد يوم» ص ٢٦٩ – ٢٧٦.

وعلى نحوٍ ما ، فان سيمون دو بوفوار نفسها هي التي تظهر هنا ، كما لو كانت من وراء خيوط رقيقة متشابكة ، تحت وصفها نفسه للولايات المتحدة . حاجتها لأن تفتش تظهر حتى في هذه النسبية النهائية ، الجهد الذي بذلته على نفسها حتى تمسك معاً هاتين الكليتين المتناقضتين ، حتى تعطي لتناقضهما معنى بدلاً من أن تلقيه في كلية علوية ما . ان ما يفتنها في نهاية الأمر ، هي التي ظهرت لنا دائماً مستعجلة لأن تحصل من الواقع على رد حاسم ، هو هذا السؤال الذي يشكله الواقع الأمريكي ، في لحظة معطاة ، في قلب العالم الانساني .

أيأخذ المرء عليها ، مع ذلك ، أنها اسقطت على أمريكا مشكلتها هي : تطلبها للتعدي الدائم ، وهذا النوع من السأم الذي تخشى أن تبلوه عن كل أدنى هبوط في « انطلاقها » ، في حركتها نحو « التوسع » ونحو « الاستيلاء » في سورة « نشوتها » ؟ ذلك أننا نغفل ، في وقت معاً ، أن كلاً منا يجهد ، بالمثل ، أن يوضح الاوضاع على مقتضى تخطيط وجودي معين ، على مقتضى مشكل معاش ، وأن سيمون دو بوفوار ، اذ تصدر على هذا النحو ، تستطيع – وهو ما لا نستطيعه لماماً – أن تتجاوز أساطيرها الخاصة ، أن تحترم موضوع تحليلها نفسه اذ تحتفظ له بواقعه الحي الذي يحياه الناس ، والذي هو ، من ثم ، دائماً معلق ، دائماً إشكالي[1] .

---

١ – وأضيف إلى ذلك أن الأمر لا يتعلق ، من جانبها ، بموقف صوري بحت . وصحيح أن ذلك هو ما قد يحسه المرء عندما تتكلم عن الولايات المتحدة الأمريكية . ذلك أنها تلتقي فيها بوضع « مفتوح » الى حد خارق ، بمعنى أن هذه البلاد ، اذا كان ما تزال لها أهداف ، فليست لها أية عقيدة : « ليس لها موضوع » كما تعبر عن ذلك تعبيراً دقيقاً ؛ انها تجري على هواها بل ويبدو ، في بعض النواحي ، أنها في فترة جزر وتوشك أن تلتزم جانب الدفاع عن النفس . ولكن سيمون دوبوفوار ، بعد بضع سنوات ، عندما تتناول الواقع العيني ، تعرف كيف تبدي مقدرتها على احترام هذا الواقع بنفس القدرة ، اذ تضع في الاعتبار ، هذه المرة ، الاتجاه الذي تبناه الشعب الصيني بكل تصميم وحزم : وهو اتجاه « نمط نموذجي » للسلوك الانساني ، متحرك ، هو في كل مكان ودون هوادة « شرط فوقي » لكل الظروف المعطاة وكل =

كنت أريد فقط أن أعين بداية تطورٍ نحو المشاكل الانسانية : ولكني استبقت قليلاً وصف هذه العلاقة بالآخرين التي ينبغي الآن أن نتناولها. ولكن ذلك أتاح لنا على الأقل أن نلاحظ ، فيما سبق ، دوام هذه الاستعدادات الطبيعية الاولى ، على نحو مرموق ، عند كاتبتنا ، حتى في نفس تيار هذا التطور المحسوس ، تلك الاستعدادات الطبيعية الأولى التي كانت حتى الآن موضع بحثنا.

خذ تحقيقها عن أمريكا ، حيث تظهر ، أكثر ما تكون ، تَستحوذُ عليها الحاجة لأن يُستحوذ عليها ، وفكّر في جملة الجهد الذي كان عليها أن تبذله ، يوماً بعد يوم ، لكي ترى كل ما رأته ، لكي تتحدث مع كل هذا العدد الكبير من الأشخاص ، لكي تجمع كل تلك المذكرات ، وأخيراً لكي تحقق ذلك الكتاب. وخذ الآن دراستها عن الصين ، وفكر في كل الوثائق التي كان عليها أن تحصل عليها قبل الرحلة ، واثناءها ، وبعدها ، وفي كل المشقة التي كان عليها أن تتكبدها لكي تتكيف ، بأقصى حد من الامانة ، مع أوضاعٍ كانت غريبة عليها كل الغرابة ، ثم فاجئها غداً ، حالمة ، خفية ، في خلوةٍ مع المطلق ، في شوارع بكين « كان

= الأوضاع الملاحظة. وعندئذ فليس الأمر عندها أن تصدر عن ادراكات متعاقبة بأن « تخرج » المشهد حتى تتأمله وهي في « سورة النشوة » : « ان مسرات التأمل محظورة على السائح ، عندما يعرض له مشهد ، فانه يعرف أن واقع هذا المشهد يتأتى ، في وقت معاً ، من بقائه على قيد الحياة بعد هلاك غيره ، كما يتأتى من أنه بداية لواقع تال. ومن ثم فان السائح سوف يغير من طبيعة هذا الواقع لو أنه جمده ، فبين التاريخ المنضبط وبين الخطط الصارمة ، لا يوجد مكان للحلم ... ليس ثم شيء عرضي في الصين ، والمعنى يتفق مع الشيء ، ويتحدد كل شخص لا بعلاقته بكل شخص آخر ، بل بالمستقبل المشترك بينهم جميعاً » (« المسيرة الطويلة » ص ٢٩). فالمعنى هنا لم يعد بعد هو ما يستطيع المرء بطريقة ذاتية وعشوائية بقدر يزيد أو يقل ، أن يستخلصه من الأوضاع ، اذ يضعها ، مرة بعد مرة ، في حد ذاتها ، ثم يقابل بها الدلالات (الانطباعات) التي يحصل عليها : بل يصدر المعنى من جهد كل الصينيين لكي يحولوا ، معاً ، وبوعي ، مجموع الظروف المعطاة. و « المسيرة الطويلة » بهذا المعنى ليست مسيرة رحالتنا ، بل مسيرة الصينيين أنفسهم بالفعل.

لوقت الفراغ ، في بكين ، مظهر عيد حقاً ، كل هؤلاء الناس يبدو عليهم أنهم لهم موهبة السعادة » . « بكين من احد الأماكن النادرة في العالم التي تعمل فيها بعض اللحظات الى حد الكمال »[1] .

والمرء اما أن يسلم بذلك ، أو يغتبط له ، ولكن الواقع ، في كل مكان ، أن رحالتنا تستطيع أن تضمّ في نفسها بين اللهفة للمطلق ، وبين الصبر على النسبيّ ، بين الحاجة للكينونة وحمياً العمل — ان هذه الشغّالة المخوفة ، لأنها قد تكونت في وسط صارم من البورجوازية الصغيرة المثقفة (التي كانت تضع نفسها فيما وراء كل الطبقات ، باسم الثقافة ، وان كان وضعها الاجتماعي الحرج يحكم عليها بأن تكون « جديرة » بلاهوادة ، بتفوقها) ، أحست نفسها ملزمة بأن تستولي على العالم « بقوة ساقيها » وفي نفس الوقت لم يساورها الشك في أنها كانت « مختارة » لكي تبدي هذا العالم للأنظار ، لكي تجعله « يظهر » واقعه الحقيقيّ . ولأنها كانت قد منحت صحة مدهشة ، فان هذا التطلب الاخلاقي — الذي كان من الممكن الا ينجم عنه ، عند شخص آخر ، الا « مثل عليا » في غاية العقم — قد تجسم عندها للفور ، الى الحد الذي جعلها لاتطيق ، على نحو عنيف ، أي شيء قد يشكل عقبة في سبيل اشباعه الفوريّ المباشر . وكان ذلك أن تمنح بيد ما تنكره باليد الأخرى ، اذ كانت تثور هنا على المكان والزمان ، عندما كانت مضطرة حقاً ، هناك ، الى أن تجعل منهما شروط مشروعهما . ولكن ذلك كان أيضاً أن تحكم على نفسها بأن تصوغ ، بأي ثمن ، والا تردّت في الجنون ، الأداة التي تتيح لها اخيراً أن تصل حقاً الى حقيقة الكينونة : ومعنى ذلك أن سيمون دو بوفوار وجدت نفسها ، لكي تتعدى تناقضها نفسه ، أن تعيد ابتداع « الفنومولوجية » — هذا المنهج الوصفيّ الذي اعطانا سارتر اياه ، وذلك لاستخدامها الشخصي ،

---

١ — « المسيرة الطويلة » ص ٤٦٢ .

بعد أن أعادت قراءة هوسرل وهيديجر ، بطريقتها الخاصة ، صنع معاً هاتين البديهيتين : ١) الكينونة لانهائية والانسان محدود (٢) الانسان لا يتبرر الا بالقدر الذي يكشف فيه عن الكينونة — وسرعان ما يصيبك بك اليأس من أن تأخذ على عاتقك حقاً عبء الوضع الانسانيّ ، اذا لم تكن تتحلى بهاتين الفضيلتين المتضادتين : تواضع الشغالين الكادحين الذي لاينال منه الوهن ، والصلف الجهنمي الذي يتصف به كل من يهب الأشياء معناها [1] ؛ أو اذا كنت تملك الفضيلتين معاً ، وكنت لاتحس نفسك قادراً على أن تُفيد منهما معاً ...

---

١ — الوعي الذي له كل السيادة ، الشاعر ، الكلمة التي تلد في العالم كل ما تطلق عليه اسماً من الاسماء .

الجزء الثاني

تاريخ علاقتها بالتوغرين

هذا العمل هو مشروع حياة ، انه يعبر من أدناه الى أقصاه عن مشروع الحياة . ومن ثم فإن التعقد في مدى تحققه لا يقبل محوراً لتطوره الا في التطور الذي يتبدّى فيه ، فيما يتعلق بعلاقته بالآخرين : إن وعياً ما لا يصل الى ذاته الا من خلال المرور بوعي الآخرين ، اذ يتعين له أن يعطى معنى لكل الدلالات التي قد تلقاها بالفعل من العالم ، وإن هذا المعنى نفسه الذي يريد أن يكون صاحبه ، يتعين بدوره أن يتخذ معنى في العالم . ان حقيقتي تتوقف على حقيقة الآخرين : باعتبارها قد أعطيت لي ، أولاً ، آتية منهم ، ثم باعتبار أنهم لا يكفّون عن أن يعودوا فيأخذوهـا مني وينازعوني اياها ، حيث أنني أجهد أن أفعل الشيء نفسه .

في الجزء الأول من هذه الدراسة ، حاولت أن استخلص ، بالتناوب[1] ، العوامل الثابتة فيما يمكن أن نسميه الشخصية البوفوارية « القاعدية » . ان هذا الوعي ، باعتباره معطىً لذاته ، هناك بالفعل ، متموضعاً جملة واحدة في عالم المادة وعالم اللغة ، ليس شفافية بحتاً لذاته ، ليس نظرة صافية الى العالم : انه يستقي « تجسده » ، حضوره المحدد ، من شرطية

١ – وفقاً لعملية تجريبية ، فيما هو واضح ، ومن ثم فهي اعتسافية الى حد يقل أو يزيد ، اذ أن الأمر بعد لم يكن الا ترسم آثار مفاتيح النغمات الرئيسية في موقف عام بإزاء العالم : هذا الموقف الذي حدده سارتر أحياناً بعبارة « الموقف الطبيعي » على مستوى التلقائية ، وفي إعادة فهمه وتناوله بوساطة فكر « متواطىء » .

مزدوجة – بيولوجية واجتماعية – تتضح لنا شيئاً فشيئاً وفقاً لبضع مواضيع جوهرية وتدخلاتها المعقدة (الحيوية، تذوق الحياة، النهم، اللهفة، العنف، المرح، والسعادة، والتفاؤل، والارادية العنيدة، معنى العمل، الصبر الدؤوب، تطلّب المطلق، المثالية، الراديكالية، توخي الكينونة، والكينونة بحرية، على نحو ملتهم أكّال..).

وما ينبغي أن نفهمه الآن، هو كيف وصلت الى أن تصنع نفسها، ابتداءً من هذا المعطى الذي كانته، كيف استفادت من هذه المعدات الأصلية لكي تقوم بمشروعها، لكي توجد حياتها. ومن ثم فسوف نصدر عن جديد من طفولتها الصغيرة الغضة ولكننا سوف نتلبث هذه المرة عند مواقفها المحددة بازاء الآخرين (هؤلاء الآخرين بالذات أو أولئك) حتى نعيد تشكيل اتجاه الانطلاق الحقيقي لوجودها، اذا كان ذلك ممكناً. ومن ثم سوف نتأدى، عن كثب، الى اكتشاف الآفاق، والمشاكل، والقيم المختلفة التي كان عليها أن تتخذ موضعها وفقاً لها، دوراً بعد دور، اذ استفادت من الاوضاع التي فرضت عليها. أي انه سوف يكون علينا أن نتعرف على أنفسنا فيها، اذ ندلع على إثرها، كل الابعاد التي يفرض علينا فيها، بأشكال مختلفة، أن نأخذ على عاتقنا هذا العالم كما هو، ودعوانا في الانسانية، في وقت معاً.

١ – البيئة العائلية المباشرة والأزمة الأصلية

« كان أبي في الثلاثين من العمر ، وأمي في الحادية والعشرين ، وكنت أول أطفالهما »[١] . على هذا النحو بأتي أول ما تذكره عن علاقتها بالآخرين ، بوالديها ، اذ تعطي وزناً لوجه الامتياز فيه . لواقعة أنه ما من أحد يشارك فيه بنفس الاولوية التي تشارك بها هي فيه . فما كادت تعي نفسها حتى كان حضورها في العالم قد اكتسب قيمة بما يحيط بها مما يشبه الغياب : أختها ، هذه الطفلة التي جاءت متأخرة عنها بسنتين ونصف . فاذا أحست بالغيرة منها فلن يستغرق ذلك طويلاً : ... « كنت أحس نفسي أكثر مدعاة للاهتمام من هذه الرضيع حبيسة المهد . كانت لي أخت صغرى ، ولكن هذه الصغيرة المدورة الوجه لم أكن لها . » وسوف نرى فيما بعد ، على هذا الاساس ، المدور الذي سيعطى بشكل محدد لأختها الصغيرة . يكفينا الآن ان نلاحظ ان الوضع الذي يصدر عن ذلك ، للفور ، بين الاختين هو وضع النسبية الزائفة الذي لا تقع النسبية فيه الا على أحد طرفي العلاقة .

ولكن ينبغي لنا أولاً أن نتحدث عن اولئك الذين وجدوا عندها ، أول ما وجدوا ، باعتبارهم وعياً مستقلاً . فلنبدأ أولاً بأن ننحي لويز ، فهي مجرد رمز للشعور « بالأمن اليومي » . ولننح أيضاً « العائلة الوفيرة »

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٩ .

(الاجداد ، الاعمام والأخوال والعمات والخالات وابناءهم) وهي العائلة التي كانت في مجموعها تمدها ، اساساً ، بضمانة « أهميتها » الخاصة (والتي أصبحت فيما بعد ثقلاً تزداد وطأته عليها باطراد ، تحت اسم « الأقارب »). أينبغي بالمثل أن ننحي أباها؟ نكاد نعتقد ذلك ، اذا حكمنا بالملاحظات الأولى التي تخصصها له. فهناك أولاً تلك الصورة التي التقينا بها من قبل في « امريكا يوماً بعد يوم » للفتاة الصغيرة في نعومة أظفارها ، تقضي ساعات طويلة ملتفة بنفسها مكومة على نفسها في « العش المحفور تحت الكتب » : الأب هنا ليس الا جواً بيئياً بعد ، جوّ « العرين المقدس » الذي يشتغل فيه — حيث تستطيع أن تلوذ به ، أن تتمرغ « في الظلمات » ، أن تحس نفسها « في الكِنّ والحماية ». ولكن لعلنا نذكر أنها اذ كانت تستدعي هذه الذكريات ، كانت تأبى على نفسها أن ترى فيها (كما تأبى على نفسها أن ترى في وضعها ، في تلك اللحظة ، وهي ملففة مدثرة في وحدة وثيرة في مقصورة قطار) رغبةً مزعومة ، في أن « تعود الى داخل الأمّ ». وألاحظ ، من ناحية ، أنها تتحدث الينا عن ذلك على نحو أفضل بكثير ، في النصّ التالي ، حيث يتخذ « ملاذها » الطفلي بالفعل قيمةً إيجابية : « كنت انظر الى العالم ، وانحسه ، وأتعلّمه ، في الكنّ والحماية ». واعترف من ناحية أخرى ، بأنني مضطرب غير مستريح ، الى حد يقل أو يزيد ، وبالرغم من كل شيء ، اذ أرى الأب هنا يظهر أولاً على شكل كيان غامض خاصيته الوحيدة تميل الى الاشارة الى الأم ، اكثر ما تميل.. فهل وجدت هذه الطفلة وسيلة الى قلْب الأدوار بين والديها؟ وهي سوف توضح ، على الفور اذا جرؤت على القول — أن أباها لم يكن له في حياتها « دور محدد كل التحديد »[1] وهي تفضي الينا بأن أمها كانت « بعيدة » و « ذات

١ — « لم يكن له شارب ولا ذقن ، كانت عيناه زرقاوين ، مرحتين... (كان) يضحك معي .. وكان يسليني ، وكنت أطيب قلباً عندما يهتم بي » (« مذكرات فتاة مستقيمة ») ص ١٠

نزوات » (بالمقارنة بلويز التي لم يكن يبدو لهـا أنها موجودة الا لكي تعنى بها وبأختها) وكانت توحي اليها « بمشاعر عشقية ». « كنت استقر على ركبتيها ، في نعومة ذراعيها المعطرة ، وأغطي بالقبـلات جلدها ، جلد امرأة في ميعة شبابها . كنت بحاجة الى ابتساماتها » .

أبٌ يمثل لها ، بالاجمال ، الأمن والمرح ، وأمٌ هي لها عاشقة : فلنوفر على أنفسنا سخرية أن نستقي أية نتيجة من ذلك ، منـذ الآن . ولنسجل ، عابرين ، هذه الملاحظة الرئيسية عن الحلف والتفاهم الذي كان سائداً بين أحدهما والآخر والذي لم تلبث ابنتهما أن وعتـه : « عندما كان يعود في المساء ، كان يحمل الى أمي زهرات بنفسج من « بارم » كانا يقبلان أحدهما الآخر ، ويضحكان »[1] .

بعد ذلك بقليل سوف تحس بداية اعجاب بأبيها : « منذ أن بدأت أذهب الى المدرسة ، أخذ أبي يهتم بنجاحي ، وتقدمي ، وكان له وزن أكبر في حياتي .. لم يكن في بيتي العائلية شخص أعظم منه تشويقاً ومدعاة للاهتمام وأعظم ذكاء .. كنت أراه أشبه بساحر .. » ولكن ذلك لأنه يمرح معها ويعابثها و « يضحكها حتى تصعد الدموع الى عينيها » متنكراً على شكل مهرج ، أو جرسون في قهوة ، أو عسكري ، أو ممثلة تراجيدية ، أو في دور « الطاهية البلهاء التي كان اسمها روزالي »[2] . ولكن الحرب تنشب ، ويجند أبوها في الجيش : « كان قد ترك شاربه ينمو ، وكان وجهه ، تحت شاشيته ، يؤثر عليّ برصانة »[3] في نحو تلك الفترة ، يبدو أن بعداً جديداً يظهر بالفعل في علاقتهما : « عندما كنت صغيرة جداً ، كان يُخضعني بمرحه وطلاقة حديثه ، وعندما كبرت تعلمت أن اعجب به على نحو أكثر جدية ، كنت أعجب لثقافته ، لذكائه ، لفطنته التي لا

١ – نفس المرجع ص ١٠ .
٢ – نفس المرجع ص ٢٨ .
٣ – نفس المرجع ص ٣٠ .

تحبيب قط ... كان يُعنى بي أكثر ، وكان يراقب على الاخص معرفتي بهجاء الكلمات ... وكان راضياً أن لدي موهبة طبيعية للهجاء الصحيح .. وكان يقرأ لي الآثار الكلاسيكية بصوت مرتفع .. كنت أسأله أسئلة كثيرة وكان يجيبني عنها بطيب خاطر .. » [1] .

يبدو على الأقل أن هذه العلاقات الجديدة لا تتضمن بالمرة أي اضطراب عاطفيّ : « لم يكن بُرهبني ، بمعنى أنني لم اكن أحس قط أمامه بأدنى ضيق ، لكنني لم أحاول أن أعبر المسافة التي كانت تفصله عني ، كانت هناك مواضيع كثيرة لم أتصور قط حتى أن أحدثه عنها ، لم أكن لا جسماً ولا روحاً ، بل كنت عقلاً . كانت علاقاتنا تقع في جو صاف لايمكن أن يحدث فيه أي اصطدام . لم يكن ينحني عليّ ، بل كان يرفعني حتى إليه وكنت معتزة عندئذ بأن أحس نفسي من الكبار [2] » والواقع أنها ، صدوراً عن ذلك ، سوف تأخذ في أن تحس نحوه بنوع من الهوى ، لقد تعرف عليها ، وهي له ممتنة امتناناً بطير بلبّها ، وهي تعكف على الفور على أن تزيد من اعجابها به . وتخرج معه وحدها ، ذات يوم أحد ، بعد الظهر ، فترى في تلك « الخلوة » (اثناء حفلة للكوميدي فرانسيز) « تواطؤاً » خارقاً : « احسست ، خلال بضع ساعات ، احساساً مسكراً أنه لم يكن ملك أحد الايّ .. » .

ولما كان يتضح ، شيئاً فشيئاً ، أنه قد أخفق في حياته ، فانها تجعل له من ذلك نوعاً من المجد التكميليّ ، كأنه برهان بالعكس ، على قيمة — هذا « الجرح الصامت » يسبغ عليه ، في عينيها ، « مكانة جديدة » : « في نحو تلك الفترة ، كانت مشاعري بازاء أبي تلهمني بالنشوة والتسامي ، كان يهزني أن رجلاً في مثل ذلك التفوق يتلاءم بكل تلك البساطة مع

١ — نفس المرجع ص ٣٨ — ٣٩ .
٢ — مذكرات فتاة مستقيمة، ص ٣٩ .

صغار وضعه .. كنت أحبه برومانتيكية »[١] ونقرأ بعد ذلك بقليل : « كان هواي به يتزايد » وهي تحدد لنا دوران آلية عمل هذا الاعجاب على النحو التالي : « كلما ازدادت حياته عسراً وخواء ، أعمى باصرتي وبهرني تفوق أبي ، لم يكن تفوقه يعتمد لا على الثروة ولا على النجاح ، ومن ثم اقتنعت نفسي أنه قد أهملهما عن عمد ، لكن ذلك لم يحل دوني وأن أرثي له ، كنت اعتقد أنه بُخس حقه ، وامي « فهمه » وكان ضحية جوائح غامضة . ومن ثم كنت ممتنة له ، أكثر ، لنوبات مرحه التي كانت ماتزال كثيرة الوقوع »[٢] .

لن ندهش كثيراً اذا لاحظنا أن هذه الذروة في مشاعر سيمون دو بوفوار نحو أبيها تتفق مع فترة بلوغها المراهقة . فهنا ، على وجه الدقة ، يظهر في علاقتها أول صدع ، يتلوه الكثير من الصدوع على كل حال ، ولكننا نستطيع أن نرى فيه دلالة خاصة ، بمعنى أنه ، على الأقل أول سلسلة متعاقبة .

كنتُ قد أشرت عدة مرات فيما سبق الى حدث لا بد أنه وقع ، منذ طفولة سيمون دو بوفوار ، حتى تغيّر حسها الاوليّ الاصيل بالسعادة الى ذلك التفاؤل « شبه الاصيل » - وهو من اكثر العوامل الثابته في شخصيتها استعصاءً على الدحض ، بل يوشك أن يكون لها طبيعة « ثانية » . وقد حان الوقت أن نحدد أنني اعتبر هذا « الحدث » صوفياً ، أي أنني لا اعتزم بالمرة أن أحدد له تاريخاً صارم الدقة .

كل ما نستطيع أن نقول بصدده أنه كان تجربة « انفصال » و « فطام »[٣] وأنه يشتمل على عدد من الوقائع المتباينة في طبيعتها ، وقعت في لحظات مختلفة . مثال ذلك اننا نستطيع تصور أصل هذه التجربة سابقاً على تلك

---

١ - نفس المرجع ص ٧٢ - ٧٣ .
٢ - نفس المرجع ص ١٠٨ .
٣ - نفس المرجع ص ١٠٦ .

النقطة الحرجة التي وصلنا اليها الآن في العلاقات بين سيمون دو بوفوا وأبيها. وعندما أخذت مشاعرها بازائه تبدأ في الارتفاع والتسامي، لا نستطيع أن نتجاهل أنه كان لها وجهها العكسي في ذلك الاحساس المؤلم بالقيد والحصر، بالاختناق، وبالسأم: كان حسبها أن يخرج معها أبوها ذات مساء في الشتاء، في جولة باللكسمبورج، حتى تدهش اذ ترى شجيرة زعرور مزهرة في قلب الشتاء». أكان الجو بارداً الى ذلك الحد، في تلك الحياة الصغيرة، حتى تضطر الى أن تنتهز، بكل ذلك النهم، أقل سانحة لكي تدفأ؟ «كان روتين أيامي على نفس القدر من الصرامة كايقاع الفصول: كان أقل خروج عنه يلقي بي في قلب الخارق غير المألوف»[1] وها هي ذي ملاحظة من نفس النمط نجدها على الصعيد الذي رأينا فيه هواها لأبيها يصل الى ذروته: «عندما كان يبقى في البيت، كان يقرأ لنا فيكتور هوجو، وروستان، ويحدثنا عن الكتّاب الذين يحبهم، عن المسرح، عن الاحداث العظيمة الغابرة، عن شتى المواضيع السامية، وكنت أنتقل بعيداً عن رمادية الحياة اليومية.»[2] ولكن هاتين الملاحظتين تذكراننا بثالثة، صادفناها من قبل، وسابقة عليهما: «لم اكن أطيق السأم، كان يحوّل، على الفور، الى القلق والمضض»[3].

ولعلنا نذكر أن سيمون الصغيرة كانت منذ ذلك الحين تتصور الصراع ضد البطالة (المولّدة للسأم) على شكل استخدام كامل لذاتها وللأشياء، وادارة وتصريف صارم للوقت وللمال، ومن ثمّ كانت واجباتها تمتزج بمسرّاتها. ولنفهم من ذلك بالتأكيد أنه اذا كان واجبها يناسبها ويطيب لها فانما ذلك بالقدر الذي يخدم به مسراتها، على وجه الدقة،

---

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة»، ص ٧٣.
٢ – نفس المرجع ص ١٠٨.
٣ – نفس المرجع ص ٦٩.

وقد لاحظنا ، بالضبط ، أنها تعاني من احساسٍ بالقيْد يثقلها . انها قطعاً بحاجةٍ الى عالم تسود فيه الضرورة ولكنها تفهم من ذلك أنه يجب أن يكونَ مركزاً على شخصها ، وأن يمد وجودها بتبريرٍ مطلق : يجب أن تكون فيه على ثقةٍ من أنها تشغل مكانها الحقّ . انها تفعل ما يجب أن يُفعل . يقال لنا انّها كانت تنتظر ، وبعد ذلك يتضح أنها كانت تنتظر نفسها . ذلك أنه مهما كانت « سعادة » وضعها في الطفولة (ثم في المراهقة) فان هذه السعادة كانت في عينيها نوعاً من الشقاء ، وضعاً زائفاً ، شقة لا تجاور فيها ، تناقضاً حميماً لا تكاد تتحمله الا بعناء ومشقة . انها ، باعتبارها وعياً ، تبلو نفسها وتريد السيادة لنفسها ، للفور ، وباعتبارها بنتاً صغيرة ، ينكرها الكبار [1] . ولكن عندما لا يملك المرء وسيلة لتجاوز الوضع ، فاما أن ييأس أو أن يلجأ الى السحر ، إلى تجاوزٍ ما « بالقوة » ، يكفله الحق الالهي ، ويوشك أن يكون متحققاً بالفعل : « كنت موضع انتظار » . وبعبارة أخرى ، انها (يجب أن تكون) في مكان ما ، شخصاً متميزاً كل التميز ، ومن ثمّ لا ينقصها الا أن تنضم الى نفسها اخيراً ، وما دامت تتطلب ذلك ، فانها موعودةٌ به . وهو وعدٌ لن يلبث أن يتأيد لها (ويصبح محتواه في نفس الوقت أكثر وضوحاً بقليل) بالقدر الذي يظهر لها فيه أن أباها قادرٌ على الوفاء به . ولاشك أن « استخدامها » لذلك الوعد كان يناسبها : فقد رأينا على أي حال أنّ أباها قد شارك على الفور في اللعبة ، الى حد كبير [2] .

---

١ – « منذ أن عرفت كيف أفكر ، اكتشفت في نفسي سلطاناً لا حد له ، ومحدودية تدعو للسخرية » (« مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٧٠) .

٢ – وذلك على أي حال هو أحد المواقف الأبوية الكلاسيكية بإزاء البنت : موقف يميل ، فيما يبدو لي ، الى نكران الطفلة لحساب المرأة (التي هي ليست الا اخترالا خادعاً لها) ونكران هذه المرأة التي تبشر بها الطفلة ، بالرغم من كل شيء ، وذلك باسم الأخلاق . والتركيب بين هذين النفيين المتعاصرين هو أن يعزى الى الطفلة وعي ناضج ، مجرد تماماً عن الجنس : « كان أبي يعاملني كأنني شخص تام التحقيق ، منجز » لا جسماً ولا روحاً ، بل عقلا —

انها تضع الصدع الأول ، اذن ، في علاقاتها به ، في الفترة التي جاءها فيها الحيض لأول مرة . ان هذه الظاهرة البيولوجية في حد ذاتها — بعد أن « طرحتها أرضاً » لأن أمها لم تعدّها لها — قد ظهرت لها أميل الى الايجابية ، منذ أن استطاعت أن تقنع نفسها بأنها لا تتضمن أي اثم من جانبها : بل استقت منها « نوعاً من الفخار » . ولما كانت تسمع أمها تتحدث مع صديقاتها ، حديث نساء بعضهن الى بعض ، لم تشعر من ذلك بأي ضيق . لكنها لم تكن تنتظر أن يبلغ النبأ الى أبيها ، وقد كانت ضربةً حقيقية لها . هذا المساء نفسه ، عندما ظن أبوها أنه يمازحها في هذا الصدد : « كنت اتميّز خجلاً .. كنت اعتقد نفسي ، بازاء أبي ، عقلاً بحتاً ، واستشعت أن يراني ، فجأة ، كائناً عضوياً . احسست بالسقوط الى الأبد »[1] .

أما الصدع الثاني الذي يمكن أن نترسّم آثاره ، فهو بلا شك نفس هذا الصدع : « عندما كان يقرّني ويوافق عليّ ، كنت واثقة من نفسي ... وعندما بلغت سن المراهقة ، أحبطت أمله .. »[2] والصدع الثالث يصدر

= (مذكرات فتاة مستقيمة ص ٤٢ و ٣٩) . انظر أيضاً « كان أبي يقول ، بطيب خاطر : سيمون لها مخ رجل . سيمون رجل . ومع ذلك فقد كانوا يعاملونني معاملة بنت ، نفس المرجع ص ١٢٣) .

١ – نفس المرجع ص ١٠٣ .

٢ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٠٩ . أنظر أيضاً : « كان أبي يراني قبيحة ، وكان يأخذ ذلك علي » (نفس المرجع ص ١١٣) . واذن ، كما أشرت إلى ذلك من قبل ، فقد كان أبوها يحب المرأة : « كان يقدر » فيها « الرشاقة والجمال » . ولذلك فانه قد اختار ، للفور ، أن يستدعي الأنثوية المستقبلة عند ابنته ، بأن ينكرها . وطالما بقيت طفلة ، على أي حال ، فان ما كان يستطيع أن يغضبه منها ، على نحو جدي ، أنها توحي بالمرأة وانها في الوقت نفسه اقل ما تكون امرأة . ولكن عندما أخذت المسافة تميل للتلاشي بين ابنته وبين ما كانت توحي به ، فقد أخذ التهديد يتضح ، في نفس الوقت الذي يتضح فيه الحنق . كانت ستصير حقاً امرأة (ولم يكن ينبغي لها أن تصير امرأة في عينيه) ومع ذلك فانها كانت تحبط رغبة ، إذ لم تكن امرأة بعد ، وتأبى على نفسها أن تكون . « لم يكن يخفي خيبة أمله فحسب ، بل أخذ يبدي اهتماماً أكبر بأختي التي ما برحت طفلة جميلة . » والجدير بالملاحظة في هذه المسألة =

عن ذلك بلا شك ، اذ أن الصراع الذي يلقى عليه الضوء (والذي كان من الممكن ايضاً نظرياً ، أن يظهر في اية فترة أخرى) لم يظهر في الواقع الا في تلك اللحظة بعينها ، في أولى لحظات سنّ المراهقة والبلوغ : «كنت أحلم بأن تكون لي بأبي علاقات شخصية .. وفقدت هذا الوهم .[1]» والأمر هنا يتعلق بصراعٍ مباشر بين الطفلة وأمها ، فلم تكن الطفلة تطيق أن تكون لأمها علاقات ممتازة بأبيها ، اي علاقات تتخذ بازائها علاقاتها هي به وضعاً نسبياً في اية لحظة . «حتى في اللحظات النادرة التي كنا نجد فيها انفسنا وحدنا ، كنا نتحدث كما لو كانت هي هناك» .

اذا كنا نريد أن نتتبّع ، حتى النهاية ، التدهور المطرد في علاقاتها بأبيها ، حتى نحدد أصداءه على علاقاتها بالآخرين وعلى رؤياها للعالم ، فينبغي لنا بادىء ذي بدء أن نعود الى أمها وان نحاول أن نفهم ماذا كانت أمها تمثّل عندها ، منذ السنوات الأولى . والواقع أنه يحدث أنّ سيمون دو بوفوار بعد أن تحدثت عنهما طويلاً وهي تميز بين احدهما والآخر ، بل توشك أن تعارض أحدهما بالآخر ، تلوح أميل ، شيئاً فشيئاً باطراد ، الى أن تراهما معاً ، وأن تتحدث الينا عن والديها — ولا تجرؤ على القول بأنها «تصفهما معاً» . ولكن يحدث ، الى ذلك ، أنها حتى قبل أن تصل الى ذلك

= انها اسهمت ، على ذلك النحو ، في خيبة أملها هي نفسها ، اذ ألقت بها ، في سن المراهقة ، بأعنف مما كانت لتلقي بنفسها فيه بارادتها . وانا أفهم حق الفهم بأن أباها ، اذ كان يمازح ابنته بشأن حيضها ، انما كان ينوي ، بمعنى ما ، أن يريحها ويسهل عليها الأمر (في ظروف كانت بلا شك تضايقه هو ، على نحو غير عقلي) ولكن كيف يتسنى لنا ألا نرى أنه كان يجد سروراً ، أيضاً ، في اذلالها بأن يردها فجأة الى جسمها ، رداً يتخذ أقل الصور مدعاة للسرور ، كأنما لكي يعاقبها على انها اقتربت ذلك القرب من تلك الانثوية التي لم يكن ثم مجال ، عنده ، لأن يسلم بها؟ من الواضح على كل حال (وسوف نعود الى ذلك عما قليل) أن موقفه كان له ، على الأقل ، تأثير في أنه أكد عندها تلك الاضطرابات الكلاسيكية جداً الناجمة عن اكتشاف الوضع الانثوي .

١ — نفس المرجع ص ١٠٩ .

كانت قد تأدى بها الأمر الى أن توزّع بينهما الأدوار الخاصة بكل منهما والتي كانت قد حددتها، أولاً، لكلٍ منهما. فقد رأينا أنها سوف تأخذ وشيكاً في أن تحس مشاعر مشوبة نحو هذا الأب الذي كان يمدّها بالأمن والذي كانت ذكورته لا تعني لها شيئاً. ولكن ها هي ذي الأم التي كانت عاشقةً لها، أولاً، وكان حضورها يزودها بمتعة حقيقية، سوف تغدو غريبةً عليها بشكل عجيب، حتى لتمثل عندها القيد الجائر الذي يبقيها منفصلة عن ذاتها. وهذان التطوران المتضادان، ظاهرياً، سوف ينتهيان أخيراً الى هذا التتويج المشترك: معاينةٌ للفشل، أو للقصور على الأدق، بحيث يكون دور الأب ودور الأم، هذه المرة، ممتزجين الى حد يقل أو يزيد... لقد شهدنا الهبوط القاسي لعلاقة بالأب كان تطورها يبدو إيجابياً، فلنحاول أن نحدد الآن كيف كان الحال من جانب الأم.

ان القسمة الرئيسية التي تسترعي بصري في المشاعر التي تلهم بها الأم سيمون الصغيرة، هي ان هذه المشاعر ذات أصل يعود الى القلق. تكبر الطفلة وتطول قامتها بضع سنتيمترات، وتتلقى التهنئة، وتتيه بذلك فخراً. «ومع ذلك فقد كان الخوف ينال مني، أحياناً... كنت أنظر الى مقعد أمي وأفكر: «لن أستطيع بعد أن أجلس على ركبتيها»»[1] ثم هناك أيضاً «تلك المرأة الفتية الضحوك المرحة» ممثلة كل الامتثال لزوجها، ومع ذلك فلها مزاج فيه حدة واحتدام: «كان.. فيها شيء ما، كامل، مسيطر... كانت تتبدى مع لويز، مع أختي، ومعي، متسلطة، أحياناً الى حد الشطط». وعلى أنها كانت خجولاً، ملتزمة بالأصول، في المجتمعات فانها إذا نالها أحدٌ من خاصتها بضيق، أو مسّها بشيء، كانت ترد على ذلك بالغضب والثورة وانفجارات عنيفة من الصراحة[2] ونحن نتصور اذن الى أي مدى كانت بنتاها تحسان أنفسهما مرغمتين على «الحكمة»:

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١١.
٢ – نفس المرجع ص ١٤٠.

« عندما كانت عيناها تتألقان ، أو كان فمها ينزمّ » ببساطة ، فأعتقد أنني كنت أخشى الجيشان الذي كنت أهيجه في قلبها ، بقدر ما كنت أخشى سقوطي نفسه في عينيها . كانت مسئوليّتي تضاعف اعتمادي عليها »[1].

ولكن الشعور بالسقوط . نفسه لم يكن أقل مدعاة للخوف ، لقد ظلت سيمون الصغيرة معتمدة اعتماداً عميقاً على هذه الأم التي كانت تعد نفسها ، من بعض النواحي ، مسئولة عنها . « في كل لحظة ، حتى في أعمق أعماق قلبي ، كانت شاهدي ، ولم أكن أفرّق بالمرة بين نظرتها وبين نظرة الله » . الى ذلك الحد تقريباً (سوف يكون علينا أن نعود الى ذلك على كل حال) أنها لم تخشَ أن يهجرها الله، وأنها ، بكل بساطة ، افترقت عنه بمجرد أن فهمت انه لا يستطيع أن يضمن لها ذلك الشكل من المطلق الذي كانت بحاجةٍ اليه ؛ ولكنهـــا ، على العكس ، عرفت حق المعرفة ذلك الخوف المراوِد بأن تتكرها أمها : « كان كل عتب .. وأدنى تقطيب للحاجبين .. سيهدد أمني : اذا حرمت من تأييدها كنت أحس لنفسي الحق بعد في أن أوجد »[2].

وها هي ذي الآن ما صارت اليه هذه العلاقة الجوهرية بعد ذلك ببضع سنوات ، في فترة البلوغ : « كان حنان أمي يُثقل عليّ . كانت لها « أفكارها » التي لم تهتم بتبريرها ، لذلك كانت قراراتها تبدو لي تعسّفيّة ، وهكذا كان يحدث أحياناً أنّ سيمون ، على الرغم من طواعيتها « ودماثتها » المعتادة ، تصل الى درجة ان تنازع في سلطة ما عادت تؤمن بها ، وعندما

١ – نفس المرجع ص ٤٣ . أنظر أيضاً : « عندما كانت غاضبة ، كانت تنظر الي بعينين واسعتين » ، كنت أخاف هذا البرق العاصف الذي يجعل وجهها شائهاً قبيحاً ، كنت بحاجة الى ابتساماتها » . (نفس المرجع ص ١٠) وسنلاحظ أن البنت الصغيرة يبدو أنها تتصرف هنا بازاء أمها ، على طريقة عاشق يخشى سخط عشيقته – لأنه يخاف حكمها ، ولأنه في نفس الوقت يحس انه مسئول عنها ولا يطيق فكرة أن يؤلمها ، ولأنه لا يحب أن تفقد نعمة جمالها عندما يستبد بها الغضب – أنظر أيضاً « كنت أحس بالهلع مما كان يدور برأسها » (نفس المرجع ص ١١٢) .

٢ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٤١ و ٤٢ .

كانت ترى نفسها مضطرةً الى التسليم ، كان ذلك « والسخط يستبد بقلبها » : « وعدت نفسي الا أغفر لها أبداً ما كنت اعتبره اساءة للسلطة » . وأكثر من ذلك امعاناً : « كنت احتج عليها أنها أبقت عليّ معتمدةً عليها ، وأكدت حقوقها عليّ »[1] . ولنلاحظ أن السخط ، اذ ينضاف هنا الى القلق ، انما يؤكد ويحدد نفس الشعور العميق الذي كان يلقي بالاضطراب من قبل في نفسها : « الشعور بأنها ما زالت حبيسة » حدودها التي تدعو للسخرية ، وانه متكورٌ عليها » سلطانها الذي لا تحده حدود » . وقد كانت بلا شك تتواءم مع ذلك ، الى حد يقل أو يزيد ، في خلال كل الفترة السابقة ، حين كانت ما زالت قادرة على أن تحصل من أبيها على تعرف لذاتها كان يبدو لها مطلقاً ، ولكن كان حسبها أن يخرج هذا الملاذ من متناولها ، حتى تصبح الأزمة لا مفرّ منها » .

ونحن قد رأينا أنها تفلت من الأزمة ، عندما تعي أنها . أيضاً . تحت نظرة أبيها ، هذا الجسم الذي يأخذ في اكتشافه لنفسها . فعندما كان أبوها يحكم « بسيادة » على مستوى العقل (« كنت لا أتصور أنه يوجد رجل في مثل ذكائه ») فقد كان يخلصها من العرضية — من شقاء أن تُعد غير جوهرية ونسبية — اذ يزعم أن يقيم معها علاقة الند بالند ، والعقل بالعقل . ولكنه ما يكاد يخون انتظارها ، تمقتها ، اذ يردها الى البعد العضوي لوجودها ، فاذا هو نفسه قد أصبح نسبياً ، مجرداً من وظائفه كمخلص التي تسارع بأن تنقلها الى آخر — ما — بطل رواية (في انتظار ما هو أفضل من ذلك) ، الى مدرس اكبر سناً من البطلة الصغيرة « يتحلى بأعلى الخصائص » يفهمها ويغريها وينصحها ويتزوجها : « هذا الرجل المتفوق .. كان يجسّم القاضي الأعلى الذي كنت أحلم انه سوف يعرف قيمتي يوماً ما »[2] .

فقد ضاعت اللعبة ، مع أبيها ، منذ تلك اللحظة . ولكنها تستغرق بعض

١ – نفس المرجع ص ١٠٧ .

٢ – نفس المرجع ص ١٠٧ .

الوقت حتى تتأكد من ذلك كل التأكد: الوقت الضروري حتى يتذكر المرء، ويسترجع تعبيراً مألوفاً لديها: «العمل» الذي تتطلبه الهزيمة. لذلك قلت إن «الحدث الأصلي»، الانفصام الحاسم عن سعادة الطفولة، لا يمكن أن يحدد له تاريخ معين بالتدقيق.

ونحن نجدها في خلال سياق تحدد هذا الوعي نفسه، تحاول أن تُحل محل العلاقات الشخصية التي كانت تتمنى أن تقيمها مع أبيها «تحالفاً صامتاً» – موجهاً فيما هو واضح ضد أمها. ولكن النتيجة الوحيدة التي تحصل عليها، على هذا النحو، هو أن ترغم نفسها بنفسها على أن تقدر مدى الاختلاف الحقيقي بين التضامن الحقيقي لوالديها بين بعضهما البعض، وهذا التواطؤ المثير للسخرية التي ظنت أنها تستطيع الارتداد اليه. وبمعنى من المعاني لن يحدث منذ الآن شيء أخطر. لقد سدد اليها أبوها «ضربة مزدوجة»: لقد انحاز ضدها، ظلماً، الى جانب أمها، التي حكمت عليها اذ حاولت أن تستند اليه («ماما تدعو للسخرية!») كان ذلك بالفعل خيانة لسيمون، مرتين: اذ آثر عليها شخصاً آخر، واذ فقد في عينيها «العصمة المطلقة من الخطأ» التي كفلت حتى الآن قوة الخلاص. على أنه بمعنى آخر، فلن تكف الأمور عن أن تمضي من سيء الى أسوأ، بالقدر الذي لا تحس نفسها فيه، للفور، قادرة على اتخاذ عبء الانفصام على عاتقها. «بقي لوالدي قوة أن يجعلا مني آثمة، كنت أقبل أحكامهما وأنا أرى نفسي بعين أخرى غير عينيهما. كانت حقيقة كياني ملكهما بعد بقدر ما كانت ملكي...»[1] وعلى هذا النحو، بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة من عمرها، كان على سيمون عدة مرات أن تكتشف أن أباها لم يكن معصوماً من الخطأ «أنه كان من الممكن أن يرى المرء رأياً آخر غير رأي أبيه» وأن الحقيقة، حتى من هنا، «لم تكن مضمونة»، فأما أن والديها كانا متضامنين، وكانا متفقين على أن يشكا فيها، وينازعاها، وكانا يقطبان معاً حاجبيهما،

1 – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١١٠.

ويقولان : من أسف ان سيمون ليست ولداً ! » ، واما أن أباها كان أمله محبطاً في كيانها الجسماني ، ويجدها قبيحةً عاطلاً من الجمال ، وانها لا تشرّفه ، وأنه كان في كل النقط على غير اتفاق معها ...

وقد رأينا مدى جسامة خيبة الأمل التي أحست بها ، عندما كانت في نحو الثالثة عشرة . كانت طالبة في السوربون (في الأدب) وكانت تدرس « الرياضيات العامة » في المعهد الكاثوليكي ، ويمكننا أن نفاجئها وهي تضع في اعتبارها ما يلي ، وتسجله باعتباره واقعة جديدة انبثقت في حياتها للتوّ : «كنت لا أطيق أسري ، أكثر ، لأنني لم اكن استريح بالمرة بالبقاء في البيت . كانت أمي ، وعيناها الى السماء ، تصلّي من أجلي ، كانت تئن على ما انا بسبيله من ضروب الشطط ، هنا على الأرض ، كان كل اتصال مقطوعاً بيننا . كنت على الأقل أعرف سبب بلبلتها . ولكن تحفظ أبي وصمته كانا يدهشانني ويغيظانني أكثر بكثير . كان ينبغي له أن يهتم بالجهد الذي أبذله ، بتقدمي ، وأن يتحدث إليّ بودّ عن الكتّاب الذين كنت أدرسهم : ولكنّه كان لا يبدي الا عدم الاكتراث بل نوعاً من العداء الغامض . وكانت بنت عمي جان قليلة الموهبة على الدراسة ، ولكنها كانت باسمة جداً وجميلة : وكان أبي لا يمل من ترداد أن لأخيه بنتاً للذيذة ، ويتنهّد . كنت مغيظة محنقة . لم أكن أرتاب في شيء يدعو لسوء التفاهم الذي كان يفصلنا والذي تاه بثقله على شبابي ... لقد تذرني للدراسة وكان يأخذ عليّ أنني عاكفة طول الوقت على كتبي ... كنت أتساءل فيم كنت آثمة ، وأحس نفسي قلقة لا أجد راحة في جلدي وكان الغلّ في قلبي .. »[1]

وعندئذ تكتشف ، عن طريق ابن عمها جاك ، جمال الأدب ومتعته . وتلومها أمها للفور على أنها تقرأ الروايات ، وينتقدها أبوها في اختيارها لكتّابها : وكانت هذه الهجمات تثير ثائرتي . وكان الصراع الكامن بيننا

١ - « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٧٥ .

يستشيط . لقد انسابت طفولتي ، ومراهقتي ، دون اصطدام ... وبدا لي فجأة أن انفصاماً حاسماً قد حدث في حياتي »[١].

انني أصف العملية التي تتكشف هنا بأنها « تليسكوبية » ويتضمن عمل سيمون دو بوفوار أمثلة لا عداد لها على ذلك. انا نجد انفسنا بازاء نوع من الظاهرة « المتدرجة » في درجات كل منها معلقة على نفسها ، بازاء حركة لاسباغ الكلية على الجزئيات ، كل لحظة فيها تبدو كأنها حاسمة على نحو مطلق ، بالنسبة للحظات التي سبقتها : كما لو كنا نشهد تأليف دمية مركبّة متداخلة ، من أول وأصغر عناصرها ، اذ يختفي كلٌ من العناصر المتعاقبة تحت العنصر الجديد الذي يحتويه — إذ يخفيه (ينكره) بينما يعيد إظهاره من جديد على مستوى أعلى (يؤكده ويدعمه). ومن هنا جاء هذا الانطباع « بالتليسكوبية » الذي يحسه المرء أحياناً ، عندما تتلاشى كليّات جزئية ما ، بقسوة ، على نحو غير منتظر ، في كليّة جديدة ، لا تبدو ، اذا استخدمنا عبارة أقوى ، بالضرورة أكثر حسماً أو أكثر « كلية ».

وقد التقينا بهذه الظاهرة من قبل عند سيمون دو بوفوار ، وعلى الأخص في « أمريكا يوماً بعد يوم » حيث تشكل سلسلة من التصريحات القوية التي يبدو أن كلاً منها يغفل أنه قد سبقته تصريحاتٌ لا تقل عنه قوة ... ولا أعرف بالفعل شخصاً آخر قادراً على أن يردد ما يقول ، على بعد بضع صفحات ، بحيث يبدو انه يكتشف نفسه من جديد (أو أن يناقض نفسه دون ان يدرك ذلك) ، وهي طريقة للعمل تبدّت في تحقيق عن الولايات المتحدة كما تبدت في ثلاثة مجلدات من السيرة الذاتية ، فلا مناص من أن نعدها طريقة أساسية ؛ ولما كان يكفي أن نلاحظ ذلك حتى نضع موضع التساؤل للفور علاقة الكاتب بوجوده (حقيقته نفسها ، اجمالاً ، من وجهة النظر المزدوجة للممارسة ولمعرفة الذات) ، ولا شك أن هناك ما يدعو بالحاح الى أن نتحرّى استخلاص

١ — نفس المرجع ص ١٨٧ .

المعنى الحقيقيّ لذلك . على أنه قد يكون من الممكن أننا نملك بالفعل في هـذا الصدد توضيحاً كافياً .

كنت منذ قليل قد لعبت على كلمة « تليسكوب » : فاذا عدت اليها للمرة الأولى فلنك أنها يمكن (في معنى ثالث هو في الحقيقة أوّل المعاني جميعاً) أن توحي الينا بفكرة أن الظاهرة موضع البحث الآن ، عند سيمون دو بوفوار ، ليست الا ظاهرة « التليسكوبية » أي الرؤية من مسافة بعيدة — والمسافة هنا ، كما هو مفهوم ، هي بُعد الشقة في الزمن . هذا فرضٌ شديد الاغراء . ونستطيع أن نتصور ، بالفعل ، أن المرأة الناضجة عندما تتكلم عن الطفلة التي كانتها ، مضطرة من ناحية الى التقريب — في سلسلة متقطعة من « اللمحات الخاطفة » من « الصور الثابتة » — التقريب بين عدد من التبلورات في ديمومتها المجسمة ، فتخون بذلك التدفّق الحقيقي لوجودها ، وأنه يحدث لها ، من ناحية أخرى ، أن تجسّم في هذا الحدث أو ذاك من حياتها الماضية المعنى الذي لم يتخذه في الواقع عندها الا بعد بضع سنوات . مما يتلخص في استثارة صعوبة تكتيكية في وضع الأمور موضعها الصحيح على مستوى القصة ، والى وهم بصريّ منذ الآن ، على نحو مستوى استعادة الذكريات . ان الضمّ بين هذين العاملين يكفي ، على ذلك النحو ، لتفسير الظاهرة ، اذ يجعلها تبدو كأنها بليلة ، فيما بعد ، لدياليكتيكية معاشة لم تأت لحظاتها المتعاقبة حقاً على هذا الشكل التكراري اللاواعي الى حد قد يقل أو يزيد . والواقع أن زمن النضج كان أطول ، وتحققات الوعي كانت أقل عدداً ، ولكنها أيضاً كانت أكثر حسماً ، في الحقيقة .

الا أنني أرى أن هناك احتمالاً كبيراً في أن هذين العاملين قد تدخلا بالفعل ، ولكني اعترف أنني غير قادر على الرضا بهذا التفسير . أولاً لأنه ليس بالتفسير المرضي عندما يتعلق الأمر بأحداث قريبة العهد تتحدث الينا عنها المرأة الناضجة نفسها . ثم ، وفوق كل شيء ، لأنه يبدو لي أن من المستبق تماماً أن سيمون دو بوفوار قد وعت قط هـذا المظهر التكراري

للأوصاف التي تقدمها لنا : ان الوضوح الملحوظ الذي لا تكف عن ان تبرهن عليه بازاء نفسها ، وتلك الطريقة التي تستطيع بها أن تنفذ الى نفسها وتلقي على نفسها الضوء بينما القارىء لم يكد يستشعر الشرح بعد ، هو الضمانة الكافية على ذلك . انها إذ تصر على أن تقدم نفسها لأعيننا ، تحت هذا الشكل ، فانها تضطرنا اذن إلى أن نرى فيه إنعكاساً اصيلاً ، الى حد كاف ، لموقفها العميق ، لحركة وجودها نفسها . ولعلنا نحس هنا ، بالدقة ، احدى النقط التي يمكن فيها لعملها أن يزوّدنا بأكثر ما يمكن ، اذ يتطلب منا جهداً حقيقياً في الفهم — فلا نستطيع أن نتفادى ، اذ أنها قد بذلت هذا الجهد بازاء نفسها ، أن نمارسه أيضاً بازاء أنفسنا .

لو أن سيمون دو بوفوار لم تفعل الا أنها أعلنت تحت أشكال مختلفة ، عن عدد معين من المواضيع الايديولوجية ، لسهل أن نحصي عملها ونجرده ، وأن نضعه في بطاقات ، ان نستخلص منه موجزات «الوجودية» في صورتها «النسائية» . ولكننا هنا بازاء امرأة عقدت عزمها ، مبكرة جداً ، على أن توجد وفق وعيها ، وكانت تطلباتها ، للفور ، من الجذرية بحيث أن أيّ واحد منها كان ليخسر اللعبـة ، في كثير من الاحايين ، ويمنى بالفشل .وسوف أحاول عما قليل توضيح الاسباب الدقيقة التي تجعل هذه الحياة تبدو لي ، على العكس ، نجاحاً استثنائياً : وإنما أريد أن أوضح الآن أننا نتعلم منها الكثير ، لحسابنا نحن أنفسنا .

يلوح لي بالفعل ، من وجوه شتى ، أننا جميعاً «فصاميّون»[١] ، بل واننا نستطيع ، في كثير من الحالات ، أن نكسب بأن نكون فصاميين بوعي اكثر — اذ نأخذ على عاتقنا ، على نحو أفضل قليلاً ، تطلباتنا العميقة ، وابتعاد الشقة المحتوم بينها وبين الواقع . ان موقف سيمون الصغيرة بازاء والديها لا يمكن البحث عن مفتاحه في زيغ منظور بأثر رجعي ، من قبيل

١ — Schizophrènes

المرأة الناضجة، بل يجب أن نبحث عن مفتاحه قبل كل شيء في وضع الطفولة والمراهقة نفسه: فصدوراً عن هذا الوضع، بالعكس، يتضح لاعيننا الكثير من التصرفات اللاحقة، بشرط واحد على الأقل هو أن نفهمه أولاً، في كليّته. الا ان الصعوبة تأتي على وجه الدقة من أنّه تعرض لنا هنا، بالتناوب، كليّات شتى متباينة تقطع بعضها بعضاً الى حد يقل أو يزيد، ومن ثم لا يبدو أن أياً منها يمكن أن يعتبر حاسماً. واذاً كان قد وقع، في موضع ما، حَدَثٌ (عبور خط ما، انفصام فعلي) فأين يجب أن نضعه؟ واذا بقي هذا الحدث «غير قابل للتأريخ»، أسطورياً تماماً، فكيف يمكن أن يساعد على تحديد الوضع الذي نجم عنه، أي الوضع الذي تأتى له أن ينجم بإزائه؟ ان هذه الاسئلة، نظرياً، لها وجاهتها: اذا كان القطام الذي يقال لنا عنه قد انبسط عبر سنين عديدة، فلماذا لا نعتبر ايضاً أنه سوف يستمر طول الحياة؟ واذا كان قد وقع في لحظة معينة، فباسم ماذا، نقرّر اللحظة التي يمكن أن تكون هي اللحظة الصحيحة بين عدة لحظات حرجة؟ أما عملياً (وأقصد بذلك: مع اعتبار الوسائل التي يحتاجها وجود ما لكي يتغلّب على الظروف الأولية التي تشرطه وتحدده، بأيّ قدر من الفعالية) فانه يجب أن نضع، بالتأكيد، في نفس تلك النقطة التي تركتا فيها طالبتنا، منذ قليل، تصارع معاينتها سوءَ التفاهم العائلي، للمرة الألف، في هذه النقطة يجب ان نضع تحقق الانفصام في اللحظة الراهنة: لأنه في تلك اللحظة أصبح الانفصام ممكناً. وعلى سبيل البرهان العكسي على هذه المحاولة في تحديد الموقع، نسجل أنه في تلك الفترة، بالضبط، بدا لها الانفصام بالفعل ضرورياً. ذلك أن واقعية هذه المرأة القُصاميّة تدهشنا الى حدٍ لا نهاية له...

لقد تم الانفصام عندما صار ضرورياً لها.

ان سيمون دوبوفوار (في السابعة عشرة، في الثامنة عشرة من عمرها) تكتشف مرةً واحدة، معاً، في خلال بضع شهور: حرية حياة الطالبة

(«ألقى بي أخيراً في وسط الزحمة الانسانية المتشابكة »)[1] والمكتبات العامة ، والمزيد من الكتب أيضاً ، من خلال صداقتها بأبن عمها جاك («اتخذ الأدب في حياتي المكان الذي كانت تشغله الديانة : غزاها غزواً كاملاً ، وحولها تحويلاً »)[2] ، والحياة الاجتماعية أخيراً ، عن طريق محاضرات جاريل . ان لديها هذه المرة شيئاً تعارض به – شيئاً ترد به على – ما يضغط عليها ويخنقها منذ عدة سنوات : انها تملك وسائل للهرب ، هي في نفس الوقت وسائل لتحقيق الذات ، انها في وضع يسمح لها بأن تلتزم ، بأن تضع مشروع مستقبل حقيقي سوف يكون مستقبلها اذ أنه يتوقف على اختياراتها الشخصية . ان حريتها نفسها ، بكلمة واحدة ، هي موضع الممارسة . بهذه الامكانيات الأولى للممارسة الواقعية التي تكتسبها دفعة واحدة : أي التي ينبغي أن تكتسبها منذ الآن ، والا تعرضت لعقوبة إنكار لا علاج له . « ... لم اكن مقبولة ... كنت منفية . واستأثر بي القلق ، لانني تحققت أن الناس تأخذ علي ... المستقبل الذي كنت التزم فيه : لن تكون لهذه المقاطعة نهاية : كنت دائماً مدللة ، محاطة بالناس ، موضع التقدير ، كنت أحب أن يحبني الناس ؛ كانت قسوة قدري تخيفني – وقد أنذرت بها من جانب أبي ؛ كنت قد اعتمدت على تأييده ومساندته ، وعطفه ، وموافقته ؛ وكانت خيبة أملي عميقة عندما أنكرها علي . »[3]

على أننا لا نستطيع هنا حتى أن نضع افتراضية اعادة تشكيل للماضي : وخير دليل على أننا بازاء أزمة انفعالية هو ما تقدمه الينا يومياتها الخاصة بطريقة مزدوجة – بالاقتباسات المختلفة التي توردها لنا في «مذكرات فتاة مستقيمة » ، وبنفس حقيقة أنها تكتب يوميات خاصة ، لأول مرة ، في تلك الفترة بالذات . ان هذه الحاجة التي احستها للحديث الى نفسها ،

---

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٧١ .

٢ – نفس المرجع ص ١٨٦ .

٣ – نفس المرجع ص ١٨٨ .

لتؤكد نفسها على ذلك النحو بازاء نفسها ، هي" الجانب العكسي" للامكانية التي اتيحت لها أخيراً بأن تعترف لنفسها بوحدتها وانفصالها : « انني وحيدة . المرء دائماً وحيد . سأكون دائماً وحيدة ... » . وإذا كانت قد صارت قادرة على أن تنظر مواجهة" الى « المنفى » الذي تقاسي منه ، وتحدده بعبارات صريحة واضحة ، فذلك انها منذ الآن ، الى حد يقل أو يزيد ، في وضع يتيح لها أن تنكره وتتازعه حقاً : « لم اكن أفهم لماذا كان يدينني أبوه ، وكل المحيطين به .. كنت ، على كل حال ، ضحية جور ، وشيئاً فشيئاً استحال غلّي الى تمرد . »[1] وبالمثل ، اذا كانت تستطيع عندئذ أن تلاحظ « ما من أحد كان يقبلني على علاّتي . ما من أحد كان يحبني » ، فذلك أنها قد وجدت ، ضد هذا المصير الذي ينالها ، رداً حاسماً هو أن تحب وجودها نفسه حباً عارماً : « سأحب نفسي الى الحد الذي يكفي لتعويض هذا الهجران ، هذا ما قررت . كنت فيما سبق ، اوائم نفسي ، ولكنني لم أكن أهتم كثيراً بمعرفة نفسي : اما منذ الآن فقد زعمت أنني مزدوجة ، وأنني أنظر الى نفسي ، وأترصد نفسي ، وفي مذكراتي كنت ادخل في حوار مع نفسي . »[2] ومن الواضح أن هذا الانطواء الظاهري على نفسها انما يصدر في الواقع عن انفتاح على العالم كان له تأثيره العميق ، في اشكاله المختلفة ، على القدرة التي تحن بصددها .

لقد تم الانفصام عندما لاح لها ضرورياً : عندما أحست نفسها قادرة على أن تُكسبه قيمة . اننا نفهم قطعاً أن قلق هذه الفتاة الصغيرة ، اذ اضطرت الى أن تؤكد نفسها دون أي تأخير (كان عليها أن تنتظره طويلا") وأن تعتمد على وسائل لم تتح لها بعد فرصة تجريبها ، كان قلقاً كبيراً : ان الارض المألوفة ، والمرمى العائلي القديم تسوخ تحت قدميها ، يجب أن تلقي بنفسها الى الماء ولكن كيف تتأكد – لمجرد أنها رأت الآخرين (بعض الآخرين)

---

١ – نفس المرجع ص ١٩٠ .
٢ – نفس المرجع ص ١٩٠ .

يسبحون – انها سوف تكون قادرة على السباحة؟ ان تقدم.. ألا تقدم.. انها قد أقدمت، بالتأكيد، وهي لا تقدم فحسب، بل تقرر أن تجعل من ذلك فرصة حياتها. «كنت أهيّئ نفسي بهذا المنفى الذي دفعني الى كل تلك المتع العالية، كنت أحتقر أولئك الذين يجهلونها، وكنت أهش لأنني استطعت أن احيا، طول تلك المدة، من غيرها.. ساعدني الأدب، على الأقل، على أن أرتد من الحزن الى الكبرياء... لم اكن أعاني من شقاء غامض بل كنت النازل في معركة حامية..»[1]

لعلنا قد لاحظنا أن النصوص التي نوردها، منذ بعض الوقت، تنحصر في نطاق نحو عشرين صفحة من «مذكرات فتاة مستقيمة» ونحن نفترض أنه ليس ثم مجال، في نطاق هذه الدراسة، أن نتبع هذا المنحى في كل العمل. لذلك يهمّني أن أوضح على كل حال أن أكثر من عشرين فقرة أخرى لأبعاد معادلة – اربعمائة صفحة من المجموع – جديرة بالتأكيد باهتمام لا يقلّ عما سبق، وأنه مما لا يطيب اطلاقاً أن الخاطر هنا بأن اضع فقرة ما في موضع الامتياز بالنسبة لكل الفقرات الأخرى.

ان من يغوص، عن عمد، مرةً واحدة، في هذا العمل، يستحوذ عليه حقاً، أولاً، غناه الخارق أكثر من أي جانب آخر من جوانب العمل: هذا التدفق الذي لا يتوقف للملاحظات من كل نوع – عن العالم الخارجي (المشاهد والموضوعات) وعن العالم الانساني البيني (العلاقات بين الوعي والوعي، والظواهر الاجتماعية، الخ)، أو عن الكاتبة نفسها، بذاتيتها الحية – وتلك الموهبة الأصيلة البالغة الأصالة على الكتابة، وهي الموهبة التي تقع عند منبع ذلك التدفق. وقد سمعت، وقرأت (وحدث أنني قلت لنفسي أحياناً...) أن هذه الكاتبة تستنفد صبرنا، أن لا توفر علينا اية ملاحظة من أدق الملاحظات وأصغرها عن العالم أو عن حياتها نفسها:

---

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٩٠ و ١٩٣.

ولكننا اذا وزنّا كل شيء بميزانه الدقيق رأينا أن جمهورها نفسه هو الذي يفهم نفسه بذلك ، في سعته ، وفي عمقه معاً . ان ما لم يتلبث النقاد غالباً ، وانا نفسي أحياناً ، لكي نسجّله (ذلك أننا بلا شك كنا نسعى وراء « أفكار ») كان الآخرون يقرأون حقاً ، بكل روحهم ، وبكل حسهم ، اذ يتعرفون فيه على أنفسهم ، ويتعلمون فيه أن يروا العالم . ولكن هذا العمل أيضاً يتضمن مع ذلك مواضيع . وأشدّ خصوم هذا العمل غلوّاً انما يشجبون تأثير هذه المواضيع بأكثر بكثير مما يتكرونها . واذا كان يمكن لهذه الدراسة أن تكون لها أدنى اهمية بازاء ذلك العمل ، فلن يكون ذلك بلا شك الا بأن تتوخّى أن تقترح قراءةً له تُظهر هذه المواضيع الجوهرية وفقاً لهذا الغنّى الجوهري .

فاذا اخترت اذن إن ألح بصفة خاصة على هذه المرحلة الحرجة — من بين مراحل أخرى كثيرة — من وجود كاتبتنا ، فلأنها بدت لي ، من وجوه مختلفة ، نموذجية حقاً . هي نموذجية بالمظهر الفريد لظاهرة النضوج الذي استخلصته منها العوامل الرئيسية شيئاً فشيئاً ؛ وهي نموذجية أيضاً باعتبارها أزمة انفعالية أولى ، ونموذجاً نمطياً لكل الأزمات المستقبلة ، ولكن لعلها نموذجية فوق كل شيء ، بمعنى ثالث ، لا يقتصر على الارجح الى أن يكون وثيق الصلة بالخاصّيتين السابقتين ، ويبدو لي بالفعل أنه منها يصدر التدخل الواعي والحاسم لبعض خطوط القوة التي تشكل بمقتضاها فكر سيمون دو بوفوار . ولذلك ينبغي عليّ أن أهيب بالقارىء أن يصبر صبراً لا نهاية له ، وان أدعوه الى أن يعود مرة أخرى الى بدايات هذه الحياة ، والى العشرين صفحة هاته ، لكي يرى فيها أخيراً مجموع العمل كله يتخذ نظاماً ، وهيكلاً .

سيمون الصغيرة اذن تأخذ في أن تحيا ، تحت أعيننا ، انتزاعاً ما ، وانفصالاً وفطاماً : أي تحيا النقلة من نوع من « الحاضر » المطلق ، مضموناً بانغلاقه على نفسه ، الى حضور في العالم مفتوح على مستقبل حقيقي ،

بتناصبها الجدل ، يتهددهـا ، ويضعها موضعاً نسبياً . ونحن نعرف أن البنت الصغيرة جداً التي كانت ترى اقتراب اللحظة التي لا تعود تستطيع فيها أن تجلس على ركبتي أمها ، كانت تحس منذئذ الخوف من أن تطرد من ذاتها هي ، أن تفقد كينونتها نفسها ، و « تفقها – حياتها » : « كان المستقبل يوجد فجأة ، كان سوف يغيّرني الى أخرى تقول أنها أنا ولا تعود هي أنا . لقد احسست كل ضروب الفطام . والانكار ، والهجران ، وتعاقب موتي .. كنت أعرف نفسي محكوماً عليّ بالمنفى ¹ » .

لا داعي أن نجادل المرأة الناضجة هنا ، عن المحتوى الحقيقيّ لوعي الطفلة : تنقصنا الأدلة ، من جانب أومن آخر ، والحجج النظرية لا تكفي قطعاً لتعويض هذا النقص . ولنلاحظ بدلاً من ذلك أن هذا الخوف على أي حال قد ظل في حالة الخوف المراود المكتوم ، طالما لم تتصور سيمون الصغيرة المستقبل الا على جنس نموّها الطبيعي نفسه ، أي باعتباره بأنها دون أن تملك من أمره شيئاً : « كنت قد ازددت طولاً بمقدار سنتيمترين أو ثلاثة . وظللت ازداد طولاً » . ولكن لاداعي لأن ننتهز ذلك لكي نُغفل الدقة التي نجدها في هذا الصدد ، حتى لو افترضنا أننا نعتبرها سابقة لتاريخها الى حد ما ، الدقة التي تتحدث بها عن المظهر النهم لعلاقتها بالعالم : « كان العالم ، عن طريق فمي ، يدخل اليّ على نحو أكثر حميمية مما يدخل عن طريق عينيّ أو يديّ .. كنت استفيد ، على نحو مشبوب محتدم ، بامتياز الطفولة التي ترى في الجمال ، والترف ، والسعادة ، اشياء تؤكل ، كنت أمام محلات الحلوى في شارع فافان ، أتجمد ، مفتونةً بالسطوع المنير للفاكهة المسكّرة ، وتقلّب الألوان المكتوم في مربيّات الفاكهة ، والازدهار المخطّط للبونبون الحامز المرّ ... كنت أقرقع تحت اسناني قشرة فاكهة مُقنّعة ، فتنفجر بازاء سقف فمي فقاعة النور ، بطعم الزبيب أو الاناناس ؛ كنت أملك كل الألوان وكل ألسنة

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١١ – ١٢ .

اللهب ... كنت أملك العيد كله ... هذا العالم الذي نسكنه ، لو كان كله قابلاً للأكل ، فاية قبضة كنا سوف نحكمها عليه ! ». على أننا نجد فيما يلي أنها لم تعد البنت الصغيرة بل سيمون دو بوفوار التي تحدثنا : «وانا ناضجة كنت أود لو قضمت اشجار اللوز المزهرة ، وعضضت في لوز مغيب الشمس. بازاء سماء نيويورك كانت أنوار النيون تبدو حلوى هائلة ، وأحسست بالحبوط [1] ». والواقع اننا لسنا بحاجة الى هذه الاشارة الصريحة البالغة الصراحة لكي نعرف ، في هذه الذكريات من الطفولة ، الرغبة الملتهفة للتملك المباشر ، جنون التشرّب والتشبع الذي سوف يظهر بعد ذلك في النزهات عبر البروفانس أو في الرحلة الى أمريكا. والفرق الوحيد هو أنها ، مع ذلك ، قد خرجت عن «المرحلة الفمية» التي يحدثنا عنها المحللون النفسيون ، وأن الحاجة الى التملك عن طريق الفم قد اصبحت رمزيّة صرفة بالنسبة الى حسية معممة شاملة تظهر ، حسب الأحوال ، كرغبة في أن تأخذ أو أن تؤخذ ، في مداعبة العالم أو أن يداعبها العالم.

مازالت هناك بعد نقطة أخيرة في هذا التخييل النّهِم : ذلك أنه يبدو ، من خلال نقلات شتى متعاقبة ، محتفظاً بمعناه الأصلي – هذا المعنى الذي تقترحه علينا سيمون دو بوفوار ، في حكاية شارلوت التي كانت لويز تقرأها لها عندما كانت صغيرة جداً ، وكانت «تفتنها». شارلوت ، ذات صباح ، تجد بجانب سريرها بيضة من السكّر الورديّ ، توشك أن تكون كبيرة كبرَها» : «كانت هذه البيضة هي البطن ، هي المهد ،

---

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٠ – ١١ – «كنت أعلق برقبتي ومعصمي ، حلوى السكر هذه ، كنت سوف أفرقع بلورها بين أسناني ، سوف أسحق بازاء سقف فمي جليدها اللامع ، وسوف يكون لي على اللسان طعم الزبيب أو الأناناس ... كنت أريد أن ألف حول عنقي هذه الأنوار ، أن أداعبها وأطايبها ، أن آكلها ... (أمريكا يوماً بعد يوم) ص ١٣ و ١٩).

ومع ذلك فقد كان في الامكان قصمها وأكلها . « هذه البيضة ، بالتأكيد ، هي العالم . بصورته المزدوجة باعتباره بيئةً محيطة واقية ، وموضوعاً قابلاً للأكل : فاذا قبلت أن تكبر ، فانها ستجد حماية أقل فأقل ، واذا تظاهرت بأنها تملكها ، اذ تأكلها ، فانها تحكم على نفسها ، بنفسها ، بالعدم . وبعد أن تتخذ شارلوت الموقف الثاني ، تصغر وتصغر حتى تصبح دقيقةً في غاية الصغر . وقد أنقذت في آخر لحظة من هذه الظاهرة الغريبة للتطور العكسي ، وها هي ذي قد رُدَّت ، بالندم والخوف ، الى الموقف الأول — الذي يتلخص في أن تكظ نفسها ، في جشع ، بالغذاء الحقيقي ، أي تلتهم العالم « مجسماً » لا بالصورة فقط . وتؤخذ شارلوت الى الطبيب في حالة انتفاخ بالغ ، فتعود في النهاية الى أبعادها السوية ، اذ تتبع نظاماً للأكل أعقل وأحكم .

أما سيمون ، من ناحيتها ، فتعود إلى السلام والهدوء : «كنت أخرج سليمة معافاة من المغامرة التي احترّلتني إلى جنين ، وغيّرتني الى سيدة كبيرة ، بالتناوب . » والخلاصة : يجب أن نقبل أن نكبر ، بلا شك ، ولكن مع احساس مسبق بأننا سوف يكون علينا أن نتكبد عناداً كثيراً لكي نحتفظ ، عبر تعسّات النمو ، بسيادة لا يمكن أن يكفلها ، مرةً واحدة والى الابد ، لا السحر ، ولا الهرب والتنازل عن الحياة (اختيار وضع المطلق في عدم الكينونة) ولا السلوك «العدواني» ، الذي لا يفتأ جوعه ، لتملك العالم تملكاً كلياً (محاولة تمثل الكينونة على نحو مطلق) .

وهذه العلاقة المعقدة بين الأمن الأولي للطفلة وتطلبها السيادة ، الوثيقة الصلة ، دفعةً واحدة ، بأول تحققات الوعي عندها بنفسها ، هذه العلاقة هي التي سوف تشكل عقدة تلك الأزمة التي يجب علينا الآن أن نعود إليها . لقد تأكدت سيمون أولاً ، في عينيها نفسها ، بحب والديها وسعادة سنواتها الأولى : وما أن أحست ادنى تهديد بالنفي يُثقل عليها حتى رأيناها تحاول أن تؤكد نفسها بنفسها . ولكن طالما كانت الوسائل تعوزها ، فقد كان عليها أن تقنع بالاحتجاج ، بلا طائل ، دون أن تستطيع حتى أن تعوّض

الخبرة الأولى ، خبرة السيادة المعطاة ، بتأكيد عمليّ ما لتطلّبٍ أن تكون ذات سيادة . ونحن نفهم أن هذا التطلّب ، من هنا ، امكن له طويلاً أن يختلط بالحلم بأن تكون ، ما تزال ، معترفاً بها ، ان يختلط بحاجة للدوام . برفض الفِطام رفضاً بحتاً كاملاً : «لم اكن أريد أن يفرض عليّ المستقبل انفصامات ؛ كان لا بد أن يحتوي على كل ماضيّ – كنت قد فقدت أمن الطفولة : ولم اكسب شيئاً في مقابله »[1] .

وعلى ذلك النحو تظهر لنا ، وهي في نحو السابعة عشرة من عمرها ، مرهفة الحساسية بالجور الذي وقع عليها ، اذ وقعت عليها تلك النسبة في وضعها الأصلي وفي الدلالة الايجابية المطلقة التي كانت قد عزتها إليه . كان لها حقوق ، كان لها مدخلٌ الى الكينونة : ولكنها أحبطت ، في ذلك شيئاً فشيئاً . كانت تعرف نفسها متفردة ومبررة ، وكانت تعتقد انها تحيا في الحب وفي الحقيقة . كانت تتصور نفسها معترفاً بها كل الاعتراف ، محبوبةً كل الحب ؛ ومع ذلك فقد كانت ، منذ الآن ، وعلى غير علمٍ منها ، يُعد لها في مكانٍ ما ، مصير مضض الحب ولواعجـه ، والاستخفاء ، والكذب ، والشكّ ، والوحدة ، والسأم . ليس ذلك فقط « جوراً » بل هو « ضَيْر » : وقد مست مشاعرها من ذلك بجرح حقيقي ، بقدر ما تحس نفسها مخدوعة ، مصنوعة من جديد ، مضلّلةً – معمّىً عليها »[2] .

---

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٠٦ – ١٠٧ .

٢ – الى كل أولئك الذين أحسوا وأحسن ، قد أضيروا ، في انتظارهم ، بل في ثقتهم ، بالكلمات الأخيرة من « قوة الاشياء » انتهز الفرصة لكي أشير – قبل أن استطيع أن أوضح معناها حقاً من مجموع العمل – الى ان العبارة المستطيرة الصيت : « لقد خدعت » كلمة تقع موقعاً نسبياً للغاية ، منذ الآن ، من عدد من التصريحات السابقة ، تنتمي الى نفس النمط وان كانت قاطعة اكثر . وعلى سبيل المثال : « لقد احتالوا علي ، لم أعرف من اغتاظ ، وكنت مغيظة من العالم كله . » – « من ذا الذي ضللني وأوقعني في التعمية ؟ لماذا ؟ وكيف ؟ » – « كنت أظن نفسي نجماً ولم أكن الا أداة ثانوية : لقـد احتالوا علي » (« قوة العمر ص ٧٨ ؛ « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٩٠ و ٣١) .

ولا نتردد في القول ، ما دامت أوحت الينا هي نفسها بذلك : ان موتها حقاً هو الذي تُؤذّن به هنا . ولهذا السبب رأيناها ، دوراً بعد دور ، تسوّف وجدانها به ، حتى اللحظة التي يبدو لها فيها ، أخيراً ، ممكناً أن تفلت من هذا « الموت » بأن تأخذ على عاتقها حياتها : ويبقى أن هذه اللحظة هي أيضاً اللحظة التي يغيّر وجدانها فيها من طبيعته ومن معناه — حتى لو كان مصوغاً بعبارات معروفة من قبل — اذ يصبح ، بلا رحمة ، مجسماً محدداً . ذلك أن الأمر هنا لم يعد أن تتصوّر بل أن تحيا هذا « الشقاء » هذا التشكل المسبّق لغيابها هي . إن ما تضطر طالبتنا الصغيرة أن تحس به « في جلدها » هو الوجه العكسيّ نفسه لما كانت تظنّه كينونتها ، هو اللاقيمة للثمن الذي كانت تَنْبطه بحياتها . وهذا الانتقاء الشاق القاسي — الذي سوف يجعلها نهائياً تعي نفسها اذ يرغمها على أن تُحول تطلّبات حقيقية محل التأكيدات الساذجة واللهفات الحالمة لاستعداداتها الطبيعية الأولى — هذا الانتقاء انما كان عليها أن تتلقاه من نَفَسَى اولئك الذين أحبتهم أعظم الحب ، من أدنى اقاربها إليها ، كأنما تتلقى منهم نوعاً من اللعنة الالهية .

ليس في ذلك ما يدعو للدهشة . فالعالم يعرض لنا ، ونحن نصل الى أن نمسك به ، من خلال الآخرين وبهم : ومن ثمّ فان كلاً منا ، عليه أن يكتشف ، في الآخرين ، « الصورة السلبية » لتلك الصورة الغريبة « لاختياره » لنفسه — ما هو له ، وما هو ليس له ، هذا الاختيار الذي يتمّ تلقائياً ولكنّ صادراً من وضع يستطيع الآخرون وحدهم أن يأخذوه على عاتقهم . ان « الضيّر » الذي يوقعه بنا العالم ، يعلّمه لنا الآخرون ، ومن خلالهم نحسّه ، وهم أيضاً الذين يكشفون لنا ، بمعارضتهم لنفس الآمال التي ولّدوها هم فينا ، عن المحتوى الفعليّ « لحقّنا » الشخصيّ .

ان « العمل الذي تتطلبه الهزيمة » والذي أشرت اليه فيما سبق ، هو العمل الذي يُعمله فينا الواقع ، هو القبول الصعب المؤلم لهذا الوجه العكسيّ منّا ، من هذا الواقع الآخر الذي يناصبنا الخصام ويجعلنا نسبيين في أعيننا

نحن أنفسنا ، بنفس القدر الذي كان قد أعطي لنا به أن نكون ، أولاً .
ويبدو لي أن سيمون قد استخلصت أفضل ما في هذا الصراع الجذريّ الذي عاشته على نحوٍ خاص من الحدة والتوهج (وذلك في نفس الوقت تقريباً الذي استطاع فيه جان - بول سارتر ، كاتب « الكلمات » في المستقبل ، أن يصوغ لنفسه فكراً شخصياً على أنقاض طفولة « سعيدة ») : ولكنها استخلصته بطريقتها الخاصة ، بمقتضى ايقاعها الخاص ، ومع اعتبار خبرةٍ محدودة لم تكن لتختلط بأية خبرة أخرى .

انّنا سوف نرى أنّ كلّ « الكلمات - المفاتيح » في عملها ، تتحمّل بمعنىً لن يزداد فيما بعد الا عمقاً (أو ربما ميلاً واغناءً) ، الى حد يقل أو يزيد) ولكنه معنىً لن يكون أبداً ، على أي حال ، منكوراً . هنا تموت سيمون الصغيرة ؛ هنا تولد امرأة سوف تدور همومها الجوهرية حول العالم ، لأنها سوف تعرف كيف تحياها وتعبّر عنها باسمه .

في هذه النقلة ، من الحياة المعاشة ، الى الوجود ، الى الحياة محمولةً مسؤوليتها الى حد يقل أو يزيد ، يبدو من ثم أن تشكّلاً مسبقاً للموت يلعب دوراً منذ الآن رئيسياً . ان كل « انفصال » واعٍ هو بالفعل نوع من الموت يتضح أن امثلة كثيرة منه ، قد تكون نهائية كالحرمان من الحياة نفسها . ان سيمون ، وقد انتزعت من نفسها ، وطردت الى المنفى ، وانكرها أهلها - بعد أن أصبحت فتاة - ترى القلق المجرد الذي كانت قد خبرته في طفولتها الصغيرة ، يتعيّن ويتجسم .

ان ما كان يقلقها عندئذ هي أنها لم تكن توجد قبل مولدها وأنها توجد بمحضرٍ من عالمٍ من الموضوعات التي لم تكن توجد بوعي ، التي لم تكن تستطيع أن تقول عن نفسها . « في القرون الغابرة ، في صمت الكائنات التي لا حياة فيها ، كنت استشعر غيابي أنا : كنت استشعر حقيقة موتي ، وقد استحضرت بقياسٍ خاطىء[1] » ولكن قلقها لم يلبث طويلاً ، فقد

---

١ - « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٥١ .

كان الله هناك لكي يضمن خلودها . فلنتذكر من ذلك على الأقل أنه كان يكفيها أن تتصور نفسها وقد اختفت (ولو لم يكن ذلك الا تحت قسمات حورية من حوريات البحر تنزل عن الخلود ، في سبيل الحب ، وتستحيل الى زبد) حتى تحس نفسها في « رعدة » من العدم ، اذ كان يبدو لها ، في نفس الوقت ، أن « العالم كله قد تردّى في الصمت » ؛ ونحن نراها ، من ثم ، مبكرة جداً (وهنا أيضاً لا يهم كثيراً في اي تاريخ محدد رقيق كان ذلك) تربط مصيرها بمصير العالم الذي كلفت رسالةً بأن تقول عنه — أو تقول عن نفسها على أي حال — والذي يبدو لها أنه يعتمد عليها بقدر ما تعتمد عليه .

على أنه اذا كان يمكن لهذا القلق أن يولد من جديد ، ويتجسم ، فذلك بقدر ما سوف تحس طالبة الآداب والرياضيات نفسها مبتوتةً عن العالم الوحيد الذي كانت تألفه ، دون أن تعرف بعدُ ما اذا كانت أوجه الهرب التي تملكها الى عالم جديد سوف تصبح عندها قبضات حقيقية على الواقع أو اذا لم تكن هناك الا لكي تضللها وتوقعها في التعمية بطريقة أخرى إذ تُقدّر لها موتاً عالمياً ما : « في ذات ليلة ، في « لاجريبيير » عندما كنت قد رقدت للتو في سرير ريفي فسيح ، انقضّ القلق عليّ ، كان قد اتفق لي اني خفت من الموت حتى تصعد الدموع الى عينيّ ، حتى أصرخ : « ولكن هذه المرة كانت أسوأ ؛ كانت الحياة قد ترنحت منذ الآن ، وسقطت في العدم ، ما من شيء عاد شيئاً ، الا اذا كان ذلك ، هنا ، في هذه اللحظة ، هو هذا الهلع الذي بلغ من العنف أنني ترددت في أن أذهب أدق على باب أمي ، أن أزعم نفسي مريضة ، حتى أسمع صوتها . وانتهيت بأن نمت ، ولكني احتفظت من هذه الازمة بذكرى مروّعة .[١] »

ان عداء والديها بازاء هذا العالم الأوسع الذي هي بسبيلها أن تكتشفه

١ — « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢٠٦ .

كأنه فرصة للتحرر ، ما يزال يشلها الى حد كبير : وهي ما زالت الى حد يقل أو يزيد تمتثل لنواه لا تقبلها ، وتحس نفسها ، لذلك ، عاجزة ، قاصرة القوى الى درجة خطيرة . «لم يحكم عليّ فحسب بالنفي ، بل لم يتح لي أيضاً أن اناضل ضد جدب مصيري .. سرت على السبل الى أيّ ملاذ .. كنت قد أصبحت مختلفة ، وكان يلزم أن يكون حوالي عالم مختلف : أي عالم؟ ما الذي كنت أتمناه بالضبط؟ لم اكن أعرف حتى أن أتخيله — وكانت هذه السلبية تدفعني الى اليأس . لم يبق لي الا الانتظار . الى متى؟ سنتين؟ أربع سنوات؟ تلك فترة طويلة عندما يكون المرء في الثامنة عشرة من عمره . واذا قضيتها في السجن ، موثقة بالاغلال ، فسوف أجد نفسي ، عند الخروج ، ما زلت وحيدة ، دون حب ، دون حماسة ، دون شيء ما ... وللمرة الأولى في وجودي ، فكرت باخلاص أنه كان من الأفضل ان اكون ميتة على أن أكون حيّة .» [1]

اذا أردنا أن نفهم ما هو الموت عند سيمون دو بوفوار ، فيجب أن نقيم العلاقة بين هذا الخوف من الحياة وحيدة ، في غير طائل ، وبمجرد الخوف من الاختفاء الذي التقينا به من قبل ، والذي تقع أول صياغة له ، في ذكرياتها ، في نحو الخامسة عشرة من عمرها . [2] ان ما يتضح من ثم انّ الهول الجسدي للموت ، اذ يمرّ بهذه الأزمة الحاسمة التي وصفناها ، يميل

---

١ – نفس المرجع ص ٢٠٩ – ٢١٠ .

٢ – نفس المرجع ص ١٣٩ : « بعد ظهر أحد الأيام ، في باريس ، تحققت أنني محكوم علي بالموت . لم يكن هناك أحد غيري في الشقة ، ولم اكبح جماح يأسي : صرخت ، وأنشبت اظافري في الغطاء الاحمر المفروش على الأرض . وعندما نهضت متبلدة ، ساءلت نفسي : « كيف يفعل الناس الآخرون؟ كيف افعل؟» كان يبدو لي من المستحيل أن أحيا حياتي كلها وقلبي يعصره الهول . وقلت لنفسي : عندما تقترب النهاية ، عندما يكون بالفعل في الثلاثين من عمري ، في الأربعين ، ويفكر : « ان ذلك سوف يحدث غداً » فكيف يطيقه المرء؟ كنت أخشى ، أكثر من الموت نفسه ، هذا الهلع الذي سرعان ما سوف يكون من نصيبي والى الأبد » .

الى أن يختلط بهول العجز وفقدان القوى – أي التفاهة وانعدام الدلالة .

وهي اذ رأت عمها يموت ، وهي في الثامنة عشرة ، تقول لنا أية «عاصفة » «عاثت بها » طوال يومين : « ...لم أكن أطيق هذه النظرة الغارقة التي كان عمي قد ألقاها الى امرأته قبل أن يموت مباشرة ، والتي كان قد تمّ فيها بالفعل ما لا يمكن تداركه . ما لا يمكن علاجه :تلك الكلمات راحت تدقّ رأسي ، حتى لتكاد تتفجّر ، تستجيب لها كلمات أخرى : ومحتوم لا مفر منه . لعلني أنا أيضاً سوى أرى هذه النظرة في عيني الرجل الذي سوف أحبّه طويلاً »[1] ، فهي إذن تلتقي هنا بصورة موت آخر ، ولكنه آخر سوف يتعرف عليها ، سوف يكون «قاضيها الأعلى» ، واختفاؤه سوف يُفقِد حياتها هي كل معنى . ذلك هو أي حال هو همّها الأول منذ الآن : ألا تحيا من غير طائل في سبيل لا شيء . فاذا كان ما يزال يحدث لها أن تتخبط وتناضل «كما لو كانت في الخامسة عشرة » – أن تصرخ « مرتعشة ، ويداها مبلولتان نديتان ... » ، ضائعة اللب : لا أريد أن أموت ! » – فذلك وهي تعرف هذه المرة أن المرء يمكن أن ينهشه الموت في سياق الحياة نفسها : «ولما لم اكن ملتزمة بأي مشروع ، كان الوقت يتحلل الى لحظات تتنكر لبعضها البعض بلا نهاية . «كنت أجد أن الموت أخوف ، لأنني لم اجد سبباً للحياة »[2] .

فسوف يكون الموت اذن ، بنفس القدر ، هو الغياب عن العالم ، وعبث الحضور فيه اذا كان مفتقراً الى معنى . ومن ثم فسوف يكون الموت ، دوراً بدور ، «مُعاشاً » في السأم (في الهول ، عند الحافة القصوى) وعلى شكل قلق ، تبعاً لما اذا كان تأكيد النغمة على المعطى الموضوعي أو على التطلّب الذاتي لتجاوزه . والرابطة الاساسية بين هذين الشعورين هي العلاقة بين الوضع والحرية التي تحدد القدر الانساني في الوجودية : فالسأم هو الوضع ، والقلق

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٢١٤ .

٢ – نفس المرجع ص ٢٢٩ .

هو ان يكون على المرء أن يتغلب على السأم ، وهو لا يعرف ما اذا كان سوف يكون «في مستوى الظروف» . وكل فكر سيمون دو بوفوار يضرب بجذوره في هذا الصراع الأصليّ بين المطالبات المطلقة بالحرية ، ونسبية الأوضاع المحددة ، بين المقامرة بالوجود وهذا الموت الكامن في قلب كل حياة .

وهي ، محكوماً عليها بالموت ، وعليها أن تحيا في عالم ليس في عينيها ما يجب أن يكون عليه ، تحس من ذلك ، أولاً حنقاً عنيفاً ، وسخطها أكثر احتداماً بقدر ما ينتابها الشك في أنها تستطيع ان تقابل هذا «الضيْر» الذي يوقع عليها ، بمشروعٍ واقعيّ ما : ولكن هذا الشك نفسه يشير الى أنها تستشف منذ الآن ، الى حد يقل أو يزيد ، امكانية استرداد «حقوقها» بوسائلها الخاصة . فمنذ هذه اللحظة (وبقدر ما تبدأ آفاق جديدة أن تنفتح أمامها بالرغم من كل شيء) يميل الصراع — بينها باعتبارها مركزاً للعالم وبين العالم باعتباره منازعة جذرية «لسيادتها» — الى أن يدخل في طور دياليكتيكيّ ، ويكفّ عن أن يكون معارضة لا طائل فيها بين تعدد اسطوريّ وعرضيّة لا يمكن تجاوزها . ولن يكون عملها كله ، وحياتها جميعاً ، بعد الآن ، الا كفاحاً لا هوادة فيه ضد كينونة العدم نفسها (شبح غيابها القادم أو اللامعنى المحتمل في حضورها) وضد عدم الكينونة (وهم حضور أو معنى معطيين الى الأبد) : ولنقل إننا بصدد كفاح ممض ضد سأم ان نحيا وهول أن نموت .

ولكن من المسلم به أن أهمية كل من هذين الشعورين سوف تتباين كثيراً تبعاً لفترات حياتها المختلفة . فالسأم باعتباره راجعاً الى العجز المؤقت الذي عرفته بالفعل الى حد يقل أو يزيد قبل أن تصير امرأة ناضجة ، قد اختفى اختفاءً يوشك أن يكون تاماً منذ أن زاولت مهنة ، وبخاصة عندما أتيح لها أن تخاطب جمهوراً حقيقياً — فلا يعود للظهور ، بشكل مختلف أقل الاختلاف الا بعد أن تبلغ عامها الخمسين . أما هول أن تموت فيبدو أنه

ظلّ يحضرها طوال حياتها ، ولكنه قد تعقد ، في وقت مبكر الى حد ما ، بهول متزايد من أن تشيخ . وهاك على سبيل المثال ، فيما يتعلق ببعض ردود فعلها وهي في نحو السادسة والعشرين من عمرها ، نصاً بالغ الدلالة يمثل فيه معاً (لأول مرة بلا شك) هذا السأم أن تحيا ، وهذا الهول المزدوج : وفي يوم من أيام نوفمبر ، ونحن جالسان تحت شرفة مقهى «دي مويت» في الهافر ، كنا قد استنكرنا طويلاً ، رتابة مستقبلنا . كانت حياتانا قد التزمت احداها بالأخرى ، وصداقتنا قد ثبتت ثبوتاً نهائياً ، ومستقبلنا العملي قد ارتسمت خطوطه ، والعالم يمضي في سياق سيره . لم نكن قد بلغنا الثلاثين ، وما من جديد بعد كان سوف يحدث لنا ، أبداً ! كنت في العادة لا آخذ هذه الشكاوى على محمل الجد . ولكنني كنت احياناً اسقط من الاوليمب الذي كنت أقف عليه . كان يحدث لي ، اذا شربت يوماً كأساً أكثر مما ينبغي ، أن أذرف سيولاً من الدموع ، واستيقظت صبوتي القديمة الى المطلق : واكتشفت من جديد غرور الغايات الانسانية ومُثُول الموت ، كنت آخذ على سارتر انه ترك نفسه يقع في أحبولة تلك التعمية البشعة : الحياة . وفي الغد كنت ما أزال تحت أثر ضربة نور هذا الوحي . وفي بعد ظهر أحد الأيام كنا نتمشى على سفح تلك الكتلة من الطباشير التي يكسوها العشب الباهت الشقيه ، والمطلة على السين ، في «روان» ، ودخلنا في مناقشة طويلة . كان سارتر ينكر اننا نلتقي بالحقيقة في الخمر والدموع ، فالخمر ، حسب ما كان يقول ، كانت تصيبني بالانقباض والكآبة ، فألتمس لحالتي اسباباً ميتافيزيقية ، على نحو مغلوط المنطق . اما أنا فكنت ادافع بأنني إذ أحطّم الرقابات والدفاعات التي نقينا عادة من البديهيات التي لا تطاق ، فانما الخمر ترغمني على أن انظر مواجهة الى تلك البديهيات . واعتقد اليوم ان الحياة ، في الظروف الممتازة التي اتمتع بها ، تحتوي على الحقيقتين اللتين لا يمكن الاختيار بينهما ، واللتين يجب مواجهتهما معاً : مَرَح أن أوجد وهول أن أنتهي . ولكنني في ذلك الوقت كنت اتذبذب من احداهما الى

الأخرى. ولم تكن الحقيقة الثانية تتغلب على الأولى الا في خطفات ساطعة وجيزة، ولكني كنت أظن أنها حقيقة من أصدق الحقائق.

«وكان يمضّني همٌّ آخر: كنت أشيخ. لم تكن صحتي ولا وجهي تعرّيهما غضون الشيخوخة، ولكني كنت من وقت لآخر أشكو من أن كل شيء حوالي يبهت لونه: كنت أئنّ بأنني لم أعد أحس شيئاً. كنت ما أزال قادرة على أن أحس «رعدات» النشوة، ومع ذلك فقد كنت أحس بفقدانٍ لا يعوض. وسطوع الاكتشافات التي اكتشفتها عند تخرجي من السوربون كانٌ قد أخذ يتشتت، شيئاً فشيئاً. كان تطلعي الى المعرفة ما زال يجد ما يغزوه، ولكنه لم يعد يصادف جديداً باهر اللآلأ»[1].

ومن ثم فإن السعادة نفسها، في هذه الفترة، تصبح منازعاً فيها عندها، الى الحد الذي يحدث لها فيه ألاّ تضعها في مقابل الشقاء الاّ على نحوٍ ملفوف،

---

١ - «قوة العمر» ص ٢١٤ - ٢١٥ - من المكن بلا شك تصنيف مجموعة مختارات من النصوص المثيرة (من عدة أجزاء) تقسم، في فصول، أنسب النصوص لتصوير المواضيع الرئيسية في هذا العمل: ولكن ذلك ليس في خطة هذه الدراسة ولا في نطاق أبعادها. واذا كنت قد ظننت أنه لا بد لي من اقتباس فقرات كثيرة، حتى الآن، فذلك لأنه كان من المهم عندي أن أعرف القارىء بالأسس التحتية لهذا الفكر (الاستعدادات الطبيعية الأولى لصاحبة هذا الفكر والأزمة البادئة التي اضطرتها الى أن تعدل، عند اتصالها بالعالم الخارجي، في موقفها «الطبيعي») كما أعرفه بمتماه التكراري عن طيب خاطر - حتى يمكن - بالضبط، أن نستخلص منه محاوره الكبرى دون أن يكون علينا أن نتتبع خطوة فخطوة كل تغيرات التلوين المتعاقبة التي يتشكل بها كل موضوع، ويتعمق، دون توقف. هذا الى أن القارىء لا بد قد استطاع أن يلاحظ بنفسه ما في مثل هذا الخضوع لتقلبات والتواءات والتفافات النص، من حرج وعسر كبير، اذ أن مواضيع كثيرة كما هي الحال الآن، تتداخل وتتشابك في نفس سياق هذا التحليل: فنحن منذ الآن، بصدد «فهم» و «ضم» **Com-prendre** هذه الموضوعات، و «لمها بعضها الى البعض معاً» **prendre ensemble**، ويجب أن نقتنع، بالنسبة لكل منها، بأن ندرك «روحها» (على أن يكون لنا أن نذكر، بالرغم من كل شيء هنا وهناك، تنويعاً أو آخر من «حرف» الموضوع بنصه، اذا كان يبدو ماله دلالة خاصة).

خفيّ مختلس ، يوشك أن يكون مُخْجِلاً ، تحت شكل « مرح الوجود » . ولكنّ ذلك ، في الجملة – على شكل مصغّر ومودّ الى النسبية – صدى انفصام أخطر وقع في الثامنة عشرة من عمرها ، في نفس لحظة أزمتها : « السعادة ... كنت قد عرفتها ، كنت دائماً قد أردتها ، ولم اكن استسلم بسهولة الى فكرة أن أشيح عنها . فاذا كنتُ قد قررت ذلك ، فانما ذلك لأنني ظننت أنها منكورة عليّ الى الأبد . لم أكن أفرّقها عن الحب ، عن الصداقة ، عن الحنوّ ، وكنت ألتزم بمشروع قد تُنذر الى وحدة لا علاج لها . وكان لا بد لاسترداد السعادة ، من ان أعود الى الوراء ، من أنْ أسقط : وقررت قانوناً يقضي بأن كل سعادة هي في حد ذاتها سقوط . كيف أوفّق بينها وبين القلق ؟ ... لم يكن محظوراً عليّ ، في مقابل ذلك ، أن أرحب بالبهجة ، وكانت البهجة غالباً ما تأتيني . ذرفت دموعاً كثيرة في خلال هذا الفصل ، ولكني عرفت أيضاً انبهارات عظيمة . »[1]

وهكذا يتحدد منحى الظاهرة العامة المتولدة ، على كل المستويات معاً ، عن تلك الأزمة التي اخترنا أن نعدها أصليّة حقاً . ان موقف سيمون دو بوفوار لا يمرّ ، من جراء ذلك ، دفعة واحدة ، بنسبية جذرية : فانها ، في نشاطاتها العقلية وفي علاقتها بالطبيعة وفي معظم « تسلياتها » ، سوف تُبدي ، لفترة طويلة الى حد يقل أو يزيد ، تطلبات مطلقة ، ومطالبات عنيفة ، وتفاؤلاً « هاذياً » ، و « همّاً بالكينونة » قريباً من الفُصام . ولكن الواقع انها منذ هذه اللحظة سوف تجد نفسها تجاهد معاينةً مزدوجة لقيمها الأولى ، لمواقفها الأكثر تلقائية : فهي من ناحية ، بالفعل ، تشهد تفجر المطلقات المعطاة لها ، والانماط الرئيسية التي تحكم رؤياها الأكثر مباشرة ، للعالم . وهي من ناحية أخرى تعي منذ الآن العلاقة العملية التي تميل للقيام بينها وبين العالم وسوف تجعلها اكثر مسؤوليةً باطراد عن وضعها هي في العالم . ومنذ هذه اللحظة ، اذن ، فان الدودة

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٩٥ – ١٩٦ .

في قلب الفاكهة ، وقد استقرّ النسبي في قلب المطلق .

ولعلنا نحصل على أسلم تعريف للغموض الذي ينجم عن ذلك ، على صعيد علاقتها بالله .

ذلك أن الله عندها ، كان أولاً الأب (« هناك في أعلى ، كان الله ، وكان ينظر اليّ »)[1] . ثم ظهرت لها هذه « الكينونة » العليا التي كانت تحسّها ، أساساً ، من خلال الطبيعة ، كأنها عليا أكثر مما ينبغي ، اذا جاز القول : كاملة بلا طائل ، غريبة كل الغربة « عن العالم الذي يضطرب فيه الناس » . أما هي فقد كانت متعلقة جداً « بالمتعات الأرضية » ، ومطلقة للغاية حتى أنها لا تتصور « مصالحات مع السماء » ، و « لا تؤكد الله وهي لا تعيش من غيره » ومن ثم فقد كان لا بد لها أن تقطع الوشيجة ، كما تقول لنا ، وهو مافعلته وشيكاً[2] . اذا كان الله موجوداً ، فقد كان محكوماً عليها بأن تمحى نفسها آنئذ : كان ذلك يبرهن بما فيه الكفاية على أن الله لم يكن موجوداً .

على أنها في قلب أزمتها ، سوف تصرّ على تلمّس « خلاص » ، على « الاستقرار في المطلق » : ان المهمّ هو أن ينتزع المرء ذاته من الأرض ، وعنده يمسّ الخالد .[3] أو تقول (بعد ذلك بقليل) : « لم تكن الأرض عندي شيئاً ، كنت خارج الحياة ... كان العبث البشع لكل شيء قد أخذ بخناقي ، ولكنني كنت قد ضقت ذرعاً بالمعاناة ، كنت قد بكيت كثيراً في الشتاء الفائت ، واخترعت لنفسي أملاً » . وفي لحظات التباعد الكامل عندما كان العالم يبدو كأنه قد أختزل الى لعبة من الأوهام ، عندما كان يتلاشى الأنا عندي ، كان ثم شيء يبقى : شيء لا يقبل التدمير ، شيء خالد ؛ كانت

١ - « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٨٢ .
٢ - ساعدها الكاهن مارتان في ذلك (انظر المرجع السابق ص ١٣٤ - ١٣٩) .
٣ - نفس المرجع ص ١٩٤ - ١٩٥ .

لامبالاتي تُظهر لي ، في الخواء ، حضوراً لعله لم يكن من المستحيل بلوغه . لم أكن أفكر في الله المسيحية ، كانت الكاثوليكية تتجاوزني أكثر فأكثر .. كنت اتساءل ما اذا لم تكن خبرات معينة ، فيما وراء حدود عقلي ، قادرة على أن تسلمني المطلق ... وأعلنت أنني أريد أن ألمس الله أو أصبح الله »[1].

ولنسجل هنا الإبهام الخاص في طريقتها الوجودية : هذا الأسلوب الفذ الذي تستمد به الفائدة مما يضعها وضعاً نسبياً ، مع تأكيدها أكثر من أي وقت مضى دعواها في المطلق .

وبمعنى من المعاني ، لا يظهر أي تقدم ، بل نستطيع ، دون اساءة نية الى اكثر مما ينبغي ، أن نحمل هذا التطلّب «أن تصبح الله» على محمل نكوص ما — اذ نعد الثقة البسيطة السابقة في الوجود على نحو مطلق تحت نظرة الله ، أكثر تواضعاً . ولكن كيف لا نلاحظ من ناحية أخرى أنها ، في النقلة من هذه الثقة الى ذلك التطلّب ، بعيدة عن أن تضع نفسها داخل حدود ضيقة ، عن أن تركب رأسها في أن تعود فتصنع من جديد ذلك التأكيد البسيط التلقائي لكينونتها الذي كان ممكناً حتى ذلك الحين نتيجةً للانعزال الواقي في طفولة مدثرة ؟ كيف لا نرى انها تدخل هنا ، على نحو لا رجعة فيه ، في عالم الأخلاق ؟ هذا « التواضع » النسبي جداً الذي كانت تتصف به فيما سبق ، لم يكن كبرياءً ، بالفعل ، ولكنه كان غروراً بحتاً : كانت سيمون هي سيمون وكانت تفتتن بأن تكون . وكان كل شيء حولها يضمن ذلك ، والله نفسه أيضاً ، من ثمّ — فقد كان دوره دائماً أن ينكر تفاهة كل حياة أرضية اذ يعدها بقيمة سماوية ، أي بأن يحوّل أدنى « مخلوقاته » بطبيعته ، فيجعله فذاً فريداً ، بأنّ يضعه في مركز خليقته ، بالنظرة المطلقة التي يتعطف أن ينظر به إليها .

١ — ص ١٨٥ — ٢٩٥ . والأرجح أن الاعلان الأخير مستمد من يومياتها الخاصة .

على أنّه مما يجدر بالملاحظة ، فيما يلوح لي ، أن سيمون الصغيرة قد اختارت للفور ما بين هذين الدورين ، أن تعزو اليه الدور الثاني . ولعلـه ينبغي أن نلاحظ بعد ، أنها اذا لم ترضَ به على نحوٍ دائم ، فلذلك ، بالضبط ، بقدر ما أدركت وشيكاً أنه لا يختلف قطّ عن الدور الأول . ذلك أن هذه الطفلة لم تكن تحس نفسها « متفرّدة » بطريقة سلبية رضيّة . راضية بالمرة : فما أن « كانت » متفردة ، حتى أرادت أن تكون ذلك [1] . أي أنه كان عليها ، في مهلةٍ وجيزةٍ ، أن تنزل هذا الاله عن عرشه ، ما دام حدبه على العالم لم يستطعْ ، بالضبط ، أن يمنحها الكينونة الا بثمن الاختلاط بكل أشباهها من الناس ، ذلك أنه كان يتيح لها ، بالتأكيد ، أن تحدّد كينونتها الخاصة حتى الابعاد اللامحدودة للكينونة المطلقة ، الا يكون لها « حدود بعد » وأن يكون لها « وزن أكبر » : ولكنه إذا كان يتيح ذلك للجميع ، فأين التفرّد والامتياز ؟ وفوق كل شيء أين المعنى — القيمة — في هذا الاعتراف ، المزعوم ، بها ؟ لقد رأينا سيمون دو بوفوار تفسر لنفسها ، منذ قليل ، أن خيبة أملها ، بازاء اله المسيحيين ، انما جاءت من قصور كاهن كانت تعترف على يديه وكان يحكم عليها بأن تجد نفسها وحيدةً في مواجهة الله . ولكن من الواضح أنها كانت لتتوامم مع هذه الخلوة لو أنّه لم يكن ، في عينيها ، من قبل ، موضع منازعة ، نتيجةً للحاجة شبه الحيوية التي كانت تحسها بأن « تكون شيئاً ما له وزنه » ، بأن توجد باسمها الشخصي وبذاتها ، بازاء هذا الاله الذي كانت تنتظر منه تأكيد كينونتها هي . لقد تابعت معه ، بالتأكيد ، حواراً ، بلا نهاية ، نعم : ولكن ذلك في الواقع لم يكن الا حواراً زائفاً مع الطبيعة ، بدت لها بالمقارنة به ، علاقاتها الممتازة مع أبيها قادرة

---

١ — لنتذكر هنا عبارة التقينا بها من قبل : « هذا الحضور الذي كان يؤكد لي أنني أنا ، لم يكن يتوقف على أحد ، ما من شيء كان يحسه ، ومن المستحيل أن يكون قد صنعه أحد ، ولو كان الله : فقد اقتصر على أن يمده بغلاف » . وهي ملاحظة كانت قد علقت عليها سلفاً بهذه الكلمات المتعة : « كنت أحدد مقدرة القادر على كل شيء ، على الضد مـن كل المذاهب الارثوذكسية » . (مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢٥١) .

على توليد اعتراف بها أكثر تجسيماً وتحديداً. كانت أولاً، بازاء أبيها، متفردة حقاً، بينما لم تكن الطبيعة تمنحها الا صوراً متضادة: صورة شجرة البلوط المتوحدة، بالتأكيد، ولكن صورة «الوحدة بالاشتراك مع الاعشاب» أيضاً. لقد أرادت دائماً أن تحس نفسها «أخرى» وأن ترى في اختلافاتها عن الآخرين «ضمانة تفوّق سوف يعترف به العالم كله يوماً ما»[1]: كان ذلك أن تحكم على نفسها سلفاً بأن تستبعد نفسها، ان آجلاً أو عاجلاً، من مملكة الكينونة، لكي تدخل شاءت أم أبت، عالم الفعل.

ان ما يبدو لي مميزاً في هذه الطريقة الخاصة، هو أن تكون النقلة من مملكة الى أخرى، معبراً عنها بهذا الظهور، ومنقوضة في الوقت نفسه بهذا التصميم: ذلك أن همها الوحيد سوف يكون اذن (ولفترة طويلة) أن تصنع نفسها كينونةً، أن تستولي بنفسها على هذه الكينونة التي لم تكف قط عن أن تدّعيها. ونحن هنا، كما توحي به كل الدلائل، بصدد تركيب رائع بين الفعل والهوى، نجد اغراءً قوياً بأن ندحضه، اذ نضع في معارضة سيمون دو بوفوار (في معارضة هذا الموقف المجسم المحدد الذي كان موقفها) نظرةً «وجودية» معينة تتحمل مسئولياتها المشتركة من جانب آخر. وأسارع بالقول إن طريقتها، في عينيّ، ليست متناقضة بالمرة، بل أنني أرى فيها، على العكس، مرجع كل مشروع أخلاقي له أقل قدر من التماسك.

هذه المرة تحس بهول الموت ولا معنى الحياة: انها تريد أن تكون وأن يكون لها معنى. ولكن كيف «تكون» دون أن تكون خالدة، وكيف يتق المرء في المعنى الذي «له» اذا كان هذا المعنى لا يفرض نفسه على كل وعي آخر؟ يجب اذن أن تكون أخرى، مختلفة، متفردة، لا تقارن، بازاء أحد ما، ودون أن تكف عن أن تكونه أبداً... «فلورنس تخدع نفسها، انها ليست الا فتاة صغيرة بلا عبقرية، ما من امرأة يمكن أن تقارن

---

١ - «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٠٧.

نفسها بي . ولكن كيف البرهنة على ذلك ؟ فعندها وعندي على السواء نفس اليقين . وهي لا يساورها القلق بشأني ، بينما هي ذلك الجرح الكاوي في قلبي . قالت لنفسها في اضطرام سوف أبرهن على ذلك »[1] . وريجين ، بالفعل ، بحاجة ان تكون مركز العالم ، وهي لا تطيق كل جب يظهر تحت عينيها ، ومن هنا فانها لا تتجه الى شخصها . انها تميل الى المطلق ، ولكن عندما يقول لها فوسكا انها مجهولة لكي تؤمن بالله وتدخل الدير ، فان اجابتها تأتي مباشرة : « هناك من المختارين أكثر مما ينبغي بكثير .. ومن القديسين أكثر مما ينبغي بكثير .. كان ينبغي الا يحب الله أحداً سواي . »[2] . هذا هو ما نعرفه حق المعرفة حول أن تكون تافهة غير متميزة : « كان ذلك عذاباً قديماً جداً . كانت متمددة على أرض معشوشبة تماثل هذه ، وخدها على الأرض ، والحشرات تجري في ظل العشب ، وكانت الأرض المعشوشبة غابة هائلة ورتيبة تنتصب فيها آلاف من عيدان العشب الصغيرة الخضراء ، كلها متعادلة ، كلها متشابهة ، تُخفي العالم عن إحداها الأخرى . وكانت قد فكرت ، بقلق ومضض : لست أريد أن أكون عوداً من العشب . » — « صعد الى شفتي ريجين غثيان بشع : في البراري ملايين من اعواد العشب ، كلها متعادلة ، كلها متشابهة .. وأخفت وجهها بين يديها . عود من العشب لا شيء اكثر من عود من العشب . كل أحد كان يظن نفسه مختلفاً عن الآخرين ، كل أحد يؤثر نفسه ، والجميع يخدعون أنفسهم وكانت قد خدعت نفسها كالآخرين . » — « ... كان قد اختفى ، لكنها ظلت كما صنعها : عود عشب ، ذبابة صغيرة ، نَمْلَة ، مزقة من زَبَد . ونظرت حواليها : ربما كان هناك مخرج ، ومس قلبها ، على رهينة ، شيء ما ، خفي مستدق كأنه طرفة جفن . »[3] ومع ذلك ففي هذه الصفحة

١ – « كل البشر فانون » ص ١٣ .

٢ – نفس المرجع ص ٧٣ – أنظر أيضاً « كان الله يحب كل البشر ، لكنها لم تستطع أن ترضى بهذه العناية الخيرة التي لا تميز فيها ؛ كانت قد كفت عن الايمان به » (نفس المرجع ص ١٩) .

٣ – « كل البشر فانون » ص ١٦ و ٦٨ و ٣٥٩ .

الأخيرة من «كل البشر فانون» تتردى ريجين في الجنون، وتعلق سيمون دو بوفوار على ذلك: «لقد استشفت ... خلاصاً ولكنها لم تجد القوة على أن تقف عنده: كان ينبغي لها أن تتشبث بمحدوديتها.»[1].

ولن يصعب عليّ أن آتي بعشرين مثالاً آخر، ولكن الحركة العامة، هنا، واختي بما فيه الكفاية، وموضوع الرواية نفسه، من جهة أخرى، معروف. المرء ليس ما يزعم أنه يكونه: بل يجب أن يصيره، يجب البرهنة على أن المرء هو ما يكون. المرء ليس متفرداً في نظرة الله او الأبدية، ولا يستطيع المرء ان يكون غير قابل لان يحل محله أحد، في وعي الآخرين، الا بأن يتخذ، معهم، محدودية مشتركة. الانسان هو فان: ولكنه يستطيع أن يجعل كل لحظة من هذه الحياة أبدية بأن يقبل أن يحياها مع الآخرين. في نسبيته المطلقة. وهذا الامتلاء محظور على فوسكا الخالد. فهو، محكوماً عليه بأن يحيا دائماً أبداً، لا يغامر قط بأية مخاطرة واقعية، لا يستطيع بالفعل أن يحس حياته نفسها، أن يبلو واقع أفعاله، أن يخلّد أخيراً متعاته وتمرداته بأن يذهب حتى الموت في سبيلها اذا اقتضى الأمر. «نظر أرمان وجارانيه الى أحدهما الآخر، وأشحت بعينيّ. بتلك النظرة كانا يهبان أحدهما الآخر تلك البهجة التي تفجرت في قلبيهما، كانا يجدان القوة على مواجهة الموت، وأسباباً للحياة، في هذه المبادلات الظافرة.» — «كانوا رجالاً يريدون اتمام قدرهم كرجال، باختيارهم حياتهم وموتهم، رجالاً أحراراً» — «كانوا يهبون حياتهم حتى تكون حياة رجل — لم يكونوا نملاً، ولا ذباباً صغيراً، ولا كتلاً من الحجر... — وكانت الأحطاب تشتعل، وكانوا يغنون.» — «كانوا ينظرون الى أحدهم الآخر، كانوا يضحكون معاً.. ولأنهم كانوا ينظرون ويتحدثون الى بعضهم البعض، فقد كانوا يعرفون أنهم لم يكونوا ذباباً صغيراً، ولا نملاً، ولكن رجالاً، وأنه كان من المهم أن يعيشوا وان يكونوا ظافرين منتصرين، كانوا قد خاطروا، أعطوا حياتهم لكي

١ — «قوة الأشياء» ص ٧٨ — ٧٩.

يقتنعوا بذلك ، وكانوا بذلك مقتنعين : لم تكن هناك حقيقة أخرى . »[1]

نملة ، ذبابة صغيرة ، أو عود من عشب ، ذلك بالفعل هو ما نحن عليه ، كل منا ، في هذا التكاثر الجياش المتزاحم للثلاثة آلاف مليون من أشباهنا على سطح الأرض : وما أقل ما يهم ما يتخيّله كلّ منا ، في مقابل هذه البديهية . ان ريجين تريد أن تكون ، وهي تحس تماماً أنه يجب عليها ، بأفعالها ، أن تبرهن على ذاتها : لكنها تختار حلّ السهولة ، وتنتظر خلاصها هي من رجلٍ يبدو لها خالداً ، وعندما تأتي محنة الانفصال ، الفطام ، تعوزها القوة لمواجهة وضعٍ واقعي تستشفّه أخيراً ...

بحيث أن « الدرس » الذي يمكن ان نستخلصه من الكتاب أعقد ، ربما ، مما قد يبدو لأول مرة ، اذا وضعنا كل شيء موضع الاعتبار . فاذا كان يقال فيه إنه يجب التخلي عن المطلق ، واذا كان يقال فيه ، بالفعل ، وبكل تلك القوة ، إنه يجب ان يريد المرء على نحوٍ مطلق ما يريده ، وأن يستطيع الاعتماد على نحو مطلق على ذاته حتى يستطيع أن يُعتد به وسط الآخرين ، أن يُعتمد به معهم ، ومن أجلهم . ذلك في نظري هو النضال الحقيقي لسيمون دو بوفوار ضد الله ، ضد كل مطلق ، ضد كل وعي متعدٍ (الخالق ، الأب ، أو أي رجل جدير بالاعجاب) ، أي ، أخيراً ، ضد الاغراء الذي تحس به هي نفسها بأن تضع المطلق موضعاً في غير ذاتها ، موضعاً في غير قدرتها هي على الوجود . لكننا لن نراها تتخلى أبداً عن هذا المطلق الشخصيّ المرتبط ارتباطاً حميماً بحريتها نفسها . ولن تهبط حدة تطلباتها الأساسية أبداً بقدر درجة واحدة : سوف تأخذها على عاتقها ، على نحوٍ أفضل باطراد ، سوف تجعل منها ، أكثر فأكثر ، قضيتها ، ومخاطرتها ، وسوف تسجل ضروب النجاح النسبيّ فيها كما تسجل ضروب الفشل النسبيّ — وعلى أي حال ، فالواقع أنها لن تتنازل عنها أبداً .

---

١ – « كل البشر فانون » ص ٣١٧ – ٣١٨ ، ٣٢٧ ، ٣٢١ ، ٣٥٣ .

اننا نرى أن هذا الانقلاب الكبير في آفاق نظرتها ، الذي لاحظناه بين لحظة البلوغ وبداية سنّ النضوج ، لم يكن على اي نحو انكاراً للمطلق لمصلحة النسبيّ ، ولكنّه نقلة من حياة نسبية ، مضمونة ، يضللها المطلق ، الى تطلب مطلق يجهد أن يتحمل عبء نسبيته الفعلية .

وقد لاحظنا وقوع هذه الظاهرة على عددٍ من المستويات (مواضيع السأم ، والقلق ، والموت ، والسعادة ، والمطلق نفسه)[1]. ولكن كل المواضيع الجوهرية التي تؤلف هذا العمل تضرب بجذورها فيها ، بنفس القدر ، كلها تصدر من هناك ، وكلها تتأثر بهذا التغيّر في النظرة ، بهذا التحول الدقيق المرهف — الجذريّ مع ذلك — في الموقف .

فلنأخذ على سبيل المثال ، الوضع النسائي : وبقدر ما يكون سخيفاً أن نزعم أن كل الأفكار التي عبرت عنها سيمون دو بوفوار في « الجنس الثاني » كانت من قبل هي أفكارها في نفس مستوى تلك الأزمة ، بقدر ما يبدو لي من الواضح أن هذه الافكار تمنح عصارتها الحقيقية من تلك الأزمة ، وتضرب فيها بأقوى جذورها .

ولعل القارىء يذكر هذا الوضع من النسبية الزائفة الذي نشأ بين سيمون (في الثانية والنصف من العمر) وأختها بوبيت ، منذ ولدت هذه الأخيرة ، فقد كان أحد طرفي العلاقة يحتفظ ، في عينيها هي ، بقيمةٍ مطلقة ، بينما لا يمثل الطرف الآخر بالعكس في هذه العلاقة الا على نحوٍ نسبيّ كل النسبية . ومع ذلك فبعد ذلك بقليل (« وعندما كنت في نحو السادسة من عمري ») أصبحت « الدمية المدورة الوجه » أختاً صغيرة ، وسوف تكف عن أن تمتزج بالديكور أو تلعب دوراً مفيداً ، لكي ترى نفسها قد ارتقت الى مرتبة شخصيةٍ فعليةٍ . على أن هذا الارتقاء إنما يرجع إلى أن وجود بوبيت

---

١ — أما عن هذه الثلاثة الأخيرة ، فقد استطعنا من قبل في الجزء الأول من هذه الدراسة ، أن نترسم آثار تطورها ، الى حد ما ، ولكن دون أن نستطيع أن نفهمها حقاً : لأننا لم نكن نعرف بعد ، عندئذ ، حوافزها الأعمق ، الأكثر أصالة .

نفسه يُتيح عندئذ لسيمون «ألا تكون مُسلّماً بها ، بدون ملاذ ، للكبار » : «لم أكن أحيا وحدي ، وضعي كطفلة ، كان لي مثيل ... »[1] ان مجرد التحليل لامتدادات هذا الانشغال الأول ، وتحولاته المختلفة في تلك الفترة الحرجة ، سوف يتيح لنا أن نفهم ، في وقت معاً — في جوهرهما المحدد ، في تحققهما الوجودي — موقف كاتبتنا من العلاقات بين الرجال والنساء ، وموقفها من طفولتها ، وسوف نفحص هذه النقطة الثانية أولاً .

ونحن نعرف ، من قبل ، أن سيمون دو بوفوار ترى الطفولة شقاء ، ونوعاً من العجز . وقد رأيناها تبدو مرهفة الحساسية بالفعل ، باستبهام وضع تحس فيه ، بالفعل ، باعتبارها وعياً ، تطلب أن تكون ذات سيادة ، ولكن دون أن تكون قادرة على أن تجعل الناس يعترفون بها على هذا الوصف ، وقد استطعنا أن نقدر مدى حنقها اذ يعاملها الكبار معاملة طفلة .

وعندما تقول لنا ، وهي تتحدث عن عامها الخامس أو السادس : «لا يلزم الكثير حتى يتحول الطفل الى قرد » «فنحن نستطيع ، بالتأكيد ، الا نرى في ذلك الا مجرد ضيق تحسه المرأة الناضجة ، بأثر رجعي ، إذ لا تطيق أن تعود فترى نفسها تسعى الى ادخال السرور على بيئتها المحيطة بها . وتترك نفسها فريسة تضليل وتعمية القيم السائدة . ولكن بعد عشر سنوات ، سوف تثور سيمون الصغيرة نفسها (داخلياً) على موقف الكبار ، عندما يتهزون سلطتهم الفعلية لكي يرغموها أن تتظاهر ، أن تقبل أفكاراً لا تقرّها : «كانوا يفرضون عليّ تواطؤاً لم اكن أجرؤ على رفضه : كنت أحس أنني ضحية عنف ... » — «صررت على أسناني ، رفضت أن يدخلوا بالقوة كلمات في فمي .. »[2] . وبعد ذلك بقليل ، اذ تتكلم عن ابن عمها جاك : « كان هناك القليل من الأطفال في مثل ما اضطر إليه من أن

١ — «مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٤٤ .
٢ — نفس المرجع ص ١٥٧ .

يغيِّر من نفسه .. »[1] ثم عن نفسها وعن صديقتها زازا : «كافحنا معاً ضد القدر الكاشر عن أنيابه الذي كان يتربص بنا .. »[2].

وسنلاحظ في هذا النص الأخير الذي يتعلق بحوالي سنتها العشرين، أن موضوع الكفاح هو الذي يقع في المقدمة، كأنما انتهى، بأن يحل محل الثورة الصامتة والعقيمة بالضرورة لسنوات الطفولة الصغيرة، أو للسنوات القليلة للمراهقة المتعاصرة مع الأزمة . والحاصل أن سيمون دو بوفوار، قد افلتت، لحسابها الخاص، من هذا القدر الذي تهددنا به طفولتنا جميعاً، والتي تتخذ في مجتمعاتنا الغربية مناحي أقل عنفاً بلا شك، وان كانت لا تقل، بالضرورة، رثاثةً وخسةً، عنها في البلاد المتخلفة. لقد كان لها حظّ ألا تولد في الظروف التي ولدت فيها، على سبيل المثال، الأخوات بابان («خادمات» جنيه، في فيلم «الهوّات») : أي ألا تكون، دفعةً واحدة، ضحية اليتم، و«الفطام»، وهذه «الآلة الطاحنة»، و «كل هذا النظام البشع الذي يصنع المجانين، والقتلة، والممسوخ، والذي دبّره الناس الطيبون»[3]. وكانت لها الطاقة، اذ ولدت «على الجانب الطيّب» أن تنتزع نفسها من الديانة، ومن الاخلاق البورجوازية، ومن التطابق مع الأصول والمواضعات الاجتماعية : أي أن تؤثِر، بلا هوادة، استقلالها الذاتيّ — عندما كانت حريتها في الفعل منعدمة تقريباً — على سهولة قبول ورضىً ما، واستسلام فعليّ، كان من شأنها أن توفر عليها كل صراع مع بيئتها.

والواقع أن المناسبات لم تعوزنا حتى الآن لكي نلاحظ أن هذا الوعي لم يجنح قط الى تذوّق السهولة : بل يبدو أنّ تطلّباً مجنوناً بازاء نفسها كان أولى مواهبها . ولما كانت تعرف أيضاً الحظّ الذي أتيح لها بأن تولد سعيدةً ،

---

[1] – نفس المرجع ص ١٩٨ .
[2] – «قوة العمر» ص ١٣٦ .
[3] – «قوة العمر» ص ١٣٦ .

فانني أشك في أنّها مالأت نفسها قطّ (حتى في أعمق دخائل نفسها) بأنها نجحت حيث فشل الآخرون. بل على العكس نراها تحنق وينفد صبرها من كل عقبة، أو فخّ أو كمين أو تعمية وتضليل مما يضعه باستمرار عالمنا،الناضج فيما جرى به الزعم، بازاء إنسانيّتها الخاصة، اذ يضعه بازاء شبابٍ يضيق هذا العالم بتطلّباته. ولا شك أنها أحست للمرة الأولى، فيما يتعلّق بابن عمها جاك، وفهمت مرةً واحدة واخيرة، الى أي مدىً يكون كل انسان مهدداً بأن «يُصنع من جديد» حتى قبل أن يستطيع أن يشرع في أن يصنع نفسَه. «ان الطفل هو المتمرد: انه اراد أن يكون عاقلاً كرجل... فرض على نفسه المعايير والنواهي التي أملاها عليه أب على قيد الحياة.[1]» ولنفهم من ذلك: ليس للطفل حظٌ في أن يخلص من موقفه الاّ بالقدر الذي يتمرّد فيه، ولكن الظروف غالباً لا تجتمع له لكي يصل الى ذلك (رخاء مفرط، والدان غائبان أو لا يحبونه بما فيه الكفاية، أو عقبات مادية لا سبيل للتغلب عليها) — وها هوذا، من هنا «يتغير إلى قرد» الا اذا جُعل منه «مسخ» شانه. وبعد ذلك فان جاك، اذ جهد أن يقلّد الكبار، لم يصبح مع ذلك أحد ممثّلي هذا النظام الاجتماعيّ الذي كان يزعم أنه يستّرشد به: فلا شك أنه كان، في وقت معاً، أضعف من أن ينفكّ عن هذا النظام، وأقوى من أن يلتصق به حقاً».[2]

ولا شك أننا لاحظنا، عابرين أنّ وضع الطفل (بورجوازياً أو غير بورجوازي) في مجتمع بورجوازيّ يتساوق الى حد كبير مع وضع «الأهالي»

---

١ — «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٩٨.

٢ — جاك، على كل حال، قد مر على جانب حياته، وفاته حياته تماماً. وتعلق سيمون دوبوفوار على ذلك: «ليس هناك أقل شك أن هذا المصير قد إنعقد في قلب الصبي الصغير المهجور، الخائف، الذي كان يتجول، سيداً، وهو في نحو السابعة من عمره، بين أمجاد وتراب المصنع في «ليجيون»، واذا كان في شبابه يحننا بكل تلك الكثرة الغالبة على «أن نعيش كما يعيش كل الناس» فذلك أنه كان يساوره الشك في أنه سوف يستطيع ذلك، أبداً... (نفس المرجع ص ٣٤٨).

في بلد مستعمرة. فكلاهما مضطر أن يتكلم بكلمات ليست كلماته، وعليه أن يتظاهر باحترام (إن لم يكن بإجلال) سلطة تضيّق عليه الخناق: كلاهما مهدّد، مثل الآخر، بالعجز، ومن الصراع الذي يقوم في كليهما (حتى في رؤيتهما للعالم، حتى في تطلّبهما للكينونة) تدخل الضرورة المادية لقبول خضوعهما، والثورة التي هما مغريّان بأن يعارضا بها هذا الخضوع. ومن الناحية الاحصائية، بالتأكيد، تنفتح الطفولة يوماً ما على سنّ النضوج، وينتهي القضاء على الاستعمار بأن يكون حقيقةً واقعة: ولكن يبقى أن نعرف – بالنسبة لمن يقال، من بينهم، أطفالاً أو مستعمرين، أنهم قد بلغوا سنّ الرشد – أية حال يصلون فيها الى «سن الرشد» والى أي مدىً هم قادرون عندئذ على أن يوجدوا للذواتهم ومع الآخرين، حتى يسهموا في اضفاء الانسانية على هذا العالم. ان هناك الكثيرين من العبيد أو الثائرين الذين يجدون أنفسهم يوماً ما – كالأطفال وقد «أصبحوا رجالاً» بقوة الاشياء – متحررين دون أن يكونوا قد شاركوا مشاركة نشطة في النضال التحرري: أي دون أن يكونوا قد شرعوا في أن يتغلبوا على عقلية العبيد أو عقلية الثائر فيهم هم أنفسهم، أو يتغلبوا على الصراع المشلّ الذي ينجم، في اغلب الأحوال، عن تواجد العقليّتين معاً. ولعل الشبه – وكذلك التدخّلات العملية المحتملة – بين مشاكل الطفولة والعبودية، عند بلوغ سن النضوج أو القضاء على الاستعمار، يتضح كأوضح ما يكون، على مستوى المقدرة على الحوار، بالضبط: فلو أن الاطفال السابقين الذين هم نحن، كانوا أقدر حقاً على التواصل فيما بينهم، لكان اسهل عليهم بلا شك أن يفهموا، في بعض الأحيان، حديثَ المستعمرين...

والواقع على أي حال أنــه لا الاطفال ولا العبيد تدور بينهم حوادث حقيقية، طالما أنهم لا يشرعون، بأنفسهم، في أن يؤكدوا ذواتهم باعتبارهم وعياً بازاء أبوية الكبار والسادة. أولاً، لأنهم مسحوقون بنظام، بقواعد

« لعبة » لا تدع مكاناً للتعبير عن مشاعرهم الشخصية[1] ، وبعد ذلك لأن الكلام الذي يقولونه ، مهما كان عاقلاً ، يبدو لهم دائماً ، الى حد يقل أو يزيد ، على هامش الواقع ، والى حد يقل ويزيد مفتقراً الى الاهمية. وتبدو لي هذه النقطة الأخيرة رئيسية : إن مضطهدَيْن هما أعمق ارتباطاً أحدهما بالآخر ، قطعاً ، مما يمكن أن يكونه ظالمان ، ولكن هذا الوضع المشترك الذي يُصنع لها يميل بالأكثر الى أن يجعل علاقاتهما « تفقد الواقعية » ، أن يجعلها مجردة ، وصفراً من الدلالة ، أكثر فأكثر– طالما أنها لم تتغير الى علاقاتٍ من التضامن العملي.

وليس مما يفتقر الى اثارة الاهتمام أن نسجّل هنا أنّ سيمون دو بوفوار ، قد مرت ، في فترةٍ مبكرةٍ جداً من حياتها ، بخبرة هذا النوع من الحوار المخلص الذي هو في الوقت نفسه حوارٌ مُخاتل : «كان والداي يتكلّمان اليّ ، وكنت أتكلم إليهما ، ولكننا لم نكن نتحدث معاً[2] . » أو : «كنت مدينة لأختي بأنني هدهدت أحلاماً كثيرة ، اذ كنت ألعبها ؛ وعلى ذلك فقد أتاحت لي أن أخلّص حياتي اليومية من الصمت : تعودت معها عادة التواصل ، وفي غيابها كنت أتذبذب بين طرفيْ نقيض : فاما كان الكلام ضجيجاً فارغاً أحدثه بفمي ، أو ، اذا كنت أتّجه بالخطاب الى والديّ ، عملاً جدياً . عندما كنا نتحدث ، انا وبوبيت ، كان للكلمات معنى ولم تكن تنوء بثقلٍ رازح . لم أعرف معها متعة التبادل ، فقد كان شيء بيننا مشتركاً ..[3] »

---

١ – لم أكن أتصور أنه يمكن للمرء أن يتواصل باخلاص مع الآخرين .. في الحياة ، المرء لا يتعلق أبداً بكلمات لها وزنها . ان ما يقال محكوم بقواعد ونظم بقدر ما يفعل .. » (« مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١١٩).

٢ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٩٢ .

٣ – نفس المرجع ص ٤٦ . أنظر أيضاً : « لم تكن بيني وبين أختي المسافة التي لا غنى عنها للمبادلات » (ص ٩٢) . – ويمكن ، من الوجهة العملية ، أن نستخلص بسهولة من التجربة التي عاشتها سيمون الصغيرة ، عدداً من الانذارات قد يستفيد منها الآباء الذين يقولون عن أنفسهم=

ذلك أننا بصدد نوع من التضامن ، اذا شئت . وسوف تقف البنتان الصغيرتان ، غالباً ، موقفاً واحداً بالفعل – ضد الأطفال الآخرين أو ضد الكبار (المدرّسات مثلاً في مدرسة « ديزير » اللاتي كانت غباوتهن تضحكهما)[1] ومع ذلك فان طريقتهما في أن تكونا « متضامنتين » توحي بعلاقات العبد بالعبد كما توحي بالعلاقات التقليدية بين السيّد والعبد . ان السائد والمسود ، اذا أرجعا كلاهما الى اله ما ، الى وضعٍ ما فوق – إنساني ، يمكن بالفعل اعتبارهما كالأشباه ؛ ولكنهما ، على طريقة شخصيات « أورويل » تملك الذين هم « أكثر مساواة » من الآخرين في قلب نظام قائم على المساواة . ليسا « أشباهاً » على نحو متماثل في داخل الوضع الانساني نفسه . بوبيت « مثيلة » سيمون ، وليست مثيلتها : « لم أكن أقارن بأحد . ولكنها كانت

أنفسهم إنه يهمهم الا « يقطعوا » أنفسهم عن أطفالهم . وسأتناول من ذلك مثالين فقط : مثال النواهي التي يقضون بها دون أن يجشموا أنفسهم عناء تبريرها ، ومثال الصراعات التي تعارض أحدهما بالآخر دون أن يكونا قادرين على الاحتفاظ بها لأنفسهم :

– « كنت أرفض أن استسلم لهذه القوة غير الملموسة : الكلمات ؛ وما كان يثيرني هو أن عبارة القيت باهمال : يجب ... لا يجوز .. كانت تدمر في لحظة مشروعاتي وأفراحي كان التعسف في الأوامر والنواهي التي كنت أصطدم بها ، ينم عن تناقضها ؛ بالأمس قشرت خوخة ، فلم لا أقشر هذه البرقوقة؟ لماذا أترك لعبي في هذه الدقيقة بالذات؟ كنت ، في كل مكان ، أصادف قيوداً ، لكنني لم ألتق بالضرورة في أي مكان .. » (نفس المرجع ص ١٦ ؛ أنظر أيضاً نفس المرجع ص ١٠٧ – ١٠٨) وهذا ايضاً : « لم اكن طفلة ، كنت أنا » ؛ أو : « وعدت نفسي ، حين أكبر ، ألا أنسى أن المرء في الخامسة فرد كامل » (نفس المرجع ص ٦١ و ١٧) .

– « في ذات مساء ... ظننت أن الأرض مادت تحت قدمي ... كنت ، ذلك المساء ، في الحديقة مع لويز ، وفي الواجهة المظلمة انفتحت نافذة عن غرفة منيرة : يرى فيها شخصان ، وتسمع أصوات غاضبة مهتاجة : قالت لويز : « هذا السيد والسيدة يتشاجران » . عندئذ انقلب الكون رأساً على عقب . كان من المستحيل أن يكون بابا وماما عدوين ، وأن تكون لويز عدوهما ؛ وعندما يتحقق المستحيل ، تمتزج السماء بالجحيم ، وتختلط الظلمات بالأنوار . وترديت في الفوضى التي سبقت الخليقة . » (نفس المرجع ص ٢٠) .

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٠١ و ١٢٥ .

تقارن ، باستمرار ، بي . » وهي ، بدلاً من أن تكون « شريكة » حقيقية ، « متواطئة » في الواقع ؛ وفي داخل هذا « التآمر » الذي يفصلهما عن الكبار ، في قلب هذه « الحديقة السريّة » التي هي ملاذهما ضدهم ، هما بالتأكيد « بحاجة » الى احداهما الأخرى » ، ولكن ليس بنفس الطريقة بالمرّة . وعلى أن سيمون دو بوفوار لا تستخدم قط هذه الكلمة لتحدد الموقف الذي نحن بصدده ، فانها فكرة العنصرية التي يبدو أن كلّ خبرتها الأولى بوضع ممتاز ؛ توحي بها .

هناك أولاً واقعة تفوّق معيّن ، باعتبار أنه يعوض دونيةً يحسّها الجانب الآخر : « ان ما كنت أقدره اكبر التقدير في علاقاتنا ، هو أنه كان لي قبضةً حقيقية . كنت تحت رحمة الكبـــار ... وهي وحدها التي كانت تعترف لي بالسلطة » . وهناك أيضاً التبرير الأخلاقي الذي يقترن به هذا النوع من التعويض ، من ثمّ ، والذي يقوم عامةً على الرسالة التي يدّعيها السائد لنفسه في التكوين والتدريب (أي يقوم على اضطرابٍ تسمح له الظروف بأن يوحي بأحد معنيي كلمة « السيّد » (باعتبارها تعنى « المسيطر » أو تعني « المعلّم » [1]) : « ان من أمتن العلاقات التي توطدت بيننا كانت علاقة المعلّم بالتلميذ ... وعرفت منذ سنّ السادسة كبرياء الفعالية والكفاءة ... عندما أغيّر الجمل عرفاناً ، عندما كنت اطبع حقائق في عقل بكر ، فقد كنت أخلق شيئاً حقيقياً ... للمرة الأولى ... كنت أخدم ... كنت أدخل في الدورة الانسانية الكبيرة التي يكون فيها كل واحد نافعاً للكل ، فيما كنت أعتقد » . وها هو ذا أخيراً تعريف العنصرية : « بفضل اختي – المتواطئة معي ، الخاضعة لي ، مخلوقتي – أكدت استقلالي . من الواضح أنني لم اكن اعترف لها الاّ بالمساواة في الاختلاف . وهو ليس الا أسلوباً في ادعاء التفوّق والصدارة . » [2]

---

١ – maitre (والملاحظ أن كلمة « السيد » في الانجيل تعني « المعلم » – المترجم) .
٢ – مذكرات « فتاة مستقيمة » ص ١٠١ و ١٢٥ .

على أننا في نفس الوقت بصدد رابطة بين الحامي والمحميّ ، بين المولى والقيل «كانت وليّي ، الثانية بعدي ، المزدوجة معي » ؛ وكانت تستفيد «باعتبارها تابعة ، من السيادة التي كنت أعزوها إلى نفسي » : «كنت أفكر أنني لو اضطررت الى مقاسمة أحدٍ فيها ، لفقدت حياتي اليومية كل معنى » . ان مثل هذه العلاقة ، من الطراز الاقطاعي ومن الطراز العنصري معاً ، هي ، بالجملة — وبصفة عامة الى حد كبير — العلاقة التي ما تزال باقية بين الرجل والمرأة (تحت أشكال تتباين الى حد يقل أو يزيد تبعاً للبلاد ، والنظم والطبقات) في معظم مجتمعاتنا الراهنة .

على هذا النحو اذن لعبت سيمون أوّلاً ، اذا جروْت على القول — دور الرجل بازاء بوبيت . والواقع أنها طلبت بهذا الدور نفساً طالما أحست نفسها تستند الى ضمانة السلطة الأبوية : هي التمردات العابرة لأختها كانت تبدو لها عندئذ بلا خطر ، وكان الغيظ الذي تحسه منها يتشتت على الفور تقريباً .[1] ولكن عندما بدأ أبوها يراها «قبيحة » ويبدي «اهتماماً اكبر عن ذي قبل » ببوبيت «التي ظلت طفلة جميلة » وعندما كفّت بوبيت في نفس الوقت عن أن تعبد سيمون «دون تحفظ » ، بدأت هشاشة مثل هذه السيطرة تظهر لتلك التي كانت المستفيدة منها حتّى ذلك الحين . مرةً واحدةً ، في قمة أزمتها ، حاولت أن تمضي الى غاية منطقهـا الأوّل ، متجاهلةً هذه العاقّة الصغيرة[2] ؛ ومع ذلك فهي سرعان ما سوف تجد معها من جديد «علاقة حميمة جداً » فلا تخفي عنها شيئاً ، وتشركها في أعمال «طيشها » الوجلِة ، وفي أكثر آمالها شططاً ، بل تذهب الى حد أن تجرّها معها في مغامرات مريبة .[3] ذلك أنها عندئذ ستكون قادرة على أن تتصور نفسها امرأة دون أن تحس من ذلك تقليلاً لها ؛ وذلك أنه سيكون عليها ،

---

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٠١ .

٢ – نفس المرجع ص ١٨٤ .

٣ – نفس المرجع ص ٢٢٣ ، ٢٤٩ ، ٢٧١ – ٢٧٣ – ٢٩١ – ٢٩٢ .

أولاً ، أن نستخلص غير ما يمكن استخلاصه من اختلافات موقف ابيها وأمها بإزائها .

كنا ، في البداية قد استطعنا أن نستشف ذلك ، فلم يكن ذلك في عينيها الا ظاهرةً رسميّة ، نوعاً من تقسيم العمل : كان أبوها لكي يعتبرها مثل « شخص تام التحقق » ، وأمها لكي تبرّرها اذ تقبل « كل قصورٍ » في سنّها . احدهما كان الذكاء ، والأخرى الحنان ؛ احدهما كان يقف على مبعدة ويظل مجرداً والأخرى تحيا معها في « حميميّة » حقيقية ، « في نوعٍ من التكامل العضوي » . ومن وجهة النشاطات اليومية والأخلاق العائلية ، كان أحدهما « مسئولاً عن الزبد » وكانت الأخرى تحكم كل شيء » ؛[1] كان أحدهما شكاكاً ، فردياً ، يُعقّل الأمور ، وكانت الأخرى مؤمنةً ايماناً عميقاً ، متديّنة ، ومن اتباع التقاليد . « انعدام التوازن هذا الذي كان يؤذنني بالنزاع يفسر الى حد كبير أنني قد أصبحت من المثقفين العقليين »[2] .

والملاحظة هامة ، من وجهة تصوّرها للمثقّف ، وحدها . فمن الواضح بالفعل أن ظاهرة « النزاع » قد عملت هنا في المعنيين وأنّ سلبيّتها (كان موقف أبيها ينكر موقف أمها ، والمثل بالمثل) من طراز دياليكتيكي ، باعتبار أنها مهدت الظروف « لتعدّ » مزدوج : نقد الأخلاق تبعاً للأب ، وأخلاقية النقد تبعاً للأم . وهكذا فان المثقف ، في الوقت الذي يدحض فيه كل ايمان ، لا يستسلم لاغراء الفردية المتشككة (وهو إغراء سلبي بحت) . وسوف تكون سيمون دو بوفوار ، طويلاً ، أخلاقيّةً شرسة ، مما لا يستبعد عندها أبداً حاجتها الى فَهْم أغرب المواقف والتصرفات وأبعدها عن اختياراتها نفسها . وعندما تقول لنا إن هذا الوضع الأصليّ قد « وضع الله ، عندها ، خارج العالم » اذ عوّدها على أن تعتبر حياتها العقلية (« التي يجسمها أبي »)

---

١ – « عندما كنت أهبط الى المستوى العادي ، كنت اعتمد على ماما » (نفس المرجع ص ٣٩) .
٢ – نفس المرجع ص ٤٤ . أنظر أيضاً ص ٤١ – ٤٢ .

وحياتها الروحية (« والتي توجهها أمي ») « كانتا مجالين مختلفي الخصائص لا تناسق بينهما ، على نحو جذري » ، فعلينا أن نفهم أنه كانت هناك عندها ، من جانب ، معرفة وفهم « الأشياء الانسانية » (الثقافة) — ومن جانب آخر العلاقة بالمطلق ، من الطراز الدينيّ بادىء ذي بدء ، والتي تكشف بعد ذلك عن طبيعتها الحقيقية من أنها تطلّب أخلاقيّ . على أنه من الحق كل الحق أنّ هذا التطلّب نفسه ، بطريقة ما ، غريبٌ على العالم ، على الرغم من أنه يجب أن يلتزم به ، التزاماً يوفي على الغاية ، حتّى يتخذ قواماً .

ومع ذلك فان سيمون دو بوفوار لا تحدثنا عن المثقفين هنا ، بل عن حالتها هي ، حالة إحدى المثقفات : عن امرأة ، بعبارة أدق ، هيأتها طفولتها لأن تبدي على كل المستويات موقفاً من مواقف النزاع الايجابي . والاحظ بالدقة ، أن المسألة تدور ، للفور ، عندها ، على مستوى الجسد نفسه ، مستوى الجنس ، مستوى الأنثوية . فأمها ، كما رأينا ، أوحت اليها ، مبكرُرة جداً ، بمشاعر عشقيّة على صعيدٍ جسدي بحت ، ولاشك أن لذلك صلة بحساسيتها المرهفة المرموقة بالسحر الأنثوي ، والتي يبدو لي أن كل عملها تقريباً مشبعٌ بها. ومن ناحية أخرى، فقد كان جانب أمها هو في وقتٍ معاً جانب الله وجانب رفض الجسد (« كانت لا تكاد تتبينّ حياة الجنس : فقد قرنت دائماً بين فكرة الجسد وفكرة الخطيئة قراناً وثيقاً ... كانت المسائل « الجسمانية » تنفرّها الى حد أنها لم تتناولها قطّ معي [1] ») مما يتيح لنا أن نفهم التفتح الحرّ الى حد كبير جداً على الحقائق الجنسية ، هذا التفتحّ الذي تصطحب به نزعتها التطهرية البيوريتانية وميلها الى الصرامة والتزمت . وما ان اختفى الله ، عندها ، حتّى ظهرت أكثر تطلباً بازاء نفسها (وقدّمت بذلك تكذيباً عملياً لكل الحماقات التي مـا تزال تُسمع هنا وهناك عن ضرورة الايمان « للبقاء » كائناً اخلاقياً) ولكنها كفّت في نفس الوقت عن أن ترى الجنسية « معيبة » ، ويبدو ، تحت هذا الضوء ، أن النزاع

١ — « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٤١ .

« الأب – الأم » قد لعب دوره كاملاً ، بالمعنى الايجابيّ الذي حاولت منذ قليل أن أشير اليه . ويبقى أن أمها كانت تشكل عندها ، بالاضافة الى ذلك ، منذ تلك اللحظة ، « صورة معينة للمرأة » وأن هذه الصورة – اذا كانت أولاً قد نازعتها صورة أبيها – سوف تدحضها وترفضها سيمون دو بوفوار نفسها على نحوٍ أكثر خطراً : سيمون التي كانت تخشى في قمة ازمتها ، أن تضطر الى التعرف على نفسها في تلك الصورة . على أنه من الحق أن أباها كان مسئولاً عن ذلك الى حد ما ، ولكن بمعنى أنه هذه المرة ، كان يسير الى دحضه هو اذ أنكر الموقف الذي كان قد تبنّاه أولاً بازائها . وهكذا ، فيما يبدو لي ، نستطيع أن نرى ، في هذا التعقّد وهذا الازدواج في الدياليكتيك الأصليّ بين صورة الأب وصورة الأم ، جذورَ القضية البوفوارية عن الوضع الأنثوي .

ونحن نعرف بالفعل أن أم سيمون كانت « ضحوكاً مراحاً » ولكنها في الوقت نفسه كانت كلية ، مُسيطرة ، تحب السلطة ، « حتى الشطط أحياناً » . ولنسجل في هذه النقطة من الآن أن كاتبتنا – بكل موهبتها على الفهم وكل فهمها الى بلوغ الفهم في كلّ فرصة – ترى نفسها الى حد يقل او يزيد مضطرة الى أن تتراجع عن الدخول في المباراة عندما يتعلق الأمر بغضباتها هي : « ساءلت نفسي احياناً كثيرة عن سبب ومعنى غضباتي . أظن أنها تفسّر جزئياً بحيويةٍ مندفعة منطلقة الجماح ، وبتطرف لم اتنازل عنه قط ، تماماً . »[1] ومن هنا فانني أميل جداً الى استنتاج انّ الجزء الباقي (في غياب أي تفسير لمظهرها) يمثّل في عينيها ما بقى غير قابل للتمثل ، ولا يمكن قبوله ، في صورة أمّها . وذلك على نحوين معاً : أولاً لأن ثوراتها تظهر لها ، أكثر فأكثر ، مما تستثيره أمها باعتبارها السلطة الأخلاقية التي تصوغ النواهي والمحظورات – تلك النواهي التي ما يلبث تطلبها هي للاستقلال الذاتي أن يكشف عما فيها من اعتساف ؛

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٥ – ١٦ .

ثم وفوق كل شيء ، لأنها اذا كانت تسلم بأنها مدينة لأمها بحيويتها ومرحها ، فانها لن تطيق ، على نحو مطرد ، فكرة أنها يمكن أن تأخذ عنها أيضاً ذلك التسلّط المسيطر اللاعقلي القائم على النزوات وتقلبّات المزاج . إن ما لم تكن الطفلة قد أحبته (هذا الاعتماد على مزاج أمها ، بقدر ما كان حبها لها يعاني من الاحساس بأنها شقية ، ومن رؤيتها تتشوّه في ناظريه) هو الذي تتكبد المراهقة ألماً أكبر في أن تطيقه ، منذ اللحظة التي ردّها فيها أبوها — وجعلها تتوحد تقريباً — بأكثر مظاهر أنوثتها عرضية . وقد كان ذلك ، كما نعرف ، في فترة حيضها الأوّل ، ودخولها «سنّ المراهقة » : ولكن الأمر لم يكن يتعلق بعد ، على هذا المستوى ، الا بصراعٍ يضعها في معارضة هـذه المرأة ، أمهـا — وذلك بالأحرى لأن أمّهـا كانت تظهر عندئـذ كأنها « منافِسة » حقيقيـة بازاء أبٍ كانت ماتزال تأمـل أن تستعيد فهمه لهـا ، وشيئاً يشبه الاعتراف بها . وبعد بضع سنوات ، في نحو نهاية الأزمة ، فانها سوف تحتقها المرأة ، في أمها ، اذ تأخذ عليها في وقتٍ ما ، عقمها ، ومرحهـا المتكلف ، وبذل حيويتها فيما لا طائل وراءه ، وحنانها ، وسعيها الى التواطؤ معها (عندما كانت تطلب ثقة بنتها ولا تحرم نفسها من أن تفتح خطاباتها) . عندئذ تبدأ سيمون ، وقد فقدت الآن كل امكانية في الرجوع الى أبيها ، تخشى على نفسها مثل هذا المصير ، مصير المرأة : « كانت مدموازيل لامبرت » وأمي ، يتابعان أياماً ميتة ، كانتا تكتفيان بـأن تشغـلا نفسيهما... »[1].

---

١ — نفس المرجع ص ٢٢٦ . ويجب أن نسجل أيضاً، على هذا المستوى وعلى كثير غيره ، الى أي مدى حيثت الأرض لاتخاذ مواقف قاطعة ، نزالية مقاتلة ، مواقف يراد بها أن تكون حملات ، في نهاية الأزمة ، نتيجة لوعي « بقرارات » معينة سابقة لم تكن بلا شك الا عديمة الفعالية ظاهرياً . ان سيمون ، في نحو الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها (في أول فترتها الحرجة) تساعد أمها ، تجفف الأطباق : « كل يوم ، في الغداء ، في العشاء ، كل يوم غسيل الأطباق ، هذه الساعات التي تبدأ من جديد ، بلا نهاية ، لا تفضى الى أي مكان: =

يبدو إذن، بعبارة موجزة، أن المرء يستطيع أن يفرّق بين ثلاث فترات في موقفها بازاء أمها، خلال العشرين عاماً الأولى من حياتها. ففي الفترة الأولى: هو موقف الطفولة الصغيرة، إنها تعشق أمهـا، وتعتمد عليها كل الاعتماد: ويبدو لها أن النساء هن اللاتي يقررن كل شيء. ليس لها أخ (ومن ثم فلا نقطة للمقارنة هناك) وهي تؤمن بالله (الذي لم يجعل فروقاً بين الجنسين): «كنت لا أعزو القيود التي كانت توقع بي الا الى سنّي؛ كنت أحس آثار طفولتي، بحدّة، لم أحس قط بآثار انثويتي.»[1] وفي الفترة الثانية (حتى عهد أزمتها)، تبدأ أن تحس وطأة السلطة الأموية، سلطة روتينية، متمسكة بالأصول والمواضعات، ومحدودة الأفق، وفي نفس الوقت تطوّح بها النزوات. وتأخذ في العمل ضدها اذ تعارضها بالذكاء والحسّ النقـدي والروح الفكه عند الأب: وكلما رُدّت إلى عرضيتها الاخلاقية (حالة التبعية) والجسدية (البلوغ، القبح المزعوم) تشبثت بسراب اعترافٍ ذكوريّ: الأب، القاضي الأعلى، رجل حياتها. وفي الفترة الثالثة: (في نهاية ازمتهـا) تصل الى أن تتحرر من أمها، اذ تكتشف أنها موحلة دبقة في وضعها الأنثوي، غير مسئولة جسمانياً (حيويتها التي لا يمكن التحكّم فيهـا، تقلبات مزاجها) ومضللة معمىً عليها اخلاقياً (بخضوع ثلاثي لله، لزوجها، وللمواضعات بيئتهم الاجتماعية). وأعتقد أن سيمون تحنق لذلك، من عدة وجوه معاً: تحنق لأنها كانت قد خضعت لنموذج هذا الخضوع نفسه، ولأنها خضعت، بالأكثر، نتيجةً لتعلقها الجسديّ الذي كانت

= هل سأعيش على هذا النحو؟.. قلت لنفسي: لا، وأنا أرتب عموداً من الأطباق في الدولاب، ان حياتي انا سوف تفضي إلى مكان ما (نفس المرجع ص ١٠٥ – ١٠٦). ان هذا الفهم، عندها، بين ردود فعل انفعالية توشك أن تكون مشوبة الاضطرام، وبين وعي ناضج أتاحت الظروف أن يظهر مبكراً جـداً، هو الذي يمكننا من أن نفهم الايقاع الخاص والنقة الاستثنائية التي سار فيها تطور هذا الوعي في مجراه.

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٥٧.

تحبه لها . وتحق لأنها ظنت لحظة أن حب أمها لها يبررها ، وتحق لأنها تركت نفسها يختلها رجل" كان يتظاهر بأنه يعترف بها ولكنه في الواقع لم يكن لا الشريك المتواطىء مع هذه الضحية التافهة (السيد والعبد معاً) . ولنقل انها وعدت نفسها عندئذ ألا تعود فتكون طفلة وألا تصير «امرأة» أبداً [1] . معاً .

ذلك أنها قد خبرت اغتراباً مزدوجاً ، في نفس الوقت . ووجدت الملاذ الحاسم الوحيد من هذه الظاهرة ، في نفسها هي . فاذا أضفنا الى ذلك أنه بالرغم من كل شيء بقيت عاطفتها ومحبتها لوالديها محبة كبيرة ، وان العنف الذي كان يحدث لها أحياناً أن تحس به بازائهما لم يتضمن قط أدنى مظهر للكراهية ، وان هذا الوعي الفتيّ ، على الجملة ، لم يعرف قط شقاء التنازل– اذ أنه قد أصر على أن يريد ذاته حتى من خلال أقسى قطام له وأبعثه على العذاب – فسوف نكون بلاشك أقدر على فهم أن سيمون دو بوفوار استطاعت ، دون أن تنكر انثويتها ، أن تشجب وتستنكر ، بكل تلك القوة ، فضيحة الوضع الأنثوي .

وسوف يكون علينا عما قليل أن نعود الى أنثويتها ، الى طريقتها في أن تحياها ، اذ نحاول ، في النهاية ، أن نصف علاقة كاتبتنا بذاتها ، في أبعادها الرئيسية . وهاك على الأقل ما يصور ، دفعة واحدة ، نوع التركيب الموقّت الذي كشفنا هنا عن تطلبه (الا تكون بعد طفلة والا تصبح «امرأة»

1 – ولكن لا نغفل أن نلاحظ أيضاً أنه منذ تلك اللحظة ، تصبح قادرة على أن تكون لها مع أمها علاقات حقيقية : «كتبت إلى أمي أطالبها بثقتها : أكدت لها أنني سوف أصبح ، فيما بعد ، شخصاً له قيمة . وردت علي رداً لطيفاً جداً . » – «كانت أمي تصحبني كثيراً الى السينما ... » (نفس المرجع ص ٢٥٦ و ٣٠٩) .

أبداً ، وبعبارة أخرى : أن تجعل من نفسها امرأة ناضجة وإنسانية" الى أكمل حد) : «كنت أطري على نفسي أنني اجمع في نفسي «قلب امرأة ، وعقل رجل » . كنت أعود فأجد في نفسي الكائن المتفرد" »[1] .

---

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢٩٦ .

٢ – الحب والصداقة، العلاقات، الآخرون بصفة عامة

... أما عن «العقل»، فليس مما يليق بنا أن يقلقنا شأنه. اما عن «القلب» فسوف يسعنا أن نتأكد من أنه لم يلبث طويلاً حتى أدى مهمته.

فهي، بين السنة السادسة والثامنة من عمرها، تعلن أختها ذات مساء: «أنا أعرف ما هو الحب!» كانت قد أمضت بعد الظهر في اللوكسمبورج، ورأت هناك «فتاة كبيرة ترتدي «تايير» أخضر في خضرة التفاح» تمسك الحبل لأطفال، وهم يلعبون ويثبون على الحبل، وكانت «وجنتاها ورديتين وابتسامتها متألقة رقيقة». وقد كانت تلك صدمة (انفطار القلب) ودرساً تتلقنه حقاً لأول مرة: «أبي، أمي، أختي: اولئك الذين أحبهم كانوا أهلي. ولكني استشعرت للمرة الأولى أن شعاعاً آتياً من ناحية أخرى يمكن أن يمسّ المرء في قلب ذاته[١]». وفي اثناء هذه الفترة ايضاً تبدأ أن تحس اهتماماً حاداً بابن عمها جاك (وهو يكبرها بستة أشهر). ولنتذكر من الأوصاف الأولى التي تقدمها الينا أن سحر جاك كان يتضمن في عيني سيمون شيئاً من الإبهام. هو «صبيّ صغير جميل جداً» (تلتقي به أساساً في الدروس الخصوصية التي تتلقاها من «فتاة

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٥٦ – ٥٧. كلمة «ناحية أخرى» تؤكدها سيمون دي بوفوار.

شقراء حلوة »)، وهو من جانب آخر، فيما هو واضح، معادل ما تعجب به أكبر الأعجاب في أبيها، بمثله على نحو مزدوج. فاذا أقحمنا هذه الفكرة قليلاً على النص، ولما نكد، قلنا إننا بصدد صورة مرفقة الحاشية، مؤنثة (ومن هنا أقرب الى التناول) لمكانة الرجل عندها — فيها أساس من « المعرفة »، من « الثقة »، من « التفوق »: « كان عادة يحتقر البنات ولذلك كنت أقدّر صداقته »، ونحن نعرف أن أبا سيمون كان مناهضاً للمرأة على نحو قاطع. واذا كان جاك يفرض الاعجاب به على سيمون، فذلك أنه، بالاضافة الى ذلك، لا يقبل، هو أيضاً، وضعه كطفل: « كان يعامل الكبار معاملة الند للند »، ولأنه أخيراً من علياء هذه « السلطة » يمنحها بطريقة الاعتراف الذي تنتظره من أبيها: « كان قد قال: سيمون طفلة مبكرة النضوج. وسرتني هذه الكلمة أكبر السرور. »

وعلى ذلك فانهما يقرران أنهما « زوجان عن حبّ » وهو يسميها من الآن « خطيبته »: « وحملت خطوبتنا على محمل الجد ». ولننتهز هذه الفرصة لنلاحظ مرة أخرى أنه اذا كانت جدية سيمون تتواجد دائماً تقريباً بنوع من الإقبال الملهوف على الحياة فانها لا تمتزج به بسهولة، عندها، حتى ينجم عنها تعلق عاطفي مشبوب: « في غيابه لم أكن أفكر فيه بالمرة. ولكني كنت أرضى، في كل مرة أراه، وإن كنت لا أفتقده قط »[1]، ولاشك أن السبب في ذلك كان في ذلك التطلب المتعدد الأشكال، المطلق، الذي يكاد يكون كونياً، والذي كان يكمن باستمرار، في أدنى مظاهر حيويتها.

وعندما كانت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، وكانت وصيفة شرف في حفل زواج إحدى عماتها، أبهجها أن يكون: ميلهـا «في

١ - « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٦٢ - ٦٣.

وسيماً في التاسعة عشرة من عمره ، يتحدث اليها كما لو كان يتحدث الى «فتاة كبيرة» ، ولكن لا هذا الفتى بدوره الثانوي ، ولا ابن عمها جاك نفسه (الذي تقتصر في شأنه على أن تحلم أحياناً بأن «تبعث» صداقتهما «القديمة» من الموات) لن يكون لهما كبير وزن في حياتها ، في تلك الفترة : فقد وصلت زازا ... وسوف تمس سيمون جانب الإنكار — بازاء زوجها عن حب ، وخطيبها ، وصديقها القديم ، وأتيح لي حظ أن التقي بالصداقة ... لم اكن أتصور في العالم أفضل من أن اكون ذاتي وأن أحبّ زازا.»[1]

ولما كانت ضحية للمقولات الاخلاقية التي تحملها لغة بيتها ، فانها لا ترى أولاً في «اليزابيت مابيل» الا «أقرب صديقاتها» اليها. وهي مفتتنة بسلوكها الطبيعي ، وحيويتها ، يجمها للفكاهة ، وهنا أيضاً ، بنوع من الخفة السهلة نوعاً ما يتيح لها أن تتحدث «تلك المدرسات» (في مدرسة ديزير) «حديث الند للند تقريباً». «كان جاك ، الصبي جميلاً جداً» ، اما زازا ، البنت ، فقد كانت «بنتاً سمراء صغيرة ، شعرها مقصوص وقصير» ، «هزيلة هشة الجسم ، نحيلة الساقين» ، وترتدي زياً «كزي الصبيان» ساحراً في مشهد كوميدي قصير تلعب فيه أمام سيمون دور «ابن عم شاب محتدم المزاج». نحن هنا قطعاً بصدد ابهام كامل ، لا نخرج منه الا بأن نعرف ان اكبر متعة لسيمون هي أن «تتحدث» مع صديقتها الجديدة ، أن تدور بينهما «محادثات حقيقيــة» ، كما يدور الحديث في المساء بين بابا وماما . ولكن الأمر واضح ، حتى هذا الحد ، فمهما كانت سيمون مرهفة الحساسية ، تلقائياً ، بقسمات النعومة النسائية ، فانها لا تستسلم لها حقاً الا اذا كانت تتخايل عند صبي ، وتؤثر عليها ، بعد كل شيء ، صورة الاستقلال الذاتي ، بما لها عندها من مكانة رفيعة

---

١ — نفس المرجع ص ٩١ — وص ٩٥ .

سواءٌ كانت في صبي أو فتاة : « كانت حيوية زازا ، واستقلالها ، يأسرانني . »

الا أنها بسبيلها أن تكتشف ، على وجه الدقة ، أن صداقتها حب ، وأن زازا «كانت تتقمص في عينيها معنى الاستقلال الذاتي ، فانها تضعها في وضع لا يجعلها تحس كل الاحساس باستقلالها الذاتيّ» هي : «كنت بعد ظهر احد الأيام ، أخلع ملابسي في غرفة خلع الملابس بالمعهد ، عندما ظهرت زازا . وبدأنا نتكلم ، ونروي حكايات ، ونعلّق ، وتدافعت الكلمات على شفتيّ ، وكانت تدور في صدري ألف شمس ، وقلت لنفسي : انها هي التي كنت أفتقدها ! .. كانت تلك بديهية ساطعة . وفجأة طارت التقاليد والمواضعات والروتين والقوالب المحفوظة ، بدداً ، وغمرتني عاطفة لم يكن لها مكان في أي تقنين . تركت هذه البهجة التي كانت تتدفق عليّ ، ترفعني ، عنيفة وصافية عذبة كمياه الشلالات ، عارية مثل جرانيت جميل . » وبعد ذلك ببضع أيام انقضّت عليها هذه البديهية نفسها كالصاعقة ، من جديد : «لم أعد استطيع الحياة بعد من غيرها . » ونحن ، اذ نبدأ نعرف سيمون الآن ، لانستطيع أن نتخيل أن هذا الكشف لا يقترن به شيء من الخوف : «كانت كل سعادتي ووجودي نفسه يستقران الآن بين يديها . » وهي تقول لنفسها ، في الواقع ، أنه اذا ماتت سيمون .. « ... سأموت على الفور ! » ولكننا نعرف أيضاً مدى تفاؤلها وأنه لن يتيح لها طويلاً أن تخشى حقاً موت زازا : «ذهبت الى حد الاعتراف لنفسي باعتمادي عليها الذي وضعني في تعلقي بها : لم أجرؤ أن أواجه كل النتائج المترتبة على ذلك.[1]»

ولكن هذا التفاؤل لا ينتهي الى أن تعتمد على الله لكي يُبقي زازا على قيد الحياة (وسيمون أيضاً ، على سبيل التبعية) . ولا يوحي شيء

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٩٤ – ٩٥ .

بماهية هذا التفاؤل الحقيقية، بلاشك، بقدر ما يوجبه رد الفعل عند العاشقة الصغيرة بازاء حبها الحقيقي الأول «من أول نظرة»: «لم أكن أطلب أن تحس زازا لي عاطفة، بمثل هذا التحدد والقطع»: كان يكفيني أن اكون زميلتها المفضلة. لم يكن الاعجاب الذي أكنّه لها يقلل من قدري في عيني. فالحب ليس هو الحسد...» اما أنا فانني معجب بأن هذه الطفلة أرادت لنفسها مثل هذه القوة، وعلى هذا النحو من الكمال والكلية، بحيث استطاعت، دفعة واحدة، في مثل هذه الظروف، أن تحس – وأن تحيا، الى حد يقل أو يزيد – مثل هذه الهبة للذاتها التي لم تكن اغتراباً بل كانت الحركة الحرة لوعي ظل مهموماً بأن يوجد وبأن يعطي لنفسه قيمة، بوسائله الخاصة. ويقال لنا في موضع ما[1] أنها تعرضت لاغراء المازوكية، وأن ورعها الديني كان يبهيئها لذلك: ولكننا قد اقتنعنا من قبل أن أعظم نشواتها استثاراً لم يكن لها، في عينيها، ثمن الا بقدر ما تظل واعية بها، قادرة على التعبير عنها، ونحن نستشف هنا أن الحب نفسه لم يكن ليتخذ عندها معنى الا في حدود المعنى الذي تعطيه له في وجودها.

ولسنا هنا بصدد تركيب زائف، أو التقريب المصطنع بين عاطفة شديدة الاحتدام وتطلّب يعارضها ولا يقل عنها احتداماً. فبعد أربع أو خمس سنوات، يميل الى أن تستخلص، من علاقاتها بزازا فكرة الديالكتيك الايجابي في داخل الزوجين: «كنت دائماً قد أعطيت للحب قيمة عالية... ولاشك أن صداقتي لزازا هي التي جعلتني أعلق كل هذه القيمة على اتحاد كائنين: يكتشفان العالم معاً، ويهبان أحدهما للآخر، فانهما يمتلكان العالم، فيما كنت اعتقد، على نحو فيه امتياز، وفي نفس الوقت يجد كل منهما العلة النهائية بوجوده في احتياج الآخر اليه[2]».

١ – نفس المرجع ص ٥٩.
٢ – نفس المرجع ص ١١٣ – ١٤٤.

وقد دخلت ، في تلك اللحظة ، في فترتها الحرجة (كانت في الخامسة عشرة من عمرها) : فقد أصبحت تحس بوحدتها اكثر من أحساسها باتحادها ، واذا كانت صورة أبيها التي صنعتها لنفسها ، ترودها أكثر من أي وقت مضى فانها سوف تميل أكثر فاكثر الى اسقاط هذه الصورة على رجل حياتها – بنفس القدر الذي يبدو لها فيه أن ردود الافعال الأبوية غير مرضية كل الارضاء . انها تتطلب أن تكون سعيدة وأن يُعترف بها ، ولكنها لا تكتشف حواليها الا السأم وتبدأ تحس نفسها وحيدة جداً .

إنها في العاشرة من عمرها ، في نفس اللحظة التي تلتقي فيها بزازا – وقبل أن تدرك المكان الذي سوف تشغله هذه الصداقة في حياتها مباشرة – تعي نوعاً من السأم من الحياة : « ما من وعدٍ تحقق لي ... كانت المدرسة تضجرني ... لم يعـد لأيامي طعم . كل شيء كان معطى لي ، وكانت يدي صفراً من كل شيء ... كنت اسير في بوليفار راسباي بجانب أمي ، وسألت نفسي فجأة ، بمضض : « ماذا يحدث ؟ أهذه حياتي ؟ أليست هي الا ذاك ؟ هل يستمر ذلك دائماً على هذا النحو ؟ » وانقطعت انفاسي لفكرة تتابع اسابيع ، وشهور ، وسنوات ، حتى مدى البصر ، لاينيرها أي انتظار ، ولا وعد : حتى كأن العالم ، على انتظار ، قد مات . »[1] على أننا نعرف تماماً أنه لم يكن قد حدث ، في هذه اللحظة ، شيء مما هو سلبيٌ حقاً بينها وبين والديها . ولكن الواقع أنه لم يعد يحدث بينهما ، من جانب آخر ، شيء ايجابي أيضاً ، بينما كانت الحاجة الى التواصل تغدو عندها ، يوماً بعد يوم ، أشد الحاحاً وسيطرة . وسوف يزيد من تدهور هذا الموقف « تصفية » إله كانت كل الاشياء الأرضية حتى ذلك الحين لا تتوقف عن أن تصونه (« كل الاشياء كانت تشدو ، في خفوت ، بمجده ») اذ تضطر سيمون الى اعادة النظر في تصوّرها الأول لوحدتها .

---

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٩٤ .

عندما كان يكفيها أن تنظر الى والديها وأختها، وتقول لنفسها: «نحن الأربعة!» حتى «يهدأ قلبها». كانت تفكر في الزواج «في غير سرور» باعتباره يبدو لها «شيوعاً» مخوفاً. كانت في ذلك الحين «بحاجة ملحة مسيطرة» الى أن تستطيع «الحياة أخيراً بضع لحظات من غير شاهد عليها». الى أن تتحدث الى نفسها «في سلام». الى أن تهرب من «حنان» النظرات «المسدّدة» اليها باستمرار، بل الى أن «تبكي لمجرد البكاء» أحياناً: ذلك أنها كانت هي نفسها المتحدثة لنفسها وكانت «خلوتها» مع الله تؤسس هذه العلاقة الجوهرية بذاتها. ولكنها عندما بلغت الى رفض الله (وقد كان موضع نزاع قوي من جانب التشكك الأبوي، ولم يكن يبدو أن أحداً يهتم بأن يجسده في هذا العالم) انقضّ صمت الأجواء اللامتناهية على نجواها لنفسها. وهدّد بأن يحرمها من كل دلالة: «كانت الأرض تدور في فراغ لا تخترقه نظرة، وكنت وحدي، ضائعة» على سطحها الشاسع. في وسط الأثير الأعمى. وحدي: لأول مرة فهمت معنى هذه الكلمة المخيف. وحدي: بلا شاهد، بلا متحدث، بلا ملاذ. أنفاسي في صدري، دمي في شراييني، وهذا الضجيج في رأسي، لم يكن كل ذلك يوجد من أجل أحد[1]». كانت، وقد تحررت من الله، سوف تعتمد منذ الآن على الآخرين: «قمت، وجريت الى المتنزه، وجلست تحت الأشجار بين أمي وخالتي مرجريت، فقد كانت حاجتي بلغت ذلك القدر من الالحاح، الى أن اسمع أصواتاً».

ان التي تتكلم هنا مراهقة. ولا نتردد هنا أن نأخذ الكلمة بمعناها المزدوج. فهي «ألسنة ذربة اللسان» وهي «دائماً تميل الى التواصل بالكلام» ولاشك أنه ينبغي أن نضيف أنها منذ الآن أشد وعياً بحسمها من أن يكفيها الحوار مع زازا لكي يجعلها توجد كلية من أجل أحد:

١ - نفس المرجع ص ١٣٩.

فهي من ثم سوف تدأب على مناجاة النفس ولكن بعد « أن تغيّر الاسطوانة » – بعد أن تحل ، بالجملة ، « صوت سيدها » محل صوت الله...

كنت أقول إنها كانت تحس السأم ، وتحس نفسها وحيدة . أنها في الخامسة عشرة من عمرها . وتحلم بشخصيات من الروايات : بطلة تحس السأم ، بالضبط ، ويأتي فتىً وسيم مندفع لكي ينتزعها من زوجها (« في ثوب من « التوال » عارية الذراعين ، تطير الريح بشعرها ، تتوائب عبر البراري ، يدها في يد عاشقها... ، لم اكن قط احسست ، أو تأملت ، أو تخيلت مثل البهجات الماذية... بقيت مبهورة من كشف هذه الملذات التي لم أكن أعرفها ولم أعرف كيف أسمّيها وإن كانت سوف تفيض في يوماً ما : كانت تلك هي الحرية ، كانت تلك هي المتعة... ») وهي تحلم أيضاً ، في أحد مماشي غابة بولونيا ، بزوجين كانا يسيران أمامها : « قلت لنفسي ، وقد اهتزت مشاعري فجأة ، إنّه لابدّ كان عذباً أن يتقدم المرء عبر الحياة وعلى كتفه يدٌ قد ألفها حتى لا يكاد يحس ثقلها ، يدٌ حاضرة حتى لتطرد الوحدة الى الأبد . كانتا موحّدان ، كنت أحلم بهاتين الكلمتين » .

ولكن أين يظهر « السيد » في هذه القضية ؟ صبراً ، هاك هو : « لم أكن أعطي زوجي المستقبل قسمةً محددةً ما . وفي مقابل ذلك كنت أضع فكرةً محددةً عن علاقاتنا : كنت سوف أحس له اعجاباً مشبوباً محتدم الاضطرام . كنت في هذا المجال ، شأني في كل المجالات الأخرى ، ظامئةً الى الضرورة . كان ينبغي أن يفرض المختار نفسه عليّ ، كما فرضت زازا نفسها ، بنوع من الوضوح البديهي ، والا لساءلت نفسي : لم هو وليس شخصاً آخر ؟ لم يكن هذا الحب يتفق مع الحب الحقيقي . سوف أحب ، يوم أن يخضعني رجلٌ بذكائه ، بثقافته ، بسلطته » .[1]

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٤٤ – ١٤٥ .

وهو مع ذلك سيد غريب ، فلن تتاح لربقته أبداً أن تكون ربقة مُثقِلة الى أي حد : « أما أنا فكنت أريد أن يوضع كل شيء بحيث يكون مشتَركاً بين الرجل وامرأته ، كان يجب أن يؤدي كلٌّ منهما في مواجهة الآخر دور الشاهد الدقيق الذي كنت أعزوه فيما سبق لله . كان ذلك يستبعد أن يحب المرء شخصاً مختلفاً مغايراً ، لن اتزوج الا اذا التقيت بمثيلي ، بكائن مزدوج معي ، أكثر تماماً مني .. »[1] ولاشك أنّ تصوّر سيمون يضع في اعتباره هنا ضروب فشلٍ معينة لحقت بها في محاولاتها للتواصل : فقد انتهت ، مع أبيها ، الى الاصطدام بحائط الاعتساف الذي يفصل بين الكبار والصغار ، وقد مرت مع أختها بنفس التجربة ، في اتجاهٍ مضاد ، اذ فهمت أنه لا يمكن للمرء أن يحصل على اعتراف الآخر به عندما لا يعتَرف هو به حقاً.[2] يلزمها اذن وعيٌ محدّد (ما دام الله ، الوعي المطلق ، قد مات بالفعل من جراء تجريده) ؛ ولكن يجب ان تفرض عليها قيمة هذا الوعي بوضوح بديهي لا يقاوم ، دون أن يحول بينها مع ذلك وبين أن تعامله معاملة الندّ للندّ .

وبعبارة أخرى لن تقبل « شاهداً » الا شخصاً يبدو لها جديراً بأن يكونه : وكيف تستطيع أن تتأكد من أن هذا الشبيه ، هذا « المثيل » ، هذا « الكائن المزدوج معها » ليس متفوقاً عليها بطريقة ما ؟ لا ينبغي لا أن يكون آخر ولا هو نفسها تماماً ، بل ينبغي أن يكون نفسها على نحوٍ أفضل ، على نحو « أكثر تماماً » : بل ينبغي أن تستطيع أن تفهمه كل

---

١ – نفس المرجع ص ١٤٦ . كلمة « مغاير » تؤكدها سيمون دو بوفوار وكانت قد أوضحت قبل ذلك بقليل أنها كانت تعارض زازا عندما كانت تتصور هذه الأخيرة أنها تستطيع يوماً أن تحب رجلا « وسط الذكاء » وكان من ناحية أخرى على حساسية وحدة خيال الفنان أو الشاعر : « ان المصور أو الموسيقي ما كان ليفهمني كلي ، وكان ليظل جزء منه معتماً أمام عيني » .

٢ – أنظر تلك اللحظات القليلة التي تحق فيها سيمون اذ تلاحظ فقدان أو نسبية سلطتها على بوبيت (مثال ذلك : « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٠١ و ١١٣ و ١٨٤) .

الفهم ، لكنه ينبغي أن يفهمها الى حد أن تزداد في عينيه قيمتها . فنحن نرى أن التفوق لم يُلغَ ، بل تغيّر معناه . لقد حل موضوع الاختلاف في المساواة محلّ موضوع «المساواة في الاختلاف» (هذا الموضوع الذي أدانته بشأن علاقتها بيويت).

وأسارع بالقول : هذه الصيغة المعكوسة لن يكون من شأنها أن ترضي كاتبتنا . ففي هذه الصفحات القليلة التي تشغلنا الآن والتي تتضح فيها ، بلاشك ، وجوهٌ رئيسية ، يبدو أن سيمون دو بوفوار تقضي بالفعل وقتها في أن تسحب بيد ما أعطته لنا بيدٍ أخرى ، فهي تقول لنا بنفس العزم والقوة ، إن رجل حياتها يجب أن يُخضعها ، أن يتجاوزها ، أن يكون متفوقاً عليها ، أن يتغلب عليها وأن يكون نموذجاً لها ، ولكنه لن يكون ، على أي نحوٍ «مغايراً» لها ...

وهي تتساءل : «لماذا كنت أطالب بأن يكون متفوقاً عليّ ؟» . وتحذّرنا على الفور (كما حدث من قبل في مناسبةٍ أخرى) أنه ليس لنظريات علم النفس التحليلي شأن في هذه القضية : «لا أعتقد بالمرة أنني كنت أبحث فيه عن خلفٍ لأبي» . وأنا مقتنع بأننا يجب أن نسلم في هذا الصدد أنها محقة ، ولكنْ ليس بالضرورة نتيجة للأسباب التي تعطيها[1] .

والحق أن هذا الانكار يبدو لي مشروعاً بقدر ما أصبحت سيمون مستطيعةً ، منذ عامها الثالث عشر ، أن تُعْمِل في مشاعرها بازاء أبيها (أن «تحددها» لنفسها ، وأن تغلب على هذا النحو من شرْطها الأوليّ) وذلك مع ظهور الصدوع الأولى التي كان عليها أن تحسّ بها في علاقاتها

---

١ – ذلك إلى حد أقل وأقل بقدر ما تقوض هي بنفسها من قوة هذه الأسباب ، اذ تسلم بعد ذلك ببضع سطور : «ومع ذلك فان الفكرة التي كانت عندي عن أنا وزوجي ، قد تأثرت تأثراً غير مباشر بالمشاعر التي كنت قد أحسست بها بازاء أبي» .

معه. ومن ثم فقد بلغت بالفعل الى أن تعكس معنى الموقف الذي ترفضه، اذ تبحث منذ الآن، في أبيها، عن خلفٍ لزوجها المختار: لهذا الآخر الذي سوف تستطيع يوماً أن تختاره، بيقينٍ من أنه سوف يعترف بها، في وقتٍ معاً، على نحو تُخوّل له السلطة فيه، ومع سيادتها هي الكاملة. كيف لا نلاحظ على أي حال انها اذ كفّت عن الايمان بالله، وتحت تأثير أبيها، فان تصورها القديم لله – أكثر بكثير من أية صورة أبيها – هو الذي تضيفه سيمون دو بوفوار على تعريف «المختار»؟ «ان الرجل الذي يعدني به القدر كان سوف يضمن لي وجودي دون أن ينزع عنه سيادته». ذلك ما يوحي مباشرةً بما نعرفه من قبل عن أعمال «عبادتها» على الصعيد الديني: «كنت متفرّدة وكنت مطلوبة... كنت أحس حوالي بحضور الله... لم تكن سيادته تنزع عني سيادتي».

وعندما تحاول، من ناحية أخرى، أن تبرر حاجتها الى رجلٍ يكون متفوقاً عليها بأن تفسر لنا أنها كانت ترى هذا الآخر «من الخارج، باعتباره شخصاً تاماً مكتملاً»، بينما كانت تفكر في ذاتها «من الداخل، باعتباري في سبيل أن أصنع نفسي» – أو بأنها «كانت خشنةً جافية أكثر منها كريمة معطاءً»، وأنها كانت ترغب «أن تتلقى لا أن تعطي» – فأعتقد أنني استشف أنّ سراباً نظرياً، لا أكثر ولا أقل، يحول دونها وأن تعطي هذه المراهقة التي كانتها، حقها من التقدير، (وتخاطر، في نفس الوقت، بأن تحول دوننا، الى حد يقل أو يزيد، وأن نفهم كيف استطاعت أن تصبح هذه المرأة التي هي.)[1] ذلك أنه من الواضح تماماً، بالرغم من كل شيء، أنه كان لابد لها أن تخضع الى حد يقل أو يزيد لتأثير تعميات اجتماعية معينة، لتأثير اتجاهات نسائية سائدة في

---

١ – يدرك القارىء بالفعل، وآمل أن أوضح له أكثر، فيما يلي، أننا هنا بصدد أصل كل ما يمكن أن تقوله لنا أعمال سيمون دو بوفوار، عن الحب والصداقة، عن الأنثوية والوضع الأنثوي، عن علاقتها بالآخرين وعلاقتها بذاتها.

البيئة لا تتردد معظم النساء أنفسهن في الانضواء تحتها (النساء ينتمين الى طائفة أدنى) — وهي تعميات توطدها «المكانة الأبوية» عندها، وتزيدها قيمة: بحيث أن رجلاً تميزه، يخاطر بأن يضع نفسه في عينيها تحت مستواها، اذا لم يضع نفسه بالفعل إلاّ على مستواها، اذا لم يبلغ أن يكون الاّ نداً لها [1]. ولكني في مقابل ذلك أبدي اعظم التحفظات على الحجتين اللتين تذرعت بهما منذ قليل. ان ما شرعت في أن تستدير به في اتجاه أبيها، على شكل تطلّب واع (بعد أن استمدته منه، الى حد يقل أو يزيد، على شكل امتياز غير مؤكّد) ليس فكرة اعتراف استاتيكي سوف يقدمه اليها «شخص تامّ مكتمل»، بل هو تخطيط لمشروع مشترك، حيث يكون «الطموح الى التقدم حتى ما لا نهاية» هو نفس الطموح من كلا الجانبين: «ان الصورة التي كنت استدعيها كانت صورة ارتقاء وصعود كان شريكي، وهو أقوى مني قليلاً وأقدر قليلاً على خفة الحركة، سوف يساعدني على أن أرفع نفسي إليه من درجة الى درجة» [2]. اما هذا الافتقار المزعوم الى الكلام، الذي تحاول أن تقيم عليه تفسيرها من جانب آخر، فليس بقادر على أن يقنعنا، ونحاجه أننا قد رأينا هذه المراهقة تعطي نفسها — دون أدنى تحفظ، وبدون أدنى خضوع مع ذلك — لحبّها لزازا.

١ — ويجب مع ذلك أن نحتفظ بنسبية هذه الظاهرة، اذ نلاحظ أن سيمون في تلك الفترة، كانت تحكم على أمها بالفعل (وتحكم على مصيرها كامرأة) منذ سنتين أو ثلاث، وأنها كانت تحس نفسها بالفعل قادرة على أن تقرر أنها لن تنجب اطفالا، وانها بازاء الله نفسه، كانت قد أظهرت، مبكرة، انشغالا بالتبادل لا يقبل التنازل.

٢ — اما الاختلاف الذي أرادت أن تضعه موضع الصدارة (بين ثبات الآخر، الذي يرى من الخارج، والتغير الذي يمر به المرء نفسه، من الداخل) فيبدو لي، مقابل ذلك، مبرراً كل التبرير في الحالة المحددة لعلاقاتها مع زازا: «كنت إلى نقطة معينة، ضحية سراب. كنت أحس بنفسي من الداخل، وكنت أراها من الخارج: لم يكن الطرفان متساويين في اللعبة. «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١١٥.

ولكن لماذا اذن كانت تطلب من شريكها في المستقبل أن يكون متفوقاً عليها ؟ لسبب أول يبدو لي واضحاً : ان سيمون التي تريد نفسها ناضجة كبيرة باعتبارها وعياً (لأن كل وعي هو للفور «حرية» أي مقدرة غير محدودة على التعدي) ما تزال تشعر من ناحية أخرى بوضعها الفعلي على شكل افتقار جذري الى قبضة على العالم . ما تزال ممارستها لحريتها تمرّ من خلال الكبار ، من خلال وعيهم الذي يملك خبرةً بالعالم ويعرف كيف يتصرف معه . ومن ثم فان الصورة التي تستدعيها للفور هي صورة متسلق الجبال الذي يصعد الجبل ، في مقدمة رفاقه المربوطين معه بحبل واحد ، فيختار ويؤكّد ويضمن مواضع القبضات التي سوف يستخدمها الآخرون بعده . وهي بهذا المعنى لا تحس نفسها أدنى بالمرّة من شريكها (فهي في مثل شجاعته ، وفي مثل قدرته على أن تصبح متسلقةً للجبال ، ولها مثل رغبته أن تصل الى القمم) ومع ذلك فانها تريد أن يرشدها ويقودها ، هو الذي قد صعد الجبل قبلها مرات عديدة . فليس موقفها اذن موقف امرأة في المستقبل معمّىً عليها مضلّلة بالوضع الأنثوي ، بل موقف مراهقة الرجل الناضج عندها بالفعل كائن متفوّق : لأنه ناضج كبير ، ثم لأنه بعدُ بعد ذلك ، بالتأكيد ، أن الرجال ، في العالم الذي بدأت تستشفه ، يملكون وسائل للفعل والعمل أكثر حسماً من الوسائل التي تملكها النساء .

يبقى مع ذلك كله سبب ثان يجب أن نستدعيه بلا شك ، اذا أردنا أن نضع موضع الاعتبار أنّ هذه الفتاة الصغيرة – فما زالت بعيدة عن أن تدخل عالم الناضجين ، اجتماعياً – هي في نفس الوقت ، منذ الآن ، امرأةٌ تقريباً : بحيث يبدو لها أن المعرفة الحقيقية التي أحست دائماً بحاجتها اليها ، لا يمكن بلوغها الا عن طريق وساطة وعيٍ ناضج ، وعي رجل . ولكن الانثوية هي بالضبط التي تنفجر عندئذ في سرّها الواعية ، باعتبارها بعداً جسمانياً ، جنسياً ، وجنسياً بمعنى الكلمة من أبعاد كيانها الانساني . والاحظ أنّ هذا الانبثاق للانثوية ، اذا كان على الفور موضع نزاع ، من اولى

ردود الفعل الأبوية ، فقد كانت قد تهيأت له ، بالرغم من ذلك ، بالحنان الرقيق العاشق الذي كانت تحسه في طفولتها الصغيرة بإزاء أمها (ثم بالاصداء اللاحقة لهذا الحنان ، على شكل حساسية مرهفة أمام السحر الأنثوي) — حتى أن فتاتنا المراهقة ، وقد اصبحت امرأة ، تجد نفسها بالفعل موزعة بين الرفض المطلق لانثويتها ، وقبولها المطلق . ولا شك أن هذا ، مضافاً الى أنها في الواقع ليست الشخص الناضج الذي تتطلب أن تكونه ، يتيح لنا أن نفهم أن سيمون دو بوفوار لم تنكر أبداً فيما بعد أعمق تطلب لها ، وأنها لم تتخذ أبداً ، بازاء الرجال ، موقفاً عدوانياً كان من شأنه أن يفضي بها الى أن تريد نفسها أكثر «رجولة» باطراد . وعلى هذا النحو وجدت نفسها ، بالاضافة الى ذلك ، مستطيعة ، اذ تدين فكرة «الاختلاف» العنصرية ادانة حاسمة ، أن تستخلص أكثر الفائدة من امكانيات الفهم والاعتراف الحقيقي التي يمكن أن تظهر ، بين الوعي الانساني والوعي الانساني ، على أساس من الأخروية (من طراز جنسي مثلاً) .

ولكن لن يدهشنا أن سيمون ، في الخامسة عشرة من عمرها وفي الظروف التي حاولت أن أبينها ، لم تعرف حق المعرفة الى أي مدى سوف ينبغي عليها أن تريد نفسها موضعاً للتعدي في داخل العلاقة المثالية التي تتصورها بين نفسها وبين زوجها ، (ذلك اذا وضعنا موضع الاعتبار أن أنثويتها التي تحسها الى حد يقل أو يزيد ، ما زالت في عينيها ، بالرغم من كل شيء ، مراً يدعو للقلق) . ومن هنا ، فيما يلوح لي ، جاء هذا الاختلاف الذي يرفض أن يكون اختلافاً ، وهذا التطلب للتبادل مع الآخر — على أساس سيطرة معينة من جانبه .

انا نرى الدور الرئيسي الذي قامت به زازا . فقد أتاحت هذه الصداقة لسيمون ، مبكراً ، أن تعرف نفسها محبة لكائن تعجب به : متجهة في الواقع الى فتاة ، في نفس عمرها ، لم تكن تبدي تفوقها الا بجرية أكبر بازاء الكبار ، فلا يحكم عليها اعجابها لا بأن تقتفي آثار أمها في خضوعها أمام

الرجل ، ولا أن تعود فتسقط ، باعتبارها غير كبيرة ، تحت السلطة العرضية للأب ، ولا أن تحتقر نفسها ، أخيراً ، بأن تعطي نفسها لشريك (اذ أن الفضيلة الجوهرية لزازا كانت تسير ، بالضبط ، في اتجاه تطلّبها هي).
الا أنه حدث لها ، في هذه النقطة الأخيرة ، أن أحست بشيء من «الاتضاع»: كانت سخرية صديقتها ، وسهولة تصرفاتها ، وخفتها ، تعطيها عن نفسها ، في مقابل ذلك ، صورةً مثيرة للسخرية لتلميذة مجدّة ، مثابرة ، متحمسة ، ومحرومة من كل حس نقديّ بازاء الآراء الجاهزة . ولكن يبدو أن ذلك نفسه كان ايجابياً ، اذ أتاح لسيمون أن تكتشف أنها لم تكن وعياً بحتاً واقعاً في مركز العالم وانه كان ينبغي حقاً أن يكون لها «وجه» ، أن تقبل بطريقة ما أن تكون موضوعاً ، تحت نظرة الشخص المحبوب .[1]

«لم تكن زازا يدور بخلدها الى أي حدٍ كنت أُجِلّها ، ولا أنني نزلت ، من أجلها ، عن كل كبرياء ...»[2] : اما بازاء جاك ، على كل حال ، فلم يكن الأمر على هذا النحو ، بالمرّة . فعندما تلتقي به من جديد (وتشاء الصدفة أن يكون ذلك تحت علامة حضور أنثويّ مستطاب الطعم ، حضور «تيتيت»: «كانت تسطع وتومض طراوة وطزاجة ، كانت لها شفتان جميلتان مكتنزتان ، وكان المرء يكاد يحس تحت جلدها بنبضات دمها») ، ويبدو أن جاك يشيح عنها متجهاً الى بضع فتياتٍ «اجتماعيات» ، ونحن نذكر أن سيمون ، عندئذ ، لم تظهر متأثرةً بذلك على الاطلاق ، اذ ترى ، بكل هدوء ، أنها افضل من أولئك «الطالبات المدرّبات كالشرطة» وأن جاك نفسه سوف يضطر يوماً الى التسليم بذلك .

---

١ – انها اذ تكتشف ذلك ، بهذا النحو ، في الحب ، سهل عليها أن تتوام معه على الصعيد العقلي في أفق للنظر ليس من شأنه أن يدهشنا . فهي تسلم بالفعل بأن هناك «كائنات موهوبة وكائنات مستحقة» ؛ ولكن اذا كانت هذه الأخيرة مدينة للأولى «بالاعجاب والولاء» فان لهم هم أن «يملكوا الكون» أن يكونوا «ذاكرته ووعيه» ، بينما لا تصل الكائنات الأولى أبداً الا أن يمثلوا فيه باعتبارهم شخصيات مرموقة .

٢ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٢٠ .

وصحيحٌ أنها في هذه اللحظة بسبيلها الى أن تستعيد ثقتها بنفسها ، على المستوى الوحيد الذي كانت تميل ، حتّى ذلك الحين ، الى أن تشك في نفسها عليه : «كان وجهه قد أخذ ينصلح حاله ، ولم يكن جسمي يضايقني . » وها هو ، بالتساوق ، تأكيد الدور الذي عزوناه الى صديقتها : «كان تفاهمي مع زازا ، وتقديرها ، يساعداني على أن أتحرر من الكبار وأن أرى نفسي بعينيّ »[1] كان أبو سيمون قد حاول ، على الجملة ، أن يكون بعيد النظر وقصير النظر بازائها في وقتٍ معاً ، ولكن بنته لم تلبث طويلاً حتى تحررت من هذا النظر المزدوج الزيغ . ها هي ذي أخيراً تصل الى أحد معابد المعرفة (مكتبة سانت جنفييف) وها هي ذي منذ الآن ، بطريقة كلّها تلقائية ، في الأيام الأولى من حياتها كطالبة ، تحيا هذا التطلّب الذي سوف تصوغه بعد ذلك بقليل على مستوى الوعي التأمليّ نفسه — أن تكون انسانية دون أن تكفّ عن كونها امرأة : «كنت البس ثوباً اسكتلندياً ، خِطْتُ حاشيته بنفسي ، ولكنه جديد ، مفصّل على مقاسي ، كان يبدو لي ، وأنا استشير الكتالوجات ، وأذهب ، وأجيء ، وأشغل نفسي ، أنني كنت ساحرة المرأى »[2] .

---

١ — «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٥٣ . ونحن نعرف أن اليزبيت مابيل ستموت بعد أربع سنوات ، وأن الفتاتين ، حتّى موتها ، لم تنقطع صداقتها العميقة ، بالرغم من بعض سوء التفاهم العابر ، الذي كان يرجع الى التوقي والخجل الذي كان يسود علاقتها . «كانت تظهر لي غالباً ما في الليل ، صفراء كل الصفرة تحت معطف وردي ، وكانت تنظر الي بعتب . كنا قد كافحنا معاً ضد القدر الكاشر عن أنيابه الذي كان يتربص بنا ، وفكرت ، فترة طويلة ، أنني دفعت ثمن حريتي بموتها» (نفس المرجع ص ٣٥٩) . وسوف تقارن سيمون على الفور ، علاقتها بسارتر بعلاقتها بزازا : «كان مثل زازا ، نداً ، وذهبنا معاً لكشف العالم» و «عنف» «غبطته الظافرة» ستصل عندئذ الى حد أن تلغي ، الى حد يقل أو يزيد ، غياب صديقتها الفجائي . «حتّى موت زازا ضاع في غيابه (غيابة علاقتها بسارتر) . كنت أبكي ، كنت أتمزق ، كنت أثور .. » «ولكن ذلك حدث فيما بعد ، على نحو مسترق خفي ، أن الحزن شق طريقه في دخيلتي» («قوة العمر» ص ٣١) .

٢ — «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٧١ .

هي في السابعة عشرة من عمرها وهي « محبة » لابن عمها جاك ، أي أنها تتعرض لأن تذرف دموع السعادة عندما تراه من جديد ، وتفكّر : « أنا أبكي ، اذن أنا أحب » . ولكنها ما زالت عنده بنت العم الصغيرة ، التافهة الى حد ما ، التي ترى نفسها مضطرة ، لكي تجلب انتباهه ، لكي تنتزع تقديره ، أن تثبت جدارتها ، على مستوى عقليّ بالطبع . وهي سرعان ما تنجح في ذلك ، ويظهر بالفعل أنه قد تأثر بذلك .

الا أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذا الجهد نفسه في سبيـــل أن تحصل على الاعتراف بها (كما كان الشأن ، تماماً ، من قبل ، في تطلّبها البسيط أن يعترف بها) يحول دون أن تتغيّر المشاعر التي تحسها بازاء الآخرين الى هوى مشبوب : «كنت أنكر الدموع التي ذرفتها في تعجّل ذات ليلة ، لا ، لم اكن أحبه ، لو كنت أحبّ ، فلم يمكن هو الذي أحبه ، ولكني كنت أطمع في صداقته . »[1] مما لم يمنعها مع ذلك أن تحس نفسها « سعيدة » حتى لتظهر بازاء زازا نفسها ، مسرفة المرح لا تكاد أقوالها أن تكون متماسكة عندما يأخذها جاك على محمل الجد بما يكفي أن يلقّنها ، حقاً ، أول دروس لها في عالم الأدب .

« لو كنت أحب ، فلم يكن هو الذي أحبه ... » كان الآخر ، ذلك الذي كانت تعتقد أنها تحبه بالأحرى في تلك اللحظة ، هو روبرت جاريك . كان مدرساً للأدب الفرنسيّ في معهد سانت ماري ، وكان بالاضافة الى ذلك مؤسس « الفرق الاجتماعية » وزعيمها الرئيسي ، وهي حركة كان ينتمي اليها جاك (وكانت حركةً « تهدف الى نشر الأدب بين الطبقات الشعبية ») . ومن ثم فقد فتنها مؤقتاً ذلك الذي كان ، في عيني جاك ، يجب أن يكون ضامناً لقيمتها . لا أنّ جاريك كان في الحقيقة فاتناً ، بل لنقل بالأحرى أنه كان ، خلال بعض الوقت ، بديل الله . كان جاك يروق

١ – نفس المرجع ص ١٨٤ .

لعينَي سيمون ، وكان يعجب بجاريك : واذن فقــد كان جاريك (بمكانة ذكائه وعمله) يشكّل عند سيمون ضمانتها في عينَي جاك ، كما كان يشكل ضمانة جاك في عينيه هو .

ولكننا في اللحظة التي يصبح فيها الأدب ، عندها ، عن طريق ابن عمها ، بديلاً للديانة . واذن فسوف تكون الكتب منذ الآن في متناول يديها باستمرار ، وواقع العالم من خلال الكتب – بشرط أنّ شخصاً « مختاراً » ، ما يتقدّم لكي يُدخلها في البُعد المقدس من أبعاد هذا الكون المشبهم . اما جاريك الذي يبدو لها حقيقاً بالاعجاب ، فيبقى « معبوداً بعيداً » ويَنزلق الى « المستوى الثاني » بينما جاك (الذي يقلق بشأن مشاكلها ، والذي يحلو الكلام ، معه ، يتخذ « أهمية أكثر فأكثر » : « وسرعان ما أدركت أنه وجد في قلبي المكان الأوّل »[1] .

وجاريك يوشك أن يصبح في غير متناولها : ففي محاضرته الأخيرة ، وخلال الأيام القليلة التي تتلو ذلك تحس « بالموت في روحها »[2] . بل غامرت بنفسها حتى « بيلفيل » ، حتى الشارع الذي يقطن فيه ، حتى الى أمام بيته ، ثم تخبو هذه الشعلة الصوفيّة – الرومانتيكيّة ، وسوف تسجّل هذه الواقعة وهي تتحوط كل الحيطة من أن تشعل جذوتها (« كان جاريك قد اختفى الى الأبد ») – أما جاك ، فعل العكس تماماً ، يظهر لها مكتوباً على نحو باقٍ في كونها هي : فهي اذن تستمر في التعلق به ، دون خور ، ولكن بطريقةٍ أهدأ كثيراً (« جاك ، كان من المؤكد أنني سألتقي به في اكتوبر ، وودعته دون حزن ») .

ومع ذلك فحذار أن نخطيء . جاك يروق في عينيها حقاً ، واذا كانت

---

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٨٤ .

٢ – « كنت أحفظ عن ظهر قلب هذا الوجه الذي كان سوف ينطفيء ، الى الأبد . ان الحضور كلي تماماً ، والغياب جذري تماماً ، وما من نقلة كانت تبدو ممكنة بينهما » (نفس المرجع ص ٢٠٣) .

تحب فيه ما يساعدها هو على أن تكتشف ، فذلك على وجه الدقة بالقدر الذي تجده فيه محبوباً . هناك « عيناه الذهبيتان ، وفمه المنهوم ، وما يبدو عليه من صحو وتيقظ » ، وهناك فوق كل شيء « هذا النور الملاطف في عينيه عندما كنت أتكلم إليه عن نفسي » . إن علاقتها بجاريك (« وله من العمر أكثر قليلاً من ثلاثين عاماً ، أشقر ، أصلع قليلاً ... وفي كلامه شبهة من لهجة أهل « أوفرني ») ترجع الى مثالية صوفية معينة ، تنقضها عندها واقعية تطلباتها ، أما علاقتها بجاك فأكثر اشتباهاً ، أكثر واقعية ، اكثر اندماجاً بوجودها هي – أقل إطلاقاً ، اذا شئت ، وبالتالي أقل تعرضا لتهديد أن تتغير فجأة الى غياب جذري . ولكنها تحس الحاجة الى هذه العلاقة ، عندئذ ، على مستوى حياتها اليومية نفسها ، فقد كانت هي العلاقة الوحيدة حتى ذلك الحين ، التي تتيح لها أن تحس نفسها معترفاً بها ، وفي الوقت نفسه ، محبوبة : كما هي على علاتها ، كما تزعم انها هي .

هل هو الحب الذي نتكلم عنه هنا ، أم الصداقة كما تختار أن تقول في معظم ملاحظاتها عن جاك ؟ لا هذا ولا ذاك ، فيما يبدو لي – ولكنه في نفس الوقت ، بلا شك ، المثول المسبق ، الاستشعار سلفاً ، الانتظار ، والمطالبة العميقة بالحب : بما سوف يجب ان يكون عليه الحب عندها . وصحيح ، بمعنى من المعاني ، أنها لا تحب ابن عمها : « كان جاك وسيماً . وسامة عقلية وجسدية ، ومع ذلك فانه لم يجعلني قط أحس بأدنى اضطراب ولا بظل الرغبة » .[1] هذه النقطة رئيسية باعتبار أنها تدل على الغياب الموقت ، عندها ، لكل حاجة محددة لأن تهب نفسها للآخر ، ومن هنا جاء ذلك الموقف الذي رأيناه ، والذي لامت سيمون نفسها عليه ، تحت أعيننا ، والذي يبدو أنها فيه لا تشارك في الاعتراف بالآخر الا مع تطلبها أن تحس نفسها ، هي ، معترفاً بها من قبل شخص له قيمته . إن ما يهمها قبل كل شيء هو خلاصها هي ، وليس الآخر هناك الا لكي يتيح لها أن تصل إليه .

---

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢٠٨ .

وبعبارة أخرى ، فان الآخر ليس ، بعد ، على نحو ما ، الا ّ بديلاً لله («كانت المشاعر التي أحسّها له تتجه الى مَلاك ») والاتحاد الذي تتصوّره معه ينتمي الى نمط صوفيّ : «كنت إذ أحب جاك ، أفكر أنني أتمّم قدري ... كانت هذه الأنشودة مكتوبةً في السماء .. واذا آمنت بقدريتها ، فلذلك أنني ، دون أن أعبر عن ذلك لنفسي بوضوح ، كنت ارى فيها الحلّ المثالي لكلّ صعوباتي ... » .

ان سيمون بحاجة الا ّ تحس نفسها بعد في المنفى ، أن تتصالح مع الآخرين ، ويبدو لها أن هذه المصالحة يمكن أن تمرّ عن طريق ابن عمها جاك : «كنت أفكرّ «نحن الاثنين» كما كنت اتمتم فيما مضى «نحن الأربعة» ... ، وكان أهلي قد رقّت حاسيتهم لي ، كنت أعود من جديد تلك التي يحبها الناس جميعاً ... هكذا صنعت خلاصي في سلام القلب لا في التمزّق . » واذا كانت هذه الجملة الأخيرة تبدو لي حاسمةً على نحو مطلق ، فذلك أنها تؤكّد بقوة — منذ هذه اللحظة التي لم تتأدّ فيها سيمون مع ذلك الى أن تحيا في جسدها موهبة ذاتها — ذلك الدياليكتيك الذي سوف يظل عندها جوهرياً : بين الحب والحرية ، بين الحاجة الى الاحساس بنفسها محبوبة ورفض الاغتراب من جراء ذلك . ذلك ان سيمون دو بوفوار ، لأنها خبرت في وقت مبكر جداً ، وفي نفس الوقت تقريباً ، حنان الغير والتمرد على الاعتساف ، لأنها ظهرت قادرةً منذ صغرها أن تؤكد ، في كل مناسبة ، هذا التطلّب المزدوج ، قد استطاعت بعد ذلك بكل تلك السلطة الخارقة ، أن تدين موقف الرجال من النساء ، وأن تحيا ، مع رجل ، ذلك الاتحاد المتسّق الذي يستديم ، تحت أعيننا ، منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، حيث أكبر الحرية فيه تُكسب الرقة والحنوّ ، يوماً بعد يوم ، كلّ عمقها .

كانت تعد نفسها ، وهي في الثامنة عشرة من عمرها : «لن أتنازل عن شيء » : «لم تكن السعادة بالقرب من جاك لتصبح نوماً ، أبداً » ؛ كانت

أيامنا سوف تتكرر ، في رقة وحنوّ ، ولكننا كنّا ، يوماً بعد يوم ، سوف نتابع بحثنا ، كنا سوف نتوه جنباً الى جنب ، دون أن نضلّ طريقنا أبداً ، إذ يُوحّدنا قلقنا ... » . وهي لم تتنازل عن شيء بالفعل ، عندما أصبحت امرأة ، ولكنها استطاعت أن تترك هذا التطلّب للسعادة الذي جعلته سعادة طفولتها يضرب بجذور في أعماقها ، يعبّر عن نفسه ملء التعبير — وأن تقوم ، على ذلك النحو ، في العالم ، بعملٍ أكثر واقعية من هذا القلق ، وهذا البحث المتلمّس الذي تصورت نفسها قد انتهت إليه ، سلفاً ، في قمة أزمتها . ذلك أن سيمون ، عندئذ ، « شقية » وذلك هو الذي يحول دونها وأن تحبّ ، في نهاية الأمر . ونحن نعرف أنها تحس السأم ، اذ لا تستشف بعد كيف يمكن لها أن تتصرف لكي تواجه أخيراً هذا العالم الواقعيّ ، في سيادة وعيها هي . وتحس بنفسها وحيدة وحدةً عميقة ، ولكنها مع ذلك لا تطيق بعد صحبة الكبار . وهي تأخذ في اكتشاف جوانب معينة من أكثر جوانب الوضع الانساني مدعاةً للأسى [1] . وأنا أميل كل الميل أن أجد في ذلك المعنى الحقيقيّ لهذا الاستبهام الغريب الذي يظل مخيّماً على مشاعرها بازاء جاك . ذلك أن هذه الفتاة الصغيرة ، في النهاية ، ناضجة جسمانياً ، لقد عرفت من قبل اضطرابات جسدية معينة ، وهي أحياناً قادرة على أن تحب صورتَها هي ، ولم ينقطع ابن عمها عن أن يبدو لها تحت أكبر المظاهر فتنة (وهي أكثر المظاهر مدعاةً للاطمئنان أيضاً ، نتيجةً للانثوية النسبية التي يتسم بها سحره) . وفي مثل هذه الظروف لا يمكن أن نكتفي بالقول أنّ سيمون لا تحس أية رغبة بازاء جاك : [2] وينبغي بلا شك أن

---

١ — في « لورد » مثلا : « أصبت بصدمة . المحتضرون ، والعجزة ، والمتورمون : أمام هذا الموكب البشع ، وعيت بقسوة ، أن العالم ليس حالة من حالات الروح . كان الناس أجسام ، وكانوا يقاسون ويتألمون ، في أجسامهم ... لم يكن هناك شيء حقيقي الا هذا البؤس المعتّم .. » (« مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢٠٥) .

٢ — وأن نفسر ذلك بالاشارة مثلا الى الضغط المستمر الذي كانت يبثها المباشرة تمارسه على الفتى والفتاة : « لم تنقطع العائلة قط عن أن تسبغ نفسها علينا ، سواء كانت معادية لنا أو راضية » .

نضيف أنها تحتاط كل الحيطة من أن تحس بمثل تلك الرغبة ، وأنها اختارت ألا تحس بها – بقدر ما تستطيع ذلك حقاً ، معه . «ربما كنت مخطئة ، عندما كتبت بشيء من الدهشة في مذكراتي أنه (جاك) لو أتى بحركة تنمّ عن الحنان والرقة ، لتقبّض وانسحب شيء ما في دخيلتي : ذلك يعني أني على الأقل في خيالي كنت أقف على مبعدة . » ولنشرح هذه الكلمات الأخيرة : ان ذلك معناه ، في نفس الوقت ، أنها كانت كبيرة ناضجة الى الحدّ الذي تفكر في ذلك ، وأنها تفضل مع ذلك لو أن ذلك لم يكن قد حدث [1] .

ومهما كانت سيمون تتصور نفسها ، في تلك الفترة من الأزمة ، شقية ، فانها تصرّ مع ذلك على أن تريد السعادة ، بحركتها هي . هناك البؤس الانساني ، هذا صحيح ، ولكنه مع ذلك «معتم» ، حقاً في عينيها ، لا يكاد يُفهم : «انغمستُ بضعة أيام في الهول ، ثم استأنفت خيط همومي من حيث انقطع » وجاك ، على وجه الدقة ، يشغل الصدارة في المشهد ، من هذه الناحية : «هو وحده كان يستطيع أن يساعدني » – «كان أملي الوحيد » . وانظر كيف هي مستعدة بالفعل ، لأن تتلقى مساعدته ، وكيف بقيت فضيلة حماستها كاملة لم يعتورها نقص في قلب وحدتها . وهي تلتقي بجاك عند العودة من العطلة ، ويُقرئها خطاباً لم يكن قد جرؤ على ارساله لها ، ينتهي بهذه الكلمات : «هل تحبين أن تجعلي مني صديقاً لك ؟ » : «أشرقت في قلبي شمس هائلة » . ولكن جاك ، للأسف يأخذ في الكلام : «وخيّم الغسق » . حتى ذلك الحين كانت سيمون قد أمكن لها أن تعتقد أن علاقاتها به كانت تعاني من أنه لا يهتم بها بما فيه الكفاية : لكنها تكتشف عندئذ أنهما محكوم عليهما ، بطريقة ما ، في حدود أنه لا يستطيع حتى أن يهتم حقاً

---

١ – سوف نعود عما قليل الى ما ينطوي عليه هذا الموقف ، عندما نتناول ، بطريقة مباشرة اكثر ، العلاقة بالذات عند سيمون دوبوفوار ، على مستوى الجسم ، والجنس ، والأنثوية . (الجزء الثالث ، الفصل الأول) .

بوجوده هو . « لن أحب أبداً أحداً غيره ، ولكن الحب بيننا مستحيل » ، كما تكتب في يومياتها الخاصة.[1] ذلك أن المرء في عينيها ، لا يمكن أن يحب عندما لا يكون سعيداً : وجاك لا يحبها ، اذ أنه يعيش ، كما هو واضح ، في جدب وضمور . اذ أنه قد اتخذ لنفسه أسلوباً أن يكون ، قبل الأوان ، ضجراً لا يهزّه شيء ، وأنّ خفته السهلة لا تمنعه من أن يحتقر نفسه ، من ألا يعرف بعد « ماذا يفعل بنفسه » . وما دام لا يحبها ، فانه لا يستطيع الا أن يردّها هي الى قلقها . فيحول دونها ، بدورها ، وأن تحبّ حقاً . ذلك ما كانت قد استشعرته سلفاً عندما أبت على نفسها ، قبل ذلك بقليل ، أن تفصل السعادة عن الحب وعن الصداقة وعن الرقة والحنان . ولكنها لما لم تكن قد التزمت (بازاء نفسها) بمشروع الحياة مع جاك ، فقد اقتصرت عندئذ على أن تدين تطلبها هي أن تكون سعيدة : « قررت قانوناً أن كل سعادة في حدّ ذاتها هي سقوط . كيف أوفق بينها وبين القلق ؟ » اما الآن ، فانها تدين الحب ، حتى لا يكون عليها أن تنكر « التزامها » : « يستحيل التوفيق بين الحب والقلق » ؛ « سنحيا معه . سيكونان قلقين معاً . (« وكان سوف يتعين عليّ أن أتبعه في طرقه الخشنة الوعرة ») ولكنهما لن يتحابا ، ولن يجعلها سعيدة : « كانت الاسباب التي من أجلها أربط بين مصيري ومصيره ، تستبعد أن يأتي اليّ بالسعادة » .

كانت سيمون ما تزال غارقة حتى العنق في لامعنى عالم يثيرها في أكثر من ناحية ، ويستعصي عليها ، وهي تجد عندئذ ، في حاجتها الى جاك (وكذلك في الشفقة الرقيقة التي يُوحي بها إليها بأسه المرير وتقلّبه معاً) نوعاً من الدعوة الى الكرم المريب ، والى التسليم : « كنت أتردى في هوة التخلّي . » ولن يكون علينا ، فيما بعد ، أن نتلبث طويلاً عند الطريقة التي استطاعت بها سيمون دو بوفوار أن تحيا الحب طوال حياتها . ذلك أن الجوهريّ في موقفها من هذه الناحية ، سوف يتحدد – على طريق الاثبات بالنقيض – في هذه

---

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢١١ .

السطور القليلة التي لم تلبث تطور علاقتها بجاك في السنوات الثلاث التالية أن أظهرت مضمونها : « من المستحيل أن أطيق أن أخرى ستكون زوجته : ومع ذلك فقد اكتشفت أن فكرة الزواج به تنفرني ... لم أكن أريد فيه بعد خلاصي ، بل ضياعي .. كانت فكرة حب نتقاسمه تثلجني . واذا اغفت الحاجة التي أحسها إليه ، كنت أحس نفسي أقل قدراً ، ولكني كتبت الآن : « إنني بحاجة اليه ، لا إلى أن أراه . » كانت محادثاتنا بدلاً من أن تبعث فيّ حياة ونشاطاً ، تصيبني بالعجز والخور ... »[1]

ومن هنا فلم يكن الأمر عندها الا صراعاً بين ولاءين : أحدهما ولاء لما هي عليه بالفعل ، والآخر ولاء لما تريد أن تكون ، ونحن نعرفها الآن بما يكفي لأن نتوقع أن الولاء الثاني هو الذي سوف ينتصر . ولكن هذا الفتى « الساحر ، الفاتن » الذي « تفطنه .. النعمة والرشاقة » قد فتنت به سيمون بالرغم من كل شيء على نحو دام طويلاً . لا شك أنها كانت بحاجة اليه طالما كان هو الاحيد ، في بيئتها ، الذي يمكن أن تعترف له بشيء يمت بصلة القربى ، من بعيد ، بالاعتراف الذي كانت تتطلبه هي من الآخرين ، لكن ذلك لا يكفي بالضرورة لتفسير أنها كتبت مثلاً في يومياتها الخاصة : « أحبه .. أحبه بجنون » . وما نستطيع أن نحتفظ به ، على الأقل ، عن هذا الحوار (الذي استمر في دخيلتها تقريباً حتى اللحظة التي أدركت فيها سن النضوج) ، هو ان سيمون كانت ، منذ الآن ، امرأة بما فيه الكفاية ، وانها أرادت لنفسها ، منذ الآن ، أن تكون إنسانية بما فيه الكفاية ، حتى تبلغ من ذلك « أن يثلجها الأمر ، بازاء الكائن المحبوب » منذ أنها كانت تستشف فيه لا قوة تساعدها على أن تصنع نفسها ، بل نوعاً من الضعف الطغياني ، تفوقاً زائفاً متقلب النزوات سوف ينبغي عليها أن تضحي له « بقيمتها » ، و « أمانيها الشخصية » وحاجتها المطلقة إلى أن تتصور نفسها

---

١ - « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢١٢ - ٣١٣ (والكلمتان « إليه » و « أن أراه » تضع تحتها سيمون دهبوفوار خطا لتؤكدها ، في يومياتها الخاصة .)

سيدة نفسها ، الى أن « تخترق »[١] ، أن تكون دون توقف في صعود منطلق . « أما أنا فقد كنت أبحث عن تعدٍ ، عن تسام » . اما جاك فيبدو أنه استطاع الاكتفاء بممارسة حرية غير ثابتة القوام ، على شكل ضروب من « الفوضى » في داخل نظامٍ إجتماعي يحرص فيه من ناحية أخرى على أن يلعب بالضبط دور « شخصيته كصاحب عمل فنّي ، ورب عائلة » . وعلى هذا النحو سوف يجب على سيمون أن تأخذ في أن تحسّ له بالاحتقار حتى لا يكون عليها أن تحتقر نفسها : « لن أستطيع أبداً أن أرضى بما كان يُرضيه »[٢] .

نحن نعرف أن معظم الفتيات الصغيرات يسرفن في مثل هذه الدعاوى ، منذ عامهن السادس عشر أو السابع عشر ؛ ونعرف أيضاً ماذا يحدث لهذه الضلالات الخاصة ، وهذا الزيغ عن الجادّة ، في أغلب الأحيان ، تحت ضغط التزام الأصول والمواضعات الاجتماعية التي تجهد العائلات الحريصة ، عادةً ، على تقويتها عند بناتها . على هذا النحو تتشكل النساء ، في أيامنا وفيما مضى على السواء : باللعب على هذا الكرم المعمّى عليه الذي يحفز العبد أن يُخلص الولاء لسيده ، والأجير لصاحب عمله ، والمخلوق لالهه ، إذ يبدو لهم أن المُسيطر يهيب بهم بينما هو يحتفظ بقوّته المسيطرة عليهم . الا أن القلق الذي يجيش في صدر جاك ليس هو القلق الذي يجيش في صدر سيمون . كان اهتمامه بها ، وما استطاع أن يقدمه اليها من مساعدة ، كانا

---

١ – وهذا هو ما تعجب به عند جاريك أكثر ما تعجب به : « كان حراً ، كان يتصرف ، من الصباح حتى المساء ، ويعمل ويوضح ، ويخترق » . وسوف نلاحظ عابرين ، الطريقة التي تفسر بها لنفسها هذه الفضيلة التي تعترف له بها : « كان قد وجد طريقه ، لا بيت ، لا مهنة ، لا روتين ؛ ليست في أيامه أية نفايات : كان وحده .. الخ » (« مذكرات فتاة مستقيمة ص ١٩٦).

٢ – في نحو هذه الفترة نفسها ، كتبت : « انني عندما أحبه أكثر الحب أمقت ، أكثر ، هذا الحب الذي أكنه له » . وتعلق كاتبتنا : « كنت أخشى أن تجرني هذه الرقة إلى أصبح امرأته ، وكنت أرفض ، بشراسة ، الحياة التي كانت تنتظر مدام ليجيون المستقبلة » . (نفس المرجع ص ٢٣١) .

دائماً أكثر ما يمكن أن يكونا تقلباً وتذبذباً ، لم يتعلق بها قط كما لا تزال متعلقة به ، وهي تعاني من ذلك يوماً بعد يوم ، ولكنها مجردة من كل أداة ومن كل عُدّة (مضطرة الى الفرار من والدنيا ، وغير مستطيعة بعد أنّ تستند الى العالم) الى حد أنّ الأمر يصل الى أن تشكره على هذا العذاب ، وأنه تكفيها ، هنا وهناك ، ابتسامة ، أو نظرة ، أو نغمة في الصوت ، حتى تفكر أنها مدينة لنفسها أن تقاسمه صراعاً لا يتصور ، حتى ، أن يخوضه ... «كم كنت ممتنة لحاك لتراوحه بين الشك واليقين ! كنت أريد أن أساعده كما ساعدني . وكنت أحس نفسي مرتبطة به ، بأكثر من ماضينا ، بنوع من الحلف يجعل «خلاصه » أكثر ضرورة لي ، من خلاصي »[1] .

فلنتفحص ، الآن ، قليلاً هذه الهبة للذات ، هذه «التقدمة للنفس قرباناً » - ولنفهم كيف يحدث أن كل هذا العدد الكبير من الفتيات الصغيرات يجدن أنفسهن متزوجات دون أن يكنّ قد شرعن في الوجود بذواتهن ، ويتعرضن بذلك لخطر أن يحبسن أنفسهن نهائياً في الوضع الأنثويّ ، أن يبقين «نساء » في نظر أنفسهن وفي رؤوس الرجال ، ألا يصبحن أبداً نساء حقاً : «إن السبب الرئيسيّ في مثابرتي المستميتة ، هي أنّ حياتي ، في خارج هذا الحب ، كانت تبدو لي خاوية عقيمة الى حد يدعو لليأس ، لم يكن جاك لي جاك ، ولكنه ، من بعيد ، كان يصبح كل شيء : كل ما لم أكن أملكه . كنت مدينة له ببهجات ، وآلام كان عُنفها وحده يخلّصني من السأم القحل الجدب الذي كنت أغوص فيه » ان «الجنس الثاني » كلّه ، في هذه العبارة ، وقد تقصينا جذور ذلك كله ، تماماً ، من قبل ، فلم يعد أمامنا الا القليل مما يمكن أن نقول .

اما فيما يتعلق بجاك ، على كل حال ، فالمسألة مفروغ منها . لا تهمّ التقلبات والتذبذبات الوسط : أما المرحلة النهائية للعلاقات بين سيمون وابن

---

[1] - « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢١٨ .

عمها فلن تكون الا النتيجة المنطقية لصراع لم تقف فيه سيمون في معارضة أحد الا نفسها ، بين تطلّب كينونتها ووضعها الفعليّ . ولا بد أن هذا الوضع كان ينوء بها ، بثقله الرازح ، اذ أن كاتبتنا عندما تستدعي الأيام الأخيرة لهذا القران الوهميّ ، تستطيع بعد أن تكتب : «كان الماضي يمسك بي : كنت قد تمنيت كثيراً ، ومنذ زمن طويل ، أن أحمله كاملاً معي ، الى المستقبل ! » . الكرم نفسه ما يزال هنا ، ما يزال مضللاً معمىً عليه في حدود أن موضوع هذا الكرم لن يهمّ بالمرة بأن يردّ كرماً بكرم : تجد سيمون ، مثلاً ، أن تقابل في هدوء معرفتها بعلاقة نسائية أقامها جاك ، اذ تقتصر على أنها بالرغم من كل شيء الفُضْلى بذاتها ، ذلك أنه عرف كيف يقول لها إنه لا يقدر النساء ، وأنها كانت عنده «شيئاً آخر غير مجرد امرأة» ... ومع ذلك فانها تستأنف تفكيرها فيه «باشمئزاز» ، وتنكر حزنها («لم يكن لجاك ، في نهاية الأمر ، أهمية أكبر من أشجار هذه الحديقة») ، وأن تعي أنه ليس هناك أدنى سبب أن تؤثره ، ما دام يشبه الجميع ، وما دامت تعرف حقّ المعرفة أنه «في عدد كبير من النقط ، أقل من الكثيرين» : «انتهى التسامح الى لامبالاة .» واذ تكتشف أخيراً أنها ليست بالنسبة اليه بعد وضع كل شيء موضع الاعتبار ، إلاّ واحدة من بين الأخريات ، تراها تذهب الى حد أن تقول لنفسها إنها «ربما كان من فائدتها أن تنتهي من هذه الحكاية القديمة وأن تبدأ من جديد شيئاً مختلفاً كل الاختلاف» : «لم أكن أرغب بعد ، بصراحة ، مثل هذا التجديد ، ولكنه كان يغريني . قررت على كل حال أنني لكي أحيا ، وأكتب ، وأكون سيدة ، أستطيع الاستغناء عن جاك تماماً»[١].

---

١ - «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٣١٨ - ٣١٩ . لن يلبث جاك طويلا حتى يتزوج فتاة لها دوطة كبيرة ، وأن يبددها ، في نفس الوقت الذي يضيع فيه المصنع القديم ، وأن يصنع خمسة أو ستة أطفال ، وأن يجد نفسه في الشارع ، تقريباً . ومات في السادسة والأربعين ، من البؤس الجسماني البحت » كانت بنت عمه قد زارته قبل ذلك بعام واحد . لأول مرة منذ عشرين عاماً .

ويتفق على سبيل الصدفة المُعجِبة، أنها كانت قد ارتبطت منذ قليل بصداقةٍ مع أندريه هيربو –وهو بدوره صديقٌ لسارتر ونيزان، وهو فوق ذلك يذكّرها بجاك: «هو أيضاً، كان يحل غالباً ابتسامة محل عبارة، وكان يبدو أنه يعيش في مكان آخر غير الكتب»[1]، وتكتب، في نفس المساء أنّ عنده «نوعاً من الذكاء يستأثر بقلبي ...».

مهما كانت سيمون تعرف أنها سريعة التحمس والاندفاع «ويبقى أن يتلاشى السحر سراعاً»، فانها «تندهش مع ذلك لعنف الشغَف الذي يستبدّ بها بازائه» – الى حد أن تتساءل في يومياتها عما اذا كانت، بلقائها بهيربو، لم تكن بطريقة ما قد التقت بنفسها: «لماذا أنا مضطربه كأنّ شيئاً ما قد حدث لي حقاً؟»، وكاتبتنا عندما تعيد قراءة هذا السطور التي ترجع الى عامها الحادي والعشرين، وتعطيها لنا لكي نقرأها، توحي، بشيءٍ من المكر، أنه قد حدث لها بالفعل شيء ما، («قرّر بشكل مباشر، كلّ مجرى حياتي») ولكنها لم تدرك ذلك الا بعد قليل: ومفهومٌ أن ذلك هو لقاؤها بسارتر نفسه. ولكن كل ما تستطيع أن تقول عنه، في نهاية الأمر، عندئذ، أنه في «الايكول النورمال»، وأنه ينتمي الى «قبيلةٍ» صغيرة جداً مغلقة كل الاغلاق، وأنها شخصياً – اذ تراه من بعيد – لا تأخذ عليه أي شيءٍ خطير: «لم يكن شكل سارتر سيئاً، ولكن كان يقال إنّه أفظع الثلاثةً، وكانوا يتهمونه حتى، بأنه يسكر». فلنحلم قليلاً حول هذه الومضة الغريبة، حول هذه المقدّمة المليئة بالسخرية، التي سبقت الفجر الباذخ، ذلك الفجر الذي سوف تجد السماء البوفوارية من لحظة الى لحظة، أنه قد غزاها الى الأبد. فلنحلم حول مثل هذه المعجزة التي تتهيأ هنا، حول هذه البدايات الغامضة لحبٍ أصبح شهيراً شهرة مزدوجة، ولكن لا يدعنا ذلك أن نبتعد عن هذه الواقعة البسيطة: ان سيمون في ذلك

---

١ – نفس المرجع ص ٣١١. هيربو، كما نذكر، هو الذي لقبها «بالقندس».

اليوم ، تعترف لنفسها بأنها قد اضطربت اضطراباً عميقاً بلقائها مع هيربو ، بينما لم يزل سارتر عندها الا شكلاً فيه شيء كثير من التجريد .

وقد رأينا أن صديقها الجديد يذكرها بجاك : على أنه يصح أن نحدد هنا أنه لا يذكرها به الا لكي يتغاير عنه ، على الفور ، في نقطة رئيسية . يظهر هيربو ، دفعة واحدة ، رجلاً حقيقياً ، من لحم وعظم ، ان له جسماً ، ولم يكن في وجه جاك ، بالتأكيد «شيء ملائكي ، ولكن فيه نوعاً من الثلجية البورجوازية التي تخفي جنسيته القائمة» . لست أود أن أبحث عن أوجه اللجج في الخصام مع كاتبتنا ، حول نقطة من هذا القبيل : وانما أود أن الاحظ فقط ، أن بنت العم الصغيرة قد أظهرت نفسها متأثرة ، فيما مضى ، وفي مناسبات كثيرة ، بهذه الحسية ، على الرغم من كل شيء . ولعله ينبغي أن نعطي أهمية اكبر لتلك الملاحظة الأخرى التي تقول إن سيمون ، «وقد تعبت من الملائكية ، قد ابتهجت من أن هيربو يعاملها هي «كما عاملها متيقا وحدها – باعتبارها مخلوقة أرضية» . ان عودة وجيزة الى الوراء سوف تتيح لنا أن نُقدّر الى أي مدى تستأثر هذه الذكرى الأخرى بقلب سيمون أكثر مما تستأثر به ذكرى ابن عمها .

ستيفا طالبة بولندية في ميعة شبابها لقيتها سيمون في العام السابق ، أثناء العطلة التي أمضتها سيمون مع زازا : «وجدتها ساحرة ... كان لها شعر أشقر جميل ، وعينان زرقاوان واهتان فاترتان وضاحكتان معاً ، وفم مزدهر متفتق ، وفتنة غريبة غير مألوفة لم يكن عندي من الجرأة عندئذ ما يجعلني أطلق عليها اسمها : الجاذبية الجنسية . كان ثوبها المتبحّر الشفاف يكشف عن كتفين شهيتين ...» أو «كنت أطيب نفساً معها . كنت أحبّ رقة باقتها الفرو ، وقلنسواتها الصغار ، وفساتينها ، وعطرها ، والهديل في صوتها ، وحركاتها الملاطفة المداعبة . كانت في علاقاتي مع اصدقائي – زازا ، وجاك ، وبراديل – صرامة بالغة دائماً . كانت ستيفا تأخذ بذراعي في الشارع ، وفي السينما كانت تضع يدها في يدي بنعومة وكانت تقبّلني

سواء قلت نعم أو قلت لا . »[١] – وبالمثل اتجه هيربو إلى سيمون كلها – لا الى روحها : «كان يضحك لي في وجهي ، ويضع يده على ذراعي ، وكان يتهددني باصبعه وهو يناديني « يا صديقتي المسكينة ! » ؛ وكان يبدي عن شخصي طائفة من التأملات ، لطيفة أو ساخرة ، دائماً غير منتظرة » . وبعبارة مجملة ، تحس سيمون نفسها امرأة منذ بعض الوقت ، ولكن الوقت يفوت وهي لا تتأكد من ذلك ، من نظرات الرجال . يكلمها هيربو عن طريقتها في المشي (« سريعه ») ، وفي الكلام (« صوتك المبحوح الغريب ») : وهي تكتشف أن لها طريقة في السير ، وصوتاً ، وتعنى بزينتها ، ويطربها على ذلك ، وتعترف له بخوفها من أنها « ليست أنثوية جداً » ؛ فيجيبها ضاحكاً : « أنت ؟ » – « بطريقة تملقتني كثيراً » ... «كنت مسرورة معه ، يزداد سروري معه يوماً بعد يوم ، وكان المستطاب في ذلك أنني ، من خلاله كنت مسرورة بنفسي . »[٢]

والى ذلك ينبغي أن نضيف أن هيربو يمثل في عيني سيمون هذه الميزة الأخرى الحاسمة : أنه يريد ، كما تريد هي ، أن يبني لنفسه ، خارج الإطارات القديمة ، حياة فيها الكبرياء ، والبهجة ، والتأمل – أي أنه ، اذ يأخذ الوجود على محمل الجد ، لا يفعل ذلك بازاء نفسه ، بل يتصرف في كل مناسبة بأكثر الطرق حيوية ونشاطاً ومرحاً : « إن مما لا يقاوم فيه ، الى آخر حد ، ضحكه : عندما كانت ضحكته تنفجر ، كان يبدو لي كل شيء جديداً ، مدهشاً ، لذيذاً . »

ومع ذلك فان هيربو متزوج ، وهو ، في الثلاثي الذي يشكله مع سارتر ونيزان ، يرتبط بسارتر أساساً : وسوف يزل اليه عن مكانه وشيكاً ، مهما كانت صداقته لسيمون صداقة غيوراً .. ذلك أنه قد

١ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢٧٥ و ٢٨٤ .
٢ – « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٣٢٢ .

تجمعت كل الشروط أخيراً. هذه المرّة. لقد شرعت في التغلب على علاقاتها الأصلية بأبيها وأمها، بطريقةٍ أفضل وأفضل، من خلال جاك، وزازا، أو ستيفا، ثم بفضل صداقتها مع هيربو: أي أنها تغلبت على حاجتها المركّبة الى أن تتوحد آناً مع «رجولتها» هي، وآناً آخر مع «أنثويّتها» هي، أن تتوحد حيناً مع سيادة الروح وحيناً آخر مع عرضية الجسد، مع الميل الى السيطرة آناً، وآناً آخر مع ميلها الى الهبة الكلية للذات. لقد صارت قادرة على أن تناصب نفسها النزاع دون أن تضحي بنفسها، على أن تريد ذاتها دون أن ترفض نفسها على الغير. انها تكتشف نفسها امرأة ولا تكف مع ذلك عن أن ترى نفسها معترفاً بها كوعيٍ منفصل كامل. إنها سعيدة، إنها تعقد أواصرها مع المرح من جديد، إنها تهتز فرحاً وجذلاً، إنها تتفجر بهجة واستبشاراً: إنها على استعداد لأن تحبّ. «هذه المرة، كانت الحياة تتفتح حقاً.»[1]

هناك بالتأكيد ما يمكن أن يكوّن دراسة مرموقة، من كل ما تقول لنا سيمون دو بوفوار عن جان بول سارتر، وليس ذلك ما أقصد إليه هنا. إنّ سارتر قد قال «الجحيم هـو الآخرون»: ولكن الآخر، عندها، كان هو النعمة، في ذلك الحين. نعمة ايجابية، وليس مجرد هذا المظهر للنعمة، هذا الوهم (الجمال الفيزيقي مثلاً) الذي من شأنه أن يفتتن المرء بكيانٍ يظلّ، من ثمّ، غريباً عليك الى حد ما: «كان قد أتيح لي أن أوهبَ حظاً عظيماً: وفجأة، لم أعد وحيدة. حتى ذلك الحين كان الرجال الذين تعلقت بهم — جاك، وهيربو الى حد أقل — من فصيلة أخرى غيري: كانوا يتصفون بالسهولة والخفة في الحركة والكلام، أميل الى التفلّت والشرود، يجنحون الى قليلٍ من تفكك

١ — ونضيف أن سيمون لم تكن تقدر مقدراته الفلسفية بالمعنى الدقيق للكلمة، تقديراً كبيراً، وأنه سوف يختفي فجأة من أفقها بعد أن يخفق في امتحان «الأجريجاسيون» التحريري، بينما تنجح سيمون في نفس الوقت مع سارتر ونيزان.

التماسك والحذر ، يتميزون بنوع من الرشاقة المشؤومة ، كان من المستحيل التواصل معهم دون تحفظ . أما سارتر فقد كان يلبي بالضبط أمنيتي الخامسة عشرة من عمري : كان هو الكائن المزدوج بي الذي وجدت فيه كل ضروب جنوني ، محتدمة الى حد التوهج المضطرم . كنت سوف استطيع أن أتقاسم كل شيء ، دائماً معه . عندما تركته في أوائل ابريل ، كنت أعرف أكثر من أي وقت مضى أنه لن يخرج أبداً من حياتي »[١] .

إن « حظاً » يدوم أكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، يصير وجوداً : وعندما يتطوي على الحب المعاش ، فان الناقد ، مهما كان ميله الى التأصيل والتفسير ، لا يملك الا أن يسترق نظرة مختلسة الى عدّته وأدواته ، فيجدها حقاً أدوات قاصرة غليظة لا تفي بالكثير . ومع ذلك فلست أزعم أنني أتجاهل أن سيمون دو بوفوار قد حرصت ، فيما حرصت عليه ، أن تعلن عن تصورها للحب ؛ وأن هذا التصور لا يمكن الا أن يمت بصلة بتحليلاتها العميقة للوضع الأنثوي . وإذن فسوف اتناول ذلك هنا ، ولكن بأوجز ما يمكن : وسوف أعطي سببين جوهريين لانحيازي الى هذه الوجهة .

أولهما أنه يلوح لي أن هذا الحب يعرفه كل القراء من خلال أعمالها بالتأكيد ، ولكن من خلال معلومات لا حصر لها حصل عليها القراء من نواح أخرى — فيما يتعلق بحياة نالت من الشهرة ما يكفي لأن يتغلب واقعها نفسه ، في أعينهم ، على الحقائق المغلوطة والتفسيرات المنطوية على سوء النية التي حاول الناس كثيراً أن يسبغوها عليها . ان هذا القران ، بعبارة موجزة ، يبدو لي ناجحاً يؤكده أن الأمر يتعلق بكائنين كانا يملكان ، من وقت مبكر جداً ، كل الوسائل (المعنوية والمادية) التي تتيح لهما على أيسر نحو أن يبتعدا عن أحدهما الآخر لو تخايلت لهما في ذلك رغبة ، وأنه لم تعوزهما المناسبات ، فيما يبدو ، على الاطلاق ، لا من جانب ولا من الجانب الآخر ...

١ — « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٣٤٤ .

والسبب الثاني هو أنني أعترف بأنني آخذ على محمل الجدّ يقين سيمون دو بوفوار ، هذا اليقين العنيف الذي شهدت به على الفور ، من أن علاقتها بسارتر علاقة دائمة : لا لأنها تعبّر عنه بقوةٍ كبيرة (فقد رأيناها من قبل «تحكي لنفسها حكايات ») ولكن لأنها تعبر عنه في لحظةٍ من حياتها تصبح فيها بالفعل قادرة على مثل هذا اللقاء ، قادرة على أن تحيّاه وأن تستخلص منه خير ما فيه . أقصد الى القول بأنه من هنا كانت أوّل محاولاتها للاتحاد مُتاحاً لها حظّ البقاء والدوام ، ولكن بشرط أن يلبي حقاً امنياتها الصارمة التي لم تنقطع عن أن تحدد معناها واتجاهها ، من عامٍ الى عام ، على الرغم من الظروف المتعددة المعادية لها والمتباينة العداء . وبعبارة أخرى ، لو أن سارتر لم يكن هو الرجل الذي يتفق مع الوضع ، لما لبثت سيمون طويلاً حتى تدرك ذلك .

وذلك بالضبط هو ما يهمني ، أكثر ما يهمني ، في هذا الحبّ : أنّه حتى قبل أن يولد ، كان قد أُريدَ، طويلاً . « كان من الممكن الاّ أجد هذا التوافق الكامل مع أي أحد ؛ ولكن عندما أعطيت حظّي ، انتهزتُه بكل هذا التعجّل ، وهذه المثابرة والاصرار ، ذلك أنه كان يلبّي نداءً قديماً جداً . »[1]

على أنّه من المسلم به أن سيمون ، في شبابها ، لم تكن تستطيع أن تخترع لهذا الحبّ مضمونه المحدد سلفاً . كان الجوهريّ عندئذ في عينيها هو «أن تعرف تفاهماً جذرياً مع أحدٍ ما » : والتفاهم ، مهما تصوّره المرء جذرياً ، لا يمكن مع ذلك أن يصبح حقيقياً الا بثمن أن يعاش ، أن يتحدد بحدود وجود عمليّ . ومن الحق أن سارتر والقندس كليهما ، كانا يبحثان دون تحفظ عن «نوع من الخلاص » : «كنا صوفيّين »[2] ولكن رسالتيْهما في الحياة من ناحية لم تكونا متطابقتين تماماً » (كان سارتر يضع القيمة العليا في الأدب

---

١ – « قوة العمر » ص ٣١ .

٢ – نفس المرجع ص ٣٠ كلمة « الخلاص » تؤكدها الكاتبة .

بينما كانت القندس تضعها ، بالأحرى ، في الحياة) ، ومن ناحية أخرى لم يكن هذان الصوفيّان من الملائكة . ومن هنا جاء الحلف المزدوج الذي عقداه معاً ، سراعاً ، واقترح له ، جملةً واحدةً . هذه الصياغة السريعة : فلنر ما سوف يأتي به هذا الأمر ، ولكن علينا أن نراه ، حقاً .

والنقطة الأولى هنا : « لم يكن سارتر مؤمناً بأحادية الزواج ، كانت تسره صحبة النساء ، وكان يجدهن أقل اثارة للسخرية والضحك من الرجال ، لم يكن يعتزم ، وهو في الثالثة والعشرين من العمر ، أن ينزل الى الأبد عن تنوعهن الساحر » ومن ثم فهو يشرح لها أنّ الأمر بينهما يتعلق « بحب ضروري » ليس من شأنه أن يمنعهما من معرفة « أنواع من الحب العرضي » من جانب أو من آخر . والنتيجة المؤقتة : « فلنوقع عقد ايجار بسنتين » : أي فلنحيَ معاً خلال هذه الفترة ، بأقصى ما يمكن أن نطيق من حميميّة ، ثم نترك بعضنا البعض (كان ينوي أن يسافر لليابان لمدة سنتين أخريين) ، « حتى نستأنف خلال فترة قد تقصر وقد تطول حياة » مشتركة الى حد قد يقل وقد يزيد » . كانا بالتأكيد بصدد الافلات من آثار القيود أو مجرّد العادة التي من شأنها أن تدهور بعلاقتهما . — والنقطة الثانية : « أتفق بيننا على أن يقول أحدنا للآخر كل شيء » .

ونحن نعرف أن سيمون لم تكن مستعدة كل الاستعداد لتوقيع اي من هذين الميثاقين : ولكنهما وقعا لأسباب غير متعادلة ، من جانب ومن الجانب الآخر . عندما اقترح سارتر عليها الميثاق الثاني فقد كان يطلب منها ، على الجملة ، أن تتغلب على واقعة عرضية (هذا الاختيار للصمت لاخفاء الحقيقة ، للسرية) التي كانت قد اضطرت الى اللجوء اليه لتعارض به ، طوال سنوات ، عدم الفهم من بيتها ، ومحاولات البحث والتنقيب من أمها) وأن تتغلب عليها باسم تطلب للتواصل الكلّ كان دائماً هو تطلبها . ولكنه عندما اقترح عليها الميثاق الأول فقد كان يذهب في اتجاه معارض لما عندها من همّ عميق بالولاء . ومن ثم نراها (وفيما يبدو بموافقة سارتر

نفسه) تحوّر موقتاً المعنى العميق لهذا الميثاق، فلا تحتفظ منه الا باحتمال افتراق في المستقبل، وتخلطه من جانب آخر بالميثاق الآخر - حتى يمكنهما أن تفكر أنه يكفيهما أن يقولا كل شيء لأحدهما الآخر، خلال هذه التجربة الأولى للحياة المشتركة، حتى لا يحس أحدهما بحاجة لاستخدام هذه الحريات التي «سلم بها أحدهما للآخر نظرياً».

«كنّا من فصيلة واحدة وكان حلفنا سوف يستمر طالما بقينا» - «هذه العلامات التوائم على جبهتينا» - «الأخوة التي كانت تتلاحم بها حياتنا»: ذلك ما كان سوف يتيح لسيمون دو بوفوار، إذ تتغلب على غيرة كان من المقلق من جانبها ألا تحس بها بالمرّة، أن تقدم لنا قصة من أجمل قصص الحب التي أتيح لنا أن نسمعها أو نقرأها، تقدمها لنا صفحة بعد صفحة، بطريقتها الدقيقة الصارمة الدقة التي تكاد تثير الغيظ لبساطتها، دون أدنى مغالاة أو تأكيد، خارج كل ادعاء من نمط شاعري أو مأساوي: قصة، على كل حال - وأتكلم هنا عنّي شخصياً - لا تبدو لي أية قصة أخرى بجانبها أسلم وقعاً وأصح نغمة، أو أعمق هزاً للمشاعر.

ولنتناول هذا الحب في نقطة بدائية: «... لماذا نخشى أن نضع بيننا مسافات لا يمكن أبداً أن تفصلنا؟ كان يحرّكنا مشروع واحد: أن نعانق كل شيء، أن نكون شاهديّ كل شيء. وكان هذا المشروع يوصينا أن نتبع، في بعض المناسبات، طرقاً مختلفة، دون أن نخفي عن أحدنا الآخر أدنى لُقيا مما نجده في الطريق؛ كنا، معاً، نصدع لتطلبات هذا المشروع الى حد أنه في نفس اللحظة التي كنا نقسم فيها، كانت ارادتانا تمتزجان .. ذلك أن ما كان يربطنا معاً كان يفكّ أواصرنا، وكنّا بهذا الانفكاك للأواصر، نجد أنفسنا مرتبطيْن في أعمق ما فينا». ثم نتناول هذا الحب، بعد ثلث قرن: «كان في حياتي نجاح مؤكد: علاقاتي مع سارتر. في خلال أكثر من ثلاثين سنة، لم ننم ليلة واحدة غير متحدين. وهذه التوأمية لم توهن الاهتمام

والتشويق الذي كنا نجده في محادثاتنا ... ان الشيء الوحيد الجديد والهامّ معاً الذي يمكن أن يحدث لي، هو الشقاء. حيث أرى سارتر ميتاً، أو أن أموت قبله. مخيفٌ ألا يكون المرء هناك لكي يعزي الآخر عن الألم الذي ينزله به عندما يتركه ويرحل، مخيفٌ أنه يهجرنا، ويصمت.[1]

نعم، هذه المرأة قد عرفت الغيرة: أنظر مثلاً قصة علاقات سارتر مع كاميل، مع ماري جيرار، مع أولجا، أو مع «م.»[2] ولكن انظر أيضاً أول رد فعل عندها، حينما التقت بـ«م.» (في نيويورك): «كانت سوف تسافر الى باريس حيث تبقى حتى عودتي. كانت ساحرةً كما وصفها سارتر وكانت لها أجمل ابتسامة في العالم.»[3] وانظر من ناحية أخرى ما تقوله عن ميشيل فيان: «كانت ميشيل قد انفصلت عن بوريـس، وارتبط سارتر، الذي كان يجدها دائماً جذابة جداً، ارتباطاً حميماً بها. كنت أحبها كثيراً، كانت محبوبة دائماً لأنها لم تكن تؤثر نفسها أبداً. كانت

---

١ – «قوة الاشياء» ص ٦٧٢، ٦٨٦.

٢ – «قوة العمر» ص ٧١ – ٨٠، ١١٢ – ١١٣، ١٢٢ – ١٢٣، ١٩٦ – ١٩٧، ٢٤٥، ٢٥٢ – ٢٥٣، ٢٨٥، ٢٩٩، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٣١. – نفس المرجع ص ١٩٠ – ١٩١، ٢٤٨، ٣٥٩ – ٣٦٠، ٤١٨ – ٤ – ٤١٩، ٥٥١. نفس المرجع ص ٢٤٨ – ٢ – ٤٥١ – ٢٦٢ – ٢٧٠ – ٢٩٠، ٣٠١، ٣٥١«المدعوة» «قوة الأشياء» ص ٨١ – ٨٢، ١٤١ – ١٤٢، ١٤٤، ١٤٨، ١٧٠، ١٧٨، ١٩٢، ٢٤٣ – ٢٤٤.

٣ – «قوة الأشياء» ص ١٣٧. أرادت أحدى السيدات أخيراً، وهي تلوح في احدى يديها بتصورها الخاص عن الحب، وفي اليد الأخرى شهادتها المسجلة بأنها تقدمية، أن تبرهن لنا، على السبورة السوداء، أنه لا يمكن للمرأة أن تحب، إلا اذا قاتلت في سبيل ذلك بالظفر والناب: وأن سيمون دوبوفوار عندما ظهرت بحيث تكون مرهقة الحساسية أمام إبتسامة منافسة لها، قد أثبتت بالجملة، أنه لم يكن بينها وبين سارتر، على احسن الفروض، الا «صداقة كبيرة جداً». ولكن سارتر نفسه جاء بالبرهان العكسي على الفور، وهو برهان بدا لي حاسماً، ولو لم يكن ذلك الا بأنه فقد السيطرة على أعصابه، على نحو خارق وعلناً. هذه، على كل حال، هي معايب «مذهب نسائي» معين يجعل من المرأة، حتى في الحب، عدواً للرجل.

زميلة ساحرة : مرحة وغامضة قليلاً ، حريصة جداً على مشاعر الآخرين ، ولا يمكن للمرء أن يغفل محضرها »[1] .

نعم ، هذه المرأة عرفت مشاعر الهوى المشبوب ، أنظر نلسون ألجرين ، ثم كلود لانزمان[2] . ان ما يخوّلها في عينيّ أكبر الحق في أن تستنكر وتدين لا إنسانية الوضع الأنثويّ ، هو أن حججها العقلية مهما كانت صحيحة سليمة على صعيد تصورٍ للانسانيّ يتعدى الجنسين ، تبقى بعد ذلك حججاً تقدمها امرأة ثم ترفض أنّ تعيش أنثويتها . لقد أتت لها « المثقفون » بجائزة جونكور ، ويستطيع المرء بلا شك أن يرى فيها خير تأريخ لأعظم ما في فرنسا حيويةً وحياةً ، على صعيد الفكر السياسيّ ، في خلال الأعوام السبعة أو الثمانية التي أعقبت الحرب : أما بالنسبة لي ، فاذا كان هذا الكتاب يظل حاضراً ماثلاً عندي ، فليس ذلك نتيجة لهذا الاستدعاء البالغ الدقة لفترة كاوية محرقة (قريبة جداً ما تزال ومع ذلك بعيدة كل البعد منذ الآن) بقدر ما يرجع الى التسعين صفحة التي أفردتها الكاتبة للمغامرة الامريكية التي قامت بها شخصيتها الرئيسية في الكتاب . وسوف أوحي هنا ، بعد كل شيء ، بضع لحظات تمسّ مشاعري على أعمق ما يكون ، من هذه المغامرة ، من هذا الحبّ .

ان آنّ ترغب في لويس : «كان صوته حاراً مثل زفرة نفَس ؛ أخذت

---

١ – « قوة الأشياء » ص ٢٢٧ .

٢ – فيما يتعلق بالأول ، يرجع لا إلى الباكورة المتأخرة من الانحرافات اللغوية التي خص بها مجلة أمريكية في العام الماضي ، رددت صداها بعدئذ صحيفة يومية فرنسية ، بل الى « أمريكا يوماً بعد يوم » ص ٩٨ و ١٠٤ الخ) والى « المثقفون » (حيث يظهر على شكل لويس بورجان : ص ٣٠٣ – ٣٣١ ، ٤٢١ – ٤٥٧ ، ٥١٠ – ٥٣٨) والى « قوة الأشياء » (ص ١٣٩ ، ١٤٠ – ١٤٣ ، ١٥٠ – ١٥٢ ، ١٧٠ – ١٧٨ ، ١٧٩ – ١٨٠ ، ١٨٣ – ١٨٥ ، ١٩٦ – ٢٠٣ ، ٢٤٤ – ٢٤٩ ، ٢٥١ – ٢٦٤ ، ٢٦٨ – ٢٧٠ ، ٢٧٣ – ٢٨٤ ، ٣٠٦ ، ٥١٦ – ٥٢٢ ، ٥٣١ – ٥٣٤) . أما عن الثاني فهو يكاد يكون موجوداً دائماً في « قوة الأشياء » بين صفحات ٢٧١ و ٦٣٦ .

يده وقلت الكلمة التي تقولها كل النساء اللاتي يخترن أنفسهن بإزاء الحنان : « أحب يديك » . انها تحس أن لويس يرغب فيها أيضاً . لكنها تعاني ، اذ تعتقد أنها قد فهمت أنه يتجشّم في أن يرغبها : « حاولت أن أتمّم : يا لكل هذه المتاعب والجهود حتى أصل الى ألاّ يقبّلني ! ولكن هذه السخرية لم تساعدني . أن أكون مدعاة للسخرية الى حد ما . أن استحق التأييد أو اللوم من نفسي ، لم يكن لذلك ، بعد ، أدنى أهمية ، لم تكن هذه الحكاية تدور مني إليّ ، كنت قد وصفت نفسي ، مربوطة اليدين والقدمين ، تحت رحمةِ آخر . أيّ جنون ! » ذلك أنهما لم يكونا بعد « قد تبادلا قبلةً واحدة حقيقية » وها هي ذي قد جاءت (« الآن أو تفوت الى الأبد ») لحظة الفرصة الأخيرة . وينتهزها لويس : « كان يضمني اليه ، بالفعل ، صفقد شفتيّ قيدٌ من اللحم ، وكان لسانه ينقّب في فمي ، ويُبعث جسدي من بين الأموات » ويمارسان الحبّ ولا ينامان الا عند الفجر . وفي اليقظة : « ... كنت ، تحت خدي ، أرصد نبضات قلبٍ لا أعرفه . لم يكن مطلوباً مني شيء : كان يكفي أن أكون بالضبط ماكنة ، وكانت رغبة رجل تغيّرني الى معجزة كاملة . كم كان ذلك مريحاً ... » وهي تطلب منه بعد ذلك بقليل ... ولكن لا ، لن أنتهي ، هنا أيضاً ، من أن آتي باقتباس بعد الآخر — ولعلني أفقد بعض الفقرات ازدهارها . ومع ذلك أورد نصاً أخيراً : « أنا التي اسائل نفسي دائماً في ارتياب عن المشاعر التي أوحي بها ، لم اتساءل قط عما كان يحبّه لويس فيّ : كنت على يقين أن ما يحبه هو أنا .. لم يكن يعرف لا بلادي ، ولا لغتي ، ولا أصدقائي ، ولا همومي : لا شيء الا صوتي ، وعينيّ وبشرتي ، ولكنْ لم تكن لي حقيقة أخرى غير تلك البشرة . وهذا الصوت ، وهاتين العينين » .

فليقبل القارىء عذري اذا كانت تبدو له طريقتي يعوزها الولاء : ذلك أن الحبّ الذي أحاول أن أتحدث عنه هنا هو ، في جوهره ، حبّ آن لبير ديبريّ ، أي حبّ سيمون دو بوفوار لسارتر . تقول لنا آن بالفعل

انها لن تستطيع أن تسحب لأمنية لويس أن يحتفظ بها ، كلها ، له ، لأنّ حياتها تنتظرها هناك ، في باريس : « حياتي التي كنت قد بنيتها خلال عشرين عاماً والتي لم يكن هناك مجال أن أثير عنها أية مسألة » . وعنف مشاعرها نحو لويس هو الذي يؤكد في عينيّ حقيقة حبها لديبيري .

وهنا بالطبع توضع مسألة الزوجين ، مسألة حرية القرينين ، مسألة « الاخلاص » . لقد جمعنا من الدلائل على اختبارات هذه المرأة ، وعلى ردود فعلها العميقة ، ما يكفي ألاّ يدهشنا أن نراها الآن ، في وقتٍ معاً ، تحلّ المشكلة على طريقتها وتسلّم بأنّ المشكلة تبقى ، نظرياً ، غير قابلة للحل . ذلك أن الأمر يتعلق هنا أيضاً ، عندها ، بهذه المواجهة الأبدية بين النعمة والأعمال ، بين الحظّ والاستحقاق[1] ، بين ما هو معطى وما يصل المرء الى أن يصنعه به . كيف كان سوف يتسنى لها أن تتجاهل الحظ الذي أتيح لها بأن تقع على سارتر ؟ وكيف يتسنى لها أن تتجاهل – بعد أن قدّرنا الى أي مدى أعدّت نفسها ، طوال صباها ، لأن تحيا مثل هذا الاتحاد – كل العمل على الذات الذي كان عليها بعد ذلك أن تقوم به ، لكي تجعل منه ذلك النجاح الذي تستطيع اليوم أن تشهد به أمامنا ؟

رأينا أنها ، على نحو تلقائي ، متملكة ، وتحب التفرّد عن طواعية ، وربما كانت لدينا الآن فكرة محددة عن الغيرة عندها ، بعد قراءة النصوص التي أشرت اليها فيما يتعلق بعلاقات سارتر مع هذه المرأة أو تلك . وليست مهمّتي هنا معرفة ما اذا كانت هذه الغيرة مشتركة : فالواقع على كل حال ، أنها كانت شيئاً معترفاً به بما فيه الكفاية ، منذ أول لحظة . وقد دُفن عقد الايجار الشهير « بسنتين » ، بالفعل ، باتفاق متبادل ، على حين كانت خريجة الفلسفة الشابة على وشك أن تسافر إلى مارسيليا لتشغل أول وظيفة

---

١ – انظر مثلاً ، فيما يتعلق بزازا ، « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١١٥ ؛ وفيما يتعلق بجاك ، نفس المرجع ص ٢١٥ .

رسمية لها : «راجعنا ميثاقنا ، وتخلينا عن فكرة «ايجار» موقت بيننا . كان تفاهمنا قد صار أوثق وأكثر تطلباً مما كان في البداية ؛ كان من الممكن أن يحتمل هذا الحلف فترات قصيرة من الافتراق ، لا مغامرات متهورة يقوم بها كل طرف وحده . لم نتبادل القسم على اخلاص أبدي ، ولكننا طوّحنا الى الثلاثينات البعيدة من عمرنا ، بكل عربداتنا المحتملة مستقبلاً . »[1] والاحظ أنّ سيمون دو بوفوار ، في نفس هذه الفترة ، تبدو كأنما تحس شعورين مختلفين : نوعٌ من الهلع ، من جانب ، لفكرة أنّها مضطرة لأن تترك سارتر (الذي يشغل بدوره وظيفةً في الهافر ، «البوفيل» التي يعيش فيها روكنتان ، (في «الغثيان») ، وشعور آخر من الندم الحاد ، اذ تقول لنفسها إنها بسبيلها الى انكار اهتمامها النشط المتوهج بالاستقلال ، وهو الاهتمام الذي كان يشغلها حتى ذلك الحين ، وذلك من جراء حاجتها الى أن تسلم نفسها بكليتها الى هذا التعلّق بسارتر . انها تعرف سارتر منذ سنتين ، وهي تعرف فجأة أنه لن يذهب الى اليابان ، وتفرح لذلك («كفيت مؤونة الافتراق الكبير الذي كنت أخافه . وسقط من قلبي حجرٌ هائل .. ») ولكنها في نفس اللحظة تلوم نفسها على ذلك («الا أن شهادة الغياب التي كان يعدّها لي المستقبل قد انهارت في نفس الوقت . ما عاد هناك شيءٌ يحميني من ندمي ») . بل نراها تذهب الى حد أن تكتب في يومياتها : «كنت أريد أن أتعلم الوحدة من جديد : كم مضى وقت طويل منذ أن كنت وحيدة ! » ولكنّ كاتبتنا تدقّق في الحقيقة ، قولها : «كنت بلا شك قد شربت قليلاً » : «كنت أخاف الوحدة أكثر بكثير مما كنت أنزع إليها » . على أن ذلك لا يمنع أنها تنزل تلقائياً عن الحلّ السهل الذي يقترحه عليها سارتر بأن يعرض عليها الزواج لكي يعوّضها عن احتمال افتراق يقلقها ؛ هذا الحل الذي يبدو لها زائفاً وخطراً من عدة وجوه : «أتخذ

---

١ – «قوة العمر» ص ٨٣ .

قراري بدوني »[1] ويبدو أنه قرار ايجابيّ ، اذ سوف يكلل ، بعد سنتين ، بالنجاح . «خرجت منتصرة من الامتحان الذي أخضعت له : الغياب ، والوحدة لم يثلما سعادتي . كان يبدو لي أنني استطيع الاعتماد على نفسي . »[2]

وسنراها ، بعد ذلك بقليل ، تضع لنفسها (في محاولةٍ لرواية لم تكتمل) أكثر مشاكلها جديّة : «التوفيق بين همّي أن احتفظ ،باستقلالي، الذاتيّ ، وبين المشاعر التي كانت تقذف بي ، باندفاع لا يكبح ، نحو آخر . »[3] . ثم بعد ذلك ، في نحو ١٩٣٧ ، عندما كانا «قد نفضا ايديهما من الريف ، وهما الآن يستطيعان أن يجتمعا معاً في باريس ، يسكنان نفس الفندق : «كنت اشتغل غالباً في غرفتي . كان سارتر يسكن الطابق العلوي . وبذلك توفّرت لنا كل ميزات الحياة المشتركة ، ولم نعرف شيئاً من مضايقاتها . » لكن الحقيقة ليست بهذه البساطة : إن هذا الوعي لم يكف عن أن يريد لنفسه السيادة ، وسيادته لا تكف أن تظهر له ، الى حد يقل أو يزيد ، موضع نزاع .

وينبغي أن نرى أن وجود سارتر ليس في الحقيقة ، من هذه الوجهة ، الا أكبر المظاهر تحديداً (أكثرها مباشرة وأدومها حضوراً) في صعوبةٍ أساسيةٍ أحست بها سيمون دو بوفوار دائماً في علاقتها بالآخرين . ان بعض معالم الطريق سوف تتيح لنا أن نقدّر مدى ثبات هذه الظاهرة .

نحن نعرف أن سيمون الصغيرة ، قبل أن تستطيع أن تزعم نفسها مسئولةً عن ذاتها ، بوقت طويل ، كانت تحس منذ ذلك الحين بالحاجة الى أن تحيا من وقت لآخر «بضع لحظات دون شاهد عليها . » والى أن تتحدث الى

---

١ – «قوة العمر» ص ٨٠ – ٨٥ وهكذا تصل الى النتيجة التالية : «ان الوحدة ، على جرعات معتدلة ، لها بلا شك سحرها ، وبالتأكيد ، لها فضائلها . كنت آمل أن تقوى عزمي ضد الاغراء الذي كان يصاحبني طوال سنتين : أن اتنازل . وقد كان علي أن احتفظ طول حياتي بذكرى قلقة عن هذه الفترة التي كنت أخشى فيها أن أخون صباي » .

٢ – نفس المرجع ص ١١٨ .

٣ – نفس المرجع ص ١٦٠ .

نفسها دون مقاطعة. ونحن نذكر أيضاً رفضها للاعتساف وكل سلطة غير مبررة موسَّسة على الإكراه وحده، في وقت مبكر جداً. وفي فترة البلوغ، تضاعف هذا التطلّب التلقائي، بالطبع، نتيجة لأنها وُضعت موضع السؤال من جانب أبيها: «كنت غير متأكدة من نفسي، سهلةً على الايذاء والهجوم، وكان لا بد لعلاقاتي بالآخرين أن تتغير نتيجةً لذلك». وفي اللحظة التي تبلغ فيها نقطة الذروة من مرحلتها الحرجة، اذ انفصلت عن الله، اذ تحس نفسها وحيدة أكثر وأكثر وحدة، على غير وفاقٍ، أكثر فأكثر مع والديها ومع الجو العائليّ تجد ملاذها (بطريقة شبه دينية وصوفية) في الروايات التي تتاح لها قراءتها، وتضع فيها حاجتها الملحة الى الاعتراف بها: «كانت الروايات تخلق نوعاً من التواصل بيني وبين الارواح الشقيقة التي كانت توجد في مكان، في غير متناولي. وبدلاً من أن احيا حكايتي الخاصة الصغيرة، كنت أشارك في ملحمة روحية كبرى. وخلال شهور طويلة تغذيت على الأدب: ولكنه كان الحقيقة الوحيدة التي كان ممكناً لي أن أصل إليها في ذلك الحين.» ولما كانت لا تزال على اعتقادها «بالماهية الأبدية» لكل فردٍ انسانيّ («ولو كان أقل الناس ميراثاً على هذه الأرض») فهي تعد نفسها بأنّ تحصل على الأدوات اللازمة لكي تحقق عملاً «يساعد الآخرين على الحياة» بأن توصّل اليهم «تجربة الوحدة» التي كانت تمر بها.[1]

ولنلاحظ أنّ «الآخرين» على هذا المستوى ينهزعون الى طائفتين

---

١ – في هذه اللحظة، بالفعل، تشرع لأول مرة في كتابة رواية. وتسمي نفسها فيها ايليان، وتتمشى في متنزه مع ابناء وبنات عمها، وتلتقط جمراتاً وتتأبى أن تريه للآخرين عندما يلحون عليها في ذلك: «أغلقت يدي في حرص غيور». وبعد أن تنجح في الافلات منهم، تعود وحدها وهي تقول لنفسها: «لن يعرف أحد أبداً» ذلك أن موضع المسألة هنا هي سلامة وعيها واكتماله: «كانت تحس نفسها من القوة بحيث تدافع عن ثروتها الوحيدة، ضد الضربات وضد الملاطفات، وتبقي يدها دائماً مغلقة». وتعلق كاتبتنا: «كانت هذه الخرافة تترجم أكثر همومي استحواذاً: أن ادافع عن نفسي ضد الغير». («مذكرات فتاة مستقيمة» ص ١٩١).

متميزتين : أولئك الذين كانت لها بهم ، حتى ذلك الحين علاقات فعلية ، وأولئك الذين يكوّنون العالم ، من ناحية أخرى ، يكوّنون الواقع الانسانيّ الحقيقيّ (الذي ليست لديها عنه ، بالطبع ، الا فكرة مثالية تماماً) . وهي تلوم الأوّلين على أنهم يحولون دونها وأن تصل الى ذاتها والى الآخرين معاً : «كنت أفكر أحيانـاً في أن القوة سوف تعوزني وأنني سوف اسلّم بأن أكون مثل الآخرين . — وكانت هذه الفكرة تخيفني أكثر ، بقدر مـا كنت عندئذ أرد عليهم عـداوةً بالعداوة التي كانوا يبدونها لي ... كم كانوا على ثقةٍ من أنهم على صواب ! كانوا يرفضون كل تبادل وكل نزاع ، كانوا ينكرون كل المشاكل . كان يجب عليّ أن أنقذ نفسي منهم ، لكي أفهم العالم ، لكي أجد نفسي » وسيمون ، اذ تبحث على ذلك النحو عن «خلاص» في الأدب ، «في المطلق» ، في الكينونة «الأبديـة» «للأنا العميق» المنتزع عن الأرض ، تصر على أن تريد «خدمة الانسانية» ولكنها تنزل لحظة عن أن تعترف بها الانسانية : «لم يكن رأي الغير يجب أن يهمني» . أي أنها دخلت في الاحتقار ، وأنه سوف يتعين عليها بعد ذلك أن تبذل جهوداً كبيرة لكي تعيد عقد الأواصر مع موقفٍ كان دائماً هو موقفها : موقف مضلل معمىً عليه ، الى حد ما ، بلا شك ، نتيجة لوضعها نفسه طفلةً أو مراهقة ، ولكنه موقف كان يتضمن على الأقل تطلباً ايجابياً . «كنت قد اتخذت مكاني في المطلق حتى استطيع أن أنظر من أعلى الى هذا العالم الذي كان يردّني ، اما الآن فاذا كنت أريد أن أعمل ، أن أصنع عملاً ، أن أعبر عن نفسي ، فقد كان عليّ أن أعود فأهبط إليه : ولكن احتقاري كان قد ردّه الى العدم ، ولم أكن أرى حواليّ الا الخواء .» وسوف تكون هذه العودة للعالم أصعب عليها اذ سوف تظل ، بعض الوقت ، تحس نفسها مختلفةً عن بعض الآخرين ، من عائلتها على الأخص ، «يعاملونها ، على نحو سافر ، كأنها الحَمَل الأجرب» .

وصدوراً عن ذلك فانها سوف تتذبذب بين وجهتي نظر متضاربة :

«كنت أزعم في يومياتي أن الناس ، في عينيّ ، «لم يكونوا موجودين» ، والحقيقة أن كل شخص بمجرد حضوره ، كان يهمّ» . ولن تدهشنا النظرة التالية ، كما لم تدهشنا الأولى . ذلك أن سيمون كانت قد أحست نفسها محبوبة بعمق ، في خلال سنواتها الأولى ، بما يكفي لأن يجعلها غير قادرة ، عندما أصبحت فتاة شابة ، أن تكره حقاً : «كنت طفلة أسعد بكثير مما يتيح لي أن أبعث في نفسي ، بسهولة ، الحقد أو حتى الكراهية .. ، ولكن ذلك هو الذي يجعلها ، أيضاً ، سهلة على الايذاء ، عُرضة طيعة للهجوم : «... لم أكن أعرف كيف أدافع عن نفسي ضد سوء النيّة» . ومن الناحية العملية ، فان هذا النوع من التذبذب الذي أشرنا اليه ، سوف يترجم عن نفسه بتصنيف معين للناس «الى طائفتين» : «كنت أحس لبعض الناس بتعلق حاد بالغ الحدة ، وللغالبية من الناس بمبالاة متعالية» وهو تخطيط سوف يعود للظهور فيما بعد ، من ظروف كثيرة ، ولكنه سوف يميل للتعقد بدخول طرف ثالث «الطرف الاجتماعي» (وبانشغالها المطرد بالسياسة) - بحيث يكاد هذا الجانب الاجتماعي يختلط تقريباً بالجانب الثاني من ذلك التخطيط أحياناً ، أو يتميز عنه بالعكس تميزاً عميقاً (على نحو يتزايد عزماً ويغلب ظهوره أكثر فأكثر) .

وهكذا سوف نرى القندس طويلاً «تعيش في عصابة» في وسط مجموعة صغيرة من الأصدقاء ، «في داخل وعاء مغلق» ، وسوف تسميهم «العائلة» ، وسوف يكون لبعض العناصر الخارجية - مولودجي مثلاً - امتياز أن يعدوا «قريبين» منها . ولا شك أنه بقدوم النجاح سوف يتفتح أفقها اليوميّ الى حد ملموس : «كان ذلك تغيراً كبيراً في وجودي ، عندما اتسعت دائرة علاقاتنا فجأة . لكن ذلك لم يمنعها من أن تكتب فيما بعد أنّ سارتر كان يستريح اساساً الى «الدائرة الصغيرة» المكونة من بينتهما المعتادة ، «العائلة ، والحرس القديم للاحتفالات» : «كان بيننا من التواطؤ ما يجعل ابتسامة تعدل خطبة كاملة» ، وعلى ذلك تحول الكلام الى أكثر لعبة من لعب

المجتمعات تسلية ، فعندما يغيبُ مثل هذا التواطؤ يصبح الكلام عملاً شاقاً ، وعقيماً في الغالب : كنت قد فقدت عادة اللقاءات العابرة »١ ولكننا سوف نراها أيضاً تذرع الأرض في كل اتجاه ، وتتحدث حديثاً كله شغف مضطرم مع مجهولين ، وتستقبل الشبان الذين يكتبون اليها ، ويكون لها معهم حوار من أكثر الحوار حياة ، وتنشط فجأة في سبيل هذه القضية أو تلك – أو تعاني من عجزها حتى لتقع فريسة للمرض ، حتى لتفقد ، بشكل دائم تقريباً ، ودون أي سببٍ شخصيّ ، حسّ السعادة الخارق الذي نعرفه فيها . ويبدو أن حربَ الجزائر مثلاً تشكل أكـبر مناسبة عرضت لها في الحياة استحواذاً لكـي تحس « كيف يمكن أن يحلّ الظـلام الأسود بالقلب » .

وبين هذين الموقفين اللذين يصدران كلاهما عن حرصٍ شديد التطلّب ، على الحقيقة في العلاقات الاجتماعية ، أين ينبغي أن نضع ميلها الى الجماهير الغفل من الاسماء ، الناس الذين يمرون في الشارع ، وميلهـا أيضاً الى « الاماكن المريبة » و « الحضيض السفليّ » من المدن والبلاد ؟

« كنا نحب الضجيج والتراب الذي تثيره الجماهير » .. « اختلطت بالجماهير في « كانيبيير » .. كنت أحب الترامواﻳﺎت المترنحة التي تتعلق بها عناقيد انسانية » – « في كل مكان كنا نجد سروراً في السير وسط الجماهير » .

---

١ – « قوة الأشياء » ص ١٩ و ٣٠٨ – ولنلاحظ بالاضافة الى ذلك ، التشكيلات « الثنائية » التي كانت تسود في داخل « العائلة » نفسها (فيما عدا إستثناء واحد تقريباً) . « كنا دائماً نميل – وسوف نحتفظ دائماً بهذا الميل – الى الخلوة بين اثنين ... ؛ عندما يواجه المرء كثيرين مرة واحدة يصبح الحديث اجتماعياً مبتذلا – الا في ظروف ممتازة – يصبح تزجية للوقت ، مسلية ، لا طعم لها ، بل مرهقة أحياناً ، ولا يعود ذلك التواصل الحقيقي الذي كنا نتمناه . » (« قوة العمر » ص ٥١٢ – ٥٢٠ ؛ وانظر ايضاً نفس المرجع ص ٥٤٧ – ٥٤٨) .

إن سيمون دو بوفوار نفسها تضع في الاعتبار تناقضاً من شأنه أن يوضح الأمور توضيحاً كبيراً. وأحد طرفي هذا التناقض يُرجعنا الى الوصف الذي عرضناه في البداية لموقفها «الطبيعي» بازاء العالم الانساني (الجزء الأول الفصل الثاني) انها تتساءل: لم هذا السرور؟ بينما هي قد لاحظت أنها تصر، من جانب آخر، على «رفض الانساني»: «كنت أحب هذه المشاهد الطبيعية التي يبدو أن الناس غائبون منها، والحواجز التي كانت تخفي عني حضورهم: اللون المحليّ، والطرافة». كان هذا الوقف الطبيعي في الواقع موقفاً يميل الى «اضفاء الخصائص الطبيعية» على ما هو ليس كذلك. ولنقل أنه كان موقفاً جمالياً[١]، بالمعنى الذي يتشكل فيه الاختيار لأن تتأمل هذا بدلاً من ذلك، أو تضع الجمال في هذا الميدان بدلاً من ذلك، يتشكل أولاً كرد فعـل من نوع من «الحساسية» التي يعاني منها المرء بازاء العالم المألوف. كانت سيمون الصغيرة، وهي في سن لم تكن فيها معارضة بالمرة بازاء والديها، تجد من الخير أنها تتصرف، حواليها في كل مكان، في «موضوعات للتأمل أكثر جدارة بالاهتمام من الصور المسطحة: للرجال والنساء من لحم وعظم». ان هؤلاء الناس بالتأكيد كانوا «موهوبين بوعي» ومع ذلك فلم يكونوا يقلقونـهـا: «كانوا أشباهي». ولكن ذلك لم يكن يمتّ بصلة، على وجه الدقة، الى بيتها المألوفة: «في اللحظة التي كانت الواجهات تمسي فيها شفافة، كنت أترصّد النوافذ المضاءة.. في الريف.. كانت الطبيعـة تغرقني؛ في باريس كنت جوعى الى الحضور الانساني، ان حقيقة مدينة هي من يسكنونها: كان لابد لي على الاقـل أن أراهم، ما دمت لا استطيع أن أوجد بهم علاقة أكثر لصوقاً»[٢].

---

١ – وهو ماتريد، الكاتبة صراحة، بشأن رفض الانساني: «التي كنت استوحي منه نزعتي الجمالية» («قوة العمر» ص ١١٥).

٢ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٥٦.

اليست تلك هي نفس الحاجة الى الوحشة عن الوطن والتعلق بالطرافة الأجنبية التي تظهر بعد ذلك في الصورتين المتناقضتين اللتين تقدمهما لنا عن علاقتها بالناس ، عندما نراها تتساءل أيهما ينتصر عندها بازائهم : هل هي اللامبالاة أم هو الهوى المشبوب ؟ ذلك أنه يبدو لي حقاً أن كلاً منهما ، بالتناوب ، يميل الى التغلب ، وانهما يصدران كلاهما عن نفس الحركة العميقة — التي أحاول الآن أن استخلص معناها . ولنلاحظ من الآن التشابه المرموق بين الأمثلة التي تقدمها ، هنا وهناك .

فمن جانب اللامبالاة أو الرفض : « في روان ، كان المكان الذي أفضله هو شارع « آو — دي — روبيك » : كانت البيوت التي لا شكل لها ، المتمايلة ، السابحة في المياه القذرة تبدو كأنها مخصصة لفصيلة غريبة » .

ومن جانب الهوى المشبوب : « لماذا كنا نحب ، في لندن ، كل هذا الحب ، الواجهات القذرة في « ستراند » ، وأرصفة المواني ، والمخازن ، والمراكب ، ومداخن المصانع ؟ لم تكن هذه أعمالاً فنية ، ولا موضوعات شاعرية أو عجيبة تنتمي الى نوع « الباروك » ، لم تكن هذه الشوارع ، وهذه البيوت التي لا جمال فيها ، تتجاوز الوضع الانساني ، لم تكن تهرب منه : بل كانت تجسده ، فاذا كنا نتعلق كل هذا التعلق المشبوب بهذا التجسد فذلك أننا لم نكن نحس لامبالاة « بالناس » ومن هنا نحس أنّ لنا الحق تقريباً في استخلاص النتيجة التالية (ذلك أن الوضع الانساني لم يكن أقدر على « التجسد » في أرصفة التيمس منه في الاحياء القديمة في روان) : أن سيمون دو بوفوار كانت ، عندئذ ، لعلها تدين بمذهب جماليّ ، من الطراز الشعبيّ والعماليّ الى حد ما ، ولكن نظرتها ، على كل حال ، بقيت نظرة تبعيدية الى حد عميق بازاء الناس الواقعيين — اذ انها كانت تختار أن « تجسدهم » في غيابهم ، تحت المظاهر اللاإنسانية لأماكن عملهم (كما كانت تفعل ، في روان ، تحت المظاهر اللاأنسانية لمساكنهم) .

ولكن هناك تصحيحاً يفرض نفسه علينا ، للفور : ان الناس هم الذين يهملونها بالفعل ، وليست الآثار الموضوعية لوجودهم ، فقط . فهي في الخامسة عشرة من عمرها ، كما كانت في الخامسة ، تترصد من نافذتها ، بمنظار أبيها « الحيوات المجهولة » : « ما كانت تهمني سوقية المشهد أو ابتذاله العادي ، في قليل أو كثير : كنت - وما أزال - مرهفة الحساسية بسحر هذا المسرح الصغير لخيال الظل : غرفة مضاءة في قاع الليل [1] » . فهل سيمون شوّافة ؟ [2] نعم ، ولا .. بالطريقة التي كنا نحن بها أيضاً نتعلق بالنظر الى الأشياء ، حين كنا لا نستطيع أن نوجد حقاً ، حين كنا نحس بالحاجة الغامضة لتكملة الحياة ، ولم يكن يعرض لنا عندئذ بالفعل الا مشاهد لا نستطيع أن نشارك فيها . ولكن ها هوذا الخيال يسارع الى نجدة هذا التأمل السلبي والمسحور ، بقدر ما يتسنى لسيمون أخيراً ، وهي طالبة ، الى أن تعيش مع الرجال والنساء الواقعيين : « كان يحدث لي ، عند الخروج ، أن أتابع بعيني طويلاً فتاة مجهولة كانت تدهشني رشاقتها ونضارتها : الى من سوف تمضي لكي تعطيه الابتسامة المرسومة على شفتيها ؟ كنت ، اذ تمنى هذه الحيوات الغريبة عني ، أعرف من جديد تلك السعادة الحميمة الغامضة التي عرفتها ، طفلة ، على شرفة شارع راسباي » [3] وهي في نفس الفترة تتهز ، بنوع من النهم ، أدنى فرصة ، في المساء ، لكي ترى واجهات المحلات المتألقة ، والسيارات تجري في الشارع ، والمارة .. يمرون : « كان الليل يحيا ، في الخارج » ؛ وهي أحياناً تجر أختها : « كنا نهيم بلا هدف ، نحاول أن نمسك بصدى ، بانعكاس من الأعياد العظيمة التي كنا مستبعدتين منها » وفي العشرين من عمرها : « كنت لأريد أن أغوص في الليل ، أسمع الجاز ، أحف بالناس !

---

1 - نفس المرجع ص ١٥٦ .

2 - Voyeuse

3 - « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٧٤ .

ولكن لا ، كنت حبيسة الجدران .»[1] وفي العام التالي تكتب في يومياتها الخاصة : «الجاز ، النساء ، الرقصات ، الكلام البذيء ، الخمر ، الاحتكاكات الحسية . كيف يمكن لي أن أحب هذه الأشياء بكل هذا الاضطرام الذي يأتيني من بعيد ، والذي يحكم عليّ قبضته ؟ ما الذي أذهب ابحث عنه في هذه الأماكن بسحرها المضطرب »[2]. وفي مارسيليا ، بعد قليل ، سوف يسحرها «نظراً لما كنت أدين به من أساطير » كما تحدّد ، شارع « بوتيري » ونساؤه المزوّقات ، والسلالم القديمة ، والأزقة العتيقة ، وأسواق السمك ، والمنادون في الميناء القديم : « كانت تملأ عيني وأذني حياة جديدة أبداً »[3] وفي تطوان سوف تكتشف «بنشوة جامحة » ازدحام الأسواق المراكشية وجيشان الناس بالحركة فيها » وفي اشبيلية «التسلية والترفيه الذي يأتي به انقلاب في الحكم » هيجان جمهور ضخم من الناس يجرون في الشوارع «صائحين ، مغنين ، يزعقون » ثم يندفعون «ضالين مشتتين في كل اتجاه » . وفي هامبورج : « كنا نتمشى على أرصفة الميناء ، حول الأحواض ، .. وكنا في المساء نستكشف الاماكن المريبة ، كانت كل تلك الحركة تدعونا الى السرور .. » وفي الدار البيضاء : « بحثنا عن الاحياء الفقيرة التي يسكن الناس فيها بيوتاً من الصفيح القديم .. ، وذهبنا الى «بوص-بير » الخ ... وفي روما أخيراً ، بعد ذلك بكثير : « كانت هناك السماء الزرقاء الداكنة ، سماء ليالي روما ، فوق البيوت الكبيرة الحمراء الداكنة ، بنوافذها المستديرة منيرة ، وكل هؤلاء الناس الذين يهيمون ويتسكعون ، وكان ذلك هو اكتمال اللحظة ، ثم هذه الملاحظة التي تعود بنا الى نقطة البداية : « ما أدعى ذلك الى السرور ! عبر الشارع الضيق ، كانت نافذة حمامي تتطابق

---

١ – نفس المرجع ص ٢٦٥ . أنظر أيضاً ص ٢٣٩ و ٢٤١ .
٢ – نفس المرجع ص ٣٠٧ .
٣ – نفس المرجع ص ١٠٥ .

بالضبط مع اطار نافذة جاري من أمام ، وهي تحيط بجهاز تليفزيون ، وهو جالس ، وحده ، على كرسي ، وأنا أرى تماماً كل ما ينظر اليه[1] ..»

والواقع أن هذه الحيوات المجهولة هي حيوات واقعية . ولكن يجب أن نسلم على الأقل ، أنّ « سيمون دو بوفوار » بطريقتها في الاهتمام بها ، نفسها ، بأن تظهر لنا طُلَّعَة متحيرة بازائها ، فانها تميل في أغلب الأحيان الى أن توقع بها نوعاً من التجريد عن الواقعية . وقد التقينا بهذا الموضوع ، موضوع المشهد عندها (في مستوى تحقيقها عن أمريكا) : ولاحظنا عندئذ ميلها الى التبعيد السينمائي أو ، بصفة عامة ، الى كل تجريد من نمط خارق لافت للانظار ، باعتباره جاذبية وترويحاً في وقت معاً . وكل هذه النصوص التي قرأناها الآن تؤيد ذلك التحليل الأول ، اذ تضعه في سياق نظرة تطورية . فالمشهد عندها لم يكن في البداية الا نوعاً من الحلم السلبيّ ، المعارض ، بكل بساطة ، لواقع مباشر تحس قصوره وتزداد ضيقاً به فلا تكاد تطيقه . ثم يصبح ذلك عملاً يعمل فيه الخيال ، مفروضاً هذه المرة فوق واقع مختلف كل الاختلاف مازال بلاشك غريباً عليها نسبياً ، وان كان متاحاً لها ، كل يوم ، أن تقترب منه على نحو أوثق (بفضل قراءاتها ، وتحررها المطرد من السلطة العائلية) . وفي نفس الوقت ، بالتأكيد ، كانت الاستحالة المؤقتة ، لأن تحيا بُعداً جنسياً قد دخل مسرح حياتها مع ذلك بالفعل ، تتآلف مع القصور الجذريّ للخيال ، لكي تُفضي بسيمون الى البحث عن أكثر المشاهد إثارة ، وأبعدها عن المألوف ، وأبعثها على الاضطراب . ونحن نعرف أن هذه الحاجة الى أن يُستولى عليها ، أن تبعد عن وطنها ، أن تستباح تقريباً ، حاجةٌ ظلّت قائمة طويلاً في مجرى حياتها .

وما يهمني أن ألاحظ هنا ، هو أن موقفها بازاء الغير سوف يظل

---

١ — « قوة العمر » ص ١١٨ و ١١٩ — ١٢٠ و ١٢٠ و ١٩٩ و ٣٣٨ ، « قوة الأشياء » ص ٤٥٠ .

يتوقف دائماً ، الى حد يقل أو يزيد ، على الجوانب الثلاثة التي أشرنا اليها هنا ، في نفس الوقت : فهل يتعين علينا ، في هذه الظروف ، أن نعتبره ، جوهرياً ، «موقفاً ينزع الى «التجريد عن الواقعية» - أي ألا نرى فيه ، بعد وضع كل شيء موضع الاعتبار ، الا رفضاً للناس الواقعيين ، نوعاً من الهرب أمام الواقع الانساني؟ يبدو لي ، على العكس ، انا أخيراً على وشك أن نفهم (بقدر ما يمكن لأحد أن يفهم أبداً..) حقيقة كائنيتنا ، حقيقة حضورها في التاريخ الذي نعيشه ، حقيقة مشروعها في الكتابة ، والأصداء القوية الحارة التي يلبيها عملها ، في دخيلتنا - مهما كان من وضوح اختلافنا عن بعضنا البعض.

ذلك أنه ينبغي أولاً أن يكون الكاتب حالماً : ولكن لا يكفيه أن يحلم لكي يصير كاتباً . بل يذهب بعض أصحاب المذاهب الوضعية الى حد أن يستدعوا فكرة الاستمناء لكي يصفوا خصائص الموقف الأدبي ، ولكنهم عندئذ لا يصلون الا الى شبح هذا الموقف ، وصورته الكاريكاتيرية : والمشكلة الوحيدة ، بكل وضعية ، هي بالفعل معرفة ما اذا كان نتاج هذا الموقف الأدبي يجد قُراءً أم لا يجد ، فاذا كان يجد قراء فذلك معناه (على أسوأ الفروض) ان هذا الشكل من الاستمناء ظاهرة جماعية لا يمكن بالتالي منازعة واقعيتها . ومن المفهوم أنه تبقى بعد ذلك امكانية النزاع في قيمتها : ولكننا نعرف ما فيه الكفاية ، منذ «مونتيني» من قبل ، أنه ما من اخلاقية موضوعة يمكن أن تمدنا في هذا الصدد بأدنى معيار مُرضٍ أقل الرضى (ونحن في وضع يسمح لنا الآن ، في هذا العصر ، أن نقول نفس الشيء عن كل جمالية أدبية مقننة) . ومن ثم يجب أن نلجأ الى معايير من نمط آخر - اذا كنا نعتزم أن نصدر حكماً على قيمة عملٍ واقعيٍّ حقيقيٍّ (وبالتالي على قيمة الجمهور الذي يحققه) - وهي معايير لا يمكن أن تصدر الا عن التطلب الانساني لاضفاء الانسانية على هذا العالم : أي عن موقف أخلاقيٍّ هو ، في نفس الوقت ، واقعيٌّ بما

فيه الكفاية، وجذريّ بما فيه الكفاية، لكي يضع في الاعتبار الأوضاع المحددة في اللحظة نفسها التي يختار فيها أن يقامر بكل شيء على تجاوز هذه الأوضاع، أفعلّ التجاوز وأمضاه.

وقد يعترض المرء هنا بأن الموقف «القدسيّ» بالضبط لا يتصف عامةً، بواقعية مغالى فيها: ولكن ذلك ناشيء، فيما يبدو، عن عدم انتباه لما يتضمنه كلّ تساؤل حقّ عن الواقع، من مثالية: «فمشكلة العلاقة بالواقع لن توضع، فيما هو واضح، في نفس الحدود، من ناحية، بالنسبة لأولئك الذين تثير الهياكل الاجتماعية مشكلة حياتهم اذ تبقيهم في حالة من العوز بأكثر اشكاله مباشرة؛ ومن ناحية أخرى، بالنسبة للممتازين — الذين هم نحن — والذين يستطيعون أن يسمحوا لأنفسهم بترف تصوّر التغيرات المحتملة مستقبلاً للوضع، في حدود تطلّب اخلاقيّ. ولكن نفس كفاح الجماهير المستغلة اكبر استغلال جذري، لا يمكن أن يكون كفاحاً ثورياً الا بثمن مشروعات في مستقبل معين، مستقبل لا يوجد ثمّ شيء يضمن لهذه الجماهير أنها سوف تصل اليه حقاً. ومع وضع كل شيء موضع الاعتبار، وسواءً على صعيد مشروع جماعي أو على صعيد مشروع شخصي، فان المشروع يستهدف دائماً اختراع ما ليس بكائن على أساس ما هوكائن: ومن ثم يظهر «المشروع» باعتباره، في نفس الوقت محدداً متعيناً، كليةً، بالنسبة لما ينكره (في الكفاح الذي يخوضه ضد الهياكل القائمة فعلاً) ومجرداً، كليةً، بالنسبة لما يؤيده (فيما يتعلق بالعالمية التي يعتزم الوصول اليها).

فانظر الآن كيف تتكون «مثالية» سيمون دو بوفوار، بالفعل، وجوهرياً، من معارضة دائمة بازاء الواقع، وكيف أن هذه المثالية، مهما كان من جذريتها، تظهرّ تلقائياً مهمومةً بأن تخطر على نفسها، في كل الظروف، أدنى تمثيل محدد متعينّ للمستقبل الذي تنعكس فيه خيالاتها. انها تريد التواصل، وأن يُعترف بها، وأن تصل مع ذلك

الى اتحاد حقيقي: ذلك أنها تحس نفسها مبتوتة الصلة بالغير، مغمورة، مستبعدة من العالم الوحيد الذي أعطي لها أن تمارسه. ولكن لا تحاول أن تجعلها تقول عن ذلك أكثر مما قالت. ذلك أن الوسائل لبلوغ هذه الغايات تبدو لها أهم، بما لانهاية له، من الأشكال الخاصة التي سوف تتخذها هذه الغايات أن آجلاً أو عاجلاً. عندما تتحقق. وهنا يستطيع المرء أن يفهم، فيما أعتقد، المصدر الحقيقي للموقف العملي: ما يتيح له أن يتجاوز «الواقعية» و «المثالية» الناجمة عنها، في وقت معاً، بواسطة إحداهما الأخرى. واذا كانت هذه المرأة قد استطاعت أن توجد من أجل ذاتها، أن تعبر عن نفسها علناً، وأن تجعل الناس يسمعونها، فلذلك بلاشك لأنها لم تكن غريبة عن العالم الانساني بقدر ما قد يجعلنا بعض ما أفضت به الينا من أسرارها، نفترض.

وبعبارة أدق: ذلك أن جهدها المتصل للوصول الى هذا العالم، دخل في صراع مبكر ودائم مع انشغالها الحاد بأن تدافع عن نفسها ضد أحد جوانب هذا العالم — هذا الجانب الذي كان قد ترك عليها أثره، أولاً، على شكل انفعالات عميقة وجروح كاوية. وفي هذا التناقض الخشن الحريف، أجرؤ على أن استشف حظ حياتها.

من الذي يستطيع أبداً أن يفلسف، أن يكتب، أن يفعل، «علاً» انسانياً، سواء أحسن في ذلك أم جانبه التوفيق، اذا لم يكن، في مواجهة الضرورات الحيوية الأكثر مباشرة، على التزام (وعلى مقدرة، مهما كانت قليلة) يتيح له أن يخترع نفسه — نتيجة لحلمه بما يفلت من بديه، لتخيله، ولاستساغ معنى عليه، ولإرادته — حتى ليقامر أخيراً بأن يتعرف في أشباهه على هذا التطلب لاضفاء الخصائص الانسانية على الاشياء، هذا التطلب الذي يقطن في داخلنا جميعاً، سواء رضينا أم أبينا؟ ينبغي أن تتوفر ثقة كبيرة حتى يمكن الاتجاه بالخطاب الى الناس، وينبغي أيضاً، بلاشك، حتى يكون للمرء ما يقوله له لهم، الاحتفاظ

بشيء من البُعْد عنهم ، مع ذلك . ينبغي أن تتوفر للك (فيما يبدولي) تلك الحاجة المزدوجة التي عرفناها عند كاتبتنا : أن ترى دون أن تكون مرئية ، أن تكون هناك دون أن تكون ، أن تتواصل حقاً بهذا أو بذلك وأن تصل ، سحرياً ، اجمالياً ، الى ماهية وجودهم المشترك نفسها .

إنّ هناك هؤلاء الناس المتحددين المتعينين بالذات ، وهناك « الناس » : وقد عاشت سيمون دي بوفوار مذ عاشت ، بحدة ، علاقاتها الشخصية ولكنها لم تكن نتيجةً للك أقل حدة ً في اهتمامها المشبوب بمصير البروليتاريا ، ومصير بعض الشعوب المضطهدة . ولكن هنـاك أيضاً « الناس » وعلى وجه أكثر تحديداً ، هناك النساء — في قبضة عالم للرجال : ولكن هذه المرأة التي لم يكن لها اطفال ، والتي لم تَعُدْ تُعتبر قط ، منذ عامها العشرين ، أدنى قدْراً من الرجال الذين عرفتهم ؛ أنظر كيف وصلت الى أن تحس ، وتعبر عن المشاكل الحيوية للوضع الأنثوي ... أيمكن أن نعتقد أنها ، بدون هذا التراجع الذي رأيناها تتخذه من الوقائع الانسانية — وقد كانت تسحرها من جانب آخر — كانت قادرة أبداً على أن ترى ما رأت ، وأن تُريه للناس ؟

ان التوازن الصعب الذي بَنَت عليه عملها وحياتـها على السواء ، لا يستقر ، فيما اعتقد ، الا عـلى دوام صراع فيها ، صراع أصيل جداً ولا يمكن اختزاله ، بين جموح جنون أن تحيا (أن تشارك في الكينونة على نحو مباشر) وبين تطلّب الوصول الى ماهية الكينونة ، نفسها (باعتبارها وعياً مستميتاً في جهده لكشف كل الواقع) . فاذا تأتّى لها من ذلك أن تعامل « الآخرين » في كثير من الاحيان باعتبارهم موضوعات ، فذلك ليس من شأنه أن يثير غضب أحـد ، الا بعض الناس الطيبين الذين ترضى نزعة القريسيين فيهم « بحب الغير » طالما بقي الغير بعيدين عن متناول اليد ، ويبقى أنهم غير قادرين عـلى تبادل ثلاث عبارات متتالية ، بشكل سليم ، مـع اولئك اللاتي

اختاروهم رفيقات الحياة. اما سيمون دو بوفوار فتهتم اهتماماً مختلفاً بالآخرين، وتفتتن بهم، وتسعى الى أن «تفاجئهم»، تفاجئهم على الحالة التي لن يكونوا فيها ابداً حاضرين فيها، أمامها هي، «كما يوجدون في غيابنا»[1]، ولكن ذلك لأنها لم تتخل قط عن أن تصل الى كينونتهم نفسها، الى ماهيتهم، ماهيتها. وعندما تتاح لها الفرصة أن تحيا علاقات محددة، يستطيع المرء أن يسلم بسهولة، فيما أعتقد، بأنها تفيد من الفرصة، على الفور، في أكثر المعاني إيجابية.

اذا كنت لا أضع الناس في كليتهم باعتبارهم أفقاً لمشروعاتي (مهما كانت محدودة)، فانني احكم على نفسي — هناك خوفٌ معين في يحكم عليّ — بأسوأ ضلالات الطائفية، والمحلية، والقومية الرجعية، أو العنصرية، وبصفة أعمّ، بأسوأ ضلالات التعدد «الشمولي» (بالمعنى السيء للكلمة). ومع ذلك فلن استطيع بأي حال أن أكون على علاقة محددة بكل الأحياء من الناس، الا، بالأحرى، أن اشارك في كفاحهم. يجب عليّ اذن أن أحصر نطاق نشاطي الواقعي، اعتباراً من امكانياتي العملية. ويجب عليّ اذن، بالتالي، أن أصدر من الأدنى الى الأبعد، بلاشك، اذا كنت لا أريد أن أجد نفسي، وشيكاً، آخذاً في صراع من أجل سعادة الشعوب، واعتراف الانسان بالانسان، على أساس من نقص واضح جداً في المجال الشخصي، على صعيد علاقاتي المحددة مع أولئك الذين يحيطون بي. ونحن، كما نعرف، نستطيع أن نلاحظ كل يوم أنّ هذا الوضع المقلق الذي أشير اليه هنا، هو، للأسف، وضع عدد معين من الرجال والنساء الذين لم يطلقوا على أنفسهم اسم «المناضلين» الا لكي يهربوا، اذ يلقون بأنفسهم مندفعين للدفاع عن هذه القضية أو تلك، من صعوباتهم الخاصة — التي لا يعدّون أنفسهم

١ — مقدمة «بنت الحرام» لفيوليت لودوك.

قادرين على التغلب عليها . وأي كفاح انساني جدير بهذا الاسم لن تسعده مثل هذه المساهمات . ولكني ألاحظ أن سيمون دو بوفوار ، قد اتخذت ، في هذه الناحية ، الموقف المضاد : شرعت ، دفعة واحدة ، في أن تواجه مشكلاتها الشخصية في نفس الوقت الذي اعطت فيه لنفسها أفقاً من الكلية الانسانية . والخوف الذي أحسته من ذلك بالفعل (شأنها في ذلك شأن أي منا) لم يُفضِ بها الى ان تترك ذاتها ، باسم انضواء عقيم ، بل أن تأخذ نفسها من جديد ، بملء يديها ، حتى تجعل نفسها قادرة على عمل ينير لنا في نفس الوقت امكانياتنا الخاصة في فهم أنفسنا ، كما ينير لنا عدداً من المشاكل الانسانية الجماعية . وعلى ذلك النحو تجنّبت أن تضع التاريخ بين قوسين أو أن تتصور نفسها دفعة واحدة في حالة من التواصل مع العالم بأسره . وانا أرى قوتها الحقيقية ، على نحو نهائي ، انها تنبثق من هذا القلق نفسه الذي أثاره وجود الآخرين دائماً في أعمق أعماق قلبها ، في أكثر مواضع وعيها بذاتها احتداماً وحيوية . ذلك أنه قلق واقعيّ ، لنا به ، بالضرورة ، خبرةٌ مباشرة بمجرد أن نشرع في تصوّر انفسنا في حدود الحرية .

وهي تقول لنا إنها في مواجهة الغير « كنت أترك نفسي افتتن ، وأتسلى ، وأتحير أمام انعكاسات المظاهر ، دون أن اتساءل عما تغطيه . ولكني كنت استطيع أن أتخلص من هذه الجمالية ؛ فاذا كنت قد أصررت على ذلك ، فانما ذلك لأسباب عميقة : لقد ظل وجود الغير عندي خطراً لم أقرر أن أواجهه بصراحة . كنت قد كافحت كفاحاً شاقاً عسيراً ، في الثامنة عشرة من عمري ، ضد العراقة والسحر اللذين زعما تغييري الى مسخ شائه : التزمت جانب الدفاع[1] » . – « ان وعي الغير ، كالموت الذي نتكلم عنه دون أن نراه أبداً وجهاً لوجه ، ظل عندي شيئاً » يقال

١ – « قوة العمر » ص ١٣١ .

عنه » ؛ وعندما حدث لي أنني تحققت من وجوده ، أحسست بنفسي أصارع في قبضة فضيحةٍ من نفس النوع كالموت ، ومثله ، لا يمكن قبولها .. »[1]

نعم ، هذه المرأة كانت ، في البداية ، هيجيليّة ، على غير علمٍ منها ، اذ أنها قد ذهبت الى حد تصور قتل « الآخر » حتى تفلت من السلطة التي كانت تعزوها إليه ، على العالم وعلى نفسها[2]. ولكن هذه بالفعل ، فيما يلوح لي ، نقطة الرسوّ لكل معرفة حقيقية : أي قيمة ، بالفعل ، يمكن لوعي الآخر أن يتخذها في عينيّ أبداً ، اذا لم اكن أتطلب من وعيي ، من قبل ، أن يكون « الوعي » مرادفاً « للسيادة » ؟ ولعل الأمر هنا يتعلق ، بكل بساطة ، بالأمانة : تلك الأمانة التي تفرض نفسها ، على كل حال ، من جانب كل من يتطلع الى الاتجاه بالخطاب الى الآخرين فيما وراء امكانياته الخاصة للالتقاء بهم حقاً.

إن سيمون دو بوفوار التي نبدأ في أن نألف أنّ همّها المزدوج هو التواصل والكشف ، لم تحاول قط ، على أي حال ، أن تبعث فينا أدنى وهم عن موقفها في المستوى السياسيّ : بل على العكس ، ضاعفت في هذا الصدد عبارات التحديد الدقيقة من الطراز السلبي ، تكرر بلا وهن أن مشكلتها لم تكن هناك — دون أن تفقد الاهتمام حقاً ، أبداً ، مع ذلك ، بالمصير المحدد للجماعات الانسانية التي أتيح لها أن تقترب منها . ولعله ليس من قبيل الصدفة انها استطاعت ، في هذه الظروف ، أن تمارس مثل هذا التأثير على مجتمعنا ، اذ دعت النساء الى كفاح اجتماعي

---

١ – نفس المرجع ص٣٢٤ . ونلاحظ هنا التلاقي الواضح الموضوع مع السارتري الذي نرى وفقاً له أن الجحيم هو الآخرون » (جلسة سرية) أو أن العلاقات مع الغير تقع أصلا في جو من الصراع (« الكون والعدم ») .

٢ – « كنت اجهل عبارة هيجيل : « كل وعي يسعى وراء موت الآخر » لم أقرأها الا في عام ١٩٤٠ » (« قوة العمر » ، ص ٣٢٤ – ١) .

مضموناته السياسية واضحة بما فيه الكفاية . ولكنه كفاح يبدو أنه سوف يتوقف قبل كل شيء على الموقف الاخلاقي الذي يستطعن أن يتخذنه للسيطرة على وضعهن نفسه ، على المستوى الشخصي .

صور تذكارية

صف الفلسفة

صف الفلسفة بمعهد « ديزير » ١٩٢٥

مع صديقتها زازي ، صيف ١٩٢٨

مع أبيها وأختها بويت ، ١٩٢٦

مرسیلیا ۱۹۳۲

ل لیسه مرسیلیا ۱۹۳۲

ل لیسه مولیر ۱۹۳۹

في ايطاليا ، صيف ١٩٤٦

في مكتبة السيدة مارزولي بروما ، صيف ١٩٤٦

في باريس عام ١٩٤٥

مع سارتر في الصين ـ صيف ١٩٥٥

مع سارتر في كوبا ـ اكتوبر ١٩٦٠

عام ١٩٦٠

في باريس عام ١٩٦٣

في الأقصر ١٩٩٦

الجزء الثالث

الموضوعات الإشكالية في علم تحليل الذات

إن الدراسة التي قد شرعت فيها كان يمكن لها ، على نحوٍ ما ، أن تنتهي هنا . وإنني إذ ألتمس من القارئ ، أو القارئة ، قليلاً من الصبر ، فلست أعتزم إلا أن أقترح عليها تفسيراً (هو في أغلب الاحيان صياغة محددة) لكل ما أتيح له أن يتضح لها من خلال التحليلات السابقة . ذلك أنني لم أتناول بالاقتباس ما تقوله كاتبتنا عن عُشر الموضوعات التي استطعت أن أجدها في أعمالها ، ولكنني آمل أنني قد توصلت مع ذلك إلى استخلاص الجوهريّ في موقفها ، وردود أفعالها الثابتة بازاء موضوعٍ ما أياً كان .

وما يبدو له أنه على أكبر الدلالة ، على أي حال ، في النقطة التي بلغناها الآن ، هو الالحاح الخارق الذي تأخذ به سيمون دو بوفوار على عاتقها ، أمام أعيننا ، الجوانب لعلاقتها بالعالم ، والهمّ المتصل الذي تبديه بأن تتولّى هذه العلاقة ، دون تحفظ ، بأن تجعلها دائماً تتوقف على اختيارها هي لنفسها : أي تتوقف على هذه العلاقة بالذات التي تفرض نفسها علينا ، بهذا الشكل ، وفي نهاية الأمر ، باعتبارها نظاماً أساسياً يُرجع اليه – إذ أن هذا الوعي لم يشرع قط في شيءٍ ما ، في هذا العالم ، إلا في حدود تطلّبه للكينونة . وسوف يكون علينا ، بالتأكيد ،

أن نتساءل ، عندما ننتهي ، عن معنى مثل هذا الموقف ، وقيمته ، عندنا : ولكن يبقى علينا ، قبل ذلك ، أن نصوغه صياغة دقيقة ، في خطوطه العريضة على الأقل .

وعلى ذلك فسوف نضع موضع الاعتبار ، من ناحية النظرة إلى هذه العلاقة بالذات ، الكاتبة ، ثم المرأة (إذ لا تظهر المرأة لأعيننا إلا صدوراً عن الكاتبة) ، أي أننا سوف نضع الأدب ، ثم الحياة ، موضع الاعتبار ، حتى نحاول أخيراً أن ندرك الاختيار الاجمالي للذات الذي أتاح لهذه المرأة أن تكتب ذلك الأدب ، ولذلك الأدب أن يصل إلى كل اولئك النساء (وإلى العدد الكبير من الرجال ، بالاضافة إلى ذلك) .

١ – النزعة الى رواية السيرة الذاتية «الأوتوبيوغرافية»، «النرجسية» وصور الذات

إذا كنت أعطي الصفحات القليلة التالية عنواناً فيه كل هذه العدوانية المتعمّدة، فذلك أنه يبدو لي من الضروري أن نضع في الاعتبار بضع مآخذ نقدية وجهت إلى سيمون دو بوفوار، بالقدر الذي يكشف به عملُها الأدبيّ جناحه لهذه المآخذ، بغموضه واستبهامه نفسه، وبالتناقض الواضح الذي يشكل أكثر محركات هذا العمل نشاطاً، من أدناه إلى أقصاه.

سوف أسلّم بذلك إذن، في البداية: نعم، هذه الكاتبة لم تتصدّ إلاّ لأن تقول عن ذاتها، تحت أشكال متباينة، وإلاّ لأن تصف نفسها، لأن تحكي لنا حكاية حياتها، لأن تردّ إلى ذاتها كل المشاكل الانسانية التي لقيتها في هذا العالم. إن كل كتبها تقريباً يمكن أن تعتبر من قبيل السيرة الذاتية، والكتب التي هي من هذا القبيل على شكل سافر، قد تخدع أحياناً، من هذه الناحية، ولأسباب متباينة.

ذلك أنه من الحقّ، بالرغم من كل شيء، في البداية، أن أعمالها الروائية (مها كانت أحداثها وشخصياتها قد نُقِلت إلى أوضاع أخرى،

إذا اقتضى الأمر) مستوحاةً على نحو مباشر جداً من وجودها الواقعي .
هذا حق إلى درجة تصدم الكاتبة نفسها ، فيما يبدو : « قرأت « المدعوة »
من جديد ، من أولها إلى آخرها ، ودونّت ما أراه فيها . إنني أجد
فيها ، كلمةً بكلمة تقريباً ، أشياء أقولها في مذكراتي . وأشياء أخرى
عادت للظهور في « المثقفون » . نعم — وليس ذلك مثبطاً للهمة على
أي حال — ان المرء لا يكتب أبداً إلا كتابه هو [1] » .

فليكن . ذلك موضوع كلاسيكيّ يمكن أن ينحني له النقد التقليديّ
نفسه . ولكننا إذا رجعنا إلى السيرة الذاتية باعتبارها نوعاً أدبياً ، بالمعنى
الدقيق للكلمة ، ألا نجدها المرء تأريخية ومسطّحة ، ألا نأسف فيها لهذا
النوع من الموضوعية الساذجة التي تبذل الجهد المستميت في ذكر كلّ
ما وقع ، كما لو كان الاهتمام برواية الاحداث يغلب على الاهتمام بفهمها ،
كما لو أن الحقيقة يمكن ألا تكون إلا خصيصة من خصائص الوقائع ،
وتصدر مباشرة عن مجرد تراكمها ؟ وقد كان يمكن الانحياز لهذه الناحية
أن يكون مقبولاً ، بعد ذلك ، لو أنه على الأقل كان يضمن للقراء
حقّ النظرة المطلق على حياة الكاتب الخاصة : ولكن الحال ليس كذلك ،
حتى .... « يجب أن أحذّرهم من أنني لا أنوي أن أقول لهم كل
شيء . لقد رويت ، دون أن أحذف شيئاً ، طفولتي ، وصباي ،
ولكنني إذا كنت قد استطعت أن أعرّي ماضيّ البعيد ، دون حرج
ودون كثير هوَج أو تجهّم ، فانني لا أحس بنفس هذا الابتعاد بإزاء
عمري في سنّ النضوج ، ولا أملك نفس الحرية ... سوف أترك في
الظلّ » ، بعزم ، كثيراً من الاشياء » . — « في باريس ، في الهافر ،
في روان ، كان الموضوع الرئيسيّ في حديثنا هو الناس الذين نعرفهم ،
كانوا يشغلوننا إلى حد أنني إذا حظرت على نفسي أن أحكي حياتهم ،

١ — « قوة الأشياء » ص ٤٣٩ كلمة « هو » تؤكدها الكاتبة .

بهتت الصورة التي أرسمها لحياتنا : ولكن أسباباً واضحة تقضي على بهذا الصمت . » — « من المستحيل قول كل شيء »[1] ... »

فليكن . ربما سلّم بذلك كل حسن النية الذي يخفى ، من حيث المبدأ ، في قلب أشد أفكارنا إمعاناً في النقد : ذلك أننا لسنا مصابين بشذوذ الرغبة في النظر إلى المحرمات ، ونحن ، في النهاية ، نستطيع أن نفهم أن كاتباً ما ، هو أقل منا تحرراً فيما هو واضح ، قد يذهب إلى حد أن يخفي عنا هذه اللحظة أو تلك من حياته . ولكن مثل هـذا الاغفال ، الا يجعلنا ، في مقابل ذلك ، أشد صرامة بازاء موقف يقوم قبل كل شيء على أساس الدقة المتصلة للذاكرة لا هوادة فيها ؟ هـذا الموقف الذي لا يبدو مبرراً ، بالضبط ، إلا بشموله الجذري في السرد وتقديم الحساب ؟ وإذا كانت الحقيقة في الوقائع ، أفلن تتشوّه الحقيقة على نحوٍ خطير ، في نهاية الأمر ، بالقاء عددٍ معين من الوقائع التي لا تعتبر ، كلها ، فيما يبدو ، من بين أكبرها دلالة ؟ ومن جانب آخر ، ألن يكون ثم مجال لحدٍ أدنى من الشك بازاء مقدرة خارقة بهذا الشكل على الاحتفاظ بالماضي وعلى استرجاعه ؟ يقال لنا : « دون حذف شيء » : ولكن ألا يراودنا الشك ، إذ نرى كل هذه الذكريات الدقيقة تنصب وتتدفق علينا ، في أننا هنا بازاء مقدرةٍ مقلقة على إعادة البناء ؟

---

١ — « قوة العمر » ص ١٠ و ١٣٠ ؛ « قوة الأشياء » ص ٨ . كلمة كل شيء في النص الأول وفي الثالث تؤكدهـا الكاتبة . — وإذ تتحدث سيمون دي بوفوار عن هـذا الحلف الـذي عقدته مع سارتر (عن امكانية كل من الطرفين أن يحبا حباً عرضياً ، وليس فقط مجـرد « نزوات جنسية عابرة » ، تؤكد مـسألة كانا قـد « تفادياها بطيش » في ذلك الحين ، هي مسألة شخص ثالث ، والطريقـة التي كانت ستتوافق مطـالبه الخـاصة مع الترتيب الـذي وضعاه لأنفسهما . وهي تضيف ، بشأن هذه النقطة : « إن الحيطة والتبصر الضروري قد نالا من دقة اللوحـة التي رسمتها « قوة العمر » ... » (« قوة الأشياء » ، ص ١٤٠) .

أما أنا فسوف أحاول أن أعبّر عن اليقين الذي استطعت أن أستقيه ، في صدد هذه النقاط المختلفة ، من إعادة قراءتي لأعمال سيمون دو بوفوار على نحوٍ من الانتباه والتيقظ لم تلقَ هذه الاعمال مثله ، أبداً من قبل ، بلا شك .

ولنبدأ بآخر مسألة أثيرت هنا . إنني أشهد بزيف الموقف النقدي الذي تمّ عنه هذه المسألة ، إذ يبدو لي موقفاً لا يمكن الدفاع عنه بحال ، وذلك من حيث المبدأ نفسه . ذلك أننا هنا بإزاء أمرين لا ثالث لهما : فإما أنّ سيمون دو بوفوار قد صنعت حياتها من جديد وهي ترويها لنا ، وإما أنها تذكرت هذه الحياة حقاً ، من أولها لآخرها . ويجب استبعاد كل فرض ثالث ، على الفور : لا يمكن لامرء أن يخترع وأن يتذكر ، في وقت معاً ، بكل هذه الدقة ، بكل هذا البذخ من التفاصيل ، دون أن يحكم عليه ، وشيكاً وبشكل واضح جداً ، بأن يتردّى في أسوأ الاضطراب والبلبلة . فانت إذن حرّ ، من حيث النظرية المجردة ، في أن تتصور كاتبتنا أبرع روائية في هذا القرن ، أو أن تتصورها امرأة أخذت على عاتقها بشجاعة أن تقول عن ذاتها . أما في الواقع المحدد فليس لك اختيار : ذلك أنه قد حدث بالفعل أنها ، من ناحية ، قد لجأت إلى وثائق عديدة (يومياتها الخاصة ، مذكراتها ، كل أنواع الرسائل التي تبادلتها مع أصدقائها الرئيسيين) ، وأنك تملك ، من ناحية أخرى ، البراهين الكافية ، الموضوعية ، العامة ، التي لا تدحض ، لتأييد سلامة وصفها لنفسها ، وفقاً لناسك هذه الحياة . ومن ثمّ فلنسلّم بما يلي : ان القصة التي تحكى لنا (مهما أمكن أن يكون فيها ، هنا وهناك ، اضطرابات في التفاصيل ، أو ثغرات مقصودة أو غير مقصودة) هي في جوهرها قصة مطابقة للحقيقة ، وتلك الوقائع التي ترد فيها وقائع حدثت في الحقيقة .

أما عن الثغرات المقصودة ، فاعترف الآن أن التفسير المفصل لها عند كاتبتنا يبدو لي تفسيراً غير كاف : وهي نفسها تقترح علينا تفسيراً آخر على كل حال ، حيثما اقتضت المناسبة — تفسيراً قائماً لا على أساس مراعاة الحيطة والتبصر بشأن أشخاص ما زالوا أحياء ، بل على أساس المسائل التي تثيرها عندها . علاقتها هي بذاتها : « لماذا توجد أشياء أتمنى أن أقولها ، وأخرى أتمنى أن أدفنها ؟ لأنها أشياء ثمينة نفيسة (مقدّسة ربما) أكثر نفاسة من أن يتناولها الأدب كما لو كان الموت وحده . النسيان وحده ، يرتفع إلى مستوى حقائق معينة ... »[1] . ولنلاحظ هنا أنّه إذا كان الأدب بالنسبة لسيمون دو بوفوار . هو ، في البداية « المقدّس » فانها بعد ذلك قد صارت قادرة على أن تكشف فيه أحياناً موقفاً مُجدّفاً إزاء حقائق معينة تبدو لها أكثر قداسة .

أعتقد أن من المهم أن نظل واعين بذلك قبل كل شيء ، عندما نحاول أن نفهم الحاجة الهائلة التي كانت تحسها دائماً لكي تقول عن ذاتها : « كنت أشتهي أن أتحدث عن نفسي » — « كنت أريد أن أضع فيه كل شيءٍ عن نفسي » كما قالت عن محاولتها الأولى لكتابة كتابٍ عن طفولتها : « الرغبة القديمة في أن أروي ذكرياتي » ولكنها، إذ تصف لنا الطريقة التي نهضت بها أخيراً بذلك المشروع ، وإذ تعطينا ، على نحوٍ أفضل ، ملاحظات مؤرخة في تلك اللحظة ، لكي نقرأها ، إنما تتيح لنا ، بلا شك ، أن نتغلغل أعمق التغلغل إلى هذا الاهتمام المحتدم الذي تحسه هي بتاريخ حياتها نفسه : « تصورت دائماً ، خلسة ، أن حياتي قد وضعت ، بكل تفاصيلها الدقيقة ، على شريطِ آلة تسجيل هائلة ، وأنني يوماً ما سوف أفرّغ كل ماضيّ ... كنت أتمنى ، في الخامسة عشرة من عمري ، أن يقرأ الناس يوماً

---

١ — « قوة الاشياء » ص ٤٥٢ .

تاريخ حياتي بفصول جيّاش ، وإذ كنت قد أردت أن أصير « كاتبة معروفة » فقد كان ذلك على هذا الأمل . ومنذ ذلك الحين ، فكرت كثيراً أن أكتبه بنفسي . إن النشوة التي كنت أداعب بها هذا الحلم قد أصبحت اليوم غريبة عليّ . ولكني احتفظت ، في قلبي ، بالرغبة في أن أحققه ... » [1].

وسوف تفسر ذلك ، على أي حال ، بالرغبة التي تحسها في أن تبتعث ، أمام ناظريها ، الفتاة الصغيرة التي كانتها ، في أن تجرّها « من العدم » : ولكنها من الكبر بحيث تعرف أنّ لا مجال لتحقيق ذلك قط ، وأنها لن تصل اليه حقاً . والواقع أننا بصدد « مشروعها القديم دائماً (« ورغبتي في أن أحكي عن نفسي ») : ان ما تريده هو أن تصل إلى الكينونة إذ توجد تحت نظرة الغير . ولا تهم ، في كثير أو قليل ، النغمة الانفعالية (سواء كانت نغمة نشوة أو نغمة هدوء) التي تصر بها على أن تريد ذلك ، في تلك اللحظة من حياتها . وهي فيما بعد ، عندما تصحح تجارب المطبعة لكتابها « مذكرات فتاة مستقيمة » وتقرر أن تكتب بقية هذه السيرة الذاتية ، تدوّن ما يلي : « في هذه اللحظة ، كل شيء يشجعني على النرجسية » [2].

ولكنْ هل يُتاح لي الوقت أن أشرح ، إذا قلت هنا إنني أعتقد ، بعد أن يوزن كل شيء بميزانه الدقيق ، أنه لا تبقى عندها أدنى نرجسية ؟ ومع ذلك فقد حدث لي أن ظننت ذلك .. ولكن ذلك لأنني

---

١ – « قوة الاشياء » ص ٣٩٣ . إن الكاتبة تضع خطاً تحت هذا النص كله ، كما هو موضح . وقد قالت سيمون دو بوفوار ، من ناحية أخرى ، لمادلين شابسال (« الكتّاب بأشخاصهم » جويار ١٩٦٠) : « كنت لأود أن تكون عندي مجموعة وثائق هائلة عن حياتي ، كنت لأجد في ذلك ما يثير الاهتمام المشبوب . »

٢ – « قوة الأشياء » ص ٤٣٠ .

خلطت عندئذ بين الانتباه الصارم الدقيق الذي تُوليه وجودها نفسه ، ماضيه وحاضره ، وبين الرضى عن النفس الذي يتعذر على المرء أن يكشف عن أدنى أثر له في كل أعمالها . أنظر مثلاً ، في نفس الفترة التي تعزو فيها إلى نفسها مثل هذا الموقف ، كيف أن مسلكها الحقيقيّ ينكر على هذا الموقف كل حقيقة . إحدى الأمارات التي تدلل بها على نرجسيتها المزعومة تكمن في الاهتمام الحاد الذي تعبره إلى ... اليوميات الخاصة لفتاة أميركية شابة اسمها جوان ، وهذا ما تقوله عنها ، قبل ذلك بأسبوع ، في يومياتها هي : « اليوميات الخاصة ، عامةً ، تفتنني ... ان المرء يغوص حقاً في حياة أخرى ، في نسق آخر للمراجع والارشادات ، وذلك ، بمعنى ما ، هو أكبر المنازعات حدة : فبينما أقرأها تكون هي الذات المطلقة ، وليس أنا . » والنرجسية ، إذا لم أكن مخطئاً ، لا تتشكل قط في آن يهتم فيه وعيٌ ما ، أيّاً كان ، بنرجسية وعي آخر ، اهتماماً مشبوباً ... وكيف يزعم المرء ، أخيراً ، أن تتساق سيمون دو بوفوار في هذا الانحراف ، بينما من الواضح أن حاجتها إلى أن تقول عن ذاتها (حاجتها للكينونة إذ "تقرأ") كانت دائماً تتوازن مقابل حاجتها أن تكون لها قيمة (حتى تقول شيئاً له قيمة) ؟ وهي تعترف ، بصدد هذه «اليوميات الخارقة لجوان» حيث نراها تغوص فيها وتوحل ، أن مشاعرها قد اهتزت بالتأكيد بحرارة هذه المرأة الشابة وذكائها ، في نقدها لها حيناً ، ودفاعها عنها حيناً ، بعد أن قرأت أعمالها ، ولكنها تستطرد للفور أن السرور الذي تستقيه منها مختلطٌ بالقلق : « سوف ينبغي علي أن أكتب كتباً أخرى ، أفضل ، أن استحق من جديد ، أستحق حقاً أن أوجد من أجل الغير على هذا النحو . »

هنا يكمن ، فيما يبدو لي ، المفتاح الحقيقيّ ، لنزعتها نحو رواية السيرة الذاتية : ذلك أن نظرة الغير يمكن بلا شك أن تجعلك تصل إلى

شكل معين من أشكال الكينونة ولكن بشرط أن ينجح المرء في أن يوجد من أجل ذاته . وبدلاً من أن تلقي برية النرجسية على المسلك الأدبي لسيمون دو بوفوار ، فلنسجل بالأحرى ، في طريقتها أن تصاب نفسها النزاع وأن تعرض نفسها عن عمد لأسوأ منازعاتنا لها ، بلوغها الحقيقي سنّ النضوج : التجاوز الحاسم لموقف مراهق (وبورجوازيّ صغير بشكل مميز) يتخصص بتحفظ مسرف بإزاء أقرب الاصدقاء اليها ، وبالسرية المطلقة التي كانت تحيطُ بها عندئذ حوارها مع نفسها . وهكذا كانت قد كتبت ، إذ افتتحت يومياتها الخاصة : « لو أن أحداً أياً كان ، قرأ هذه الصفحات ، فلن أغفر له أبداً . سوف يكون ذلك منه عملاً قبيحاً وسيئاً . والمرجو احترام هذا التحذير بالرغم من رصانته المثيرة للسخرية »[١] .

وقد يزعم المرء مع ذلك أنها لم تتغلب على نرجسيتها . بهذا الشكل ، إلاّ لكي تتساوق مع الاستعراضيّة ، ومن ناحيتي فقد أبديت (في الجزء الأول من هذه الدراسة) صورة ليس فيها الكثير من التوقير ، للقندس على شكل من يقشر عنه أوراقه ، ويتعرى .. نعم ، ذلك ما لا أنكره : فصحيح أن هذه المرأة قد اختارت أن تتعرى تحت أعيننا ، أكثر بكثير مما سوف تفعله أبداً أية فتاة من فتيات « الستربت — تيز » ، وهي لذلك بالذات ، بلا شك ، تستحق أعمق احترامنا ، وأكبر امتناننا حقاً .

ليست هناك إلا طريقتان للكتابة (سواء كانت كتابة جيدة أم رديئة ، لا يهمّ ، تلك مسألة أخرى) : فإما أن يزعم الكاتب أنه يستهدف « الموضوع » نفسه (العالم الخارجي في غياب الذات ، الذات في داخليتها البحتة) ، أو أن يأخذ المرء على عاتقه كشف العالم إذ يكشف عن نفسه

١ — « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٨٧ .

فيه . أي أن يقترح على القارئ تجربة معينة لهذا العالم – تجربةً ذاتية وموضوعية معاً (كما هو مفهوم) ولكنها تجربة واعية . إذن ، باستبهامها الذي لا مناص منه . إذا كنت تريد أن تقول عن العالم . محاولاً أن تعطيه معنى . فينبغي أن تقبل أن تقول عن ذاتك . وإذا كان يطيب لك أن تتكلم عن نفسك . فلن تستطيع ذلك حقاً إلا بأن تتكلم عن العالم . ولذلك فان كل كاتب حقيقيّ هو بالضرورة استعراضيّ ومهرّج ، ولذلك أيضاً ، فان استعراضيّة الكاتب ، وتهريجه ، يشكّلان ، سواءٌ شاء أم أبى ، نوعاً من الكرم . إن الرجل أو المرأة ، عندما يختار أن يكتب ، عندما يصعد إلى المنصة ، ويتيح نفسه تحت أعين الجمهور ، ويسلم نفسه للجمهور ، إنما يسعى ، بلا أدنى شك ، وراء أُهولة خرافية شخصية : ولكنّه لن يتاح له ، من وقت إلى آخر ، أن يعتبر نفسه معترفاً به من العالم إلا بثمن أن يعطي العالم لقرائه ، أن يوصل اليهم رؤيا للعالم . أما ذلك الذي لا يريد التواصل مع الغير (والعمل الذي لا نهاية له الذي يفترضه ذلك التواصل) والاعتراف بكينونة نفسها في وقت واحد معاً ، لن يصير كاتباً أبداً – اللهم الا باستثناء أقلية ضئيلة للغاية معلقة ، على نحو يدعو للسخرية ، بالأساطير الثقافية (المذهب الجمالي ، المذهب النفسيّ ، المذهب العبثي) التي تشبع في أوساط البورجوازية المحبوسة في نطاق جمودها نفسه والمضطرة إلى الدفاع عن نفسها . ومعنى ذلك أن الكاتب ، مهما كان الأمر ، لا يستهدف لا العالم ولا ذاته ، بل يستهدف حقيقةً معينةً لحضوره هو في العالم – وأن أكبر طموحٍ جوهري له هو أن ينجح في أن يوصّلها الينا ، حتى إلى درجة أن يتقاسمها معنا لو أن ذلك كان ممكناً .

وما زال بعض النقّاد يفكرون كما لو كان المرء يستطيع أن يدين عملاً أدبياً للاخلال بالآداب العامة (والحياء العام ؟) كما لو كان من البذاءة ، بالضرورة ، أن يتكلم المرء عن نفسه عندما يتجه بالخطاب

إلى الآخرين . ولعل الوقائع تضعهم ، في أغلب الأحيان ، موضع المحق : ولكن يجب أن نعتبرهم ، أساساً ، مخطئين . ذلك أن كلاً منا يجب أن يريد نفسه قادراً على فهم كل ما هو إنساني - أي كل تحقق في الواقع الراهن ، عند الغير ، لامكانياتنا المستقبلة المشتركة .. أما البذيء فهو فقط ما لا نستطيع أن ندمجه في كل متكامل ، هو كل ما لا نستطيع أن نعطيه معنى : فان من الوظائف الاجتماعية الجوهرية للكاتب ، بلا شك ، أن يحفزنا إلى اختزال «نصيب الشيطان» في وعينا وفي قلوبنا (أي هذا الهامش الذي تسوده غياهب الظلمة والذي نسميه «الشر») ، وذلك بأن يجهد أن يعطي معنى لما يبدو لنا بذيئاً ؛ مما يفترض ، بعد كل شيء ، حداً أدنى من الجهد من جانبنا نحن أيضاً .. أما أنا ، فأفضل ألف مرة أن أرى بعض كبار «مصدومين» بازاء بسط و «فرش» مشاكل إنسانية معينة ، فسوف يفيقون من الصدمة ، عن أرى كل هذه الوجدانات الشابة وقد أسلمت ، حتى اليوم ، إلى أقسى المفاجآت التي يمكن أن تعرض في الحياة ، لمجرد أن أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يهيئوهم لهذه المفاجآت ، يخافون من أنفسهم (ومن أشباههم) خوفاً أكبر من أن يسمح لهم بالتعبير عن أنفسهم بعبارات واقعية حقيقية . إن ذلك الذي يبحث عن الحقيقة ، كيف يمكن أن يكون أخطر ، عندنا ، من الأخطاء التي نموت منها ، معاً ، دون أن نعرف ، يوماً بعد يوم ؟

إلا أن هناك شيئاً ، على كل حال ، لا يمكن أن نجرده عن الكاتبة التي تشغلنا الآن : هو أن حرصها على الحقيقة همّها بها ، في أكبر الحدود تطلباً ، كان دائماً في نظرها الضمانة الوحيدة لمشروعها . كانت سيمون دو بوفوار ، بالتأكيد ، تطمع أيضاً إلى أن تضع أشياء من حياتها في عبارات ، أن تنقذ تجربتها بالكلمات : ولكننا لا نراها قط تهتم بأن تخدع ، أو تغوي وتسحر قراءها ، أو تخلع على نفسها غير

حقيقتها ، لكي تحسّن عملها الأدبي ، لكي تزيد من فرصها للخلاص. إنها تريد أن تكون معترفاً بها ، في حقيقتها ، فهي إذن سوف تحاصر هذه الحقيقة لذاتها ، وتحيط بها ، وتُحدِق بها ، دون هوادة ، وبأقرب وأوثق ما تستطيع – وليكن ما يكون إذا آثر بعض الناس أن يشيحوا عنها في حياء . تلك هي نفس الحاجة الملحة ، نفس «النية في عنفها وغلوّها لرسم الذات في أكثر مواضعها حياة وحدة» التي كان يمكن أن نلقاها ، منذ أربعمائة عام ، عند رجلٍ أراد أن يكون هو نفسه «مادة» كتابه وحذّر قارئه على النحو التالي : «كل ما سوف أعرّف به عن نفسي ، أياً كان ، طالما كنت أعرّف به عن نفسي كما أنا عليه ، يفي بما أريد ...» فلنستمع ، بعد مونتيني ، إلى القندس تقول : «كنت أريد أن يعتبرني الناس ، ولكني كنت بحاجةٍ ، جوهرياً ، إلى أن يقبلني الناس ، في حقيقتي»[1] .

وعندما تقدِم على كتابة المجلد الثاني من سيرتها الثانية ، تقول هذه «النرجسية» : «سوف ينبغي أن يعود إليّ ، في باريس ، قليلٌ من الاهتمام بنفسي ، قليلٌ من الحماسة ، صدوراً عن هذه المواد التي سوف أجمّعها خلال شهر ، أجرّها من رأسي .» وهذه «الاستعراضيّة» تلاحظ أن في خلال تلك الفترة ، كان يبدو لها أنّ الكلام عن النفس ، بهذه الكثرة ، هو اعتدادٌ مغالىً به بالنفس[2] ، ذلك أن صعوبة الكتابة ، مقرونة هنا وهناك «بصعوبة الكينونة» المشتركة بيننا ، تكفي

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٤٢ . أو ما يلي أيضاً : «كتبت هذه المذكرات ، في أغلبها ، لكي أرسي الحقيقة» («قوة الأشياء» ص ٦٧٧) ، أما عند مونتيني ، فنسمعه يقول : «اني جائع إلى أن أعرّف بنفسي ... وأخشى خشية الموت أن يكون ذلك على سبيل البدل عند أولئك الذين يتفق لهم أن يعرفوا اسمي» .

٢ – «قوة الأشياء» ص ٤٥٢ و ٤٨٦ .

إلى حد كبير إلى أن تجعل الاغراء المزدوج بالاهتمام بالنفس اهتماماً مشبوباً ، وبتخيّل نفسها موضع الاهتمام المشبوب عن الغير ، أمراً نسبياً عندها . ولا ننس أنها قد اختارت الكتابة لأن القراءة كانت قد أنقذتها في البداية من السأم . ثمّ لكي تفلت من عالم التكرار بأن تخلق لنفسها شيئاً جديداً . متفرداً ، لا يحل محله شيء آخر . لكي تخلق نفسها من جديد وتبرر وجودها . لكي تصير هي نفسها قضيتها وغايتها ، لكي تؤنس وحدتها . وتردّ « منفاها » . بأن تحترق « في ملايين القلوب » ، ولكي « تخدم الانسانية » . ولا ننسَ أنها في الثالثة عشرة من عمرها كانت تحس حاجة حادةً إلى أن تنقذ من الصمت ومن النسيان كل ما أعطي لها . كل يوم . أن تراه . أن تحسه ، وأن تحبه : « كنت دائماً أميل إلى التواصل » — « كنت أهتم ، في وقتٍ معاً . بنفسي وبالآخرين » . ولا ننسَ أنها ، منذ وقتٍ مبكر ، تصورت « رسالتها » و « وكالتها » تحت صورة مزدوجة : « كنت مدعوّة إلى أن أعبر وعيي للروعة المتعددة الجوانب في الحياة ، وكان عليّ أن أكتب حتى انتزعها من الزمن ومن العدم . » . وهكذا يتأتى لها أن تفرّق بين حالة سارتر (الذي « كان يحيا لكي يكتب ») وبين حالتها : « أما أنا فكنت أعطي للحياة قيمةً عليا ... » — وهو موقف يؤيده اقتباس من يومياتها الخاصة في نحو الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين من عمرها : « لن أكون أبداً كاتبةً قبل كل شيء آخر ، مثل سارتر . »[١] ويؤيدها أن سعادتها بالوجود ، خلال هاتين السنتين من عقد « ايجارها » الأوّل ، سوف تخنق تماماً عندها كل حاجةٍ للتعبير عن نفسها ، لأن تظهر نفسها تحت شكل أدبيّ : « ان الكتابَ ، هو بطريقة أو أخرى ، نداء للنجدة : من أنادي به ، وممّ أستنجد ؟ كانت السعادة تفيض بي ... ان القيام

---

١ – انظر أيضاً : « كنت أحرص أولا على حياتي ، في حضورها المباشر . وكان سارتر يحرص أولا على الكتابة . » (« قوة العمر » ص ١٥١) .

بعمل أدبي هو على كل حال أن تُري العالم للعيان ، أما أنا فقد كان حضوره الخام يسحقني . ولم أكن أرى فيه شيئاً : لم يكن عندي ما أظهره . »

ولن ننتهي من أن نقابل ، من ناحية ومن أخرى ، تلك الفقرات من أعمالها حيث تُعلي من قدْر الكلام ، والكتابة ، و « الكلمة » ، (وتُعلي أيضاً من ضرورة وجمال العالم المتخيّل الذي يشكله عمل فني) والفقرات التي تعطي الأفضلية ، بوضوح ، للحياة ، للحب ، للسعادة ، لجمال العالم الواقعيّ أو لمشاكل الناس ومحن التاريخ ... فلنكتف إذن بأن نذكّر هنا بالنصّين اللذين يعبّران ، بلا شك ، بأقوى ما يكون ذلك ، عن التوتّر المرموق الذي لم تكفّ هذه الكاتبة عن أن تحياه ، بين وجودها نفسه ، وهمّها وحرصها على التعبير عنه :

تقول لنا أنه في عام ١٩٣٩ « أمسك بي التاريخ فلم يتركني قط بعد ذلك ، وفي الوقت نفسه كنت أخوض غمار الأدب ، بعمق ، وإلى الأبد . » ولكن لا نرَ في ذلك إلاّ تصويراً دراميّاً مكمّلاً ، يرجع إلى الظروف ، لمشكلتها الأساسية : « أما أنا ، فقد كان مشروعي هو حياتي نفسها .. ولكي ترضيني حياتي ، كان ينبغي أن أعطي للأدب مكانه » . إلا أنه قد اتفق أنها ، في خلال السنوات العشر السابقة ، كانت قد كتبت كثيراً ولم تنشر شيئاً : لذلك تتساءل كيف تأتى دفعة واحدة أنها وقد كتبت « المدعوة » أمكن أن تصير « قابلة للنشر » ، ويبدو لي أن السببين اللذين تقدمهما لذلك ، عندئذ ، لها دلالتهما ، كلاهما : « الكتابة مهنة يتعلمها المرء وهو يكتب » — « يظهر الأدب عندما لا يستقيم شيء ما ، في الحياة ، على وجهه » . وبعبارة أخرى : الكتابة عمل ، والمرء لا يكتب حقاً إلا إذا كان لديه شيء يقال . « الشرط الأول ... للكتابة هو أن يكف الواقع عن أن يسير من تلقاء

نفسه . عندئذ فقط يكون المرء قادراً على أن يراه وأن يُريه للعيان [1] » .

أما النص الثاني فيميل إلى تحديد أن المرء لا يكون لديه حقاً شيءٌ يقال إلا بقدر ما يكون عليه أن يحلّ مشكلة من مشكلات وجوده . وعلى هذا النحو نراها تبرر نهاية « المدعوّة » (مقتل اكزافييه على يدي فرانسواز) وهي نهاية في نظرها ، غير قابلة للتبرير من الناحية الأدبية البحتة : « بالقدْر الذي يكون الأدب فيه نشاطاً حيّاً ، كان مما لا غنى لي عنه أن أقف عند هذه النهاية : كانت لها عندي قيمة تطهيرية [2] » .

نعم . هذه الكاتبة هي امرأة حية : امرأة عرفت ، بالكتابة ، كيف تطرد عن نفسها سحر هواها المشبوب شبه الشيطانيّ بالاستقلال الذاتي ، أي بسيادةٍ مطلقة ، امرأة أرادت ، دون خور ، أن تستحق أن تحيا حرّة ، وأنْ تستطيع بحرية أن تعبّر عن نفسها . إنها لم تسلم نفسها لا لحكم الله ولا لحكم أجيالٍ لاحقة ، مجردة ، بل لحكم معاصريها أنفسهم ، في هذا البحث عن « خلاصها » هي ، ولم تنقطع عن أن تقدم لهم ثمرة عملٍ حقيقي أعملته على ذاتها (على فكرها وعلى حياتها سواءً بسواء) ، متحملةً في ذلك مسؤولية كل خطر . « كنت أتمنى أن يقرأني ، وأنا على قيد الحياة ، أناس كثيرون ، وأن أكون موضع التقدير والاعتبار ، وأن أكون محبوبة » — « يسرني أن أرى قرّاءً من لحم وعظم ، يحبونني » — « أعطتني الشهرة المستطيرة .. ما كنت أتمناه : أن يحبّ الناس كتبي ، ويحبوني من خلالها ، أن يصغي إلي

---

١ — « قوة العمر » ص ٣٦٨ — ٣٧٤ . كلمات « يسير من تلقاء نفسه » تؤكدها الكاتبة .

٢ — نفس المرجع ص ٣٤٨ .

الناس ، وأن أؤدّي لهم خدمة بأن أظهر لهم العالم كما كنتُ أراه . »[1]

لقد صار هذا الوعي ، بالتأكيد ، أرهف حساسية باطراد ، بازاء «المقدرة الخارقة للكلمة» («ربما كانت أعمق رغباتي أيضاً أن يردّد الناس بصمت كلماتٍ معينة ربطت بين بعضها البعض[2]») . ولكنها من ناحية أخرى أحست بالحاجة إلى أن تعرف العالم على نحو أفضل ، باطراد («بطريقة أكثر تفصيلاً ، أدق ، وأكثر حياة قبل كل شيء») من خلال اللقاء الواقعي بأشباهها . وأخيراً فإن همّها الدائم بأن تكون في كل شيء وبالنسبة لكل الناس حقيقةً إلى أكبر حد ممكن هو الذي يجعل أعمالها شيئاً لا يعوض في أعين كل هؤلاء القراء ، في نفس الوقت الذي يسلم هذه الاعمال إلى التعالي والزراية من قِبل حفنةٍ من الجماليّين الذين لا تقع عندهم قوة الكلمة إلا في مستوى صواريخ الألعاب الناريّة وبراعة خفّة اليد في الألعاب السحرية .

وهي تعلن في فخار : «إن الواقع أنني كاتبة .. كاتبةٌ امرأة .... وجودها كلّه محكومٌ بالكتابة .» ولو كنت ناقداً أدبياً لسرّني أن أثبت كيف أنه منذ «المدعوّة» حتى «موت عذبٌ للغاية» يبدو لي هـذا الادعاء له مشروعيّته وصحّته . ومع ذلك فانني ألاحظ ، في مقابل ذلك ، هـذا الاعتراف التالي بالعقيدة الذي يكلمل الاعتراف الأول ، على نحوٍ باذخ ورائع : ألاحظه بسرور أكبر ، بل في بهجة حقيقية — إذ أحظر على نفسي أن أتجاوز هنا حدود مشروعي ، فلست ناقـداً أدبياً ، وعندما تقول سيمون دو بوفوار : «انني مثقّفة ، انني أعطي قيمة وقدراً للكلمات وللحقيقة .» يكفي على أي حال أن نقلّب الجزأين الأخيرين من سيرتّها الذاتية حتى نقدّر بأيّ مدىً من الحدّة وضعت

---

١ – «مذكرات فتاة مستقيمة» ص ٥٨ و ٤٩٩ و ٦٧٧ – ٦٧٨ .

٢ – نفس المرجع ص ٦٧٩ .

«القندس لنفسها » المشكلة الشائكة للصدق الأدبي» وإلى أي حدٍّ حرصت على أن تتجه إلى من يقرأونها بشكل مباشر وحقيقي أكثر فأكثر .

هل لديها ، في النهاية ، صورةٌ عن الذات ؟ تبدو لي الاجابة بسيطة : لو أنه كانت لديها مثل هذه الصورة ، لعرفناها . ولكانت مجرد موهبتها قد أتاحت لها منذ وقت طويل أن تعرض علينا هذه الصورة ، على أن تعيد تزويقها من جديد ، بلا نهاية . ولكننا نراها ، بدلاً من ذلك ، مهمومة بأن تكتب ، مذكراتها ، بالأسلوب التأريخي الزمني ، على حين أنها تعرف حق المعرفة أنَّ تجربةً إنسانيةً ما ليست « سلسلة من الوقائع » : ذلك أنها قد فهمت أن « الكاتب ليست لديه الوسائل أن يقول وقائع حياة في نفس الوقت ، ومعناها » . وبعبارة أدق ، إذا زعم أنه يعطي معنىً لحياة ما ، حياته مثلاً ، فانه يغشّ ، ولا يسلم للقارئ بالفعل إلا صورة عن الذات . ذلك أن هذا المعنى المزعوم لا يوجد في أيِّ مكان : « ذلك موضوعٌ غريب : حياةٌ ما .. » موضوع يصل إلى التكامل مع ذاته ، ويقصر عن التكامل مع ذاته ، بلا انقطاع ، على مجرى السنوات . وإذا أراد المرء أن يظهر كيف « تحدث الأشياء ، نهائياً ، للرجال ، فلا يمكن ذلك إلا بأن يظهر ، بالتناوب [1] ، حقائق مستبهمة ملتبسة ، منفصلة ، متناقضة » — لن يكون تكاملها المتصوَّر الوحيد ، إذا اقتضى الأمر ، إلا بأن يُسجَّل « في وحدة موضوع متخيَّل » (في رواية على سبيل المثال) . لذلك لم تعتقد سيمون دو بوفوار انها بمستطيعة أن تكتفي بكتابة روايات . ولذلك كانت رواياتها نفسها ، تظهر لنا في أغلب الاحوال ، اليوم ، مثقلة بقدر أكبر من الحقيقة الانسانية ، مما كانت تبدو في الفترة التي نشرت فيها .

١ — وهذا ، كما تحدد سيمون دو بوفوار ، هو « أحد الأدوار الجوهرية للأدب » (« قوة الاشياء » ص ٢٨٢) .

٢ ـ الحياة

إن العلاقة بالذات ، إذن ، عند كاتبتنا ، ليست من طراز أدبيّ بحت : فالحياة نفسها تنوء بها ، بكل ثقلها ، والحرص على الحقيقة أيضاً ، في التعبير وفي ممارسة الحياة على السواء . ولكن من الممكن أن نتساءل بعد ذلك عما إذا كانت الشهرة لم يكن لها أثرٌ ما في استقطاب هذه الحياة على نجاحها نفسه ـ بحيث أدخلت فيها ، عن طريق الانعكاس من الخارج ، صورةً معينة لِلذات .

ومن الصحيح أن سيمون دو بوفوار قد أحست أحياناً بالإغراء في أن تعتمد على شيء يأتيها من الخارج ، لكي تضمن سعادتها ، وأنّها لم تكن تحس دائماً باللامبالاة ازاء احتمال أن تصبح كاتبةً معروفة يوماً ما . فقبل أن تحصل على جائزة الغونكور (عن « المثقفون ») كانت تتمنّى أن تحصل عليها (عن « المدعوّة ») ، وكان مما يبهجها حقاً أن تحس أنها تدخل أخيراً « في الحياة الأدبية » . ولكننا نجد خير إيجاز لموقفها المتصل في هذا الشأن ، في الصفحات الأخيرة من « قوة الأشياء » : « انني مرهفة الحسّ باللوم وبالثناء . ومع ذلك ، فما أن أنقّب قليلاً في نفسي ، حتى أجد لامبالاة كبيرة تمس مستوى نجاحي . لقد قلت إنني ، فيما مضى ، كنت أتجنب أن أقيس أبعاد نفسي ، من

قبيل الكبرياء والحيطة أيضاً . أما اليوم فلست أدري بأي مقياس أقيس : أيجب الرجوع في ذلك إلى الجمهور ، إلى النقاد ، إلى بعض القضاة المختارين ، إلى يقين حميم ، إلى الضجيج أم إلى الصمت . الشهرة أم القيمة ، التأثير أم الموهبة ؟ وبعد ، فماذا تعني هذه الكلمات ؟ هذه الاسئلة نفسها ، والأجوبة التي يمكن للمرء أن يردّ بها عليها ، تبدو لي متضيّعة للوقت . إن ابتعادي أكثر جلرية . إنّ له جذوره في طفولة نُذرت للمطلق : وقد ظللت على يقين من غرور النجاح الأرضي . ومرّانيّ بالعالم قد دعّمت عندي هذا التعالي . فقد وجدت في العالم شقاءً أعظم مما يتيح لي أن يقلقني المكان الذي أشغله فيه وما لي ، أو ليس لي من حقوق لكي أشغله [١] .

أما عن علاقتها بالمال ، فان الإشارات المختلفة التي تعطيها لنا في هذا المجال ، تتم ، في وقت معاً ، عن عدم ارتياح غامض (من أصل بورجوازي صغير مميز) يبدو أنها استطاعت أن تتغلب عليه في مسلكها الواقعي ، وعن عدم اهتمام عميق إلى حد كبير — يصدر بلاشك ، من ناحية ، عن اختيارها التلقائي للواقع ضد المظاهر ، ومن ناحية أخرى ، عن مقدرتها الخارقة على أن تستخلص ، مرةً بعد المرة ، خير ما في أكثر المواقف المحددة تبايناً واختلافاً .

فاذا كان هذه المرأة ، في نهاية الأمر ، صورة ما للذات ، مع ذلك ، فلن تكون هـذه الصورة اذن على مستوى اختيارها للكتابة ، ولا على مستوى شهرتها ، ولا على مستوى رخاء أحوالها المادية . ولكن يبقى علينا أن نسائلها عن أكثر الاشكال مباشرةً لعلاقتها بنفسها ، عن موقفها بازاء جسدها ، بازاء الجنس عندها ، بازاء أنثويتها . فاذا وضعنا ما قمنا به من تحليل فيما سبق ، كان ذلك شيئاً سهلاً ، ولن يكون علينا

١ — « قوة الاشياء » ص ٦٧٨ — ٦٧٩ .

أن نتلبث عنده طويلاً .

لقد استطعنا أن نرى بالفعل ، في أمثلة كثيرة ، أنها كانت ، دفعةً واحدة ، أنثويّةً جداً ، تلقائياً ، ونحن نعرف ، من ناحية أخرى ، أن الأخلاقية التطهرية (البيوريتانية) لبيئتها العائلية تركت عندها أثراً عميقاً . ففي السابعة عشرة من عمرها : « لقد ظللت أوزةً بيضاء[1] » — « كان الجنس يخيفني » — « لم أكن ، لأي سبب في العالم ، لأرضى بالدخول في أية تجربة مهما كان تواضعها » — « وكان يبدو لي شيئاً محزناً ، منكراً ، وآثماً ، بكلمة واحدة ، أن أعطي شفتيّ لشخص لا يبالي بي ...» ولكن ها هو ذا ، للفور ، تفسير دقيق لهذا التجرّد المتعمّد : « كان من أسباب حيائي ، بلا شك ، هذا الاشمئزاز المختلط بالفزع الذي يوحي به الذكر للعذارى . كنت أخاف ، أساساً ، حواسي نفسها ، ونزواتها ... لم أكن أقبل أن أول قادم يستطيع أن يقلبني رأساً على عقب بمجرد التماس ، بضمّة أو بعناق .. سوف يأتي يوم أنتشي فيه بين ذراعي رجل ، سوف أختار ساعتي ، وسوف يكون قراري مبرراً بعنف الحب . » إن تطلّبها للاستقلال الذاتي هو الذي يلعب دوره هنا ، وقد كان في مقدورنا أن نظن أنه لم يكن ضرورياً أن تؤكّده ، إلى هذا الحد ، لولا أن الإغراء بأن تخذل هذا التطلّب قد ظهر عندها أيضاً بقوة لا تنكر . ونحن نرى أنها سوف تستنجد أيضاً بتطلّبها للمطلق : « ومن ناحية أخرى ، كنت متطرفة : كنت أريد كل شيء أو لا أريد شيئاً . إذا أحببت فسوف يكون ذلك مدى الحياة ، وسوف ألتزم به ، بكلّيتي ، قلباً وقالباً ، بعقلي ، وماضيّ جميعاً . كنت أرفض أن أهبش لنفسي عواطف ولذاتٍ غريبةً على هذا المشروع »[2] .

---

١ — « قطة مغمضة » كما يقال عندنا . (المترجم)

٢ — « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٦١ — ١٦٦ .

وعليه فانه ليغريني القول أنّ كل شيء قد قيل في هذه الجمل القليلة ... ذلك أننا لن نجد في أي موضع من أعمالها الأدبية ، ربما ، تصويراً خيراً من هذا لحاجتها إلى الكليّة – لاضفاء خصائص كليّة على الأمور – سواء كان ذلك بازاء المستويات المختلفة التي يقع عليها وجودها في لحظة معطاة ، أو بازاء اللحظات المختلفة لهذا التطلّب على طول السنين . ولكننا إذا توقفنا عند ذلك ، فلا شك أنه سوف تفوتنا المظاهر المتجددة المجسمة التي تمكن تبعاً لها أن تتخذ هذا المعنى معنى في أعيننا حقاً . ذلك أننا على أي حال ، بصدد موقف أخلاقي – وأقصد : أننا بصدد حرص عمليّ على التكامل الكلي للذات ، طول الحياة . إن سيمون دو بوفوار تريد أن تكون ، وهذه الارادة تترجم عن نفسها ، عندها ، بجهد متصل للاتحاد بالذات ، جهد يجب ، في نهاية حدّه ، أن يجعلها في كل لحظة ، حاضرة كلها أمام نفسها .

ومن جانب وعيٍ مزوّد ببعدٍ جسميّ (وكل وعي مزوّد به) ، وعي يجد نفسه ، في هذا البعد ، مرهف الحساسية به ، فان مثل هذه النيّة قد تبدو مجرد مقامرة بحتة ، أو « رهاناً غبياً » كما يقال في أيامنا . إن كائنتنا ، منذ طفولتها ، قد عرفت عنف المشاعر المتناقضة ، واهتمامها المشبوب بأن تكون ، يجرّها حيناً بعد حين إلى أن تعطي نفسها بلا تحفظ ، أو تتأبّى على العطاء بطريقة جذرية ، واقعيتها الخشنة الجافية تصور لها العالم أسود ، بينما كان « فصامها » على التوّ ، قد جعلها تأخذ رغباتها مأخذ الحقائق ، وحاجتها لأن يعترف بها يدفعها مرةً إلى أن تلقي بنفسها ، بكل جوانحها ، في غمار الجماهير التي لا اسم لها ، في قلب كلّ أشباهها جميعاً ، ومرةً أخرى إلى أن تحس نفسها عاجزة كل العجز حتى لا يضطرم لها اهتمام إلا « بغير الاسوياء » ، بمن لا طاقة لهم ، بالكائنات الهامشية . « كان يجذبني الناس الذين يتنكرون إنسانيتهم ، بطريقة أو بأخرى : المجانين ، العاهرات ،

الصعاليك . » وكان الجنون . على الاخص . يفتنها : « بهذيانهم ، وهلاسهم ، وعتههم ، وطربهم الجذل ، وعذابهم ، وحوازهم ، كان هؤلاء الناس مختلفين » — « كنت أخلع على الجنون كرامة ميتافيزيقية : أجد فيه رفضاً وتخطياً للوضع الإنساني » — « كلما ازداد ما في مظهر الناس من غرابة ، وضياع ، ازداد عطفنا عليهم . » ... على مثل هذه الاسس — ومع وضعنا موضع الاعتبار أيضاً ما كان لديها من ميل دائم للموضوعات الزائفة ، للأجواء الزائفة [1] — يصحّ أن نقدّر مشروعها العنيد لاضفاء التكامل الكلي على الذات . باعتباره جهداً للتوازن بازاء الآخرين في حدود تطلّبها الخاص للحقيقة . وأسمع ما يقال عن سارتر أمأنه كان بطبيعته بل أن يكون شاعراً رجيماً ، أو رجل عمل وفعل ، أكثر من كونه فيلسوفاً ، كما صار ، أما أنا فيغلبني التحوط عن أن أقول أي رسالة وظيفية في الحياة أتصور أن قندسنا الكادح الجادّ قد أفلت منها ، واحدة بعد الأخرى على تبايتها مرة بعد مرة ...

فهي تقول لنا إنها في السادسة والثلاثين من عمرها كانت عجوزاً وما كان يهمّها كثيراً أن تظهر الخدوش في أسنانها ، « كنت صغرى همومي . » ولكننا نعرف أيضاً أنه قد حدث لها . وما يزال يحدث لها ، أن تريد بعث السرور في الناس وفي نفسها ، وقد رأينا ذلك ، وهي صغيرة جداً ، ولكننا رأيناه أيضاً على نحو متصل بعد ذلك ، كانت تبدو لنا حساسة جداً أمام الفتنة الأنثوية . وإذا كان حقاً أن نزعتها التطهرية « البيوريتانية » الأصلية لن تنقطع تماماً عن الظهور ، أبداً ، فانها لم تمنعها على الأقلّ ، في مرات عديدة ، أن تعرف متع الحواس —

---

١ — انظر مثلاً « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ١٤٠ و ٢٠ — ٢١ ؛ « وأمريكا يوماً بعد يوم » ص ١٣٩ . ولعله ينبغي أن نقرب بين ذلك وبين جملة جارسان في « جلسة سرية » : « كنت أحب الأوضاع الزائفة » .

حتى تستطيع أن تكتب ، مثلاً : « عبدٌ كبيرٌ أن يتخذ المرء جسماً . »

وعندما أعدتُ ، مرةً أخرى ، قراءة تلك الفقرة البالغة الجمال ، التي استقيت منها هذه الكلمات ، ظهر لي أخيراً إلى أي مدى يتجاوز موقفها الثابت ، في وقت معاً ، نزعتها التطهرية ، وهذا السعار للحياة الذي نعرفه فيها . ان هذه البورجوازية الصغيرة التي نُشئت على ايديولوجية « الوسط السليم » لم تحرّر الحلّ الوسط (٥٠ بالمئة من الحيوية ، ٥٠ بالمئة من الأخلاقية) لتفرضه على نفسها قاعدةً للحياة . كان مقياسها — « المتر » الذي استخدمته لتقيس به وجودها — لن نبحث عنه إلاّ في السَّرَف الواضح المثير لكبرياء يريد أن يعرف السرور واللذة (« كنت قد كففت عن أن أكون عقلاً بحتاً ») ولكنه يرفض على نفسه أن يصبح فريسةً للحاجة . ولما كان هذا الوعي ، بالاضافة إلى ذلك ، رومانتيكياً إلى حد ما ، فلتفهم اذن أن الرغبة لن تتغلب عندها إلا بشرط أن تبدو لها ، في وقت معاً ، حرةً كل الحرية ، وضروريةً كل الضرورة : « لم أكن أسلّم لأنّ يستسلم المرء ، عن طواعية ، لرغباته ، ولا بأن ينظّم المرء ، في برود ، ملذّاته ، كان يجب أن تكون المتعة الغرامية مقدورة وغير متوقعة مثل موجة البحار ، وتفتّق أزهار شجرة خوخ »[١] .

ولكن ينبغي أن نرى إلى أي حد يمكن أن يذهب ذلك ، فعندما يحدث لها مثلاً أن تفترق عن سارتر طوال « أيام ، وأسابيع » : « كان لجسمي مزاجاته ، وكنت غير قادرة على أن أكبحها ، كان عنفها يغرق كل دفاعاتي .. » وليس من المغالاة في القول أنها ، في هذه اللحظات ، تستبشع نفسها : « كنت أمقت العذاب ، كنت أمقت تواطؤي مع هذا العذاب الذي يتولد من دمي ، وكنت أذهب إلى حد

١ — « قوة العمر » ص ٦٧ .

أن أمقت نشيش دمي في عروقي ... في المرايا كنت أتفجر صحة ، وكانت عظامي تتعفن من سُقْم خفيّ ، بحيث يصعب ألا نأخذها على محمل الجدّ عندما تحدثنا عن خزيها ، ونفورها ، بل « غلّها » أخيراً من هذا الجسد « الجائع ، المتسوّل ، الشاكي » الذي تفيض شهواته فتغرق إرادته : كانت « تَفَتّراته المتوحدة » في الواقع « تطلب أيّ شخص » فتأتي إلى صاحبته « باضطراب يثيرها ، من الغيظ والحنق » .

ومع ذلك فلا نُخطئ هنا : ان جسمها نفسه ، بالرغم من المظاهر ، ليس موضع المسألة إلا بطريقة غير مباشرة جداً . ذلك أنها قد ظهرت ، في فترات مختلفة من حياتها ، قادرة على أن تقبل بدون تحفظ أكثر اشتعالاته توهجاً واضطراماً . فعندما كانت في العشرين ، كتبت : « أريد الحياة ، كل الحياة . أحس نفسي طُلعة ، منهومة ، منهومة إلى الاحتراق بنارٍ أكثر توقداً من أيّ الأخريات ، ولو كان ذلك في أيّ شعلة من النار » . وبعد ثلاثين سنة من ذلك سوف تعلّق على هذه الملاحظة بقولها :

« كنت على قيد أنمُلتين من الاعتراف لنفسي بالحقيقة : كنت قد كفاني أن أكون عقلاً بحتاً .. كنت أحدس أن عنف الجسد ، وغلظته ، كانا سينقذانني من هذه التفاهة الأثيرية المسيخة الطعم التي كـانـت تذوّبني » . والواقع أن الأمر يتعلق دائماً بسيادتها ، والمشكلة التي يبدو أن العلاقات بوعيها وبجسمها تثيرها ليست في الحقيقة الا شخوصاً في القضية الجوهرية التي لن تكف عن أن ترفعها ضد نفسها باعتبارها وعياً بذاته . انها وهي فتاة صغيرة ، تستطيع ، بعد ، أن تحكي لنفسها أن كل شيء سوف يكون على خير ما يرام ، بالتأكيد ، طالما ان « الحب الجسماني » يتكامل ويندمج مع الحب عامة . ولكن لا بد لها أن تلاحظ ، وهي امرأة في عنفوان الشباب ، أن جسدها يظل « آثماً » حتى في الحب ، في نظر وعيها ، ما دام وعيها غير راضٍ ولو في أقل الحدود :

« كان ليسهل عليّ أكثر أن أقبل فوضى جسمي واستعصاءه على النظام ،

إذا كنت ، في مجموع حياتي ، راضيةً عن نفسي » . ويتفق أنها في هذه اللحظة تأخذ على نفسها « العقم » النسبيّ في مشاغلها ، وتلوم نفسها أكثر ، بلاشك ، على « تنازلها من أجل آخر » : فليست تلك خيانةً ، أيّاً كانت ، لحواسها ، بل هو إنكار مسئولٌ جداً — نتيجة للحب أو للاستسهال — لتطلبها الأكثر جذرية .

الجسم ، الجسد (عندها أو عند الآخرين) لا ، قطعاً ، انها ليست ضدهما في شيء ! « كنت أحبّ كل مسرّات الجسد » — « أن أولد من جديد مرةً أخرى » — « كنت قد عدت فوجدت جسدي من جديد » — « التقى جسانا من جديد ، في المتعة » ولكن تطهريّة تربيتها ، إذ تتدخل مع الجذرية الصارمة في تطلّبها الاستقلالَ الذاتيّ ، تميل إلى « بلبلتها » إلى حدٍ يقل أو يزيد : بحيث يحدث لنا (ولعله يحدث لها أيضاً أحياناً) ألا نسمع إلا الأولى ، بينما الثاني هو في الحق الشيء الوحيد موضع المسألة . ولنذكر الآن أنها مشغولة بمنازعة العالم الإنساني الوحيد الذي كان في متناولها — صدوراً من أولئك الذين يشكّلونه : — عالم بيئتها المباشرة . ولا شك أنّ المحللين النفسيين الهواة يتناولون ، عن طيب خاطر ، ألفاظاً خارقة مثل « التوحّد بالأب ، أو التوحد بالأم » ، والمحترفين منهم ، أنفسهم ، يتخذون أحياناً مظهر المجانين الأوديبيين [١] .

---

١ — كان أحدهم ، مثلاً ، يخبرني أمس أن كاتب « جلسة سرية » إذ لم يدخل في مسرحيته إلا ثلاث شخصيات جوهرية ، وصف ، على غير علم منه ، « العلاقة الأوديبية الأساسية » وأن المرء لا يستطيع أن يتساءل إذن عن « الغياب الغريب للأب » في داخل « هذا الثلاثي الكلاسيكي » . ولكنه كان يجهل ، بلا شك ، أن سارتر لم يعرف أباه قط . وأنه من جانب آخر كتب « جلسة سرية » لبعض أصدقائه ، في فترة لم يكن ، لا هو ولا هم ، لديهم الوسائل المادية لاخراج مسرحية تتضمن عدة ديكورات أو عدة شخصيات ... إن هذه الملاحظة لا تستهدف بالمرة انكار أن فهم « جلسة سرية » يمر بعدد من الدلالات ، وأنه ينبغي في البداية تفسيرها ، مرة بعد مرة ، على مستويات مختلفة ، إذا كان المرء يريد —

أما أنا فلا أنتمي إلى أي من هاتين الطائفتين من « الذوّاقة » ، وسأكتفي الآن بأن ألاحظ أن سيمون ، في صغرها ، قد شكّلت نفسها إذ وضعت في معارضة الأنثوية المحددة حد التحديد للجسد الأمومي ، رجولة مجردة للوعي الأبوي : من جانب ، العرضية (« الاصطناعية ») ، ومن جانب آخر القوّة الدالة ، القدرة على التجاوز (« التعدّي ») .
ولكن ما يُعتد به في عيني ، في هذا التعارض ، هو أنه قام بوظيفته في الاتجاهين على السواء : فلت سيمون دو بوفوار مرهفة الحساسية لفتنة الأنثوية ، وعرفت كيف تبقى امرأة بإزاء الرجال ، وتطلّبها الاستقلال الذاتيّ لم تُفض بها بالمرّة إلى أن تريد نفسها بلا جنس — ولكنه لم يُفْضِ بها ، على أي حال ، إلى أن تتصوّر نفسها على رجولة بإزاء النساء .
ولكننا نجد ، بنفس الطريقة ، فيما يبدو لي ، وبنفس الحركة ، أنها ، إذ عرفت الميل إلى السعادة بأكثر أشكالها مباشرة ، لم تنكرهـا قط فيما بعد ، في نفس الوقت الذي كانت تجهد فيه أن تستحقها ، يوماً بعد يوم ، إذ تجعل منها عملها نفسه : تركيب بين الفعل ، والهوى ، بين الاستيلاء والموهبة ، بين العمل والحظ . ومن هنا جاء هذا الأسلوب الذي لا يضارع لوجود امرأة يصعب علينا اليوم قليلاً أن نقدّر أصالتها المركبة ، لأنها منذ الآن جزء من عالمنا .

ولعله ينبغي أن نذكر هنا باستهام علاقاتها في شبابها مع ابن عمها جاك ، مع زازا ، ثم مع هيربو . ولعله ينبغي أن نذهب إلى حد أن

— أن تكون له أدنى فرصة لأن يقترح لها تفسيراً كلياً سليماً . ولا شك أن مثل هذا التفسير سوف يحول دوننا وأن نلقي على المسرحية « معنى » مزعوماً لا يصدر قط عن الكاتب نفسه إلا بقدر ما هو غير واع به تماماً . وذلك ينطبق فيما أعتقد على كل عمل إنساني ، من حيث أنه قد شرع فيه وتحقق بواسطة وعي يرغب ، كما هو واضح ، في اعطاء معنى لما هو معطى له ، اذ يعود فيأخذ لنفسه من جديد ، وحسابه تحديداته (شروطه) الخاصة ، إذ يتجاوزها ، ويحددها « تحديداً فوقياً » .

تضع موضع الاعتبار أنّ علاقاتها ، وهي امرأة ، مع سارتر (الشكل التام المتحقق للرجولة التي استشفتها عند أبيها) قد أثارت ، بعض الوقت ، تشكيل هذا « الثلاثي » الشهير الذي تكلمت عنه بكل ذلك العمق [1] — حيناً بحب ، وحيناً بضيق (« التعلق الجنوني من بالغين ناضجين بطفلة في التاسعة عشرة من العمر ») . ولكن لعله ينبغي أيضاً أن نتخلى عن المضيّ بتفسيرنا للوقائع إلى أبعد من ذلك : ان ما يبقى ، على كل حال ، هو ذلك التأليف المطرد لتركيبٍ عمليٍ بين الوعي والحياة . وذلك الجهد المتصل أبداً لاتخاذ الجنس لنفسها ، لأن تعطيه معنى وقيمة حتى تستطيع أن تسلم نفسها له دون ندم .

وهكذا صنعت نفسها بيننا ، يوماً بعد يوم ، امرأة حقيقية ، وصلت إلى أن تتجاوز ، دون أدنى عدوانية من طرازٍ جنسيّ ، الوضع التاريخيّ — الاجتماعيّ الخاص الذي ما زال حتى اليوم مفروضاً ، بصفة عامة ، على النساء : « وضع انثوي » يجعل منهن ، في غاية حدّه ، موضوعات بحتة لعالم يحدده ويحكمه الرجال ، « انثوية » منصوبة كالحبالة ، فخّ حقيقيّ لهنّ ، كما هي لشركائهن الرجال من جانب آخر . ولكنها أنثوية عرفت سيمون دو بوفوار كيف ترفض ، باستماتة ، أن تخلعها على بُعدِها الجنسيّ هي ، في علاقات ما كانت لتتيح لها أن تحقق إنجازاً حقيقياً للذات : إذ أن السعادة كانت لتغيب عنها ، أو ما كانت تتدخل فيها إلا على نحوٍ عرضيّ ، خاضع للصدف — غير مستحقّ — ومن ثمّ وهميٍ تماماً .

يبقى أن نفهم كيف يتأتى أن كل هذا العدد من النساء لم يستطعن أن يتعرفن ، دفعة واحدة ، على أعمق متطلباتهن في كتاب امرأة لم يكن

---

١ — في « المدعوة » بالتأكيد حيث يشكل الموضوع المركزي ، وفي « قوة العمر » (على الاخص في ص ٢٤٨ ، ٢٦٢ — ٢٧٠ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ، ٣٥١) .

عليها أن تقامي باعتبارها امرأة : « لم أحس قط بشعور الدونية ... لم تكن أنثويتي تضايقني في شيء ... »[1] وأعتقد أننا نستطيع أن نفهم ذلك ، بلا كبير مشقة ، إذ نعود إلى تلك الفكرة البسيطة القائلة بأن كل وضع اجتماعيّ لا إنسانيّ ، إنما يستكره ويدينه ، على نحو بالغ حدّه الأقصى من الكلية والكمال ، من حيث المعنى ، أولئك الذين ليسوا هم أسراه تماماً : إن المذهب الأعمق ثورية الذي عرفناه حتى اليوم ليس من عمل بروليتاريّ ، بل هو من عمل وعي سفاح لا بروليتاري ولا بورجوازيّ ، جعله وضعه نفسه قادراً على أن يفضح الحدود الحقيقية للصراع بين رأس المال والعمل .

ولا شك أنه ينبغي أن نتجاوز هنا وجهة النظر التي يميل المرء على الفور لاتخاذها لتفسير هذه الواقعة ، إذ لا يكفي أن نشير إلى يُسر ماديّ نسبي جداً ، ولا إلى حيازة عُدة عقلية معينة لا تملكها الأطراف المعنيّة في الصراع : بل يجب أن نذكر أيضاً الاستثارة التي تقع في متناول يد من يجد نفسه ، كما قلنا ، في المفصلة التي يدور حولها الوضعان المتعاكسان ، فيستطيع من ثمّ أن يقدّر تضادّهما في حدود الأضرار التي ما تني تنجم عنه بالنسبة للوعي عند كل الأطراف — في أفق نظرة تقوم على اضفاء العالمية حقاً على هذا العالم ، وعلى الاعتراف المحدد المجسّم للانسان بالانسان . ومن المفهوم أن وضع المضطهدين نفسه هو المحرّك للصراع ، والأصل الوحيد المتصوّر لجذريته المستقبلة ، ولكن كل ثورة فعلية تبدو ثمرة لقاء ديالكتيكي بين ضغط الحاجة وضغط تطلّب إنسانيّ لا يمكن شرح معناه ، شرحاً كافياً ، إلا بواسطة وعي لا يصارع قبضة الحاجات من طراز حيويّ ، على نحو مباشر أكثر مما ينبغي .

وبالمثل فان « الجنس الثاني » لم يمسّ النساء ، على هذا النحو العميق ،

---

1 — « قوة الاشياء » ص ١٠٩ .

إلا بقدر ما كانت كاتبته تملك من قدرة على الرجوع الضروري ، على الابتعاد الضروري ، لكي تصف وضعاً أفلتت منه إلى حد ما ولكنها كانت ما تزال تحس نفسها متضامنةً معه — لأنه ظل وضعاً حاضراً عندها ، في وقت معاً ، في جسدها (باعتباره جنساً مُتخذاً ومقبولاً) وفي العالم (باعتباره عقبةً أمام كل مشروع واقعيّ لاضفاء الإنسانية على العالم) . لم تكن سيمون دو بوفوار تقاسي من كونها امرأة ، وإنما من أنها ترى وجودها نفسه مُنازَعاً فيه ، يوماً بعد يوم ، من جانب دوام الهوّة الفاغرة فاها بين معظم الرجال ومعظم النساء : ذلك هو المعنى العميق لمشروع لم ننته من تقدير آثاره على وَعْيِنا نحن (رجالاً أو نساء ، سواءً كنا متحررين ، كما يقال ، أو معتَبِرين فيما يُدّعى) .

والواقع ان كل الملاحظات السابقة كان يمكن بسهولة ، أن تختزل في هذه الملاحظة الأخيرة : لقد كافحت سيمون دو بوفوار ، وتواصل الكفاح[1] من أجل عالم إنسانيّ ليست فيه تفرقة ، تمكن للمرأة فيه أخيراً أن تصبح وعياً كاملاً ، على حدته ، هذا في الوقت نفسه الذي تجد فيه أنها قد عاشت ، وما تزال تعيش بنجاح ، هذا النمط الخاص من العلاقة بين الرجل والمرأة الذي يسمى علاقة «الزوجين» . لو لم يكن هناك هذا ، فاعتقد أن كل قضايا «الجنس الثاني» — مهما كان ما تثيره من اهتمام نظريّ — لم تكن لتستحق أن يوليها المرء أدنى انتباه من وجهة النظر العملية . ذلك أن النساء لا يشكلن طبقة اجتماعية ، ولا يمكن أن يمرّ تحررهن بنفس الطرق التي يمرّ بها تحرر البروليتاريا :

---

١ — إن هذه الكلمة لا تبدو مسرفة مغالى فيها إلا عند أولئك الذين ما زالوا يحتفظون بذكرى الحسة المزعجة في الهجمات التي وجهت اليها طويلا ، والذين يعرفون ، بالاضافة إلى ذلك ، كيف تعود تؤكد اليوم ، بثبات ، وفي كل مناسبة ، الموقف الذي أطلق جماح هذه الهجمات ؛ وذلك على الرغم من نوع معين من «مذهب نسائي متهور القيمة» يزعم إلى حد ما أنه يستلهم أعمالها .

ان البروليتاري ، جوهرياً ، يصارع قبضة هياكل الانتاج . وهو لا يصارع ، إلا بطريقة ثانوية جداً ، هذا الممثل لتلك الهياكل أو ذاك (صاحب العمل ، أو الموظفين الذين في إجرته) . أما المرأة ، في مقابل ذلك ، فيواجهها ، في وقتٍ معاً ، وبطريقة جذرية في الحالتين ، الرجال في عمومهم (باعتبار أنه يجب عليها أن تحدّد نفسها في داخل عالم رجاليّ) كما يواجهها هذا الرجل بالذات أو ذاك (وقد يكون شريكها على صعيد شخصيٍ لا يمكن استبعاد الجنس منه تماماً ، أبداً) . إن سيمون دو بوفوار إذ صاغت لنفسها دفعة واحدةً فكرة عالية جداً عن الزوجين ، ثم وصلت إلى أن تمارسها في العمل ، قد أفلتت من خطر موقفٍ دفاعيّ ، سلبيّ ، بل معادٍ صراحة ، نلقاه أحياناً عند عددٍ من النساء ليس « مذهبهنّ النسائي » المزعوم إلا شهادة غياب مثيرة للسخرية عن المرارات الخاصة ، مما نشير اليه عادة باسم « الحرب بين الجنسين » وهي التي أدانتها ، هي نفسها ، إذ رأت فيها موقفاً « للتحدي[1] وسوء النيّة » .

وقد التقينا بصياغاتٍ مختلفة لتصورها عن « الزوجين » . ومع ذلك فسوف أورد هنا صياغةً أخرى ، ربما كانت أجملها جميعاً . وقد عرضتها متعللة هذه المرة بمناسبة فيلم له حظه من الشهرة « روما مدينة مفتوحة » . « لا أعرف تمثيلاً لمرأة أجمل مما أتت به « مانياني » إلى السينما : أكثر منه إنسانية أو أكثر حيوانية . أكثر منه حرية أو أكثر انعطافاً نحو الكرم . تكافح إلى جانب الرجل الذي تحب . تحيا من أجله ، كما يحيا من أجلها . ومعاً يعيشان من أجل شيء آخر غير نفسيهما[2] » وهي ،

---

١ – بالانجليزية في الأصل . وقد تعني أيضاً « الاستفزاز » ، والاقتباس وارد من « قوة الاشياء » ص ٦٧٤ .

٢ – « أمريكا يوماً بعد يوم » ص ٣٢٢ .

كما نرى ، عندما تتكلم عن « الزوجين » تصل أحسن ما تصل إلى أن تقول لنا ما يمكن أن تكونه المرأة كما يشتهيها قلبها . ومن ذلك أنتهي ، عن طيب خاطر ، إلى أنّ هناك أنثوية معينة يمكن أن تجد النعمة في عينيها – بشرط ألا يفرضها المرء ، على الأقل ، من الخارج ، عليها ، وأن تستطيع تجربة أن تعترف بها في هبةٍ للذات لا تتضمن من جانبها أي اغتراب . « كما كنت أرفض ، فيما مضى ، أن أحدّد باعتباري « طفلة » ، لم أكن ، في الحاضر ، أفكّر في نفسي « كامرأة » . كنت أنا » .

وها هي ذي السطور القليلة التي توضح ، بلا شك ، على أدق نحو ، اتخاذ المواقف في « الجنس الثاني » والتي تتيح لنا تحليلاتنا ، فيما آمل ، أن ندرك أصداءها المركّبة : « هل كتبت قط أن النساء هنّ رجال ؟ هل زعمت أنني لست امرأة ؟ على العكس ، كان جهدي منصرفاً إلى أن أحدّد في خصوصية ، الوضع الأنثوي الذي هو وضعي . نُشِئْت تنشئة بنت ، ولما فرغت من دراستي ، بقي مركزي هو مركز امرأة في داخل مجتمعٍ يشكل فيه الجنسان طائفتين منفصلتين متحددتين . وفي كثيرٍ جداً من الظروف ، كان رد فعلي هو ردّ فعل المرأة التي كنتها . (في الهامش : ان ما يميّز قضيتي هنا عن القضية التقليدية هو أن الأنثوية ، عندي ، ليست ماهية ، وليست طبيعة : انها وضعٌ خلقته الحضارات ، صدوراً عن معطياتٍ فيزيولوجية .) ولأسبابٍ وضحتها بالدقة في « الجنس الثاني » فان النساء ، أكثر من الرجال ، يشعرن بالحاجة إلى سماءٍ تظلّل رؤوسهنّ : لم يُعط لهنّ المعدن الذي يصنع منه المغامرون ، بالمعنى الذي كان يعطيه فرويد لهذه الكلمة ، انهن يترددن في أن يضعن العالم ، من رأسه إلى عقبه ، موضع السؤال أو أن يتحملن مسؤوليته . وهكذا كان مما يناسبني أن أعيش بالقرب من رجل أراه متفوقاً عليّ ، وظلت مطامحي ، وإن كانت عنيدة ، هيّابةً وجلة ،

وإذا كان مجرى العالم يهمني ، فلم يكن مع ذلك قضيتي . وكان واضحاً بالرغم من ذلك ، أنني لم أعلق أهمية كبيرة على الظروف الواقعية لحياتي : كنت أعتقد أنه ما من شيء كان يعوق إرادتي . لم أكن أنكر أنثويتي ، ولا كنت أتخذها لنفسي . كنت لا أفكر فيها . كانت عندي نفس الحريات ونفس المسؤوليات كالرجال . لقد كُفيت مؤونة اللعنة (في الهامش : سواءٌ كنَّ يقاسين منها ، أو يتواءمن معها ، أو يهتمن أنفسهن بها ، هي دائماً في نهاية الأمر ، لعنة . ومنذ أن كتبت « الجنس الثاني » لم يزدد يقيني في هذه النقطة إلا تأكيداً .) التي تنوء بمعظم النساء ، الاعتماد على الغير . إن كسب العيش ، في حد ذاته ، ليس هدفاً ، ولكنه به وحده يصل المرء إلى استقلال ذاتي داخلي وطيد . وإذا كنت أذكر وصولي إلى مارسيليا بانفعال ، فذلك أنني أحسست ، في أعلى السلّم الكبير ، أية قوةٍ كنت أستمدّها من مهنتي ومن نفس الصعوبات التي ترغمني على مواجهتها . انّ يكفي المرء نفسه مادياً هو أن يحس نفسه فرداً كاملاً ، وصدوراً عن ذلك استطعت أن أرفض الطفيلية الأخلاقية وما فيها من سهولةٍ خطرة . ومن جانب آخر ، فلا سارتر ولا أيّ من أصدقائه أبدى لي أحدهم مركّب تفوق بازائي . فلم يظهر لي قط أنني كنت في وضع غير ممتاز . إنني أعرف اليوم ، أنه لكي أصف نفسي يجب أن أقول أولاً : « انني امرأة » ، ولكن أنثويتي لم تشكل عندي لا حرجاً ولا شهادة على الغياب . وعلى كل حال ، فهي إحدى معطيات تاريخي ، وليست شرحاً له »[1] .

« فيمَ أنا « امرأة » ... وإلى أي مدىً لست امرأة ؟ » — « ماذا كان معنى أن أكون امرأة ، عندي ؟ »[2] ... لقد أجاب « الجنس

---

١ — « قوة العمر » ص ٣٧٥ — ٣٧٦ .

٢ — وليس السؤال الثاني مساوياً بالقدر الذي يبدو به ، ولا يعبر ، في الحق ، إلا عن دراما—

«الثاني» عن هذه التساؤلات إلى حدٍّ كبير . والنصوص التي أوردناها فيما سبق ، منذ قليل ، تردد صدى الجوهري من هذه الاجابات ، بلا شك . ولكن يبدو لي أن المرء قد يتعرض ، بعد ، لسوء فهم المعنى العميق للسؤالين الأولين . وكذلك فيما يتعلق بالسؤال الثاني ، لو أنه أغفل عدداً من الملاحظات ، سأقدمها الآن للقارئ ، محاولاً أن اختصر التعليق عليها ، ان وجد ، إلى الحد الأدنى :

– بينما كانت تقرأ «لوليتا» ، تجد سيمون دو بوفوار سروراً في أن ترى الكاتب يناصب النزاع ، في الكتاب «بفكاهة مقلقة ، تلك التسويغات الصافية التي تضفي على الجنس ، وعلى العاطفة ، وعلى الفرد، التسويغات الضرورية لعالم التنظيم» وتستطرد أن روجمون «الذي يتكلم عن أوروبا بحماقة ، وإن كان لا يتكلم عن الجنس بطريقة سيئة ، قد أثنى على نابوكوف أنه اخترع تمثيلاً جديداً للحب – اللعنة» .

– وبينما هي تقرأ في نفس الوقت «نقض مرسوم نانت» ترضى عن كلوسوفكس أنه كتب «باسلوب مُتَسيِّد ، روايةً تتميز بشبقية غريبة وعميقة» بطلتُها من الحياة بحيث يمكن للمرء أن يصدّق «جنفا المازوكيّ» ، وهي رواية إذ تصف «تشوّهات الجنس» تؤكد «عجز بورجوازيّي اليوم أن يتخذوا أجسامهم لأنفسهم ، ومن ثمّ ، أن يكونوا رجالاً[١]» .

= مؤقتة ، إذ أن سيمون دو بوفوار سوف تستطيع ، بعد ، أن تحيا «بداية أخرى» (انظر ما يلي) – السؤالان مأخوذان من «قوة العمر» ص ٤٣١ و «قوة الاشياء» ص ١٠٩ .

١ – انظر أيضاً ما تقوله عن «مباريات الثيران» : «في هذا العصر الذي لا تكلف فيه الأقوال إلا القليل ، أقدر تلك المباريات التي يلزم فيها الرجل جسمه في نزال جسدي ... ان الاخلاقيون البورجوازيون هم عقول بحتة ، أو يكادون أن يكونوا ، وهم يجهلون حاجات=

— عندما تتذكّر أنها ، في نحو الثلاثين من عمرها ، قنّنت أنّه بعد تجاوز الاربعين من العمر ، لا يمكن أن يُعاش نوعٌ معيّن من الحب ، تكتب ، على وجه الدقّة : « كنت أمقت ما كنت أطلق عليهم : « الجلود القديمة » ، وكنت أمنّي نفسي بالوعد أنني عندما يأخذ جلدي وقته ، سوف أجدده . ولم يمنعني ذلك ، في التاسعة والثلاثين ، من أن أقذف بنفسي في حكاية غرامية . وقد بلغت الآن اربعة وأربعين عاماً ، وأودعت بلاد الظلّ ... عندما عرضت فرصةٌ لأن أولد من جديد ، مرة أخرى بعد ، انتهزتُها . »

— وعندما تحاول أن تشرح لنفسها (وتشرح لنا) هذه الانبثاقة الأخيرة ، فهي تعتقد أنها مستطيعة وضع تفرقة بين جسمها (الذي كان « يتوامم » مع أن يُودع في منطقة الظلّ) وبين خيالها (الذي « لم يكن يستسلم للذلك ») : إشارة واضحة إلى « كبرياءٍ قديم جداً » . وقد لقيناه من قبل ، هذا الكبرياء الذي كان جسمها ، بمقتضاه ، يتوافق « بسهولة » إلى درجة أنه ، في أشد الحرمان « لم يكن يطلب شيئاً[1] » .

لم يكن يطلب شيئاً ؟ حقاً ؟ أهو « الخيال » وحده ، عند كاتبتنا ، موضع السؤال ؟ واذن فلنعجب بالمدى الذي يستطيع فيه هذا الخيال أن يتجسم : « ولكن شيئاً ما فيّ ، لم يكن يُخضع نفسه لهذه اللامبالاة .

— أجسامهم ، وارهاقها ، ومنابع حيويتها ، وحدودها ، وقوتها ، وهشاشتها . . . فإذا تصايحوا بالبربرية ، بالسادية ، فذلك أن التوحد بين رجل وجسمه ، يصدمهم كأنه فضيحة ... » (« قوة الاشياء » ص ٣٥٠ – ٣٥١) ومن المؤكد أن الجنس والموت هما اللذان يمثلان عند أفق هذا الكلام ، ولكنها أولا ، جوهرياً ، العرضية البسيطة ، واقعة أن المرء هناك ، وأنه معرض ، هناك ، للآخرين ، من جوانب مختلفة – ومن هذه الجوانب يبدو أن الجنس ، يشكل عند كاتبتنا ، محرك حيويتها نفسه ، وقابليتها للايذاء والهجوم ، الأكثر جوهرية .

١ – « قوة الاشياء » ص ٢٧٧ .

« لن أنام أبداً ، بعدُ ، في حرارة جسم ما » أبداً : أيّ جرس ناعٍ ! عندما استأثرت بي هذه البديهية ، طَوّح بي في المـوت » شيء ما فيّ ... لأن هناك الكبرياء ، بالتأكيد ، ولكن يجب أن تحيا أيضاً — أن تكون سعيدة ، أن تحس نفسها توجد. الكبرياء هو أنها قامرت بكل شيء على إمكانية أن تقول العالم ، أن تعطيه للعيان ، أن تعطيه معنى : « ان المرأة الكاتبة ليست امرأةً بيت تكتب ، ولكنها شخص تحكـم الكتابة كلّ وجوده ، هذه الحياة تعدل أخرى » بالفعل ، لأنها حيـاة حقيقية ، لهـا بالتأكيد أسبابها ، ونظامها ، وغاياتها الخاصة بها ، ولكنها ليست من جراء ذلك مُعاشة بحدّةٍ أقل ، ولا بتجسيمٍ وتحديدٍ أقل من معظم الحيوات . « أكانت حيـاتي حقـاً متنسّكة ، ذهنية بحتـة ؟.. يا إلهي ! لست أحسّ أن معـاصريّ يجدون من التسلية حقـاً أكثر مما أجد على هــذه الأرض ، ولا أن تجربتهم أكثر اتساعاً ...[١] »

من المعروف أنه قـد أخذ عليها أنها قبلت لنفسها هذا الدور الثاني بجانب سارتر ، الدور « النسبيّ » الذي كانت تنصح النساء ، من ناحية أخرى ، برفضه : ويهمني هـذا المـأخذ من ناحيتين : فيما يتعلّق ، أولاً ، بأولئك اللاتي أخذنه عليها ، وكذلك بالقدر الذي كان سبباً ، من جانب كاتبتنا نفسها ، في أن تعطينا تعريفاً من أكثر التعريفات أسراً، لعلاقتها بالذات .

وأكتفي ، بصدد النقطة الأولى ، بأن ألاحظ أن الحسد نقص مشين ، وأن خمسة وثلاثين عامـاً من الحياة مع سارتر ، تكفي ، بلا شك ، لأن تضمن — بغض النظر حتى عن العمل الذي أنشأته — أن هذه المرأة لم تكن الثانية في البيت ، ولا غير جوهرية فيه ، ولا خادمـة . ذلك أنه كان ينبغي أن يكون لهـا حظ الالتقاء بـه ، بلا شك ، ولكن

١ — « قوة الاشياء » ص ٦٧٧ .

كان ينبغي ، بعد ذلك ، أن تكون على استعداد كاف لهذا حتى لا يتعرض الحوار لأن ينصب ، مع التطلب الرهيب لمثل هذا الشريك .

أما عن النقطة الثانية فأعتقد أن خير ما نفعل هو أن نترك لها الكلام : « لم يكن من قبيل الصدفة أن سارتر هو الذي اخترته ، ذلك أنني في النهاية قد اخترته . تبعته ، والفرح يستخفني ، لأنه كان يجرني في الطرق التي أردت أن أذهب اليها ، وبعد ذلك ، ناقشنا معاً ، دائماً ، طريقنا ... ان سارتر خالق ايديولوجيا ، وأما أنا فلا ، ولما كان يُدفع به ، من جراء ذلك ، إلى القيام باختيارات سياسية فقد كان يعمّق أسبابها بأكثر مما كان يهمني أن أفعل : ولو أنني رفضت الاعتراف بهذه الأوجه من التفوق لخنت حريتي ، ولاصطدمت بموقف التحدي وسوء النية الذي يُولده الصراع بين الجنسين ، وهو عكس الأمانة العقلية . لقد حافظت على استقلالي ، لأنني لم أخفف قط من مسؤولياتي بأن ألقيها على سارتر : لم التزم بأية فكرة ، ولا بأي قرار دون أن أكون قد نقدته ، وأخذته لحسابي ، وجاءتني مشاعري من تماس مباشر بالعالم . وقد تطلب مني عملي الشخصي أبحاثاً ، وقرارات ، وتطلب المثابرة ، وكفاحاً ، وعملاً ، وقد ساعدني ، ولكني ساعدته أيضاً . انني لم أعش من خلاله ¹ . » .

هذا كل شيء ، إن له عالمه ، ولها عالمها : ولكن يتفق أن هذين العالمين يتقاطعان بما فيه الكفاية – على مستوى نفس التطلب الذي لا يمكن أن نشير اليه ، بقدر من الصحة ، إلا بأن نستدعي هذا الحرص الثلاثي عند أحدهما وعند الآخر على السواء ، على الاستقلال الذاتي ، على أن يتخذ على نفسه الوضع الانساني كله وعلى أن يقوله ، بأن يقول عن ذات نفسه بأقصى حد من الأمانة . ولا تعوزها الأدلة على أن مثل هذا

١ – « قوة الاشياء » ص ٦٧٤ .

اللقاء نادر ، ولكن ذلك لا يدفعنا إلى المضي مرةً واحدة فنتصوره أنشودة حبٍ خيالية . ذلك أنه حوار واقعيٌ . كل ما يفترض ذلك سلفاً من صراعات ، كافة أو ظاهرة ، يتغلبان عليها يومياً . لم يكن هذان الوعيان متطابقين ولم يصيرا قط إلى التطابق . أنظر مثلاً شجارهما بشأن لندن ، وبشأن محاولة سارتر تعريف المدينة في مجموعها : « كنت أرى ان الواقع يفيض عن حدود كل ما يمكن قوله عنه ، كان ينبغي مواجهته في استبهامه ، في عتامته ، بدلاً من اختزاله إلى معانٍ تعبّر عنها كلمات . وكان سارتر يجيب بأن المرء إذا أراد ، كما كنا نتمنى ، أن نمتلك الأشياء لأنفسنا ، إذا لم يكن يكفي أن ننظر وأن تهتز مشاعرنا : فيجب اقتناص معناها ، وتثبيته في عبارات ... كنت أحرص أولاً على الحياة ، في حضورها المباشر ، وكان سارتر يحرص أولاً على الكتابة[1] » انظر أيضاً بأية قسوة غير واعية ترفض أن تأخذ على محمل الجد تلك الكآبة ، الحقيقية مع ذلك ، التي عانى منها سارتر في نحو الثلاثين من عمره : « كنت أفضل أن أفكر أنه كان ينتج مخاوفه ، وأخطاءه ، بنوعٍ من الارادة السيئة ، أفزعتني أزمته بأقل كثيراً مما أغاظتني ، ناقشت ، سقت الحجج والأدلة ، أخذت عليه رضاه بأن يظن نفسه محكوماً عليه . كنت أرى في ذلك نوعاً من الخيانة : لم يكن له الحق في أن يلقي بنفسه في حالات من المزاج تهدد أبنيتنا المشتركة[2] . » وانظر أيضاً بأي إلحاح تؤكد أن مركز الثقل في مشاكلها الخاصة بها لم يكن ، بالمرة ، كما كان عند سارتر ، من طرازٍ سياسيٍ — فلسفيٍ : « كنت بالتأكيد أشتهي أنا أيضاً أن أحسن معرفة القرن الذي أعيش فيه ، ومكاني ، ولكن ذلك لم يكن عندي ضرورياً بقدر ما كان

---

١ — « قوة العمر » ص ١٥١ — انظر أيضاً « كنت دائماً أميل منه إلى المباشر .. » (« قوة الأشياء » ص ٥٩) .

٢ — نفس المرجع ص ٢٢٠ .

ضرورياً له . » كان يجهد بالفعل في « بناء ايديولوجية توضح للإنسان وضعه وتقدم له ممارسة عملية » . « مثل هذا الطموح كان غريباً عليّ » . ومن ثم فانها تتركه يصارع ذلك وحده ، (« قراءة نفس الكتب ... التفكير في نفس المواضيع : كان ذلك عندي ليصبح انشغالاً عفوياً ، كان مشروعه تخصه وبهمه على نحو حميم بحيث لا يمكن أن يتعاون فيه أي شخص كان ، ولو كان ذلك أنا ») . ولكن دون أن تنزل عن اعتبار نفسها قد أضيرت بمسلكه : « كنت أحس أنه قد سُرق مني » — « كان يبدو لي أن وحدته تعزله عني [1] » .

وعندما يعرف المرء ، كما نعرف منذ أن نشرت « الكلمات » أن المشروع الذي كان الأمر يتعلق به عندئذ ، كان في الواقع إعادة وضع كامل لنفسه موضع السؤال ، لنفسه ولأسلوب حضوره في التاريخ ولاختياره للكتابة ، فلا بدّ أن نسلّم بأن هذين الكائنين لم يقدّما لأحدهما الآخر من الهدايا بقدر ما نتصور من الكثرة — وأن الاحتمال الأكبر هو أن يكون تفاهمهما هذا المثير للاعجاب قائماً بالضبط على تلك المقدرة أن يتنازعا أحدهما الآخر باسم تطلّب مشترك ، بدلاً من أن يتركا ضروب سوء التفاهم تتراكم بينهما نتيجة ارادتهما أن « يحددا من مدى الأضرار » عن طريق تنازلات سطحية .

وأتساءل ما إذا كانت هذه الديالكتيكية الحية في داخل حياتهما كزوجين لم تنعكس على مسألة الوضع الأنثوي نفسها ، بطريقة أخرى . فعندما تصف لنا سيمون دو بوفوار الأنثوية باعتبارها « وضعاً خلقته الحضارات صدوراً عن معطيات فيزيولوجية معينة » ، وعندما تُسلّم (في الصفحات الأخيرة من دراستها) أنه « ستبقى دائماً بين

---

١ — « قوة الاشياء » ص ٢٧٥ .

الرجل والمرأة اختلافات معينة » [1] لا أستطيع أن أمنع نفسي عن أن أفكر – إن خطأً وإن صواباً – أنها لا بد ، قبل أن تصل إلى ذلك الحد ، قد خاضت صراعاً شاقاً مع ملاحظة أبداها لها سارتر يوماً ، ولا شك أنه قد أبداها من جديد في مناسبات أخرى . عندما كانت تجهد في أن تنظّم عناصر من كل نوع كانت قد اكتشفتها في أثناء أبحاثها عن الوضع الأنثوي ، نراها تنتهي إلى النتيجة القائلة « انّ الرجل يضع نفسه باعتباره « الذات » ويعتبر المرأة كأنها « موضوع » ، مثل « الآخر » . » وتستطرد أن هذا الادعاء « تفسره ، فيما هو واضح ، ظروف تاريخية » : « وقال لي سارتر أنني يجب أن أشير أيضاً إلى أسسه الفيزيولوجية [2] » .

هنا تتبدّى ، على كل حال ، أكثر من أي وقت مضى ، علاقتها هي بذاتها . فإذا كان من الصعب عليها أن تصوغ هذا « الاختلاف » (إلى درجة أنها تنفر إلى حد ما ، حتى اليوم ، من أن تؤيّد نفس هذه النصوص التي قرأناها الآن) . فذلك أن هذا « الاختلاف » قد ظهر لها على الفور باعتباره أحد مصادر التعمية الأنثوية على الذات . فإذا كانت استطاعت ، بالرغم من كل شيء ، أن تبرزه ، فذلك ، بالضبط ، بالقدر الذي تتيح لها فيه حالتها الخاصة هي ، أن تقول لنفسها إنه من الممكن لكل امرأة محددة متعينة أن تتخذ على نفسها تلك الأنثوية بالتحديد ، في نفس الوقت الذي تجهد فيه أن تدحض « وضعاً

١ – « ان شبقيتها ، ومن ثم عالمها الجنسي ، إذ أنهما تتخذ شكلاً متفرداً ، لا يمكن إلا أن تتولد عنها حسية ، وحساسية متفردة ، وعلاقاتها بجسمها ، وبالجسم الذكر ، وبالطفل ، لن تكون متطابقة مع العلاقات التي يقيمها الرجل مع جسمه ، مع الجسم الأنثوي ، ومع الطفل ... » (« الجنس الثاني » ، الجزء ٢ ، ص ٥٧٥ – ٥٧٦) .

٢ – « قوة الأشياء » ص ٢٠٣ .

أنثوياً، تداوله التطوّر التاريخي والهياكل الاجتماعية . هنا . كما حدث في كثير من المناسبات الأخرى ، لم يفعل سارتر ، فيما يلوح لي ، إلا أنه ردّها إلى نفسها ، إلى تجربتها الخاصة بذاتها . فأعاد إليها الخدمة التي يبدو ، من جانبها ، أنها قد أدتها اليه في الغالب من الأحيان .

٣ – الحكم بالكينونة ، الديمومة ، الوجود

وعلى ذلك النحو فقد اتضح لنا موقفها من الجسد ، ومن جسمها نفسه ، خليطاً من الفعل ومن الهوى (بأشد معاني هاتين الكلمتين) : ذلك أنه من الجليّ أنها تحس نفسها مرةً بعد المرّة ، مهددةً تهديداً خطيراً بهذا الجانب من جوانب العرضيّة ، وقادرةً كل القدرة على أن تتخذه لنفسها في المتعة . وكان في مقدورنا ، أثناء الطريق ، أن نلاحظ من ناحية أخرى تساوقاً وثيقاً بين هذا الموقف وبين الموقف الذي لا يقل عنه تعقيداً الذي يحكم علاقتها بالغير : وليس في ذلك ما يدهشنا ، إذ أن الوعي قابل للايذاء ، لا مَنَعة فيه ، بالقدر الذي يتجسم به – أي يتعرض ، باعتباره موضوعاً للعالم ، لنظرة وعي الآخرين [1] . وقد استشففنا ، أخيراً ، أن العلاقة بالغير ، عند كاتبتنا ، يحكمها نوعٌ معيّن من العلاقة بالذات لدينا عنها العددُ الكثيرُ من المعطيات وإن كان يجب علينا الآن أن نحاول استخلاص أكثر دلالاتها لصوقاً بجوهرها .

---

[1] – يبدو لي أن أكثر التعريفات تحديداً لهذه الأقنعة ، لهذه القابلية للايذاء والهجوم ، هو الذي تمدنا به كاتبتنا ، إذ تدعونا إلى أن نتكشف ، في إثرها : « أي مشاعر غامضة مبهمة يمكن أن يوحي بها الغير عندما يشك المرء في ذاته » (« قوة العمر » ص ٧٠٠) .

إذ ينبغي التسليم ، بعد وضع كل شيء موضع الاعتبار ، أنّ سيمون دو بوفوار لم تتصور الوجود ، على وجه الدقة ، كأنه هبةُ ذاتِها للغير . لقد حلمت كثيراً ، لا شك ، بأن « تنقذ العالم » وبأن « تخدم الانسانية » . ولكننا نعرفها الآن بما فيه الكفاية . فلا نخطئ في فهم هذا الطموح الذي تمتد تحته ، جميعاً ، همّ الكينونة ـ أن تكون ذاتها ، أن تكون متفرّدة ، وأن تكون لها قيمتها على نحو مطلق . ذلك ، قبل كل تفسير (أي في مستوى وعيها بذاتها نفسه) هو مسار العمل المتصل أكبر اتصال . عند تلك « القدس » التي تبدو لي « روحُ البيئاء » عندها موحية ، في وقت معاً ، بعناد الغريزة الأعمى ، ومع أكثرها هذيانات الفكر الميتافيزيقي مدعاةً للدهشة . فاذا كنّا نزعم حقاً أن نستخلص شيئاً من الفائدة ، من هذه التجربة الإنسانية التي تصف نفسها تحت أعيننا ، منذ أكثر من عشرين عاماً ، فلا ينبغي أن نترك خيط « أريان » هذا ، ولا أن ننسى أن سيمون دو بوفوار ، إذ اتجهت الينا بالخطاب ، لم تنِ لحظة واحدة تتتبع ذاتها : لأنها على ذلك النحو ، بالدقة ، استطاعت أن تصل الينا ، ولعلنا لا نكون قد أضعنا وقتنا تماماً ، لو استطعنا أن نفهم ، نحن ، كيف تمّ ذلك .

لا يمكن أن نغالي قط ، مهما قلنا ، في تأكيد الأهمية الحاسمة التي تتميّز بها ردود أفعالها ، وهي طفلة ، ومراهقة . هنالك يضرب بجذوره ، في قوة وعلى نحو نهائي ، تطلّبها للكينونة ، بفعل تناقض غير قابل للحل مؤقتاً ، بين الامكانيات التي كانت تحس نفسها غنيّةً بها ، وافتقارها إلى الوسائل ، والمناسبات في الوقت نفسه ، التي كانت تحول دونها وأن تحقق هذه الامكانيات في الحاضر : « كنت أتمنّى أن أمسك شيئاً ما ، بقوة ، وتخدعني عنفُ هذه الرغبة غير المحددة ، فأخلط بينها وبين رغبة في اللانهائي . » ـ « كانت الحياة تبدو لي من الوفرة والامتلاء ، بحيثُ أنني لكي ألبّي نداءاتها اللانهائية ، كنت

أسعى ، بتعصّب ، إلى أن أستخدم كل شيءٍ منّي : ولكنها كانت خاوية ، ما من صوتٍ كان يناديني . كنت أحسّ نفسي من القوة بحيث أرفع الأرض كلها : ولم أكن أجد حصاةً واحدةً أحركها » — والنتيجة مسجلةٌ في يومياتها الخاصة في نفس هذه الفترة : « انني أكون أكثر بكثير مما أستطيع أن أفعل ! [1] »

وهذا ما يمكن أن يكون عليه الشكل الذي يظهر الوعيُ به ، للذات ، في ظروفٍ معيّنة ، عند البورجوازيين الصغار [2] ، وخاصة إذا اتفق أنْ كان هــذا الوعي يملك « طاقةً خارقة هائلة لا تجد وسيلة تستخدم نفسها بها » . عندما يحس المرء في ذاته هذه القوة — الكليّة ، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً (وليس لديه شيء ما يفعله ..) ، فماذا « يفعل » في الحقيقة . إلا أن يعزو لنفسه « كينونة » وأن يتحدث عنها لنفسه بلا نهاية في أعماق دخيلته ؟ فلنستمع ، مرة أخرى ، إلى هذه المتمردة الصغيرة تصف لنا « هذا الخليط الممسوخ البشع بين البشاشة والصرامة ، بين النزوة والضرورة الزائفة ، الذي كان يضغط عليّ منذ ولادتي » . ولنقدّر إلى أي مدى كان أشباهُها ، عندما لا يظهرون لها معادين ، فلن تحس بازائهم إلا اللامبالاة خلال بضع سنوات ، بعد : « عاشت فكرة الخلاص فيّ بعد اختفاء الله ، وكان أول يقين لي أنّ كلاً يجب أن يضمن شخصياً خلاصه ... لم يكن التناقض الذي أعاني منه من نوعٍ اجتماعي ، بل كان أخلاقياً ، ويوشك أن يكون دينياً . [3] »

---

١ — « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٢٢٧ ، ٢٢٥ .

٢ — أي وعي موضوع في ظروف مادية ليست من اليسر بحيث لا يستطيع ، فيها ، أن يتجاهل ضرورة الجهد ، وان كانت ليست من الضغط والإرغام بحيث يحس نفسه مسحوقاً فيها حقاً . (« سجن بلا قضبان » — نفس المرجع ص ٢٢٧) .

٣ — « قوة العمر » ص ٦٧ .

كانت سنتها ، أكثر من بيئتها بكثير ، تحكم عليها بنوع من اللاوجود : فكانت تردّ عليه بارادة – للكينونة تبلغ بها حيويّتها القائمة . إذا ظهرت المناسبة ، إلى حدّ الجنون . وضدّ محدودية الأوضاع الإنسانية ، ونسبيتها غير القابلة للتبرير ، ادعت لنفسها سيادة الوعي الجوهرية . وفي مقابل «طغيان» الحاجة الجسدية – «هذا الجحيم» الذي «لم يكن «عقلها» يتوامم معه» أحياناً – اعترضت «بكبريائها» و «حريتها» ورفضها «أن تتوحّل» في ملء العرضية ... ومعنى ذلك ان هذه الفتاة المراهقة لم تتحرر من «الخير» إلا لكي تخترع المطلق ، فتُهيئ ، من ثمّ ، دون أن تعرف ، أكثر الأحابيل دقة واستخفاء للفتاة الشابة ثم للمرأة التي سوف تخلفها .

فليكن ما يكون من أمر «لحظة التوتّر» : فنحن نعرف أن المصيدة قد أدّت عملها ، ونحن نعرف أيضاً أن «الضحية» قد استطاعت ، بالرغم من ذلك ، أن تخلّص نفسها من هذا الفخ – كما كانت قد تخلصت من قبل ، من الفخاخ التي نصبتها لها ، معاً ، منذ سنواتها الأولى ، ديانة أمها الورعة ، وشكّ أبيها العقيم .

ويبقى أن ذلك لم يتم في يوم واحد . فان هذا الوعي ، إذ يصل إلى الارتفاع بنفسه حتى يصل إلى الهواء الطلق ، حتى ليكاد أن يحد نفسه على قدم المساواة مع العالم الذي يحاصره ويُحدق به ، يعود عشرين مرة ، مئة مرة ، فيهبط إلى قاع الهوّة ، كتلك الحشرات العنيدة التي تبذل جهدها في الصعود إلى الحافة ، فاذا بهذه الجهود تُفتّت التربة الهشّة التي يجب عليها أن تتخذ موطىء سَنَدِها ، وتُسقطها معها .

كان الوهم في قاع الهوّة . ولكنه كان وهماً عالياً جداً . وأتساءل بعد التأمّل ، ما إذا لم يكن من الأليق أن نعكس الصورة السابقة .

ومن ثمّ نرى ، بالأحرى ، القندس المعتز بكبريائه ، متخذاً مكانه على ذروة ربوة من الرمل يسيطر منها على العالم ، ويحرص حرصاً متصلاً على أن يهبط منها ، ولكنه في كل مرة يستسلم للخوف من ألا يستطيع التحكم في حركاته حتى سفح هـذا المنحدر الزلق . والواقع أن كلتا الصورتين زائفة . ذلك أنه لا يمكن أن نرى في هـذه القضية لا « فوق » ولا « تحت » — لم يكن « الوهم » الذي نحن بصدده في أسفل (قـاع الهوّة) ولا في أعلى (ذروة الربوة) الواقع . من حيث أنه يتأكد صراحة باعتباره حرصاً على بلوغ هذا الواقع دون أن يبتلعه الواقع . إن الوعي ليس شيئاً ، ولا يستطيع شيئاً ، طالما كان يزعم أنه باقٍ على مبعدة من العالم ، ولكنه ، إذ يظل واعياً بذاته وبحريته ، وبذلك فقـط ، يستطيع أن يدخل حقاً في علاقة مع العالم . ومن ثم يبدو كل وجود كائنيتنا ، حواراً لا نهاية له ، بين تطلّب تصوّر الذات ، وضرورة تحقيق الذات . ولكن من الحق أن الانشغال بأن تكون نفسها قد ساد طويلاً ، عند سيمون دو بوفوار ، انشغالها بأن تكونَ على علاقـة مع العالم .

لم يكن ذلك في البداية إلا نوعـاً من الحلم ، وطريقة للجوء إلى ملاذ الخيال ، اعتراضاً على التفاهة وانعدام الدلالة ، التي كانت مفروضةً عليها . كان لزاماً لهـا أن تستطيع التمتع بكينونتها الخاصة ، وأن تكون حياتها لها قيمة ومعنى ، كانت تحس الحاجة العميقة جداً ، الحادة جداً إلى أن تحس نفسها ذات جدوى ، ضرورية ، لا غنى عنها ، وبالتالي منتظرة ، مطلوبة ، متطلبة ، موكّلة — أي أخيراً معترفاً بها ، محبوبة ، مبرّرة ، ومُختَلَصة . وعلى هذا النحو وصلت إلى أن تتصور نفسها ، في وقت معاً ، متفرّدة على وجه الاطلاق . وسيّدة ذاتها . وبالتساوق مع ذلك ، كان لا بدّ أنّ هناك ، في مكان ما ، بالرغم من المظاهر المباشرة ، عالماً تحكمه عِلّة صارمة ، وضرورةٌ حقيقية .

ولما كانت أكثر حياةً بكثير من أن تستطيع الاكتفاء طويلاً بحلم يهدد بأن يتغير إلى كابوس ، فقد رأيناها تنتقل من سعادتها الأولى إلى إرادة لأن تكون سعادة ، من سراب « علة الكون » إلى جهد عمليّ لتجاوز الذات ، استهدافاً لأن تعطي نفسها معنىً وقيمة : فكفّت عن أن تزعم نفسها أحداً له مكانته ، وشرعت منذ ذلك الحين أن تفعل شيئاً . ولما كان العالم ما زال يدأب على ألاّ يظهر بالمرة كأنه عالم ضروري ، فقد انتهت من ذلك إلى أنه كان لزاماً عليها أن تجعله ضرورياً ، بأن تجهد في أن تستحوذ عليه .

وعلى ذلك النحو سقطت ، نتيجة لربع أخلاقية لإرادية عنيدة معينة ، في ذلك « الفُصام » الذي خلعه عليها سارتر ذات يوم وهو يتحدّث إليها ، والذي كانت لها من الشجاعة ووضوح الرؤية ، منذ ذلك الحين ، أن تدينه ، في مرات عديدة ، إذ تصف مواقفها هي نفسها . ولم يكن ذلك قطعاً هو التطلّب الحالم الذي عرفته في العشرين عاماً الأولى من حياتها ، وانما كان مع ذلك نوعاً من الهرب ، رفضاً للواقعيّ ، وطريقة للّجوء إلى ملاذ تداول الامثال حتى لا تضطر لتقدير صعوبات ومخاطرات المشروع . لم يكن هذا النوع من التعمية الذاتية ، أدق وأكثر استخفاءً من سابقيه ، إلا أنه أكثر خطراً منه ، فقد كانت كاتبتنا تستطيع أن تعزو اليه على الاقل فضل أنها قد تعرفت هذه المرة على ضرورة أن تصنع نفسها على النحو الذي تزعم أنها كائنة فيه ، وأن تنتقل إلى الفعل ، وأن تمارس العالم : كانت سيمون دو بوفوار تريد فعلاً أن تتصرّف وتفعل ، وأن تتجشم كل ما يلزم من عناء لكي تنتهي إلى غاياتها ، ولكنها ظلت تصرّ على تصوّر ممارسة العالم الإنسانيّ تبعاً لتطلّباتها هي — أي باحتقار الظروف الفعلية التي يفرضها العالم على كل مشروع محدد متعيّن يهدف إلى تحويله . إلا أنها لم تَهرب ، مرةً بعد مرة ، من وضعها الواقعي في خضوعها للكبار ، ثمّ من « واقعيتها »

(الميتافيزيقية) للمطلق، إلا لكي تجد نفسها حبيسة في هذا «السجن» الآخر «بلا قضبان»: المثالية الاخلاقية. «بدلاً من أن ألائم بين مشروعاتي والواقع، رحت أنابعها في عكس كل شيء، وضد كل شيء، أعتبر العالم مجرد أداة ثانوية...»

ولنتجاوز عن الأمر الذي لم يكن يتعلق، كما اتفق لها أن تكتب، إلا «بالعرضيات العقيمة للحياة اليومية»: فلا شك أنه ليس مما يقلق كثيراً أن نراها تنسى مثلاً أن تكتب إقرارها الضريبي، أو تترك التراب يتراكم بعض الوقت تحت أثاث بيتها. ولكنها انما في الواقع تركب رأسها في أن تُغفل، في تعال واحتقار، مجرى التاريخ نفسه. ونحن نمس هنا، فيما يبدو لي، أكثر الجوانب حسماً في علاقتها بذاتها (وفي علاقتها بالعالم): علاقتها بالزمن، تصوّرها للديمومة.

نحن في عام ١٩٣٣، ومَنْ يُدْعى هتلر قد أصبح منذ بضعة شهور مستشاراً للرايخ: «أما أنا فكنت أتابع، في اندفاع، حلمي القصاصي». أعرف، كان اليسار الفرنسي يفعل مثل ذلك، على طريقته، وفي خلال كل السنوات التالية، كانت نزعته السلمية الحالمة من شأنها أن تشل مناهضته المخلصة بعمق، مع ذلك، للنازية. ولكن المشكلة عند سيمون دو بوفوار، كانت عندئذ موضوعة في حدود مختلفة تماماً: «كان العالم يوجد على طريقة موضوع ذي طيّبات لا عداد لها، اكتشافُها دائماً مغامرة، ولكن ليس كميدان للقوى القادرة على أن توقع الاكراه بي، ولتوضيح الوقائع التي لم أكن أراها إلا ركاماً مهوّشاً، كان ينبغي أن أستبق المستقبل: لم أكن أريد. أما المستقبل البعيد فقد كنت أومن به: كانت تحكمه عندي ديالكتيكية سوف تجعلني، في النهاية، محقة في تمرداتي، وفي انتظاراتي. أما ما لم أكن أقبله، فهو أنّ التاريخ، يوماً بيوم، في تفاصيله ومنعطفاته

كان بسبيله أن يصنع نفسه ، وأن غداً غير متوقع كان يلوح في الأفق دون أن أعترف به . فقد كنت عندئذ سوف أحس نفسي في خطر . ومن ثمّ فهي تحدّد ، ما في الصفحة التالية : « كان الأمر يتعلق بقرار : كنت أضع على عينيّ عصابة حتى أحافظ على أمنيّ »[1] .

ويفترض المرء بالطبع أن مثل هذا الموقف لن يلبث طويلاً حتى يصطدم بتكذيبات خشنة وعرة . وفي مقابل هذه الصعوبة ، إليك الموكب الذي اخترعته هذه الفصامية : « كانت عنايتي بسعادتي تفرض عليّ أن أوقف الزمن » ... « وعليّ أن أجد نفسي ، بعد بضعة أسابيع ، بضعة شهور ، في زمن آخر ، لكنه بالمثل لا حراك فيه ، متمدد ، لا تهديد فيه »[1] .

أعتقد أن معنا ، هذه المرة ، كل الأوراق اللازمة لتقدير اللعبة التي كانت تلعبها زمناً طويلاً . وقد كانت هذه الأوراق معنا ، من قبل ، بمعنىً من المعاني : فلعلنا نتذكر تمردها الطفليّ ضد « الطلاق الفاضح بين وعيها وبين الزمن » . ولكن « قوة الأشياء » لن تعدل بالمرة ، في هذا الصدد ، وجهة نظر « البنت الصغيرة المستقيمة » : « كان فعل الزمن دائماً يزعجني ، انني آخذ كل شيء باعتباره نهائياً »[2] وإذا كان لا بدّ من أن نأتي بتصوير محدد ، فاليك أكثر تصوير لذلك استثاراً بالاهتمام (وهو التصوير الذي يكمل ، بالاضافة إلى ذلك ، المثال السابق ، بشأن النازية) نحن الآن في ١٩٣٨ : « كانت الحرب تبدو هذه المرة محتومة ، لكني كنت أرفض ، في غضب ضار ، أن أصدق ذلك : إن كارثة في مثل هذه الحماقة والغباوة لم يكن ممكناً أن تنقض عليّ » ... وقضينا أياماً قاتمة ... كنت ، بشكل جذريّ ، قد انقطعت بي السُبُل

١ — « قوة العمر » ص ١٥٤ — ١٥٥ .

٢ — « مذكرات فتاة مستقيمة » ص ٥١ ؛ « قوة الاشياء » ص ٤٧٧ .

وفجأة ابتعدت العاصفة دون أن تنفجر ، وُوقّعتْ اتفاقية ميونيخ : لم أشعر بأي ندم في ابتهاجي بذلك . كان يبدو لي أنني أفلتّ من الموت ، وإلى الأبد . بل كان في ارتياحي شيءٌ من الانتصار . لقد ولدت ، قطعاً ، سعيدة الحظّ ، لن يصل الشقاء إليّ أبداً[1] » .

ثم قامت الحرب مع ذلك ، وجاء شقاءُ معرفتها أن سارتر كان أسيراً ، واليأس الذي يبعثه تصور أسوأ ما يمكن أن يحدث . إذ انقطعت عنها أخباره بعض الوقت : « لقد كفّتْ الحياة نهائياً عن أن تنحنيَ أمام ما أريد » — وهي تكتب في ٦ يوليو ١٩٤١ : « فكرة أن أموت لا تبدو لي فاضحة ، بالمرة ، منذ هذا العام ، أعرف حق المعرفة ، على كل حال ، أن المرء ، دائماً ، ليس إلا ميتاً مع ايقاف التنفيذ » . وعندما عاد سارتر أخيراً : « كان قلبي في سلام ، ولكن بطريقة مختلفة كل الاختلاف عن ذي قبل . كانت الأحداث قد غيّرتني ، كان ما يسمّيه سارتر « فصامي » ، فيما مضى ، قد انتهى بأن يستسلم للتكذيب الذي يريد به الواقع[2] » .

وهذا حق : فابتداءً من هنا على نحوٍ ما ، يستطيع المرء أن يقول حقاً إنها قد فهمت كل شيء ، فهمت ، مثلاً ، أن الزمن يستطيع ، كما يستطيع المكان ، أن ينازع ، جذرياً ، تطلّبها الكينونة ، تطلبها « ان تكون كل شيء » . وها هي ذي تأخذ في كتابة روايةٍ من أفضل رواياتها (وأضعها ، من جانبي ، بعد « المثقفون ») القصة الجميلة العميقة عن ريجين وفوسكا : « كل البشر فانون » . وهي تتولّى عندئذ ، تحت أعيننا ، في هذه الرواية ، عملية تحويلٍ كامل لأفق نظرتها ، إذ تحدد الزمن هذه المرة) والزمن « ليس بنهائي وليس بلانهائي ، بل

---

١ — « قوة العمر » ص ٣٤٥ .

٢ — نفس المرجع ص ٤٩٨ .

هو غير محدّد » (باعتباره بُعد مشروعاتنا نفسه ، باعتباره وضعنا الفاني ، وأساس كل تضامنٍ إنسانيّ . هنا يصير السلبيّ ايجابياً ، وتصبح المحدودية والنسبية هي وحدها مفاتيح المطلق . وليست الأبدية (الكينونة في خارج الزمن) إلا لعنة : « الكائن الزائل الفاني وحده قادر على أن يجد المطلق في الزمن [1] » .

ولا شك أنه لا يكفي للمرء أن يفهم أوهامه حتى يتحرر منها على الفور . نحن نعرف أنها منذ وقت مبكر جداً أرادت أن تكون حياتها ، « قصةً جميلة » تصبح حقيقة كلما روتها لنفسها . ثم سطع النور : « سلّمت أخيراً ، بأن حياتي لم تكن قصةً أرويها لنفسي ، بل مصالحةً بيني وبين العالم » . ومع ذلك فنحن نراها ، بعد ذلك ببضع سنوات ، تجد هــذا الوهم « المفقود منذ زمن طويل » ، من جديد ، « في خطفات بارقة » : « كانت في حياتنا ملاءمة وصرامةُ القصص التي يرويها المرء [2] » . ولكن هناك ما هو أسوأ ... أذ يبدو أنهـا بالفعل ، شاءت أم أبت ، منعقدة العزم مع ذلك على أن تتصور التاريخ الجماعيّ ، كأنه النسيج الذي لا محيد عنه والذي كان لزاماً عليه – بطريقة واعية منذ الآن – أن تُدمج فيه خيط مغامرتها هي ، ببشاشة : « كنت أعرف أنه عليّ ، ربمـا ، أن أمر بساعاتٍ سوداء ، بل أنني ربمـا غرقت فيها ، إلى الأبد : ولكن هذه الفكرة لم تكن تصدمني صدمة الفضيحة . كنت أكسب ، من هذا النوع من التسليم ، عدم اكتراثٍ لم أكن قد عرفته قطّ » ولكن ها هي ذي ، في تموز ١٩٦١ ، ما زالت تحت ضربات التاريخ المضاعفة (الحرب الجزائرية في هذه الحالة) : « دار بفكري : ان هذه القصة التي حدثت لي ، ليست ، بعد ، قصتي ، لم

١ – انظر « قوة الاشياء » ص ٧٥ – ٧٩ .

٢ – نفس المرجع ص ٤٠٠ .

أكن أتخيل قطعاً بعد أنني كنت أرويها لنفسي ، على هواي ، ولكنني كنت أعتقد أنني ما زلت أسهم في بنائها ، أما في الحقيقة ، فقد كانت تفلت مني . كنت أشهد ، عاجزةً بلا قوة ، تفاعل قوىً غريبة : التاريخ ، الزمن ، والموت[1] » .

يبدو حقاً ، بعد أن يوضع كل شيء موضع الاعتبار ، أنّ علاقتها بالزمن ، حتى هنا ، قد احتفظت بأثرٍ عميق غائر العمق من طفولتها « التي نُذرت للمطلق » والتي وصفتها لنا بكل تلك الدقة . وفي الصفحات الأخيرة من « قوة الأشياء » ، إذ تلاحظ أنها قد شاخت (وتقول : « هذا هو أهم شيء ، وأكثر شيء استعصاءً على التعويض ، حدث لي منذ عام ١٩٤٤ ») ، تعترف بأنها متحيّرة بظاهرة ليس من شأنها مع ذلك أن تدهش بالمرة أيّ قارئٍ تابع ، بأدنى قدر من الاهتمام ، الاجزاء الثلاثة من سيرتها الذاتية : « عشت مشدودةً نحو المستقبل ، وأنا الآن أسترجع نفسي من الماضي : كأنما قد ألغي الحاضر » فاذا لم أكن مخطئاً ، فان هذه العبارة تشكّل أكمل صياغة (أدق صياغة وأوجزها على السواء) لنفس الموقف الذي حاولنا أن نستخلصه من ملاحظاتها هي ، ممتدةً عبر ما يزيد عن خمسين عاماً من الحياة الواعية . إلا أنها مع ذلك ، لم تنتظر حتى تصل إلى هذه السنّ لكي تحس الحاجة الحادة إلى الابقاء على ماضيها . فنحن نذكر قصة آلة التسجيل الماثلة : وفي خلال هذه الفترة التي نشير اليها ، جاءت لحظة أصبحت فيها فظائع الحرب الجزائرية بحيث لا تطيقها بالفعل ، وعادت للانبثاق من وعيها العميق صورةٌ قريبةٌ جداً ، على شكل حلم « بالغ العنف » . اسطوانةٌ تدور على فونوغراف ، وها هي تدور بسرعة متزايدة ، مطردة التزايد : « الابرة لا تستطيع ملاحقتها ، وذراع الفونوغراف يتخذ أوضاعاً

١ – نفس المرجع ص ٦١٥ .

خارقة ، ويئز جوف الفونوغراف كأنّه غلاّية ، ومن المستحيل ايقاف الآلة : ويستأثر بها عندئذ مضض من القلق الهائل (« إن كل شيء سوف ينفجر ، ثورة سحرية ، لا يمكن فهمها ، هذا اختلال لكل شيء ») وعندما تقبل الآلة ، أخيراً ، أن تدعها تُوقِفها ، تظهر أجزاؤها المختلفة ملوية أو مفتتة تفتيتاً » ويظل المرض يعشش في الداخل » ، والتعليق : « كانت القوة العصبيّة الغامضة هي قوة الزمن ، قوة الأشياء ، كانت تعيث بجسمي فساداً (هذه البقية التعسة من ذراع مغامرة) ، كانت تشوّه ، وتهدّد بالعدم الجذريّ ، ماضيّ ، وحياتي ، وكل ما كنت [1] . »

ليس لنا أن نشكّ في ذلك : ان هذا الوعي قد أراد دائماً أن يفلت من حركة الزمن نفسها ، من حركة التاريخ الجماعي ومن حركة ديمومتها نفسها – إما بأن يُسقط نفسه على مستقبلٍ مثاليّ ، واما بأن يسجل بدقةٍ صارمةٍ ماضيه ، واما أخيراً بأن يهوي ، باضطرام ، الجمال (الذي « يوقف الزمن ») ، بأن يجعل الحدة المباشرة لبعض اللحظات تستحوذ عليه حتى الدُوَار . ولنبحث عن الشيء الغائب في هذه اللوحة : إنه الحاضر نفسه ، بالطبع – إذا جرؤت على القول ... انها تجْهد في أن تدحض الزمن الإنسانيّ في واقعه الراهن المتحدد المتعيّن . لأنـه يمارس من الخارج ، على وعيها هي ، قوةً مُكرِهة ، بقدر ما يعيش الآخرون أيضاً هذا الواقع ، حيث لا ينِي يتوقف على مشروعاتهم التي لا يمكن التحكم فيها . وبالمثل ، قطعاً ، وإن كان إلى درجة أقل ، فيما يتعلق بالديمومة البيولوجية باعتبار أن حركة وجودنا نفسه مشروطةٌ بها موضوعياً (من الخارج ، مثل مجرى التاريخ تماماً) وأن هذه الحركة تظهر ، أكثر فأكثر ، عاجزةً عن أن « تضع عليها شروطاً فوقيّة » ،

---

١ – « قوة الاشياء » ص ٦١٢ .

عن أن تتخذها لحسابها : في أفق سنّ النضوج هناك الشيخوخة التي لا يمكن قبول حدها المحتوم لأنه نفي كل مشروعٍ للذات .

إن الحجر الكبير الذي تزودنا بـه الآن ، خِفية ، لكي نرميه ، في اللحظة المناسبة ، في حديقة كاتبتنا ، أعتقد مع ذلك أنه سوف يكون لزاماً علينا أن نحتفظ بـه في حديقتنا نحن ، في ذكرى سوء التفـاهم الضخم الذي سوف نفلت منه . فقد كنا في الواقع على وشك أن تضللنا وتعمّي علينا أمانتُها المدمِّرة ، وحرصها العنيد ، المتلمّس ، الـذي لا يكل ، على أن تكون « صادقة » ، وجنونها المتزمت الصارم في أن « تقول كل شيء » .

ذلك أنّ هذه المرأة ، بالتأكيد ، تروي حياتها — أمامنا — في الماضي ، ومن ثم فليست حياتهـا هي التي نمسكها بين أيدينا ، بل هي القصة التي أرادت أن تصنعها منها . فلنضع موضع التساؤل اختيارهـا أن تقول عن نفسها ، وطريقتها في القيام بذلك ، إذا بدا لنا هذا الاختيار ، وتلك الطريقة ، مثاراً للنزاع ، ولكن لا نرتكب خطـأ أن ينظر في الاختيار الذي يظهر في اللحظات التي تخصص نفسها جميعاً لكتابة حياتها ، وبالتالي لتفكير حياتها من جديد ، فنعتبره هو علاقتها الأساسية بذاتها ، والا كان ذلك خلطـاً بين الذاتية الحيّة المعلّقة دائماً ، ذاتيـة الحضور للذات ، وبين شبه — الموضوعية لتمثيلٍ للذات [1] . وقـد أتيحت لنا إلى حد كبير امكانية أن نوقن من أنّ سيمون دو بوفوار ، في الحق ، أكثر حرصاً بكثير على أن تكون في المستقبل ، منها على أن تتوحّـد بكيانها الماضي : إن عدوانيّة تفاؤلها ، وارادتها العنيدة ، ترغمنا على

---

١ — لاحظ سارتر ذلك (في « الكون والعدم » ص ١٠٦) : يمكن لمحاضر أن يكون موضوع « لصدق » معين ، لأنه كينونة الإنسان ، في سقوطها إلى الماضي ، تتشكل باعتبارها كينونة « في ذاتها » .

أن نستبعد هنا كل فرض من نوع « التثبيت في الماضي » . ولكن مما يميل إلى ابتعاث الوهم في نظرتنا إلى الأمر أن علاقتها بالمستقبل نفسها توصف ، بالضرورة ، من جانبها تحت المظهر الميّت لعلاقة جامدة ، معاشة من قبل ، ومتجاوزة إلى حد يقل أو يزيد . نحن نعرف أنها لم تنِ قط عن أن تشد نفسها ، وتتوتر ، تحت سياط تطلبها ، أو أن تحس نفسها ، على نحو عنيف ، غير راضية عن كل « ضير » يوقعه بها مجرى الأشياء ، عن نظام العالم أو فوضاه ، ومع ذلك فإن أنفاسنا تتقطع إذ نتتبع خيط وجودها ، من مرحلة إلى مرحلة : وإذا كان حقاً أن هناك الكثير من « الحياة » في هذا التعداد الخارق للمراحل واحدة بعد الأخرى ، فإننا مضطرون على الأقل إلى أن نحسّ فيها الحاضر في شكل غياب معين — فما هو الشأن في كل قصة لا يمكن أن نتجاهل أنها قد سُجلت بالفعل من قبل ، في مكان ما ، في هذا العالم الواقعي » . ويبقى أن نعرف ما هو معنى هذا « الغياب » ...

أنْ يكتب المرء هو دائماً أن يضع المرء نفسه في مكان آخر : في المتخيّل ، في الماضي ، أو في المستقبل ، ولكن ، على كل حال ، على هامش هذا الحاضر — المشترك الواقعي الذي يواجه الرجال بعضهم بعضاً إذ يُحدثون التاريخ . إنّ الحاضر الوحيد للكاتب هو حاضر كتابته التي لا يمكن أن تكون ، على أفضل الوجوه ، إلا فعلاً « مسوّغاً » . وما زال ينبغي للمرء أن يتساءل بأية شروط يمكن أن يصير هذا الفعلُ (على فرض أنه يحدث بالفعل) بيننا ، إسهاماً ، ولو قليلاً ، في اختراع الانسان للانسان — وأقصد أن أقول : في النمط الوحيد من المشروعات التي نستطيع بفضلها أن ننازع أحدنا الآخر وأن نعترف حقاً أحدنا بالآخر .

فإذا كانت مغامرة سيمون دو بوفوار ليست مجرد بحث عن « الزمن

الضائع » ، فذلك أن محاولتها أن تنكر الزمن (إذ تستحوذ عليه) ، وأن تعطي لنفسها كينونة ، وأن تنضم إلى نفسها ، تجري ، في نفس الوقت، تبعاً للأبعاد الثلاثة الزمنية . إن مجرد المعارضة عندها ، بين علاقتها بالمستقبل ، وعلاقتها بالماضي ، تكفي للاشارة إلى معارضة أخرى عندها (تستحق هذه المرة أن تُميّز بأنها ديالكتيكية) بين حضورها في العالم ورفضها للعالم : انك إذا سحبت من رَجُل مركز الثقل هذا ، هـذه الحمولة الأساسية التي تكسبه التوازن ، وهو الوعي بأنّ عليه أن يكون هنا والآن ما يظنّ نفسه أنه يكون ، لن يبقى لك بعد ذلك إلا مظهر رجل مظهر محكوم كله «بماض» لم يكن قط قد أصبح حـاضراً ، أو «بمستقبل» لا تمكن أن يصير مستقبلاً . أما سيمون دو بوفوار ، فيبدو لي ، على العكس ، أنها قد وصلت إلى أن توجد على نحو واقعيّ أكثر فأكثر ، أي أن تعطي معنى أكثر فأكثر لحضورها الحيّ ، نتيجة لمنازعتها إياه ، في وقت معاً ، باسم انتصاراتها السابقة وباسم ادعاءاتها المتعلقة بالمستقبل . إن ما يصنع ، في عينيّ ، أصالة عملها الأدبيّ ، هو أنها تروي قصة تناقض معاش من أوله إلى آخره – قصة هـذا الاكتشاف المطّرد ، الذي يبدأ أبداً من جديد ، ولكنه يُعمّق في كل مرة : أنه يجب ارادة ان «يكون» المرء «هو كل شيء» ومعرفة أنّ «المرء هو لا شيء» .

إنّ شكل الحضور في العالم الذي تقدم سيمون دو بوفوار صورتـه التأمليّة ، مضموماً على نحو وثيق بين بُعديّ تطلبها للكينونة (استدامة الكينونة التي كانتها من قبل بالفعل ، واسقاط الكينونة التي تدّعي أنها تكونها) ، تبتعث فيه الحياة بالاضافة إلى ذلك طاقة حيوية ضارية . هذا الشكل للحضور في العالم يبدو لي في النهاية مشروعاً للحياة أصيلاً غاية الأصالة .

ولكن لا يمكن أن نقدّر أي مشروعٍ صدوراً عن نواياه أو حوافزه وحدها : ان مشكلة النتائج موضوعةٌ هي أيضاً ، في حدود الفشل أو النجاح . ولعلّ فيما يلي أكثر ما صاغته كاتبتنا جذريةً ، من نتائج ، في هذا الصدد :

— « إنني إذ أستعيد ذكرى قصتي ، أجد نفسي دائماً فيها أمام أو فيما وراء شيءٍ لم يتم انجازه قطّ . مشاعري وحدها هي التي أحست بها باعتبارها امتلاء » .

— « أرى من جديد سياج أشجار البندق التي كانت الريح تمايل بها ، والوعود التي كنت أدفع بها قلبي إلى حد الجنون عندما كنت أتأمل منجم الذهب ذلك الذي كان عند قدميّ ، حياةٌ كاملة أحياها . لقد وُفّي بكل هذه الوعود ... »

— « ... ومع ذلك فانني إذ أدير نظرة غير مصدقة إلى تلك المراهقة الساذجة ، أقدّر ، بذهول ، إلى أي مدى قد خُدِعتُ ... [1] »

على أنه ينبغي أن نلاحظ أولاً أن هذه النتائج المزعومة مؤرّخة (مارس ١٩٦٣) أي أنها ، بدورها ، قد سقطت في الماضي . على أن كاتبتها ما تزال تشهد بيننا بحضورها الحيّ المتدفق الحياة : بحيث يبدو من الحكمة ألا نتخذ بازائها هذه النظرة « النهائية » التي رأينا سيمون دو بوفوار تسقط في مصيدتها أكثر من مرة ، وأن ننتظر ، على الاجمال ، انبثاقات القضية في المستقبل (والتي لن نعرفها بلا شك إلا عندما تصبح هي نفسها في غير الحاضر الراهن) ... ولكنّ ما يهمّ أكثر من ذلك هو أن نؤكد المنحى المتناقض في جوهره لجذرية هذه « النتائج » : فهي إذا أخذت حرفياً ، تشير ، حيناً بعد حين ، إلى

---

١ — « قوة الاشياء » ص ٦٨٣ و ٦٨٦ .

الهزيمة أو إلى النجاح ، تشير إلى التوفيق كما تشير إلى الإخفاق . ولما لم يكن بعيداً عن الحقيقة مع ذلك أنّ هذا الوعي قد أمكن له ، على ذلك النحو ، أن يتناقض مع نفسه على غير علم منه ، على مسافة بضع صفحات بل بضعة سطور ، فلعل فرضاً أقلّ سخفاً قد يتيح لنا أن نفهم على نحو أفضل قليلاً ، ما أرادت أن تقول : سأذهب إذن إلى حد أن افترض ، مثلاً ، أنّ النصوص التي نحن بصددها تصدر عن فكر متماسك متسق يصارع واقعاً متناقضاً ...

وعلى ذلك يبدو لي ، منذ الآن ، أن أحد الأبعاد الثلاثة للزمن، على الأقل ، ليس موضع نزاع هو بُعد الحاضر ، الحاضر الفعليّ في العالم وللّذات (« مشاعري وحدها هي التي أحسست بها باعتبارها امتلاء ») . أما موضع الادانة ، في مقابل ذلك ، فهو هذا الحاضر الزائف ، هذا « الحاضر » الأبديّ الذي يلخص عندها كلّية الزمن والذي ليس من ثم إلا نفي الزمن . إن هذا الحاضر ليس بكائن : ان المرء لا يكون قط حاضراً لذاته باعتباره كينونة . نحن نعرف أن هذا « الشيء » الذي تحدثنا عنه والذي « لم يتم انجازه قط » لا يمكن أبداً أن « يتم إنجازه » لأيّ وعي حيّ ، وأن « لحظات ممتازة » معينة وحدها هي التي يمكن أن تزودنا بحدة تعمي الابصار مثل حدة برق في الليل ، بوهم عقيم غاية العقم لهذا الشيء . — أما عن بُعد المستقبل ، فلا شك أننا نسلّم بأنه لم يلق معاملة سيئة في هذه النصوص : لقد وُفي بالوعود . ونحن هنا فعلاً بصدد وعود ضربتها هي لنفسها ، منذ طفولتها ، وهي التي « وفت » بها : لقد رأينا أن اسقاط ذاتها في المستقبل قد ضرب بجذوره على نحو أفضل باطراد ، في ممارسة عملية يومية لا يمكن أن تُزاول ، كما هو واضح ، إلا في الحاضر — ان بُعد الماضي ، في نهاية الأمر ، هو الذي يبدو هنا بمظهر الآثم : ولكنّ وضعه موضع السؤال يبدو أنه يجري ، مرةً بعد مرة ، تبعاً لنظرتين مختلفتين .

إنّ ما يوضع موضع الاتهام أولاً هو بالفعل العملية التي يسقط بها المرء ذاته على الماضي : استرجاع الذكرى نفسه : « عندما أستعيد ذكرى قصتي ... » ولا شك أن ذلك سوف يساعدنا على فهم أن سيمون دو بوفوار تستطيع أن تكتشف « بذهول » لا أنها مخدوعة ، بل أنها قد خُدعت [1] .

أما وجهة النظر الثانية فتبدو أساسية أكثر بكثير . ولكي نفهمها على أصح وجه ، أعتقد أنه من الأوفق أن نضع هاتين الصياغتين المتتاليتين على علاقة إحداهما بالأخرى : « لقد وُفي بالوعود » « قد خُدعت » . ذلك أنه من المدهش ، بالرغم من كل شيء ، ولعل له دلالة مهما قلت ، على الأرجح ، أن نلاحظ أن كاتبتنا تعبر عن نفسها بصيغة المبني للمجهول في كلتا الحالتين . فقد كان المنتظر ، منطقياً أكثر ، أن تقول (بلهجة المطالبة) : لقد وفيت بالوعود التي ضربتها لنفسي ومع ذلك أجد نفسي مخدوعة — أو أن تقول (بلهجة النقد الذاتي) : لقد وفى العالم بوعوده لي ولكني أسأتُ إلى نفسي فيما يتعلق بما كان هناك مجالٌ لانتظاره في هذا العالم . ولكن ها هو ذا كل كبرياء ذلك الوعي الذي كان يريد نفسه ذا سيادة كاملة ، يبدو أنه على العكس قد ألغي مرة أخرى : انها تتخلى عن أن تؤكد قيمة « حقوقها » ، وتصمت عن « أوجه استحقاقها » العملية ، ولا تفكر حتى في أن تستبدل بها وجه استحقاقها من حيث وضوح رؤيتها .

ألم تكن كل هذه الجهود المبذولة باسم المطلق قد انتهت إلا بأن تنتج مجرد هذه الضحيّة البحتة للنسبيّ : وعياً مستسلماً إلى ألاّ يكون إلا ما

---

١ — مما يعني بوضوح أنها لم تكن مخدوعة في الماضي المعاش ، وأنها قد أصبحت مخدوعة عندما استرجعت نفسها ، عندما ألقت بنفسها في الماضي ، إذ جعلت من حياتها قصة حياتها .

يُصنع به ؟ ذلك على كل حال هو تفسير منهجٍ نقديّ معين (ونحن نعرف أمثلة أبرع وأذكى منه) وهو تفسير لا أدري ما إذا كنت أكثر اعجاباً به ليضخّم العمى الذي يخيّم عليه ، أو للحنوّ ، الذي يمسّ القلب ، والذي يحفزه ، حتى نتقاسم ، مع الكاتبة خيرات العناية الإلهيّة التي لا حصر لها ، لكي نعزيها عن فشلها الانساني حقاً ...

فلندع هذه المركبة تجري في مسارها ، ولنرجع الآن إلى نصوصنا . لست أعتقد بالمرة أن سيمون دو بوفوار ، عندما تعبر عن نفسها هنا بصيغة المبني للمجهول ، مرتين ، وبصدد هاتين النقطتين الاساسيتين ، انما تسلم نفسها لموقف ما من مواقف السلبية بإزاء نفسها : انها لم تنكر قط كبرياءها ، ولا تريد نفسها أقل سيادة من ذي قبل ، باعتبارها وعياً عليه مسؤولية ذاته بشكل مطلق . وإنما يتفق ببساطة أنها نتيجة لأنها وجدت ، قد فهمت على نحو أفضل باستمرار ، ماذا يمكن أن يكون الوجود ، وتعلمت ، على نحو أفضل ، باستمرار أن تضع كبرياءها ، وتطلّبها للسيادة ، ومسؤوليتها ، في داخل عالم إنسانيّ وفي داخل حاضرٍ جماعيّ — تعرف ، منذ الآن ، أنه يتجاوز باستمرار حاضرها هي دون أن تملك شيئاً من أمر هذا التجاوز .

وإذا كان حقاً مع ذلك أنّ زمن الآخرين ، إذ يفيض على جوانب ديمومتنا المعاشة دون توقف ومن كل ناحية ، يرمي ، للفور ، كلّ لحظة من لحظات حضورنا في العالم إلى نوعٍ من الماضي [1] ، إذا كان حقاً أن تاريخ الانسان لا يصنع نفسه إلا على حساب كل إنسان ، وأننا

١ — إن هناك أحداثاً تجري منذ الآن ، تهمني ولكنها لن تحدث لي (لن تصبح واعية عندي) إلا فيما بعد . أو بطريقة أكثر استخفاء : إن ما يقوله الناس الآخرون أو يفعلونه هنا وهناك ، ويفلت مني إلى حد ما ، يشكل مع ذلك — سلفاً — أكبر دلالة حظاً من الحقيقة من دلالات هذا المشروع الذي نهضت بعبئه ، بحرية ، والذي أجهد ، في الوقت الراهن ، أن أحققه بنجاح .

«يعاد صنعنا، بواسطة هذا التاريخ في نفس اللحظة التي نسهم فيها في صنعه. أفلا ينبغي أن ننتهي إلى فشل الوعي، إلى الاستحالة الجذرية، عنده، للوجود بسيادة، لتجاوز ذاته بطريقة مستقلة ذاتياً نحو تطلب كينونته؟ وبعبارة أخرى: أهناك أي فرصة لهذا التطلب في أن يتجسّم في هذا العالم دون أن ينكر نفسه فيه. في نفس الوقت؟ ألم تضع سيمون دي بوفوار، على كل حال، اصبعها على هزيمة جوهرية، إذ تتصور نفسها باعتبارها قد «خدعت» هزيمة قد تكون على أرجح الاحتمالات هي هزيمتنا في نفس الوقت، كما هي هزيمتها؟

أعتقد أنه يجب أن نسلّم بذلك على نحو ما، والا تعرضنا أن يفوتنا البُعد الحقيقي، والمعنى العميق لما نجهد أن نقوله الكتابة، إذ تأتي الينا بتحققات وعيها واحداً بعد الآخر. نعم، نحن نعيش في الفشل (نحن من يوم إلى يوم، وفي وقت معاً، نُصنع، ويُعاد صنعنا، ونُفكك)، ونحن نحاول أن نتجاهل ذلك إذ نلوذ وراء هذه «الأخلاقية» أو تلك - على الأقل طالما أن إدعاءنا أن نكون (أن نكون هذا وذلك، لا يهم كثيراً) لا يتجاوز مرحلة الوعي، والرضى عن الذات، مرحلة الحكايات الخرافية التي يهدهد المرء بها نفسه حتى يفلت من حقائق الواقع. والهزيمة أيضاً من نصيبنا، عندما نظن أنفسنا قادرين على استبدال وهم آخر بهذا الوهم السلبي، وهم آخر بفعل مزعوم على العالم لا يتوقف نجاحه إلا على اتساع مطامحنا ودأب جهودنا. إذ أن ذلك يعني، فقط، أننا، في كلتا الحالتين نرفض واقع الحاضر نفسه، بطريقة جذرية، كما هو واضح، في الحالة الأولى، إذ نُؤثر، دفعة واحدة، حلمنا بالكينونة (ماهيتنا المتخيلة) على جهد أن نوجد، وبطريقة، في الحق، ليست أقل حسماً في الحالة الثانية، إذ نزعم اننا نمارس حضورنا في العالم كما لو كان هذا الحضور لا يتوقف، في هيكله نفسه، على ذلك الحضور - المشترك الذي هو وضعنا المشترك.

إلا أنه يجب أن نرى أنّ عمل سيمون دو بوفوار الأدبي ، إذ تعدد لنا هذين الشكلين من الفشل ، إنما يستنفرنا إلى تجاوزهما ، مرةً بعد الأخرى . وقد نثبت ذلك ، بلا عناء ، إذ نعود إلى نصوص فلسفية لها لا تترك دقتُها في هذا الصدد مجالاً لمستزيد ، أو على العكس ، قد تفشل ، لهذا السبب نفسه ، في أن نثبت ذلك حقاً ... ذلك أن وعي الفيلسوف يلوح كأنه يلعب ، في الغالب الأعم ، دور الأرنب ، في مواجهة سَيْر وجوده المحدد . هذا السر السلحفاتي المعقّد . ولما كانت النتيجة التي تنتهي اليها الخرافة المشهورة بين الأرنب والسلحفاة ، تبدو لي ، فوق ذلك ، مُتحققةً ومؤيّدةً في مغامرة كاتبتنا ، فانني أفضّل ، بما لا نهاية ، أن أتبع هنا ، المسار الواقعيّ لهذه الكاتبة ، بدلاً من أن أعرض لجولة هنا أو جولة هناك قد تكون استشفّتْها على الخريطة ...

ويمكن أن نرى بوضوح كاف ، في مستوى قصتها نفسه ، كيف يُستخلص هذان الموقفان من موّاقف الفشل اللذان أشرنا اليهما منذ قليل ، والموقف الذي يفضي إلى تجاوزهما . ففي الفترة الأولى (حتى الازمة المتساوقة مع نهاية مراهقتها ووضعها القلق كفتاة شابة ما زالت تعتمد على أهلها) هي تحلم بأن تكون ، وتعيش في المتخيّل ، وتذهب إلى حد احتقار «الآخرين» باسم صورة معينة للذات . وفي فترة ثانية (لم تكن بلا شك ممكنة إلا لأنها منذ الفترة السابقة قد حصلت ، بالرغم من كل شيء ، على معنى الجهد على الذات ومعنى العمل) تستخدم الوسائل الواقعية التي توضع أخيراً تحت تصرفها بدخولها سنّ النضوج لكي تشرع في أن تكون ، وبتغير حلمها ، بعزم ، إلى تطلّب حقيقي سوف تكون ما سوف تصنع نفسها أن تكون . وعندئذ يميل موضوع «الخلاص» إلى أن يندمج ، عندها ، أكثر فأكثر ، في موضوع تجاوز الذات ، والارتفاع ، والتصعيد ، الذي كان قد أصبح مألوفاً لديها

بمنذ مراهقتها . فهي بصدد التقدم ، والارتقاء ، والمضيّ قدماً ، والنموّ ، هي بصدد الذهاب إلى مكان ما ، وأن يكون لها هدف ، وأن تبرز ، وأن تحترق ، أن تحيا حياةً ملتهِمة [1] . هي أخيراً بصدد تسيير كل

---

١ – ان هذه الألفاظ المختلفة التي تستخدمها كاتبتنا في مرات متعددة ، يمكن أن تكشف في موقفها عن نوع من « الهرب إلى الأمام » . وكما كان من المنتظر ، وضعت سيمون دي بوفوار لنفسها هذا السؤال الذي يثيره بالضرورة أي عرض « للوجودية » : « أي جانب من الهرب يتضمنه الاسقاط ؟ » .

والاجابة التي تردّ بها على هذا السؤال تبدو لي على أكبر قدر من الدلالة . وهي تستند إلى « اختبار إسقاطي » لفان لينيب Van Lennep ، اشتركت هي وسارتر فيه ، نحو ١٩٤٧ . كان الاختبار يتلخص في اختيار « أوضح انطباع للسرعة » تعطيه صورة من أربع صور – جواد يعدو ، زورق بخاري ، قطار ، ورجل يمشي . « وقلت بلا تردد : الرجل : فقد كانت السرعة عنده وحده تبدو لي معاشة بوعي » (« قوة الأشياء » ص ١٣٣) . ونحن نعرف أن سارتر ، من ناحيته ، قد اختار الزورق : « لأنه ينتزع نفسه من السطح الذي يلتهمه » ، ولكننا لا يمكن أن نقارن بين الاجابتين إلا إذا قارنا أولا ، بغاية الحرص ، بين السياقين الأصليين اللذين تصدر عنهما الاجابتان ، من جانب ومن الجانب الآخر ، وليس ذلك موضوعنا هنا .

ونستطيع على الأقل أن نلاحظ أن اختيار القندس عندما وقع على مشية الرجل ، أي على تتابع لانعدام توازنات كل منها مستثار بوعي ومدرك من جديد باستمرار ، يشير ، في وقت معاً ، إلى حرصها على المضي إلى الأمام (اسقاط الذات على المستقبل) وحرصها على « استبقاء القدمين على الأرض » : ألا تندفع إلى المستقبل إلا بالبقاء متمسكة في كل لحظة بتربة حقائق الوقائع . والواقع أنني يصعب علي أن أتصور كيف كان مثل هذا التوازن ممكناً عندها ، لو أن تطلبها للكينونة لم يخلع نفسه ، دفعة واحدة ، في الوقت عينه ، على الأبعاد الثلاثة الزمنية . إن إنشغال سيمون دي بوفوار بانقاذ كيانها الماضي هو الذي أمدها بالثقل المضاد الضروري لمشروعها في أن تعطي قيمة لذاتها . ويجب أن نرى ، بلا شك ، بالاضافة إلى ذلك ، أن بعد الماضي كان ليتغلب على بعد المستقبل ، بشكل لا محيد عنه ، لو لم تكن فيه حيويتها نفسها ، وحاجتها العنيفة إلى أن تحس نفسها تحيا – بحيث نضع أحدهما في مفصلة على الآخر ، وتجعلهما كليهما يضربان بجذورهما في الحاضر . في هذه الظروف ، فان المضي إلى الأمام هو الذي كان سوف يفرض نفسه ، ولكن مزوداً (« محملا بثقل التوازن » إذا صح =

شيء لكي تكون له قيمة أفضل في المستقبل – بصدد الطموح ، بأعمق معاني الكلمة . قلت فيما سبق إنه من الغلوّ أن نرى فيها ، في تلك الفترة ، مجرد فتاة طموح بحتة ، مثل راستينياك . ولكنها بنفسها قد أوضحت أحسن الأيضاح ما هو مشترك بينها وبين هذه الشخصية البلزاكية (وبين أخيه غير الشقيق ، عند ستنهدال) : « ان يكون المرء جوليان سوريل ، أو راستينياك ، ذلك يتطلب أن يأخذ المرء نفسه بين يديه ، لا أن يستدبر عن نفسه » ونحن هنا بصدد مقارنة مع الرجل الأمريكيّ الذي لا يحلم حتى « بأن يبرز فيما وراء العالم المعطى ، وهو حلمٌ ترمز اليه هذه الشجرة التي يعلوها جوليان سوريل ، والقمة التي يطل منها راستينياك ، بشكل رائع ، على باريس [1] » .

أما الفترة الثالثة ، فقد ذرعناها أيضاً من قبل . ورأينا سيمون دو بوفوار تكتشف فيها ، بالتدريج ، عبث المثالية ، غرور كل إسقاط – أياً كانت الشجاعة التي ينوي المرء أن يضعها في خدمته – وغرور « صنع النفس » أو مجرد « معرفة النفس » بالاستقلال عن الآخرين : أي بالاقتصار على اعتبار وجودهم مجرد حافز لمواقفه الخاصة . وقد قالت ذلك عن كامو : « من الشاق أن يعتمد المرء على الآخرين عندما كان المرء يظن نفسه ذا سيادة : هذا الوهم ، الشائع بين المثقفين

= القول) بنوع من العمق الدال ، ومن العبء الوجودي ، من جانب كل هذا الجانب من الحياة المعاش بوعي من قبل .

وملاحظة أخيرة : بفضل هذه الديالكتيكية الراهنة والحاضرة جد الحضور ، بين « بعدي الهرب » الزمنية ، إذا كان الماضي بالتأكيد قد لوث المستقبل إلى حد ما ، فانه بدوره قد تعرض للتلوث من جانبه ، بلا شك . إن ما يسعى وراءه هذا الوعي ، هو بالفعل ، من ناحية الكينونة التي كانت قد حلمت بها ، جملة واحدة ، ولكنه في المستقبل ، من ناحية أخرى ، يقلق بشأن ماذا كان يمكن أن يكون .

١ – « أمريكا يوماً بعد يوم » ص ٣٧٣ .

البورجوازيين ، لا يشفى منه أيّ منا إلا بعناء . كان التأمل الاخلاقي عندهم جميعاً يميل إلى استرجاع هذه الصدارة وهذا العلو . ولكن سارتر ، وأنا في اثره ، أسقطنا عنا كثيراً من الأثقال ، كانت قيمنا القديمة يتهشمها وجود الجماهير : الكرم الذي حرصنا عليه بكل عنف وخشونة ، بل والأصالة [١] .

أعتقد أننا نخطئ لو أننا استخلصنا من ذلك تنازلاً ما من جانبها : ذلك أنه لعلها قد كفت عن أن تظن نفسها « ذات سيادة » (بالمعنى الذي كانت قد زعمت أنها تكونه ، في البداية) ولكنها لم تكف عن أن تريد نفسها ذات سيادة . ولا شك أنه كان لزاماً أن يبقى تطلبها الأكثر جذرية ، كاملاً ، حتى يكون لمشروعها الشخصيّ اليوم في عالمنا – في عالم « الآخرين » – هذا الواقع الموضوعيّ لعمل لا نني نستكشف غناه ، ونسجل آثاره . ولكن ذلك يرجع أيضاً إلى أن طموحها ، في مجرى الطريق ، قد تغير في معناه وفي موضوعه . لقد أرادت سيمون دي بوفوار ، دائماً ، نفس الشيء ، على نحو ما : أن تعيش وفقاً لذاتها ، أن تكون وعياً حياً ، على أن تبقى سيدة ذاتها . فإذا كان لزاماً عليها أن تعدل موقفها العميق ، فذلك بقدر ما كانت تجيب على مشكلة أمينة وضعها ، إجابة تصوغها وتعمقها يوماً بعد يوم : مشكلة كانت مدعوة إلى أن تحلها بينا لم تكن مزودة بعد بمعطياتها الحقيقية .

فليتفضل بالقاء صحيفة الاتهام أولئك الذين لا يتعرفون هنا ، على الأقل ، على وضعهم الماضي : أما أنا ، ولو كان ذلك في الحاضر ، فاعترف أن دور النائب العام لا يناسبني هنا . ذلك أنني لست متأكداً ، بالمرة ، أنني قد اخترت جانبي – كما استطاعت هي أن تفعل – من المعطيات الحقيقية لمشكلتنا المشتركة . وأنا أراها توصل ، منذ أكثر من

---

١ – « قوة الاشياء » ص ١٢٢ .

عشرين عاماً ، كما لا يتاح لنا كثيراً أن نفعل .

لقد تطلبتُ ، دفعة واحدة ، فوق كل شيء ، «التواصل» : مع الله ، مع أبيها ، مع انسانيّة حلمت بها . وكانت أكثر الطرق عندها ثباتاً ، لاستهداف الكينونة ، هي أن تريد نفسها معترفاً بها من الغير . على هذا النحو صارت كاتبة ، وذهبت (بعد ذلك) حتى إلى حد كتابة سيرتها الذاتية . وفي هذا الصدد على الأقل ، لا يمكن للمرء أن يقول إن مشروعها ، منذ الآن ، يتعرض لأن ينتهي بالفشل . هل نتنسم فيه مع ذلك نفحات من الفردية ؟ أيأخذ المرء على هذا الهمّ بالتواصل أنه ليس إلاّ همّاً بالتواصل مع الذات ؟ ولكن يتعذر علي أن أتخيّل ماذا يمكن أن نقول ، على وجهه الحق الصحيح ، إذا لم يكن قد مرّ من خلالنا ، من خلال تجسّدات وعينا نفسه ، من خلال وجودنا المتحدد المتعيّن . وأستشف ، على العكس ، درساً جميلاً من الحقيقة ، في طريقتها هذه ، إذ تقول عن ذات نفسها يوماً بعد يوم ودون أدنى مظهر من مظاهر الدلال ، في أن تذكّر كلاًّ منا أنه هو نفسه يقوله التاريخ ، يومياً ، أكثر بكثير مما يستطيع أن يقول عن ذات نفسه — ولكنه لا ينبغي له ، لذلك ، أن يتنزل عن أن يفكّر هذا التاريخ وعن أن يجاه ، من أن يحمل اليه إسهامه الخاص وفقاً لوسائله الخاصة .

ذلك في عيني هو التواصل الحقيقيّ : حرية تهيب فيه بحريات أخر ، وتعترف بها حتى يُعترف بها منها ، مع فهم ، بطّرد عمقاً أن هذا العالم ليس «إنسانياً» إلا ، بالضبط ، بقدر ما نجهد نحن في أن نجعله كذلك . مما يعني ، كما هو المفهوم ، أنه كلّما أراد المرء ذلك أكثر ، أحس نفسه مخدوعاً ، أكثر . ويجب ، بعد ذلك ، حتى نعطي لهذا الشعور أدنى قيمة ايجابية ، ألاّ يتنزل المرء أبداً عن طموح أن يحيا المطلق — لا بأن يزعم أنه يحققه في عالم النسبية هذا ، بلا شك ، بل

بالاصرار والدأب ، في مواجهة الرياح والعواصف ، على أن يصنع منه قانوناً بازاء الذات .

وذلك هو ما أرادته ، فيما أعتقد ، ودون أن تحاول أن تخفي عنا شيئاً من النسبية المتصلة الثابتة التي تأتيها منا (كما تأتي إلى كل منا ، من قبل كل الآخرين معاً) . وعلى هذا النحو نستطيع أن نفهم أنها كانت ، بكل ذلك العمق ، مُرَكَّبة على الغير ، بينما هي تظهر ، بكل تلك الطواعية ، عصيّة على كل العلاقات الانسانية التي تقوم على مجرد التهنئة . إنني أبعد من أن أتخيلها مهزومة ، بل أحسب ، على العكس ، أنها عرفت حتى المعرفة أن تهزم نفسها مرة أخرى إذ جعلت من انتصارها شيئاً نسبياً . ولست أرى في وقوفها على مبعدة ، كما يتفق لها أحياناً ، بالنسبة للعالم الانساني ، إلا وقوفها ، باستمرار ، على مبعدة من ذاتها ، وهو ما يقرّبها الينا ، باستمرار ، كل هذه القربى . وهي لم تضع بين قوسين في هذا العالم ، إلا حضورها لذاتها (بالقدر الذي تعرف فيه أي جانب فيه من سوء النية) وظهورها الجسمي أيضاً بلا شك ، ذلك أن حريتها لم تقبل قط أن تتغير إلى موضوع ما يمكن أن يؤدي دور مصيدة بازاء وعي الآخرين .

ولكني قد عالجت طويلاً علاقتها بالآخرين ، ولعل ما يبقى لي أن أقوله لم يعد إلا محاولة لاستخلاص الختام . إذ يبدو لي أنه ينبغي لكل كتاب أن يكون له ختام ، حتى إذا لم يكن يحرص إلا أن يكون مقدمة – كما هو شأن هـذه الدراسة – على نحو واضح كل الوضوح .

خاتمة

أرادت أن تستحق حياتها ، ولكنها سخرت من نفسها ، بما فيه الكفاية ، عندما فاجأت نفسها «تستقي منها المجد» ، ليكون لها الحق في أن تقول لنا : «لم يكن يغريني أن أفتتن بنفسي ، فلا نهاية لدهشتي مما أتيح لي من حظ .» وهي تؤكد أنها لم تكتب قط إلا بالعمل الشاق ، ونحن نعرف بالفعل أيّ شغّالة رهيبة كانت ، دائماً ، الا أنه كلما أعاد المرء قراءة كتبها ، اكتشف فيها من إشراق الكتابة ما لا يمكن أن يعزى عندها إلى فضل «التلميذة المجدّة» التي تدأب ، عن رضىً ، أن تعطينا صورةً لها عن نفسها [1] . لقد توخّت أن تشدّد على ما تأخذ به الأمور من جدّ ، ولكننا نؤكد أيضاً ما يشيع في كتاباتها ، من أولها إلى آخرها ، من فكاهةٍ تستروح اليها النفس [2] .

---

١ – في مقدورنا أيضاً أن نورد ملاحظتين من ملاحظات كثيرة (عن يومياتها في ١٩٥٨) : «يجب أن أكتبها على جناح السرعة ، واليد مراح تجري على الورق» – «متعة الكتابة لمتعة الكتابة ذاتها : أكتب كل ما يتفق لي» .

٢ – كتبت انها في نحو الثامنة عشرة من عمرها كانت قد آلت على نفسها ، لأسباب شتى ، ألا تستسلم أبداً لدوار الحواس ، ثم سارعت إلى أن تضيف : «والحق أنني لم يتح لي أن أبلو متانة هذه المبادئ ، فلم يكن ثم من حاول أن يغويني ، وأن يهز قواعدها» . وتكتب عن عامها =

وهي تنقل ، كأنما يسليها الأمر ودون أن تحاول منازعة ما فيه من جانب من الحقيقة ، تعريفات حاول البعض أن يصفها بها ، هي وسارتر بـ : (« قلعة كافكا » ، هما « يبخلان بنفسيهما ») أو سارتر وحده (« سارتر لا يَزُور أبداً إلاّ من يزور سارتر ») وتضيف إلى ذلك : « وهو ما يمكن أن يقال عني » أو هي وحدها أخيراً : « ساعة كبيرة في داخل ثلاجة » ... أما عن اللوحات الذاتية التي لا عداد لها والتي تقدمها الينا ، المرّة بعد المرة ، فأقل ما يمكن أن يقال فيها إنّه ما من طيب نية يجعل ألوان هذه اللوحات تبهت أو تَحُول : « كنت عنيفة مضطرمة السَوْرات ، أميل إلى الهوى المشبوب منّي إلى الاستخفاء والبراعة ، كنت أجنح إلى الشطط في طيبة القلب ، وكنت أمضي في طريقي ، على وجهي بلا زيغ ، حتى لكانت الكياسة تعوزني أحياناً » — « كنت أفقد زمام نفسي ، إعجاباً أو متعة (« ها هي ذي القندس تغيب في النشوة ، كما كان يقول سارتر ») — « لم أكن أوفّق فيما هو باهر ومثير للعجب ، ولم يمنعني ذلك على كل حال من أن أركب رأسي طويلاً في محاولة ، لقد بقي فيّ جانبٌ صغير من « ديلي » ... » — « لم يكن عندي إلا النزر اليسير من الحسّ النقدي ، كانت نزعتي الأولى وي

— الرابع والأربعين (عندما تزيح بحركة واحدة من يدها ما كانت قد قننته في الثلاثين من عمرها) : « بعد الأربعين من العمر يجب التخلي عن نوع معين من أنواع الحب » . ولكنها تعلق ، ساخرة من نفسها سخرية مرهفة المدخل ، مستخفية : « للنساء ، في شبابهن ، حس حاد بما يليق ، وما لا يليق ، عندما يولي الشباب » — وفي ذات مساء ، في روما ، مع سارتر وصديقين من الايطاليين ، تحاول أن ترد على الافكار السود التي يبعثها فيهم دخول القوات السوفيتية في بودابست (١٩٥٦) ، ترتجل صورة تقلد بها « دوس پاسوس » (أو اليسار الغربي ، و « مثقفيه ») : « أفرغ سارتر كأس الويسكي ، وقال في اهتياج إن الاتحاد السوفييتي هو الفرصة الوحيدة المتاحة للاشتراكية ، وأنه خانها . قال « جولاسو » أن المرء لا يستطيع لا أن يقر التدخل ، ولا أن يدين الاتحاد السوفييتي . وطلب كأساً أخرى ، وصعدت الدموع إلى عينيه . »

الايمان ، وبقيت عليها ، بصفة عامة » – « قيل لي إنني أتكلم اللغة الايطالية بجفاف ألماني » ... الخ ».

وقد عثرت على عبارات مرموقة ، في وَصْم ما عندها من نزعة مثالية : « كنا نرفض أن نمسّ عجلة التاريخ ، ولكننا كنا نصرّ على يقيننا من أنها تدور في الاتجاه الصحيح . والا لكان علينا أن نضع موضع السؤال أشياء أكثر جداً بكثير مما نطيق . » أو : « عندما نتلمس الأسباب التي تدعو ألا يدوس المرء على رجل ، فانما ندوس عليه . » . أو ما يلي ، فيما يتعلق بالكتاب : « ان الكاتب إذ يرضى عن صورته غاية الرضى ، ينتهي إلى أن يسجن نفسه فيها ، ويتردّى ، حتماً ، في الاحساس بالأهمية وهي سورة الغرور » .

وقد مضت أحياناً في حرصها على التواصل إلى حد أن عبرت عن نفسها أحياناً باللغة العامية ، بأخطائها المتعمدة – وتجهد على ذلك النحو أن تمزق حاجز الألفاظ والسياق اللغوي الذي يحس كل مثقف ، إلى حد ما ، أنه يقوم بينه وبين قرائه وسامعيه عندما لا يتناوله بهذا القدر من يُسر الحركة . ذلك أن هواها المشبوب بالتواصل هو في نهاية الأمر أكثر المعاني ثباتاً في مشروعها أن تحيا – و « تبريره » الحقيقي . كان ذلك عملاً شاقاً ، بالتأكيد ، و « صبراً طويلاً » ، أثراً من الآثار الأدبية ، بعبارة واحدة . ولكن السعادة ، أو غيابها المباشر ، أو الشقاء في حضوره الماثل ، لم تكن تني تجعل من الهوى بالتواصل اندفاعاً أيضاً ، وطراداً محتدم الأوار ، بل صراعاً حتى الموت ، أحياناً ضد اليأس الذي يراود كل حياة .

والشر ، في عينيها ، هو جوهرياً ألا يكون في وسع المرء أن يقول عن ذاته وأن يصيخ اليه الناس بالسمع – وعلى الأخص عندما تكون

هذه الاستحالة معاشة من وعي يُخضعه وعي آخر لارهاب فعلي : «ان الاعتصام بالتواصل يميل إلى تجاوز الفضيحة التي هي على سبيل التعريف المطلق الذي لا يُسترد للشر . » لذلك يبدو لها الجمال ختلاً ، على نحو مزدوج : أولاً لأن الأثر الأدبي «الجميل» يجنح إلى ايقاع الافتتان بدلاً من أن يقترح معنى ، ثم لأنه يُنشأ «من أجل أصحاب الامتيازات من جانب أصحاب الامتيازات الذين أتيحت لهم الامكانية ، حتى إذا كانوا قد عرفوا المعاناة ، لكي يتصالحوا مع معاناتهم» (وعلى ذلك فإنه «يُرخي قناعاً على الشقاء العاري» (وفي مرات عديدة ، وعلى الأخص عندما كشف عن الفظائع البشعة في حرب الجزائر ، خيّم الظلام على أفق سيمون دو بوفوار عندما اقتحم عليها قصتها هؤلاء الناس الذين لا عداد لهم والذين تحكم عليهم صدفة ميلادهم بالموت دون أن يكونوا قد استطاعوا أن يوجدوا حياتهم : دون أن يكونوا قد استطاعوا أن يقولوها لأنفسهم إذ يقولونها للآخرين ، بل ربما دون أن يستطيعوا ، حتى ، أن يصرخوا بها . «هناك أيام من الجمال حتى يشتهي المرء أن يسطع كالشمس ... أن يطش وجه الأرض بالكلمات المتناثرة ، وهناك ساعات يبلغ من سوادها ألا يبقى ثم من أمل إلا هذه الصرخة التي يتوق المرء أن يطلقها ... »

ولأنها كانت تحس احساساً حاداً – بطريقتها – وصدوراً عن وجودها هي – بالضير الجذري الذي يُوقع بهم ، فقد حاولت أكثر من مرة أن تصرخ عنهم ، أن تتكلم باسمهم . ويبدو حقاً أن تدخّلها الحاسم على صعيد الوضع الانساني ، يصدر عن نفس التمرد العميق ، عن نفس الرفض العنيف لكل وضع يبقي الوعي الانساني في حالة من شبه الوعي ، بأن يرغمه على أن يتصوّر نفسه ، بازاء الآخرين وبازاء ذاته ، كما صُنع له لا كما يستطيع أن يصنع من نفسه .

وإذن فعندما يتفق لنا أن نتساءل عما إذا كان مشروعها ينتهي بالنجاح أو بالهزيمة ، فلا نتردد قطعاً في أن نجيب أنها تأتي من بعيد ، هذه المثقفة البورجوازية الصغيرة ، مشغوفةً بالمطلق ، وغيوراً ، ناصعة السريرة ، على سيادتها — ولكنها على أي حال قد «أتت» بالفعل ، وأنه لن يكون لنا أبداً أن نرثي على أنفسنا مثاليتنا ، لو أنها أتاحت لنا ، كما يبدو أن «فصامها» قد أتاح لها ، فعلاً ، أن تبعث في كل مكان في العالم تقريباً ، مثل هذه الحركة في الوعي . وذلك ، على كل حال ، هو ما تميل هي نفسها إلى أن توحي به الينا ، بهذا المزيج الذي لا يضارع من الكبرياء والبساطة ، حيث أحب للقارئ أن يستشفّ فيه ، كما استشففت ، إنسانيّتها العميقة البالغة العمق : «إن لي أواصر بالعالم جميعاً . قال لي صديق قديم ، بعتب : «أنتِ تعيشين في دير .» فليكن : ولكني أمضي ساعات طويلة في ردهة الاستقبال .»

حديثان مع سيمون دُبوفوار

دار هذان الحديثان ، في يومَيّ ٩ و ١٠ نوفمبر الماضي (١٩٦٦) في تلك الشقة التي تتخذ شكل الأتيليه والتي تشغلها سيمون دو بوفوار منذ أكثر من عشر سنوات ، حيث تعقد اجتماعات اللجنة التوجيهية لمجلة « العصور الحديثة » والتي عرفها ، حقّ المعرفة ، بعض المكافحين الجزائريين ، أثناء السنوات العصيبة . وكانت ، قبل ذلك بخمسة عشر يوماً ، قد أفلتت من الموت ، ولما تكد : كانت تعود من ايطاليا بالطريق البرّي ، وكانت وحدها ، وكانت تقود سيارةً أقوى من سيارتها « الأروند » القديمة (التي كنت وأنا أقودها أطيب نفساً حقاً بأن أذرع شوارع باريس ، في أيامٍ بعينها من فبراير ومارس ١٩٦٠) ، وكان الجو صحواً ، ولم تكن تشعر بأي تعب . كانت تحلم ، فيما أعتقد ، ووجدت نفسها ، فجأةً وبقسوة ، تواجه عربة نقل « من الوزن الثقيل » ، وهي تنطلق بأكثر من ٨٠ كيلومتراً في الساعة ، عند الخروج من منعطف لم تنتبه اليه (« منطّ الخرفان » المستطير الصيت ، بالقرب من جواني) . وقبل أن أدير آلة التسجيل لأول حديث من حديثينا ، سألتها عما أتيح لها الوقت أن تقوله لنفسها ، في اللحظة التي كانت الكارثة فيها تبدو لها محتومة .. وكانت إجابتها بالضبط أن الكارثة لم تكن تبدو لها محتومة : « فكّرت مباشرة : ليس هناك سيارات أخرى على الطريق ، وهذا

سائق سيارة نقلٍ من الوزن الثقيل ، سوف يفعل شيئاً ... ذلك ، دائماً ، تفاؤلي ! » والواقع أن السائق بالفعل خاطر بأن ينحرف إلى حد كبير إلى اليسار ، بحيث لا يصطدم بها مواجهة بكل قوته .

وإذا تخطّينا الضرورة الواضحة لأن نرد هذه الساعات الأربع من الحوار إلى أبعاد « قابلة للنشر » ، فان نصّ هذه الأحاديث لم تمسّه يد التعديل إلا في أقل الحدود ، بالقدر الذي آثرت فيه أن أوفر على القارئ مئونة بعض التردد ، والتكرار في الكلام [1] . — ولم نكن قد وصلنا بهذه الناحية المزعجة إلى حدها الأقصى ، على أي حال ، إذ اتفقنا سلفاً على أن نتكلم بأكبر قدرٍ من الحرية ودون أن نشغل أنفسنا بمصير أحاديثنا في نهاية الأمر : ولعلّ المرء يحس ، كما أحس ، بالمزايا التي ظهرت نتيجة لذلك .

---

١ — وفي مقابل ذلك ، بدا لي من المفيد أن أشير إلى بعض النغمات الخاصة (التي تهدف إلى تأكيد فكرة أو على العكس إلى الوقوف على بعد معين من هذه الكلمة أو تلك) كلما ظهرت لي تلك النغمات ، بوضوح ، عند سماع التسجيل : وعلى ذلك فقد كتبت هذه الكلمات ، أو أجزاء العبارات ، مؤكدة أو بين قوسين .

الحديث الأول

– عندما كنتِ تتحدثين يوماً (إلى مادلين شابسال) عن السنّ ، مثلاً ، التي كتبتِ فيها «الجنس الثاني» : قلت لها : « لا أظن أن المرء يستطيع أن يعدّل نفسه في مثل هذه السنّ » . وأضفت إلى ذلك : « أشعر أن كل شيء يتمّ مبكراً جداً ، ربما في العاشرة من العمر ، بل ربما في السنة الثانية من العمر . » ولكني ، بقدر ما ازددت معرفةً بآثارك ، وبكل ما تقوله لنا عن مغامرتك الشخصية ، جاءتني الفكرة أنه ربما كان كل شيء قد تثبت بالنسبة لك بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة على الأرجح .

• من الواضح ان تلك الفكرة الأخرى ، أن كل شيء قد تم بالفعل في السنة الثانية من العمر ، وهذه الأهمية التي تُعقد على اللحظات الأولى ، ذلك فرويديّ تماماً ، أليس كذلك ... ولكني أتساءل عما إذا لم يكن كل شيء قد تمّ ، بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة ، على وجه الدقة ، على أساس ما كنت قد حصلت عليه من قبل في سنواتي الأولى ، في طفولتي الصغيرة جداً – إنني كنت متوازنة جداً ، وسعيدة جداً جداً ، كان بالتأكيد هو الذي أعطاني الكثير من القوة لكي أعالج فيما بعد مشاكل المراهقة . وذلك ما لاحظته عند الكثيرات من الفتيات

اللاتي روين لي تقريباً طريقة حياتهن ، واللاتي مررن ، في ظروف متشابهة إلى حد ما ، بأزمات مماثلة : الا أنني أرى أن هذه أو تلك ، مع أن لها مزايا متعادلة بمعنىً من المعاني ، تخرجان من الأزمة على خير وجه ، بينما تبقى فتاة أخرى حبيسة عُصاب – وأن ذلك راجع بالتأكيد إلى الطريقة التي مرت بها السنتان أو الثلاث السنوات الأولى من حياتهن .
يجب أن نأخذ ذلك بمعنى ديالكتيكي : كل شيء قد تم ، وكل شيء يتم من جديد بعد ذلك باستمرار ... ولكنني أعتقد أن هناك بداية ، لا يمكن اقتناصها من جديد ، بمعنى من المعاني .

– نعم ...

● لا يمكن اقتناصها من جديد ، أي (كما يشرح ذلك سارتر على أي حال) : إذا بتِرت لك ساق ، فأمامك طرق كثيرة لأن تردّ على ذلك ، ومع هذا ، فقد بترت الساق . وعلى نفس النحو ، إذا كانت طفولتك قد مرت بشكل معيّن ، فأمامك طرق كثيرة تأخذها بها ، سوف تصبح ربما لا شيء ، أو كاتباً كبيراً ، ولكن ذلك ، على أي حال ، مع هذه الطفولة بالذات من وراء الأمر كله .

– نعم ، واضح . ألا يمكن ، على الجملة ، أن يقول المرء بالأحرى أن كل شيء معطىً ؟

● أريد أن أقول ، مع ذلك ، إن هناك شيئاً أكثر من « معطى » .. لا ، بالعكس ، لن أقول أن كل شيء معطى ، إذ أعتقد أنه سيكون فيما بعد استئناف مستمر للوجود وللذات نفسها : في الرابعة يستأنف المرء ما كانه في السنة الثانية من عمره ... الخ . وأنا ما زلت أستأنف ، في عمري ، ما كنته . إذن فهو ليس معطى : لأن هناك بالرغم من كل شيء هذا الاقتناء الذي يتتابع ويستمر ، طول الحياة ... الواقع أنّ هناك نوعاً من « اللعب » هو الذي يتمّ .. نعم ذلك حقاً ما كنت أريد

أن أقول : هناك حظ ، أو سوء حظ لن يتخلى عنك أبداً. ربما كنت تستطيع أن تسيطر عليه ، لكنه سوف يلازمك لأنه كان لك في خلال الشهور الأولى من حياتك ، وفي كل الأحوال ، خلال العامين الأولين .

— اللعبة قد تمّت ؟

• نعم ، بطريقة ما .

— ولكن ، في نهاية الأمر ، فما زال لك أن تلعب ، بالرغم من كل شيء ، والدراما الحقيقية تقع بعد ذلك ...

• أقصد أن أقول انني أشعر أنه يمكن للمرء ، دائماً ، أن يختر ، بعد ذلك ، ولكن هناك حالات كانت فيها الطفولة بشكل معين بحيث لا يمكن للمرء أبداً أن يكسب حقاً .

— حاولت أن أفسّر لنفسي كيف استطعت أن تصلي إلى علاج مشاكل «الجنس الثاني» ، وكيف حصلت على هذا الجمهور العريض ، بعد أن عالجتها : كيف حدث أنك أخترت هذه الموضوعات ، وأنك باختيارها كنت ثابتة القدمين إلى تلك الدرجة فيما يتعلق بالمرأة . وانتهيت إلى أن أعتقد أنك كنت تمتلكين ، في الأساس ، نتيجة لطفولتك ، هامشاً للحركة ، في حدود استثنائية . ويمكن القول تقريباً ، على الجملة ، انك قد فهمت الوضع الأنثوي بنفس القدْر الذي أفلتّ من قبضته . وقد أفلتّ من قبضته بطريقة مختلفة . وأشعر أنه كان هناك ، نتيجة بالضبط لما تمت عليه اللعبة في البداية ، ما يشبه الحرية التي أعطيت لك وربما كنت أرى أوضح علامة عليها في نوع من التحييد لعلاقاتك مع أبيك بعلاقاتك مع أمك — وبالتبادل . ويبدو لي أنك على هذا النحو أفلتّ من أشكال كلاسيكية معينة من العلاقات بالأبوين .

• لا أدري !.. يبدو لي أن ذلك يقع فيما بعد ، هذا النوع من

التحيد لمتاعب الوضع الأنثوي . أعتقد أن طفولتي ، ومراهقتي ، كانتا من النوع الكلاسيكي تماماً ، مع التثبيت على الأم أولاً ، وأنا صغيرة جداً ، مع مركب اوديب وتثبيت على الأب بعد ذلك ، بوضوح تام ، تصحبه غيرة كبيرة بالنسبة للأم ، ثم خيبة أمل كبيرة جداً في سن المراهقة ، عندما « تركني » أساساً ، أبي . لم أكن أدرك ذلك عندئذ ، ولكن ذلك كان حقاً نوعاً من عذاب الحب ، نوعاً من الفراق حدث بيني وبين أبي . والذي كان مؤلماً لي غاية الألم : بل هذه هي الطريقة الوحيدة التي أفسّر بها لماذا كنت في مثل هذا الشقاء وأنا في الثامنة عشرة بينما كان لديّ ، بالرغم من كل شيء ، زملاء ، وعمل .

– نعم ، رأيت ذلك . ولكني مع هذا لم أر أنه كان كلاسيكياً حقاً . أقصد أنك عندما تتكلمين عن مركّب أوديب ، أليس ذلك مربعاً قليلاً ؟ ذلك أنّ هناك بالفعل في كل ما تكتبين بهذا الصدد نوعاً من الهوى المشبوب لأبيك ، ولكنه هوى من طراز خاص جداً حيث لا يبدو فيه اطلاقاً ، فيما أعتقد ، المظهر الجسماني والمضطرب إلى حد ما ، من المشكلة .

– هذا صحيح ، فيما يبدو لي ، لم يكن هذا المظهر موجوداً بالمرة . كان حقاً حباً عقلياً ، بالفعل .

– نعم ...

– ولكن مع شيء من العاطفية ، بالرغم من ذلك ، مع فكرة أن أبي المسكين لا يفهمه أحد ، مع كل الروائية التي تتصف بها الفتيات الصغيرات عندما يبدأن في التفكير في أن أمهن ليست جديرة بأبيهن ، الخ ، مع نوع من الاسقاط تقريباً . كنت أقول لنفسي (ليس بنفس الألفاظ ، بالتأكيد) إنني كنت ، أنا ، المرأة المثالية لهذا الرجل ، ولكن الزوج الذي سأقترن به ، في نهاية الأمر ، كنت أريده

شبيهاً بأبي . وكان ذلك من ناحية أخرى موضوع خلافات مع أمي طول الوقت ، كانت تقول لي : « آه .. لا ، لا يجب أن يشبه بابا ! أريد لك ، أنا ، رجلاً رياضياً ، وسيماً ، الخ .. » وأنا : « لا ، ضروري عندي أن يكون رجلاً ذكياً . » ولكن لم يكن هناك ، هذا صحيح ، ولم يكن قد وجد قط ، بقدر ما أعرف ، شيء جسماني في ذلك كله : كان أبي بعيداً جداً عنّا ، لم يكن يشغل نفسه إطلاقاً بتربيتنا بالمعنى الدقيق للكلمة ، كان يشغل نفسه بتعليمنا ، ولكن ليس بالباقي ، اطلاقاً . لا علاقة له بالناحية الاخلاقية ، ولا الجسمية ، ولا .. الانسانية ، تقريباً ! كان ذلك كله من ناحية أمي . وهذا صحيح ، لست أذكر أنني جلست مرة واحدة على ركبتي أبي : ربما كنت أقبّله ، بطريقة عابرة ، على الخدّ ، لكن ذلك لم يتخذ أبداً شكل عناق ، لا ، صحيح ، أبداً .

— بحيث أتساءل عما إذا لم يكن العذاب الغرامي الذي كنت تتكلمين عنه مجرد خيبة أمل من أنك كنت تتصورين نفسك معترفاً بك ، ثم أدركت أن ذلك لم يكن صحيحاً ؟

• بل كان أدق من ذلك . في الثامنة عشرة ، نعم ، كان ذلك حقاً أنني لم أكن معترفاً بي . ولكن في الخامسة عشرة ، كان ذلك لأن أبي كان يراني قبيحة ، وكان عندي بثور تملأ وجهي ، وكان يهتم أكثر بأختي ، وكان يدفعها عندئذ إلى التمثيل ، وأن الاهتمام الذي كان حتى ذلك الحين موجهاً إليّ ، صار موجهاً إلى أختي ، ولم أكن أجد بعد ذلك عند أبي إلا نوعاً من عدم الاكتراث بي ، والجفاف ..

— ولكن ، ألم يكن مـا يضايقك ، في هذه اللحظة ، هو في الحقيقة أنك رُددت إلى عرضيّتك الجسمانية ؟ أتمنى ... أريد أن أقول : كنت تفضلين أن تبقى علاقتك به علاقة العقل بالعقل ؟

- نعم ، ربما .. ربما كنت أفضل ألا يكون لي جسم ، بل هذا مؤكد ، إذ كان يحرجني جسمي في تلك الفترة . ولكن كان هناك بالرغم من كل شيء خيبة أمل من طراز عاطفي بالمعنى الدقيق . بعد ذلك ، أصبحت حقاً خيبة أمل من الناحية العقلية . في الثامنة عشرة ، كانت فكرة الظلم . ماذا ؟ يجعلني أدرس ، ثم لا يكون قادراً على أن يرضى حقاً عن دراستي - ولا - بالضبط - على أن يعترف بي . هنا ، نعم ، كانت هناك فكرة الاعتراف . في الخامسة عشرة كان الأمر مباشراً أكثر . وهنا أيضاً لم أكن أعبر عن الأمر بهذه الطريقة ، بالتأكيد .. ولكن بالتقريب : بابا لم يعد يحبني ! كان ما اختفى هو نوع من التبادل ، من الألفة الحميمة ، من الايثار ، كان يجعلني أحس نفسي تقريباً ، مع أبي ، كأننا زوجان عندما كنت في الحادية عشرة : عندما كان يأخذني إلى المسرح ، عندما كنا وحدنا نحن الاثنين ، عندما كان يجعلني أقرأ كتاباً .. إلى آخره . ذلك ، كان ذلك قد ضاع .

ولكن ، لكي نعود إلى ما كنت تسأل عنه ، أعتقد أن ما حيّد ، حقاً ، سأم أنني امرأة ، هو الحياة العقلية ، والدراسة في السوربون ، والزملاء الذين التقيت بهم ، نوع الزمالة التي التقيت بها - وعلى الأخص سارتر ، بالتأكيد - ولكن فوق كل شيء أنه لا سارتر ولا الآخرون أعطوني أبداً الانطباع بأن هناك تفوقاً أياً كان ، في أن يكون المرء رجلاً . ولذلك دهشت كل الدهشة ، عندما كتبت « الجنس الثاني » لأن أكتشف أن في أعماق كثيرين من الرجال ، شعوراً بالتفوق بازاء النساء . كنت حتى ذلك الحين ، أعتقد حقاً ان كل الناس كانوا مثل زملائي ، وان كان يكفي لذلك قليل من الذكاء والثقافة ... وذلك ، نعم ، ذلك ساعدني كثيراً . أذكر أنني رددت على « كوليت أودري » (لا أعرف ما إذا كنت قد كتبت لها ، ولكنها هي التي ذكرتني وكانت تتساءل ، عندما كنا نحن الاثنتين مُدرّستين في روان ، ماذا

تفعل لكي يعترف بها الرجال نداً لهم : « يجب أن تكوني نداً لهم ، ليس في هـذا مشكلة ! » وهكذا : بالنسبة لي كان الأمر مسلماً به ، كان ينبغي أن تكون المرأة في مثل ذكائهم ، هذا كل شيء ...

– اسمحي لي أن أعود مرة أخرى إلى مسألة الأب والأم : لقد سار كل شيء على خير وجه ، مع ذلك ، كما لو أنك وضعت في معارضة التعلق بالأب ، السحر الجسدي للأم ، ثم وضعت في معارضة هذا الأخير ، بالعكس ، السحر العقلي للأب .

« آه ، تريد أن تقول إنني لم أترك نفسي يلتهمني أحدهما لأنني دائماً وضعت بين الاثنين نوعاً من التوازن ؟ ولكن أليس في ذلك أيضاً – لا أعرف حقاً ، ويجب أن نرى ذلك – شيء سويّ ، شيء كلاسيكيّ ؟

– نعم إلا أن الظاهرة ، بعد تعريفها بالشكل الكلاسيكي ، تظهر لي أكثر استبهاماً – بل أفضل أن أقول أكثر مدعاة للتخليط والغموض – في كل من الاتجاهين .

« هذا ممكن ... لقد اتفق بالفعل ، على نحوٍ ما ، أن الأعمال توزعت بينهما تماماً : كانت هي تمثل الناحية العرضيّة ، في نفس الوقت الذي تمثل فيه البُعد الأخلاقي والديني على كل حال ، وكان هو يمثّل الجانب العقلي والانفتاح على العالم . نعم ، هذا مؤكد : كانت أولاً هي التي يُعتد بها ، وعندما أخذ يُعتد به ، بدوره ، كانت ما تزال يعتد بها بالنسبة لي ، ولكن واضح أن موقفي بازائها أصبح أكثر معاداة بحيث أنني انتهيت بأن وجدت نفسي ، على الجملة ، مقطوعة الصلة بأحدهما وبالآخر ، وأنهما كليهما ، اعتصبا ضدّي . ذلك أن ما حدث بالفعل ، هو انهما كانا متفاهمين جداً عندما كنت صغيرة ، ولكنهما كانا مختلفين فيما يتعلق بالدور الذي كان يشغله كلٌّ منهما بازائي .

وبالعكس ، فيما بعد ، كانا معاً معارضين لي ، بطريقة واحدة .

– وما زال المرء يستطيع أن يتساءل ما إذا لم تكوني قد فرضت أنت نفسك ، عليهما ، مبكراً جداً ، هذا الدور الذي كان لكل منهما بازائك : ما إذا لم تكوني أنت نفسك قد انتقيت ، في أحدهما أو في الآخر ، ما كنت بحاجة اليه .. أنت ترين ، سوف أذهب حتى إلى حد أن أقول – وهو ما سيبدو لك بلا شك أن فيه شيئاً من السرَف – أنك دبّرت أمرك على نحو رائع «لتحديد الاضرار» ! لانك في النهاية لم تكوني تستطيعين بالرغم من كل شيء أن تتخلصي من والديك ، كما تخلصت من الله مثلاً ...

• نعم ...

– لم يكن ذلك بهذه البساطة ، كانت مشكلة أكبر تجسيماً وتحدداً : واذن فقد دبرت أمرك بأن تجعليهما يُجسِّد أحدهما الآخر !

• نعم ، هذا ممكن ... ولكني ، هنا ، لا أستطيع بالفعل أن أعرف ذلك أكثر منك . إلا إذا لم يكن ذلك عن طريق تأمل غير مباشر قليلاً ، على الجملة ، لأنه من الواضح أن ذلك لم يكن يتساوق مع أي قصد مصوغ عن وعي في تلك الفترة ، ومن ثم لا أستطيع أن أجد شيئاً من ذلك من قبيل الذكريات . من الممكن ، على كل حال ، أن أحدهما جيّد الآخر .. ومن المؤكد حقاً أنه في اللحظة التي فقدت فيها الأيمان ، مثلاً ، مما جعلني في وضع مؤلم جداً بالنسبة لامي – كانت عندي نجدة ، ملجأ ، من جانب أبي ، لأنني كنت أقول لنفسي : انه ، هو ، غير مؤمن . واذن ، فمن غير أن أجرؤ على الكلام في ذلك ، كان عندي ، عقلياً ، تجييد للوم من جانب أمي ، نتيجة للموافقة من جانب أبي . وفي الاتجاه العكسي ، بالمثل (قلت ذلك في موضع آخر ولكن بطريقة أوضح) ، استخدمت أحياناً اللجوء إلى أمي ،

عندما كنت صغيرة ، ضد نوع من الاستهجان من جانب أبي الذي كان يفضل ، كما هو واضح ، أن أكون منذ البدء أكثر ذكاء ، أكثر «عقلية» والذي كان يضايقه أن يراني أقرأ كتباً غبيّة قليلاً ، كتب أطفال . في تلك اللحظات ، كنت أقول لنفسي : « ولكن لا .. ما دامت ماما تعطيني هذه الكتب ، فذلك أنها ليست كتباً تافهة ! » مما كان يتيح لي أن أظل طفلية ، وأسمح لنفسي بالحماقات ، بينما كان أبي يمنعني من ذلك . نعم ، بالفعل ، كنت أستمد السلطة من أبي لكي أكون ذكية ، ومن أمي لكي أظل طفلة : إذا كان هذا الذي تريد أن تقوله ، فهناك في ذلك شيء ما ، كما هو واضح ، مما ساعدني .

ــ أتساءل ما إذا لم يكن ذلك كله ، وغير ذلك من أشياء حددتها فيما بعد (علاقاتك بسارتر مثلاً) هي التي أتاحت لك أن تعرفي ما أسميه «الفرق الصغير» بين الجنسين ...

ـ نعم ...

ــ دون أن تري فيه أي دونية ، أي نقص عند أحدهما بالنسبة للآخر ، ما إذا لم يكن ذلك كله هو الذي أتاح لك أن تريدي التبادل بينهما دون أن تطالبي بينهما أيضاً بتوحّد صارم دقيق ... بمساواة هي تعادلٌ وتكافؤٌ مطلق ... إذ يبدو لي أنك كنت في وضع يتيح لك تناول هذه المشكلة في يُسْرٍ من نوع خاص .

ـ تقصد : لكي أتكلم عنها ، أو لكي أحياها ؟

ــ لكي تتكلمي عنها .

ـ آه ! نعم ، لكي أتكلم عنها ، كنت في وضع مُيَسّر جداً ، لأنها ، من الواضح ، لم تمسّني شخصياً . أعتقد أنني أحسست نفسي

حقاً ، في وضع من عدم الانحياز الكبير . وأظن على أي حال أن من الأشياء التي ساعدتني كثيراً جداً على تحييد مشكلة الانثوية – ولا أعرف ما إذا كنت قد أكدت ذلك بما فيه الكفاية – طفولتي المتدينة جداً ، وورع ديني داخلي قوي جداً جداً . ذلك بالتأكيد لعب دوره معي كثيراً حتى الثانية أو الثالثة عشرة من عمري ، بحيث أنني حقاً كنت أفكر في نفسي دائماً كأنني روح . وفي مستوى الأرواح – بل كان ذلك هو الجانب الطيب الوحيد من تربيتي الدينية – فإن هذا النوع من المشاكل غير موضوعة اطلاقاً : كان الله يحبني بنفس القدر كما لو كنت رجلاً ، لم يكن هناك فرق بين القديسين والقديسات ، كان ذلك ميداناً لا مجال فيه للجنس بالمرة . وعلى ذلك النحو ، وقبل أي تدخل لمواضيع المساواة من النوع العقلي ، كان قد أعطي لي نوع من المساواة الخلقية ، الروحية ، باعتباري كائناً إنسانياً – وذلك نتيجة للأهمية التي كانت عليها هذه التربية الدينية بالنسبة لي ، بالرغم من كل شيء . ذلك كان قد اعتد به كثيراً ، فيما أظن .

– نعم ، ولكن ما يسترعي نظري أخيراً في علاقتك بالله أنك كنت تجعلينه يقول بالضبط ما كنت تشتهين أن يقوله لك !

– نعم ، هذا مؤكد تماماً ، ومبكراً جداً ، مبكراً جداً حقاً . أما عن الباقي فقد كان سهلاً علي للغاية أن أتكلم عنه . ومع ذلك فإن الفرق ، عندما بدأت أفكر فيه ، ظهر لي كبيراً جداً : الا أنه لم يظهر لي بالمرة كأنه معطى ، بل كأنه واقعة ثقافية كان يمكن من ثم أن تظهر تحت أشكال أخرى وكان يمكن على كل حال رفضها ، وتحويلها ، والغاؤها .

– أنت تسلمين مع ذلك ، فيما يبدو لي ، على الأقل في فقرة واحدة ، أن هناك فرقاً واقعياً ، فرقاً عرضياً ، لا يفتقر إلى أن يكون

مدعاةً للاهتمام من ناحية ما يترتب عليه من نتيجة .

- نعم ، أعتقد أن هناك فرقاً هائلاً ، في اللحظة التي نحن فيها ، في حضارتنا نحن . ولكن فكرة أن هناك تكويناً نفسياً للمرأة ، لا يعني شيئاً على الاطلاق حقاً ، ما دمنا لا نؤمن بعلم النفس ، ولا أعتقد أنه حتى تكوينها الجسماني يمكن اعتباره على حدة حيث أنه يُدرك ثقافياً ، ويصبح فكراً ، واسطورة ، في نفس الوقت الذي يُعاش فيه ، ويمارَس . إنني جذرياً من أنصار المذهب النسائي ، بمعنى أنني أختزل جذرياً هذا الفرق باعتباره معطى له أهمية في ذاته ... من المؤكد أن هناك معطى : هذا صحيح ، الجنس عند الرجل ليس هو الجنس عند المرأة ، المرأة هي التي تحمل الأطفال ، وهكذا ... ؛ ولكن يمكن أن يُؤخذ هذا الفرق ، في رأيي ، من جديد ، في سياقات تلغيه كلَّ الالغاء بل تجعل منه ، كما يحدث في بعض الحضارات (وعلى مستوى معين فقط) ، نوعاً من التفوق بمعنى عكسيّ . وإذن فلا أعتقد ، إذا شئت ، لا أعتقد إطلاقاً فيما يمكن أن يسمى « برسالة المرأة » أو « عمل المرأة » أو أي شيء من هذا القبيل .

— هذا ما أراه بوضوح ، ولكنك ستسلمين ، وبما — ويبدو لي ، على كل حال ، أنني لاحظتك تسلّمين بذلك — أنّ على الرجل أن يصنع نفسه بالنسبة إلى نوع من الرجولة الأوليّة ، وأن المرأة عليها أن تصنع نفسها بالنسبة إلى نوع من الأنثوية الأولية .

- هذا صحيح تماماً ، ولكن على شرط أن نفهم كلمة أوليّة بمعنى ما يعطى لها مباشرةً في تربيتها ، منذ أن يبدأ في أن يفتحا أعينهما على عالم لا يكون فيه للأب وللأم نفس الدور ، وحيث لا تتخذ النساء نفس مسلك الرجال — أي ، باختصار ، عالم الرجل الذي سوف يتأكد هيكله في نظرها بعد ذلك ، باستمرار ، نتيجةً لتعلم الذي سوف يتلقيانه على

نحو صريح ، في هذا الصدد ، ونتيجةً للتجارب التي سوف يمران بها في هذا العالم . بحيث ان هناك ، منذ البداية ، وضعاً مغايراً : بل ان هذا هو الذي اكتشفته وهو الذي جعلني أكتب « الجنس الثاني » لأنني أدركت ، إذ تعمقت المسألة ، أن ذلك لم يكن صحيحاً ، أن طفولتي لم تكن طفولة ولد ، لم أوضع موضع الولد ، لم أقرأ نفس الكتب ، لم ألتق بنفس الأساطير ، وهكذا . ولكن ذلك يتعلق ، عندي ، بالعالم كما هو معطى . إلى حد انني (يجب أن « نسقط كل الأشجار في الغابة » كما كان يقول ستندال) لا أجد امكانية لأن تربى بنت — أو ولد على كل حال — بحيث يُلغى عندهما الوعي بهذا الفرق ، طالما لم يتغير هذا العالم تغيراً جذرياً . وهو ما يضع أمامنا بالتأكيد مشكلات غريبة !

— نعم ، هناك الوعي الثقافي والتاريخي والاجتماعي ، بالفرق . أليس هناك ، من جانب آخر ، في أمام ذلك ، نوع من الفرق لا يسهل تحديده ، وغير قابل للتحديد نفسياً على كل حال ، بالطبع ، ولكنه فرق يجب أن يضع كل منهما نفسه بالنسبة اليه ؟ أريد أن أقول مثلاً : المرأة يتغلغل فيها من قِبل الرجل ، بينما الرجل يتغلغل في المرأة .

• نعم ولكن المرء لا يعلم ذلك إلا فيما بعد ، بكثير ...

— هذا صحيح !

• يبدأ المرء في التمرين على ذلك قبل أن يعرفه بكثير !

— موافق تماماً .

• الواقع أن الفرويديين أساساً ، هنا ، هم الذين يمكن أن يهاجموني إذ أنهم يسلّمون ان مركب الإخصاء معطى مباشرة . وهذا ما أنا ضده على خط مستقيم : أعدت قراءة آخر كتب علم النفس الفرويدي عن

المرأة (١٩٦٤) وهي في الغالب لا يعوزها الذكاء ، ولكنها تقوم كلها على هذا النوع من المعرفة اللاواعية ، عند البنت الصغيرة ، أنه ليس لها قضيب وأنه كان يجب أن يكون لها ، وأنا أعتقد أن ذلك من قبيل الأساطير البحتة التي اخترعها الرجال وفرويد بالأخص ، على كل حال ، وهو يعترف بنفسه أنه لم يفهم شيئاً عن النساء : صحيح أنه اكتشف ، على كثير من المستويات ، اكتشافات خارقة أعجب بها اعجاباً كبيراً : ولكني أعتبره لا شيء اطلاقاً – في المستوى الأنثوي ، هو وكل الفرويديين والفرويديات ممن تبعوه . لا ، حقاً ، هذا ما لا أصدقه بالمرة ، بالمرة[1] . ثم أن هناك بعد ذلك ظاهرة التغلغل ، هناك أقف أكثر إلى جانب « آدلر » : ذلك لأن هناك ، من قبل ، أساطير الرجل باعتباره متفوقاً ، والمرأة باعتبارها أدنى ، لذلك تبدو فكرة

---

١ – في أثناء مرحلة أخرى من أحاديثنا ، عرضت المناسبة لسيمون دو بوفوار لأن تصوغ في هذا الصدد عدة ملاحظات تكميلية ، آثرت تسهيلاً على القارئ أن أوردها هنا :

– انني ضد فكرة اللاوعي الفرويدي فيما يتعلق بمشكلة « الاخصاء » ضدها تماماً . لا لأنني امرأة ، بالمرة ، وأنني أرفض الاعتراف بشعور النقص الذي يفترض أنني أحستيه ، ولكن باعتبار النساء الأخريات ، وأن فرويد نفسه هو أصل التحليل النفسي . كما أن الماركسية ، رغم كل شيء ، هي عمل ماركس ، عمل متأثر بأنه مؤرخ في فترة معينة ، مع ذلك – على أن هناك عند فرويد ، وعند ماركس ، حقائق ، ومنهجاً عالمي الأثر والنطاق – إلا أن الفرويدية تبقى في ذلك كله نتاج شخص معين في بيئة معينة ، بيئة يهودية محافظة جداً جداً ، ورجعية بشكل مخيف في المستوى العائلي (لم يسمح فرويد نفسه لامرأته أن تمارس رياضة الانزلاق بأن تكشف عن كاحل ساقيها) . بحيث لا يمكن معارضة الذاتية عندي بالموضوعية عند فرويد ، إذ أنه كان ذاتياً بقدر ما كنت . وأتمنى بعمق أن تكون هناك يوماً ما امرأة تتولى من جديد التحليل النفسي للمرأة ، لا في الخط الفرويدي كما فعلن جميعاً حتى الآن ، بطواعية ، لأن ذلك لن يؤدي (كما أوضحت « بيتي فريدمان » كل الايضاح في كتابها « المرأة المضللة ») إلا إلى تدعيم التضليل الأنثوي ، إذ يقنعهن أنهن لن يستطعن التخلص من مأزقهن إلا بأن يكون لهن ولد يكون معادلاً للقضيب – أي يحجزهن من جديد في موقف انثوي من النكوص .

التغلغل كأنها شيء « مُذل » للمرأة ، وفكرة الرجولة المتغلغلة ، بالعكس ، كأنها تفوّق من الرجل.

— نعم ، ولكن إذا الغينا الجانب المذل ، أو جانب الرجولة ...

● نعم ؟

— ألا يبقى بعد ذلك أنّ ...

● آه !. هناك بالتأكيد طرق مختلفة لأن نحيا المرء الفعل الجنسيّ ، لأن نحيا اللذة : وهنا ، إذن ، توضع كل مشكلة ذروة اللذة ، على الأخص . وهنا أعتقد بالفعل أنه حتّى إذا سلّم المرء — ويبدو لي أننا منذ الآن وصلنا حقاً إلى اثبات ذلك — بأن هناك عدداً كبيراً جداً من النساء يصلن إلى ذروة اللذة كاملةً كما هي عند الرجل ، فيبقى بعد ذلك أنها ليست هي نفسها عند المرأة وعند الرجل ، وأنها ليست نفس المناطق الشبقية عنده وعندها ، وهكذا . نعم ، من المؤكد تماماً أن الشبقية لا تتسم بنفس الخصائص عند الرجل وعند المرأة . فاذا سلّمنا بذلك ، فهل يكون فيه كلّ هذا الفرق ؟ ألا يمكن أن نجد بين رجلين أو بين امرأتين فروقاً في ظلال الشبقية تبلغ تقريباً درجة الفروق التي نلاحظها بين الجنسين ؟ أتساءل ما إذا كانت الشقة الحقيقية تقع حقاً بين جنسين لكل منهما شبقيته ، أو أننا ، بالأحرى ، بصدد ظاهرة من طراز فرديّ قبل كل شيء — يلعب فيها كون المرء رجلاً أو امرأة دوره ، فيما هو واضح ، ولكن دون أن يكفي ذلك لتأسيس فرق حقيقي فيما يتعلق بالطريقة التي يضع بها المرء نفسه في العالم .

— ولكن ، ألا تعتقدين أنه — إذا أمكنني أن ألحّ على هذه النقطة ...

● بالتأكيد ! إذا كان هذا يهمك ، أنا أيضاً ، وعلى الأخص لأن أحداً لم يتكلم عن ذلك قط .

– ألا تعتقدين أن الرجل ، إذ يضع نفسه بهذه الطريقة – أو المرأة – عليه مع ذلك أن يتغلب على شيء ما قد أعطي له ، وليس معطىً بنفس الطريقة لأحدهما وللآخر ؟ الرجل مثلاً ، يستطيع أن يتصرف «مثل امرأة» في اللذة . بل انني لا أجد في ذلك علامة على فقدان «الرجولة» : ولكنه على الاقل يتصرف عندئذ باعتباره رجلاً يتصرف مثل امرأة . أترين ما أحاول أن أقول ؟

● طيب ، سآخذ المسألة من الاتجاه العكسي : إذا سلّم المرء بأن امرأة – وهناك منهن الكثيرات ! – تصل إلى ذروة اللذة بسهولة ، وكاملة ، وأنها يمكن أن تكون «مُتْعَبَة كالرجل بعد العمل الجنسي» ، وسأمانة مثله (وأنها هي ، أيضاً ، التي سوف تشعل السيجارة ...) وإذا لاحظ المرء ان النساء في أيامنا يعترفن لأنفسهن أكثر وأكثر برغباتهن ، ويتكلمن فيما بينهن عن الرجال (أعرف الكثيرات جداً من البنات في سن ١٧ أو ١٨ وصلن إلى تلك النقطة) ، وإذا لاحظ المرء أخيراً أنهن يتخذن أكثر فأكثر زمام المبادرة ، سواءً في انشاء العلاقة أو في انهائها ، عندئذ فان ظلّ الفرق الذي يمكن أن يكون بين رجل وامرأة عندما يجتمعان ، هذا الظلّ لا أعتقد أنه شيء مهم حقاً ! وليس على كل حال شيئاً يمكن أن يبرر مواقف متغايرة بازاء الحياة . هذا ما أفكر به ، حقاً ، وأكثر فأكثر !

– هذا واضحٌ إلى حد ملحوظ ، وأشكرك عليه .

فيما يتعلق الآن بتصورك «للمذهب النسائي» هناك شيء ، أيضاً ، مما يهمّني جداً : ان متانة نظرتك ظاهرة إلى حد كاف ، ولكن يبدو من جانب آخر أن نوعاً من «الضبابية» يخيّم عليها ، ومن هنا تأخذ بعض نصيرات النسائية ، وهن يدعين أنهن يتبعنك ، على عاتقهن أن

يضعن هذه النظرة من جديد . الا يتفق لك أبداً أن تدهش لما صُنيع من آرائك ؟

• بالتأكيد ، ولكن هنا ... لقد صنعت من آرائي أشياء كثيرة ! لا أعرف بالضبط ما تفكر فيه ، ولكن من المؤكد أن هناك كثيراً من التفسيرات الخاطئة لمذهبي النسائي . والتفسيرات الخاطئة في نظري هي وحدها التفسيرات التي لا تعتنق النسائية جذرياً : لن يحوّني أحد أبداً إذا كان يشدّني نحو ... النسائية المطلقة ، إذا شئت . وبالعكس ، إذا حاول أحد أن يلجأ إليّ ... لكي ينسب إليّ ... خذ مثلاً بالضبط ، أنّ هناك «نوعية أنثوية» من شأنها أن المرأة (مهما كانت الثقافة ، والحضارة والتربية ، والهياكل الاجتماعية والاقتصادية في العالم) لا تستطيع أبداً أن تكون شبيهة الرجل ، عندئذٍ ...

— نعم ، أفهم . ولكن هناك مع ذلك طرق متعددة لأن تحيا المرء وفقاً للمذهب النسائي الجذري . وهنا أتساءل ما إذا كانت دائماً موافقة على الطريقة التي تحيا بها بعض نصيرات النسائية ، وهنّ بالفعل «جذريات» في مذهبهن .

• ذلك يتوقف على كل حالة ، على حدة ... لا أعرف ذلك حق المعرفة اليوم ، إذ أشعر أن هناك نكوصاً كبيراً منذ أن ظهر «الجنس الثاني» . انظر مثلاً حالة جنفييف جيناري : كتبت عني كتاباً ، في البداية ، كان حقاً متعاطفاً مع مواقفي ، ولكن ها هي ذي قد نشرت أخيراً كتاباً آخر «ملف عن النساء» ترفع فيه إلى السحاب «ميني جريجوار» وحكاياتها عن «المهن النسائية» ، وتشرح ان النسائية الآن قد «راحت موضتها» ... أما أنا فلا أعتقد بالمرة أنها راحت موضتها ، وعندما تقول إنه يجب «ازالة التعميات عن النسائية» فلا شك انها تريد أن تقول إنه يجب إعادة التعمية على المرأة تبعاً لأسلوب فضحته وأدانته

بيتي فريدمان على أحسن وجه . انني أرى نساء يمكن أن نقول عنهن إنهن أنثويات (إذ أنهن يتزوجن ولهن أطفال) يعشن بطريقة أوافق عليها تماماً : لهن مهنة وعمل ، ويقمن مع أزواجهن ـ أكثر فأكثر حقاً ـ علاقات قائمة على المساواة ، أو على التفوق أحياناً . ومن الخطأ أن نفكر أنه لكي تكون المرأة من نصيرات النسائية فلا يجب أن تنجب أطفالاً .. ذلك بعيد جداً عن الحقيقة !

أمّا ما هناك ، فهو أنه لا يجب أن تسقط في هوّة مذهب نسائي مجرد ، بإنكار وجود الأنثوية مثلاً بحجة أنها ليست طبيعة بل واقعة ثقافية : هنالك أكون ضد هذه الفكرة ! والادعاء بأنّه لم يعد اليوم فروق بين الرجال والنساء بقدر ما تتاح لهم اليوم فرص متساوية ونفس الحرية ، ذلك ادعاء غبيّ كل الغباء . فلاشك أنه ما زال هناك ، حتى في الوضع الراهن للنساء اللاتي أشرت إليهن منذ قليل ، كثير من المواقف والمشاعر ، بل والظواهر الجسمية الخاصة بكل نوع على حدة . أما أنا فأسلم على نحو مطلق بأن النساء يختلفن اختلافاً عميقاً عن الرجال . أما ما لم أسلّم به فأن المرأة مختلفة عن الرجل . الواقعة المتحددة اليوم هو أنه بين الرجال والنساء مجموعة من الفروق لا يمكن أن ننكرها إلا باعتناق مذهب نسائي زائف ـ مبنيّ على تجريد كاذب . ذلك في نفس سخف أن نقول لرجل عجوز : « أنت شاب ! إذ أنه عجوز ، بالتأكيد ، لعله عجوز يفيض بالحيوية ، ولكنه ليس شاباً !.. لا أذكر بعد مَنْ الذي كان يقول لسارتر يوماً : « أوه .. عندما يكون للمرء ذكاؤك وبديهتك فانه لا يكون بورجوازياً صغيراً ! » .. بل .. ولكنه فقط بورجوازيّ صغير لديه ذكاء وبديهة ، وأنا امرأة متقدمة في العمر ، أتقدم في العمر ، وتحتفظ بشيء من النشاط والفوران ، ولكني لم أعد امرأة في شبابها . وبنفس الطريقة ، لو أن أحداً أخذ يقول لي : « أوه ... أنتِ ، أنتِ لستِ امرأة ، أنتِ رجل » فذلك خطأ ، لأنني بالفعل

امرأة وأحس نفسي تماماً كامرأة : لي علاقات مع ناس يرونني امرأة ، وذلك يتضمن ، ما دمت أنا امرأة بالنسبة لهم ، انني كذلك في علاقاتي بهم . وبالتالي في نظري أنا ... من الواضح تماماً انني أحس نفسي امرأة ، وذلك أيضاً مؤكد تماماً !

– نعم . ولكن إذا كان المذهب النسائي يهدف إلى أن يكـون متحدداً ، مجسماً ، فلا شك أنه يجب أيضاً أن يتخذ شكل كفاح ؟

• هو طريقة للحياة فردياً ، وطريقة للكفاح جماعياً .

– ولكن أنت تضعين تفرقة بين المستويين ؟

• أعتقد أنه يحدث أنه لا تتاح امكانيات الكفاح الجماعي !

– نعم ، ولكني أريد أن أقول ...

• من الممكن أنّ هناك نساء يعشن حياتهن كأنهن رجال ، وذلك إذا اردن ذلك حقاً ، ولكن لا تتاح لهن الوسائل للكفاح من أجل المذهب النسائي . وعكسياً من الممكن أنّ هناك نساء يكافحن جماعياً من أجل حلّ هـذه المشكلة النسائية أو تلك ، مع أنهنّ يرزحن تحت عبء ثقيل ، في مستوى حياتهن الشخصية ، نتيجةً لأنهن نساء ، أو لأنهن ربما يتصرفن في هذه الحياة بطريقة «أنثوية» جداً ...

– أريد أن أقول : ألا يبدو لك أن هناك أحياناً نوعاً من الخلط ينشأ بين المستوى الشخصي – مستوى الحياة المتحددة المتجسمة – وبين مستوى الكفاح ، بمعنى أنّ بعض النساء يتصرفن بازاء الرجل الذي يعشن معه ، كأنهن خصوم له ؟

• آه ، نعم !.. لقد تكلمت عن ذلك أيضاً ، قليلاً : انني أستبشع ذلك ! أراه سخيفاً ذلك الموقف من «التحدّي» (وهو ليس

كفاحاً حقيقياً حتى ، لأن كل كفاح يفترض وجود ما يُخاطر به) : فإذا كانت تعتبر الرجل عدواً ، فالأحرى أن تتخلى عن الحياة المشتركة معه ! نعم ، أرى ما تريد أن تقول : هذه الحاجة المتصلة لأن تؤكد ذاتها باعتبارها هذا أو ذاك ضدّه . وذلك أشبه شيء جداً بالمرأة الامريكية ، وهو شيء يغيظ إلى أقصى حدّ . وهو في النهاية بالضبط عكس المذهب النسائي الحقّ : وطريقة في الانمحاء المرأة وضعها بأصالة . وأعتقد أنه كلما قلّ توفيق المرأة في أن تحقق ذاتها (باعتبارها عاملة ، كائناً انسانياً .. وهكذا) زاد تعرّضها لأن تقع في موقف من هذا القبيل : «أنا التي عندي حق ، أنا الاكثر ذكاء ، أنا أرفض هذا أو ذاك لأنه يجيء لي في وضعي كامرأة ...» وهكذا .

– نعم . ولكن هذه المرحلة الراهنة ، التي هي بوضوح مرحلة انتقالية عسيرة ، أنت لا تجعلين منها مع ذلك ظاهرة امريكية بالنوع ؟ يبدو لي أنّ ...

« ... أنّ هناك أيضاً ، عند المرأة الفرنسية ، مثل هذا الموقف ؟ لم ألتق به كثيراً ... ربما لم يكن ذلك إلا من قبيل الصدفة ، ولكني أعرف أساساً نساء نكوصيّات يحاولن أن يعشن الوضع الأنثوي «بأنثوية» .

– وبين اللاتي يكتبن إليك ، بالمِثْل ؟

« حتى بين اللاتي يكتبن إليّ ، نعم ، وبين اللاتي أتحدث معهن ، يقلن لي ، على الجملة : « نحن موافقات بالتأكيد ، ولكن مع ذلك ..» أما عن الباقي ، فلا . بل أرى ، بين الأزواج الذين أعرفهم ، جهوداً للتعاون ، وللمساعدة بعضهم البعض – ربما كان ذلك مع مشاجرات

ومنازعات أحياناً ، ولكنها عندئذ منازعات حقيقية ، ليس الغرض منها أن يُثبت أحدهما لنفسه بازاء الآخر تفوقاً ما . ولا يمنع ذلك أن هناك بالتأكيد ، هنا أيضاً ، نساء لهن موقف التحدي هذا . وهنّ على كل حال اللاتي يعتبرن ، بالاجمال ، أن سيرتي الذاتية تكذب كتابي «الجنس الثاني» : ولكني قلت إنّ المرأة يجب أن تكون حرة ، مستقلة .. وهكذا ، ولكني لم أقل قط إن ذلك يتلخص في ألاّ تحب أحداً ! فالرجال ، بعد كل شيء ، في امكانهم أن يحبوا ، وأن يعيشوا في الزوجية ! أكان ينبغي لي ، لكي أحافظ على حقوقي بازاء سارتر ، أن أحاول اثبات أنني أيضاً كنت أستطيع كتابة «نقد العقل الديالكتيكي» ؟ لم يكن ذلك هو الذي أردت أن أفعله منذ صغري ، وليس ذلك هو ما أنا قادرة على فعله ، لكن ذلك لم يمنعني قط من أن أحس نفسي مستقلة ذاتياً كل الاستقلال ، عقلياً أو باعتباري كاتبة . ليس هناك ما يضيق به المرء عندما يعترف للآخر بتفوق محدد بدقة ، على بعض المستويات المحددة بدقة : لو كان زوجي مشتغلاً بالرياضيات ، فلن أحس نفسي قد أذللت إذ أجده أفضل مني في الرياضيات ، وسأسير عن طيب خاطر ، في أثره كلما تعلق الأمر بمسائل علمية .

– هل تعتبرين أن هناك فرقاً بين الرجال والنساء فيما يتعلق بالسعادة ؟ حيث أن العالم على ما هو عليه ، عالم رجال ، هل يبدو لك أن الرجال في هذا العالم أسعد من النساء ؟

• يبدو لي أنّ لديهم مجالاً أكبر . لا أدري ما إذا كانوا أسعد ، فعلياً ، ولكن يبدو لي أنهم لا يصلون أبداً – يعني ، أنا أبالغ .. – فلنقل إنهم ، في الاجمال ، لا يصلون إلى درجة الشقاء ، والهجران ، والانهيار ، واللامعنى في الحياة ، التي يمكن أن تصل اليها النساء ، لأنهم رغم كل شيء يخوضون غمار مشروعات تهمهم ، لأنه من الممكن لهم

أن يتخذوا معنى إذ يسقطون أنفسهم في العالم وفي المستقبل ! بينما النساء ، بصفة عامة ، أكثر منهم وقوعاً في أسر عالم التكرار ، وهن يُبقي عليهن في حالة اعتماد ماديّ ومعنوي بالنسبة للرجال . وهذا على كل حال هو السبب الرئيسي الذي من أجله أعتنق المذهب النسائي : لأنني أعتقد أنه حتى فيا يتعلق بالسعادة ببساطة (دون أن نذهب حتى حد الحرية ، وتجاوز الذات .. الخ) فان الوضع الأنثوي أخطر بكثير ، نعم ، أشقى بكثير . مما لا يمنع بالطبع أنه يمكن أن توجد نساء سعيدات جداً ، وأخريات ، في شقائهن نفسه ، يصلن إلى آفاق تفوت كثيراً من الرجال : الواقع أننا نجد من بين هؤلاء الرجال ، في أغلب الاحيان ، سوقيةً وابتذالاً أكثر مما نجد عند النساء .

— ألا تعتقدين أن كثيراً من الرجال يحسون في الواقع بشعور عميق من الفشل ، ولكنهم يرفضون أن يعترفوا بذلك عن أنفسهم لأنهم رجال ، في عالم رجال ؟ لأن لديهم نوعاً من « المكانة » عليهم أن يحتفظوا به ؟

« نعم ، ولكن لعل الوعي بهذا الفشل هو نفسه أقل لذعاً من الشقاء بمعنى الكلمة الذي يمكن أن يصعق بعض النساء . أعتقد أن علاقة الرجال بالفشل مع ذلك ، بصفة عامة ، شيء يمكن أن يحتمل أكثر ، لأن كل الناس يفشلون حتى نقطة معينة ، ولأن هناك عند معظمهم جانباً مضاداً ايجابياً : كانوا يريدون أن يذهبوا حتى هناك ، ولكنهم لم يذهبوا بالفعل إلا حتى هنا ، غير أنهم في نهاية الأمر قد ذهبوا بالفعل ، حتى نقطة معينة . أما النساء ، في الغالبية العظمى من الحالات ، فهن لايذهبن بكل بساطة إلى أي مكان ، لأنه ليس في وسعهن الحركة للذهاب إلى أي مكان : ليس لديهن العمل ، ولا الابداع ، ولا المستويات ، ولا الوظيفة التي يشغلها الرجل في العالم .

– من الممكن مع ذلك أن نشير إلى العمل الجزئي المحدود الآلي الذي يقوم به كثير من العمال في الوقت الراهن . ولكن ، بدون أن نذهب إلى ذلك الحدّ ، ألا تعتقدين أنه حتى في مستويات يُزعم أنها عليا ، فان المهنة أو الحرفة التي يمارسها الرجال لا تفعل في أغلب الحالات إلا أن تدعم عندهم الاحساس بالعبث ، الاحساس بالفشل ؟ أشعر أحياناً أن الرجال يمكن أن يكونوا غير راضين إلى حد عميق ، مثل النساء تماماً في ذلك الصدد ، بحيث أن الفرق قد يقع بالأحرى بين رفضهم أن يعلنوا ذلك عن أنفسهم ، وبين السهولة الأكبر التي تعترف بها النساء بعدم رضاهنّ (مما يتيح لهنّ على أي حال ، في رأيي ، أن يصلن إلى حرية أكبر ، وكرم أكبر) .

ـ هذا ممكن ... ولكن الذين أعرفهم يبدون لي ، بدلاً من ذلك ، أكثر توازناً ، حتى لو كانت عندهم مشاعر بالفشل ، ونوع من الشقاء. أما هوّات اليأس العميقة التي رأيتها ، فقد كانت عند النساء ... أما أنا شخصياً ، فمهما كنت أعرف أن هناك رجالاً على ذلك النحو ، فلم أر قط رجالاً على ذلك اليأس الكامل الذي كانت عليه نساء رأيتهنّ بعينيّ ... والآن قد يكون هذا صحيحاً ، ما تقول ، بالنسبة لعدد كبير من الرجال : وهنا لا أستطيع أن اؤكد شيئاً . أعتقد أن المرأة بالفعل يجب أن تعترف بشقائها ، عن طواعية أكبر ، وأن تتحدث عنه مع النساء الأخريات ، وأن تجعله يثقل على الرجل ، كنوع من الابتزاز . وأن الرجل ، من ناحيته ، لا يرغب في أكثر الاحيان ، أن تعرف امرأته أنه شقيّ .. ولكننا هنا ننتقل إلى العموميات ، ويجب أن تكون في أيدينا احصائيات ...

– بالتأكيد . والحقيقة أنني كنت أتساءل عن هذه النقطة في نطاق أفق الكفاح النسائي : لأنّه يبدو لي أن مثل هذا الكفاح يصل إلى أعلى

درجة له من الفعالية ، ابتداءً من اللحظة التي تدرك فيها النساء (احصائياً على مستوى المعدّل الوسط) أن الرجال – رجالهن – لا يعيشون في نهاية الأمر حياة الأحلام ، وأنهم يعانون ، هم أيضاً ، إذلالات على طول الأيام ، وأنهم إذا كانوا يمثلون دَوْر الصلابة والقوة ، في المساء ، عندما يعودون إلى بيوتهم ، فليس ذلك على الجملة ، هنا أيضاً ، إلا رد فعل حضارياً ...

« نعم ، نعم ... إلا أنهنّ سوف يفهمن ذلك أفضل – سوف يفهمن بعضهن البعض فهماً أفضل – إذا كانت لهن ، هنّ أيضاً ، حياتهن العملية المهنية ، و « حياتهن المتعبة المزعجة » في ذلك النطاق . لأن هناك مع ذلك هذا النوع من الانحطاط الذي حدثني عنه الكثير من النساء ، إنهن يقلن إن المخيف حقاً هو أن المرأة تحسّ أنها تحت نفسها إلى هذا الحدّ . عندما تصل ، في الثامنة عشرة أو العشرين من عمرها ، إلى الانتهاء من دراستها ، فانها تعتقد – مثل الفتى بالضبط – أنها سوف تتألق وتلمع : ثم تجد نفسها فجأة مع الأطفال ، والحساء في المطبخ ... وهكذا ، وهي في الثالثة والعشرين من عمرها ، وهي مع ذلك لم تتغير كثيراً . هناك منهن من يقلن لي : « هذا مخيف أن يحس المرء أنه لن تتاح له ربما ، أبداً ، الفرصة لأن يعطي كلّ ما في وسعه أن يعطيه ! » وهناك في ذلك شيء « باتر مُشوّه » على وجه الاطلاق . وتتحدث بيتي فريدمان حديثاً طيباً جداً عن ردود الفعل التي يؤدي اليها ذلك ، بشكل متزايد الكبر والضخامة ، « ككرة الثلج » . ويسلّم المناهضون للمذهب النسائي أنه بالفعل لا يمكن أن تنتقل الفتاة من شكسبير إلى غرفة الأطفال بكل هذه السهولة : « فلنلغ اذن شكسبير ! ولنشدّد على التدبير المنزلي ! » . لأن من الفاضح جداً ، رغم كل شيء ، أن فتاة في الثامنة عشرة من عمرها ، ذكية لامعة ، تحمل شهادات ،

تتعرض لأن تكون شقية إذ تجد نفسها في المطبخ ... : ولما كان هذا ، من جديد ، هو المصير الوحيد الذي يُقدَّر لها ، فيبدو لها أنه من الأوفق أن تفرغ من أمر الشهادات بالحاح وسرعة !

ولكن من الحق ، أخيراً ، أن كفاح النساء من أجل العمل يكون أصح وأسلم إذا لم يكن العمل ما هو عليه الآن . لا يمنع ذلك أنه في الاتحاد السوفييتي ، حيث كل النساء تقريباً يعملن ، وفي ظروف أدنى بكثير من الظروف التي يعمل فيها الرجال (ما أبعد ذلك عن انتصار للمذهب النسائي !) ، فان النساء حقاً ، بازاء أنفسهن وبالنسبة إلى الرجال ، هنّ كائنات انسانية كاملة ، على حدٍّ بهن . إلا أنّ هنا مشكلةً أخرى موضوعة ، وليس فقط في الاتحاد السوفييتي : هي أن النساء اللاتي يعملن ، ويكفين أنفسهن بأنفسهن ، ويأخذن أيضاً على عاتقهن ، أكثر من الرجال بكثير ، وجود الأطفال ورعاية البيت ، يبدأن في أن يشعرن بأنفسهن متفوقات على الرجال ، وأن يقلن لأنفسهن لم يعودوا ، بعد ، يرتفعون إلى مستوى المسؤولية ، وأنه لم يعد هناك بعد ، رجال ... وهذا ما أفهمه حق الفهم ، في حدود تجربتي أنا : ذلك أنّ الأنماط التقليدية بخطوطها العريضة ما زالت تفرض نفسها عليهن (عندما لا يكون ذلك من خلال طفولتهن) ، وأنه ينبغي لقبول الرجال باعتبارهم أنداداً ، أن يُعترف لهم ، بعد ذلك ، بشيء طفيف من التفوّق . كثيرات من صديقاتي السوفييتيات يتصرفن على هذا النحو . ولكل كل الأمريكيات تقريباً يقلن أيضاً إنه لم يعد ، بعد ، هناك رجال ، وعدد لا بأس به من الفرنسيات الشابات ، بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، يطلقن ، أو يبقين عزباوات ، لمجرد انهن لا يلتقين إلا برجال يظهرون لهن أوساطاً إلى حد أكثر مما يطاق ، ولا يستطيعون أن يكونوا ممن يُعتمد بهم في حياتهن . هذه هي الصعوبة الضخمة في هذه الفترة الانتقالية .

– هل تشعرين ، في المجموع ، أن قارئاتك يفهمنك ويعترفن بك ؟

• في المجموع ... ومن خلال كثير من سوء الفهم ، نعم ، رغم كل شيء ، من جانب عدد كبير منهن . وبخاصة من جيل الشباب . وأشعر أنه بين الأمهات اللاتي في الأربعينات من العمر ، فإن هناك نوعاً من المعاداة لي ، تُفسَّر بحرصهن على الدفاع عن الحياة التي عشنها ، وهي لا تتفق مع ما اقترحه كحياة حقة للمرأة . وبالعكس ، الفتيات الصغيرات في السادسة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرهن واللاتي ، شأنهن دائماً ، يخُضْن صراعاً مع أمهاتهن إلى حد قد يقل أو قد يزيد ، ويبحثن بالأحرى عن أسلحة يواجهن بها مستقبلهن هنّ على نحو مختلف ، هؤلاء ، نعم ، أشعر أنهن يفهمنني : كما تمكن للصغيرات أن يفهمن ، إذ هن بالطبع لسن في وضع يمكنهن من أن يرين كل شيء ، وإن كنّ على كل حال أقرب بكثير إلى موقفي . فإذا فرغنا من ذلك فهناك أيضاً نساء في مثل عمري ، مثلاً ، كتبن إليّ بذكاء عظيم وفهم كبير . ثم أن هناك مع ذلك عدداً معيناً من النساء بين الخامسة والثلاثين والأربعين قد فهمنني فهماً طيباً إلى حد كاف . ورجالاً أيضاً من ناحية أخرى ... كل ذلك بالطبع لا يتضمن مع ذلك أنه ليس هناك الكثير من سوء الفهم ، على مستوى القراء في مجموعهم . وفي هذا المجال ، هناك نقطة أسيء فيها فهمي إلى حد كبير جداً ، ولذلك ، أيضاً ، فانني راضية جداً أنك كتبت هذا الكتاب ، لأنني أعرف أنه سيعيد الأمور إلى نصابها ، ولأن ذلك يثير الرغبة عندي من جديد في أن أتكلم عن نفسي بطريقة أخرى ، وفقاً لمواضيع أخرى ... : هذه النقطة هي تلك الجملة الأخيرة من « قوة الاشياء » ، التي لم يفهمها أحد ، تقريباً !

– نعم . إن السؤال الذي كنت أريد أن أسألك إياه في هذا الصدد هو :

عندما كتبت هذه الكلمات « كنتُ قد خُدِعت » ألم تستسلمي ، على كل حال ، إلى نوع من الدراميّة الأدبية ؟

« هاك ! هذا أول شيء كنت أريد أن أقوله : بالطبع ، وعلى نحوٍ ما ، فان ذلك من قبيل الأدب . وينبغي أن نعود هنا إلى جملة قافا فاليري الذي كنت أعيد قراءته أمس ، في « كما هو » : ذلك أنني أفكر ، كما يفكر ، وان كان ذلك لأسباب أخرى ، أنه لا يوجد أبداً حقيقة سابقة على الحقيقة التي تعبّر عنها اللغة . المرء لا تكون عنده في البداية حقيقة ما ، في رأسه ، موضوعة مستقرة من قبل ، مخطوطةً بخط دائري واضح قاطع ليس عليه بعد ذلك إلا أن يترجمها في كلمات . الكتابة ليستْ ترجمة : بل هي الاشارة إلى « شيء ما » آخذة في ابتداع نفسه ، في التخلّق ، في نفس اللحظة التي يشار فيها إليه . « كنت قد خُدِعت » ، هذا يتساوق بالطبع مع مجموعة كاملة من الآراء كانت عندي ، أفكار كنت قد صغتها لنفسي من قبل ، بشكل مختلف ، وهي على كل حال – يدهشني أن الناس دُهشوا إلى ذلك الحد ! – تتساوق مع كل رؤياي للوجود : لقد فكرت دائماً ، مثل سارتر ، أن الوجود بحثٌ عقيم عن « الكينونة » ، اننا نريد المطلق ولا نصل أبداً إلا إلى النسبيّ . وقد قال « آلان » جملة على قدْرٍ من الجمال ، فكرت فيها من جديد كثيراً بصدد هذه الغاية : « لم يَعِدنا أحد بشيء » . ولكن هذه الجملة ، في نفس الوقت ، تبدو لي زائفة . لا يجب أن ننسى ، رغم كل شيء ، أنني أقيس مدى دهشتي إذ أذكر أوهامي في السادسة عشرة . عندما يكون المرء في السادسة عشرة ، وفي بيئة بورجوازية ، وقد فتحت له سبل الثقافة ، فمن الصعب ألا يعتقد في صورة معينّة للعالم وللحياة : في هذه اللحظة ، هذا حق ، أنت تُوعَد بشيءٍ ما . كان والداي ، وأساتذتي ، وكل الكتب التي أقرأها ، تعدني

بالكثير . ولكني قلت أيضاً – وإن كان ذلك قد نُسي بسهولة أكثر – أن الوعود قد وُفّي بها . وأخيراً لم أشأ أن أقول شيئاً آخر غير ما تعبّر عنه قصيدة «مالارميه» ... : « عبق الشجن ... الذي يتركه قطافُ حلم في القلب الذي قطفه » ...

« دون أسىً » ، حتّى ، ودون ضَجَر ... » لأن ذلك بالضبط هو ما أريد أن أقول : ان وعداً قد وفّي به ليس ما كان المرء قد وعد به نفسه ، لأن المرء دائماً يستهدف الكينونة ، المطلق ، ولا يكون للمرء أبداً إلا وجود نسبيّ . وهذا في الأساس بسيط جداً : كنت أعتقد وأنا صغيرة ، انّه كانت لي حياة تمتد أمامي ، ولكن الحياة لا تكون أبداً لا إلى الأمام ولا إلى الوراء ، ليست شيئاً للمرء ، بل هي شيء يمرّ .

ولما كان ذلك كذلك ، كان هناك أيضاً برغم كل شيء تقزز عميق ، لم يُفهم على انه صار جوهرياً لا من وجهي في المرآة (هو بالأحرى رمز لا شيء آخر) بل من حرب الجزائر وكل ما كشفت لي عنه . ذلك أنها كانت عندي أفظع تجربة للهول . على اعتبار أنه كان يستحيل عليّ هذه المرّة ألا أحس نفسي شريكة متواطئة فيها . وعندئذ ، في مثل حالتي الروحية تلك ، انهزامية جداً ، متقززة جداً ، جاءتني الكلمات في الواقع ، كلمات كانت ، من قبل ، لا توجد فيّ . بحيث اعترفت لها بحقيقة ، كما قلت ، أدبية ... ولو جرؤت لقلت بالأحرى ، شاعرية ، إلا انني بالتأكيد لست بشاعرة ، ولكن لأن هناك معنى أكثر لأن نتكلم عن حقيقة شاعرية لا عن حقيقة أدبية .

وألاحظ في هذا الصدد أنه لا يجب أن نجعل كاتباً ، أبداً ، يقول شيئاً آخر غير مـا كتبه بالضبط ، وإلا أنكرنا ظاهرة الكتابة ، نفسها . أراد الكثيرون من القراء أن يقرأوا فيما كتبت ، « لقد خدعني أحدٌ ما » ، وليس ذلك على الاطلاق مماثلاً لما كَتبت ، لقد استخدمت صيغة المبني

للمجهول ، لأنه ليس هناك «أحد» كنت لأعتبر نفسي أنه قد خدعني – لا الله الذي لا اومن به ، ولا الناس ، ولا العالم ، ولا الحضارة ، ولا أنا نفسي . ان أحداً لم يخدعني ، أعرف ذلك حق المعرفة . وما أردت أن أعبّر عنه بصيغة هذا المجهول ، هو ذلك الشعور الغامض الذي تعطيه الحياة ، شعور واقعيّ على كل حال : ان المرء يحتمل شيئاً ما ، المرء يحتمل الحياة ، وحتى إذا خلقها (إذا صنعها ، ان شئت ...) والمرء يحتمل مرور الزمن ، والسنوات ، والأحداث الخارجية ، وفي نهاية الأمر ، هناك شيءٌ ما قد احتُمِل : لقد خُدعت ، أجد نفسي مخدوعة ، بالنسبة إلى المطلق الذي حلمته عندما كنت صغيرة .

فمن المؤكد تماماً إذن أن حقيقة هذه الملاحظة تتوقف على الشكل الذي أعطيته لها نفسه ، ولا يمكن أن يُعَبّر عنها بأية طريقة أخرى . ولا تفسيرها إلاّ مع وضع اللحظة التي جاءت فيها موضع الاعتبار ، في نهاية ... هذه الفقرة ، في نهاية ... هذه الخاتمة ، وبالتأكيد ، في نهاية هذا الكتاب . فإذا نزعها المرء عن هذا السياق فلا يمكن له إلا أن يكوّم أسوأ ضروب سوء الفهم لها .

– ولعله ينبغي أيضاً أن نحدّد أنك في مناسبات مختلفة كنت قد كتبت من قبل «لقد خُتِلت» ، «لقد ختلني أحدٌ ما» ... الخ .

● بالمثل ! قلت أيضاً إنني كنت «متقززة» ، إنه لا يجب أن أعطى وعياً ، بعد ذلك ، ليجعلني متواطئة في أشياء معينة ... هذا صحيح : كانت هناك صيغ كثيرة يمكن أن تستشف منها هذه الغاية . ومع ذلك فأعتقد أننا هنا ، بقدر معين ، بصدد عثرة أدبية : كنت قد أسرعت قليلاً . في هذه الخاتمة ، بالضبط لأنني كنت قد ضجرت من الكلام عن نفسي ، ولأنني أردت أن أقول ذلك بنوع من الصرخة : « صرخة

أدبية »، كما يقول كوكتو . لكنّي لم أدرك أن الأمر كان حساباً ختامياً ، وانك تكلمت في الآخر عما كان يهمني في الواقع أكثر ما يهم : الشيخوخة الجسمانية . تكلمت في البداية عن علاقاتي بسارتر ، عن الأدب ، عن الفلسفة ، عن العالم ، عن كل ما كان عندي ، في النهاية ، هاماً أكبر الأهمية ، ثم عن علاقتي بصورتي نفسها – وهناك قدمت الحساب الختاميّ النهائي ، بحيث أن الناس ربطوا بينه وبين الصورة في المرآة ، بدلاً من أن يفسّروها وفق مجموع الكتاب (أو على الأقل وفق الخاتمة في كليّتها) . ذلك أنني أعطيت فيها برغم كل شيء أسباباً وجيهة لاحساس بالتقزز – والسبب الجوهري إلى أكبر حد ، فيها ، هو ذلك الاكتشاف لعالم مخيف حقاً ، بشع حقاً ، بينا كنت أتصوره في البداية ، في حدود تفاؤلي ...

– لم تكن لديك أية فكرة وأنت تكتبين ذلك عن ردود الفعل التي سوف تبتعثينها ؟

« بالمرة ! إن لي وضعاً غريباً ... هل تعرف ... هناك عدد معين من الناس يعتبرونني كاتبة – أحسن الكتابة أو لا أحسنها – ولكن كاتبة برغم كل شيء ، وهناك عدد من الناس أيضاً يعتبرونني من صاحبات « بريد القلوب » (لأنني امرأة ولأنني كتبت عن النساء) . ومن هنا استنكار مدام أوكلر مثلاً ، والنصيحة التي أزجتها لي ... وأيضاً ذلك الشيء الذي لا يُصدَّق : صحفيّ – لم أعد أذكر اسمه – يهتف في صحيفة « فرانس سوار » بما يشبه التالي : « كيف ؟ هذا مخجل ! لست أوافق ! أنا ، أنا لي صديقة في الخمسين من عمرها ، وهي في قوة واندفاع قاطرة باريسية : تذهب إلى كل البارات ، أصبا وأصغر من كل الناس ، دائماً تكتشف آخر ملهى ليليّ صغير نرقص فيه ، وآخر رقصة ... الخ . وسأقول لكم ان هذه الصديقة قادرة أيضاً على البقاء

وحدها ، على القراءة ، أو على الاستماع إلى الموسيقى . وسوف أعطيكم سرّها : ذلك أنها تملك ، في لطف واستخفاء ، الايمان . » أما أنا فأجد أن الايمان الذي يجعلك قادراً أن تكون قاطرةً باريسية شيءٌ يستأثر باللّب ...

– جميل جداً ! ولكن نعود إلى مارسيل أوكلير ، بماذا نصحتك ؟

• نصحتني بعملية «شدّ البشرة» ... عملية كاملة طبيّة لشد البشرة. قالت إنه إذا كانت مدام دو بوفوار لا تطيب نفسها حقاً عندما تنظر إلى المرآة ، فلا يجب أن تجعل النساء الأخريات يشعرن بالاشمئزاز من الشيخوخة ، فلتذهب تجري عملية شدٍ للبشرة ... واذن فقد كان كل هؤلاء السيدات ينتظرن مني نصائح متفائلة ، أما أنا فقد ضجرت من أنني متفائلة . وكان هناك أيضاً من جانبي شيءٌ من المكر والمخابثة فيما أعتقد ... مخابثة تعكس ، على وجه الدقة ، غضبي على العالم . قلت لنفسي إن هذا الكتاب لن يستريح اليه الناس . كنت أريد ذلك . ولكني كنت أفكر أنه لن يريح الناس فيما يتعلق بحرب الجزائر ، ولم يكن هذا ما حدث بالمرة (لأن حرب الجزائر لم توجد قط كما يعرف الناس جميعاً ...) والواقع أنه لم يكن مريحاً لأنني تكلمت فيه عن الشيخوخة . بل هناك أناس يساريون ناصبوني المحاكمة «لم يكن لك في ذلك الحق ! ذلك خطأك إذا كنت لم تصلي إلى الناس فيما يتعلق بحرب الجزائر ، لأنك بعد ذلك أدليت باعترافٍ بالهزيمة ، وأنت قد جررت معك اليسار كلّه في هـذا الغَرَق .. وعندئذ استبدّ بي الغضب ، وقد تكلمت عن ذلك على كل حال ، في «الميتاليتيه» هل تعرف ؟

– أعرف ١ . قلت منذ قليل ، من ناحية أخرى ، شيئاً يبدو لي

١ – للقارئ الذي لم يشهد المناظرة التي تشير اليها سيمون دو بوفوار ، ولم يقرأ نص كلمتها =

رئيسياً : أنّ حدوث الشيخوخة ، على كل حال ، لم يكن يهمني كثيراً ...

— في « ماذا يستطيع الأدب » (مجموعة L'Inédit ، 18 – 10 ، باريس ١٩٦٥) أورد فيما يلي ، بهذا الصدد ، جوهر إجابتها : « ... إذا عبر المرء عن قلق محض ، فذلك أنه يفكر أن هذا القلق ، بذلك التعبير عنه ، يتخذ معنى ، يتخذ علة معينة للكينونة . ذلك أنه ما يزال يؤمن بالتواصل ، ومن ثم بالناس ، بأخوتهم .

وإذا كنت أتحدث عن ذلك ، فلأنني كنت موضع لوم كثير ، باسم التفاؤل ، الاشتراكي ، عن نهاية « قوة الاشياء » وعن موضوع كتابي الأخير . قيل لي : « إن القلق المحض عن الزمن الذي يهرب ويمضي ، واستبشاع الموت ، هذا حسن جداً ، لك كل الحق في أن تشعري بذلك ، ذلك مشرف جداً ، ولكن هذا يخصك أنت وحدك ... فلا تحدثينا عنه ! » تلقيت من اليساريين خطابات تقول لي ذلك .

أما أنا فلا أرى لماذا يجب على المرء – بحجة أنه يضع ثقته في المستقبل ، وأنه يعتقد أنه سوف يكون هناك مجتمع اشتراكي في يوم ما – أن يسكت جانب الفشل والشقاء الذي تتضمنه كل حياة . أو أرى ، عندئذ ، أن التفاؤل الاشتراكي يشبه إلى حد بعيد التفاؤل التكنوقراطي الذي يسيطر اليوم ، ويسمى الشقاء وقرة ، ويستخدم المستقبل باعتباره شهادة على الغياب .

إذا كان الأدب يسعى إلى تجاوز الانفصال في النقطة التي يبدو فيه أعصى ما يكون على التجاوز ، فيجب أن يتحدث عن القلق ، عن الوحدة ، عن الموت ، لأنها بالضبط أوضاع تحبسنا ، على أكثر نحو جذري ، في أحاديتنا . نحن بحاجة إلى أن نعرف وأن نحس أن هذه الخبرات هي أيضاً خبرات كل الناس الآخرين .

إن اللغة تعيد اندماجنا بالعشيرة الإنسانية ، والشقاء الذي يجد كلمات يقول بها عن ذاته لم يعد يعد تنحية جذرية ، بل يصبح أقرب إلى أن يطاق . يجب أن نتكلم عن الفشل ، عن الفضيحة ، عن الموت ، لا لدفع القراء إلى اليأس ، بل على العكس لمحاولة انقاذهم من اليأس .

إن كل إنسان مصنوع من كل الناس ، ولا يفهم نفسه إلا من خلالهم ، ولا يفهمهم إلا من خلال ما يسلمونه من ذات أنفسهم ومن خلال نفسه مستضيئاً بهم .

وأفكر أن هذا هو ما يستطيع وما يجب أن يعطيه الأدب . يجب أن يجعل لنا

« نعم . لم تكن تلك هي المسألة الحاسمة . ان ما كان يقززني ... كنا نقول ذلك كثيراً مع سارتر ... هو أنه كانت تُصنع لنا شيخوخة بشعة : كنت دائماً قد فكرت أن شيخوختي ستكون سعيدة . وعلى أي حال ، فإن لي شيخوخة سعيدة ! ولكن تلك السنوات ، لو كان هناك السنّ ، وهذا التقزز ، معاً : لو كنا أصغر سناً فلعله كان سوف يمسّنا بطريقة أخرى : لم يكن ليتخذ ، على كل حال ، هذا المظهر ، مظهر خاتمة قاسية لحياتنا . وبدون ذلك فان الشيخوخة ، حتى ذلك الحين ... ولكن لا ، برغم كل شيء ، انها توجد ، ان لها واقعها ، ولست أسحب شيئاً مما قلته فيها . ولكن لم يفهم عني أن اللحظة التي نحن بصددها يمكن أن تقع في أي سنّ . يمكن أن يكون ذلك حادثة تقطع حياة امرأة أو رجل في السابعة والثلاثين : ويمكن أن يكون هناك بالعكس أناس يطيلون شبابهم وحياتهم الجنسية حتى الخامسة والستين أو السبعين من العمر ... لا يهم ذلك في كثير : سوف تكون هناك دائماً لحظة يجب أن يعترف المرء فيها أنه لم يعد ما كان . وسواء كان ذلك في الرياضة أو في الحب ، يتخلى المرء عن شيء ما ... بل يحدث هذا مبكراً جداً عند الرياضيين ، ويحدث بعد ذلك ، عند الآخرين . ولكن هناك دائماً لحظة يعبر فيها المرء خطاً مرسوماً . وهكذا ، اتفق انني

= شفافية ، أحدنا بازاء الآخر ، في أكثر المواضع عندنا عتمة . هناك مهمات أخرى ، ومشروعات أخرى : هناك الفعل ، والتكنيك ، والسياسة ، ولكنها على كل حال موجهة إلى الناس ، وهي تصبح عبثية ، بل تصبح كريهة ، إذا اتخذت من نفسها غاية ، « إذا انقطعت عن الانساني .

المحافظة على ما هو إنساني في الإنسان ضد التكنوقراطية ، وضد البيروقراطية ، تقديم العالم في ابعاده الإنسانية ، أي باعتباره يتكشف لأفراد هم في وقت معاً مرتبطون فيما بينهم ، ومنفصلون : أعتقد أن تلك هي مهمة الأدب ، وذلك هو الذي يجعله لا عوض عنه . »

عبرت هذا الخط في نحو تلك الفترة ، باجتماع عددٍ من الظروف . بسبب الحرب ، ولكن أيضاً ، بسبب مرض سارتر ومشاكل شخصية معيّنة ، أي باختصار بسبب مجموع كامل من الأشياء جعلني أحسّ أنني لن أستطيع بعدُ ، مثلاً ، أن أسير ٤٠ كيلومتراً على القدمين ، أو أن أفعل أشياء أخرى كثيرة ، وأنني مثلاً ، بطريقة عميقة جداً ، كنت لا أهتم بعد بالحب ، أقصد أن أقول بنوعٍ من الحب ... هناك في ذلك لحظة ، بالضرورة ، كريهة جداً ، نوع من الأزمة ، مماثلة قليلاً ، ربما — على مستوى آخر بالمرّة — لأزمة المراهقة . ولعلها أيضاً لحظة يفقد فيها المرء صورته — ولكن ليس صورته في المرآة — انني أتعرف على نفسي كفتاة صغيرة ، كامرأة شابة ، وكاتبة مبتدئة ، ثم متقدمة في السنّ قليلاً جداً ، بعد الحرب . ولكنّ يوم أن جاءتني فتاة شابة ، كان ذلك في الهافر ، وقالت لي : « آه مدام ! كم تذكرينني بأمّي ! » أتى ذلك أثره على نحوٍ غريب . صورتي من قبل ، صورةٌ معينة للشباب يطيلها المرء دائماً إلى حد قريب أو بعيد ، هذه الصورة انكسرت ، ولم أستطع أن أتعرف على نفسي في هذه المرأة التي يمكن بالفعل أن تكون أماً ، بل جدة تقريباً .. (لا لأحد ...) ، في تلك الكاتبة التي تشيخ ، مليئة بالنضج والخبرة ، ولها منذ الآن آثار أدبية وراءها : لا ، لم يكن ذلك ينطبق عليّ أنا ! وما زال لا ينطبق تماماً ، على أي حال ... ولكن ذلك ، لم يكن فيه شيء ما يستقيم على وجهه ، بعد ، وكان ذلك بالنسبة إلى الصورة التي كان ينبغي أن تكون هناك ، كلاسيكياً — صورةٌ هادئة في وداعة وسلام ، مستسلمة ، طرية مثل خريف جميل : وذلك لن يستقيم على وجهه أبداً ، أقول لك !.. لا يهم ، الآن ، ذلك قد حدث بالفعل ، ولن أنوح على نفسي حتى الثمانين ... ولعلني سأمرّ بأزمة جديدة عندئذ ، عندما أقول لنفسي : والآن ، لم أعد في الستين بعدُ !..

– عندما تكلمت عن شيخوخة سعيدة قلت منذ قليل « وعلى أي حال ، فان لي شيخوخة سعيدة ! » أحب كثيراً أن أسألك عمّا إذا كنت تعتقدين أنك نجحت في حياتك .

« نعم ، سأقول لك : نعم ، كل النجاح ، إذا كان الأمر يتعلق بحياتي أنا ، ما دمت قد حققت كل الأحلام التي حلمت بها عندما كنت صغيرة . نعم ، كان لي حقاً ، في الحب وفي الصداقة ، كلّ ما استطعت أن أتمناه : أما عن العمل ... يقول المرء لنفسه دائماً انه كان مستطيعاً أن يفعل شيئاً آخر ، ولكنّه في نفس الوقت يعرف تمام المعرفة أنه لم يكن يستطيع أن يفعل إلا ما فعل – وما سيفعل ربما (بحيث يكون هناك هـذا الأمل ، ما يزال) . ولذلك أريد أن أقول ، بالفعل ، أنّ الناس أخطأوا تماماً عندما ظنوا أنني لست راضية عن حياتي : انني راضية عنها كل الرضى . لم يكن لي أولاد ، ولكني لم أكن قد تمنيتهم حقاً ، أبداً ، ولا آسف بالمرة أنه ليس لي أولاد . والواقع أنه أفضل ما يأتي به الأولاد ، إذا كان كل شيء يمضي بخير ، هو الشباب : ولكنّ لي صداقات مع الشباب ، بل لي الكثير من الأصدقاء في شبابهم . ومن ثم فانني راضية بحياتي رضىً مطلقاً ، ذلك ما أستطيع حقاً أن أقوله .

– فيما يتعلق بعلاقاتك مع الآخرين . أعتقد أنه كانت عندكِ ، بالاجمال ، ثلاثة مستويات : هي ما اسميها ، بسرعة ، « العائلة » ثم « العلاقات » ثم « الآخرون » .

« نعم ، هذا بلا شك أقل صحةً قليلاً ، الآن ، عن ذي قبل . هناك أيضاً صداقات جديدة في حياةٍ ما ، أناس يظهرون ويحبهم المرء . وخصوصاً بين الشباب .

– هل تشعرين بالإحساس ، منذ بعض الوقت ، بتفتح أكبر للآخرين ؟

• أوه بالتأكيد ! أعتقد أنني لم أفعل إلا أنني فتحت من نفسي للآخرين ، أكثر فأكثر ، صدوراً عن موقف أوّلي مغلق جداً – يتفق على أي حال ، فيا أعتقد (عند كثير من النساء على كل حال ، وعند عددٍ كبير من الرجال أيضاً) مع ضرورة الكفاح قليلاً للنجاح عقلياً ، وللتخلص من العائلة ، ولتأكيد الذات ... الخ . : هناك لحظة ، في رأيي ، يكون من الصحيّ عملياً وأخلاقياً أن يُغلق المرء فيها على ذاته . ومع ذلك فقد كان هـذا الموقف عندي قوياً جداً ، هذه الحاجة للإغلاق . أذكر مناقشات معينة ، في العشرين من عمري ، مع زميل (« براديل ») كان يقول يجب أن نحب كل الناس ، وكنت أرد في غضب عنيف انه يجب أن نحب قليلاً جداً من الناس ، وأن نمقت منهم الكثير ، وان هذا المقت هو شرط ذلك الحب . كان ذلك ، عندي ، مما كان يترجم عن نفسه بنوعٍ من السخرية ، وطريقة التفادي ، للتباعد ، لعدم ارادة الفهم – وبنوعٍ من الأخلاقية أيضاً كنت أقطع بها ، كنت أفرض اختياراتي . وبعد الحرب بقليل أخذ ذلك يتغيّر ، ثم يتغير أكثر فأكثر بعد ذلك . ولا يعني هذا أنني لست قادرة بعد على كراهياتٍ ضارية ! وأنا على المستوى السياسي . على كل حال ، ما أزال « مانيخيّة » : لأن الأمر هناك ، برغم كل شيء ، يتعلق بمعركة ، حيث يكون للمرء خصوم أو حلفاء . أما في العلاقات من شخص لشخص ، نعم ، بالتأكيد ، أفهم الآخرين فهماً أفضل : لأنني بلاشك قد تمثلت مناهج معينة (التحليل النفسي مثلاً ، سواءٌ كان فرويدياً أم وجودياً) ثم نتيجةً للخبرة أيضاً ، لأنني أملك الآن عدداً أكبر من الانماط أو النماذج .

ولكني لن أقول إنني أحس اهتماماً أكثر بالآخرين عن ذي قبل :

في نحو ١٩٤٥ عندما بدأنا نعرف الناس ، كنت مشبوبة الاهتمام ، واليوم، بالعكس ، لا يشوقني كثيراً أن ألتقي بأناس جدد . أريد أن أقول : يجب حقاً أن تسير الأمور على خير الوجوه ، أن يكون هناك تفاهم حقيقيّ . أما عن الفهم ، فأعتقد بالفعل أنني أفهم فهماً أفضل .

– ولكن في نحو ١٩٤٥ ، كنت تلتقين بأناس استثنائيين إلى حد كبير ؟

ـ نعم .

– والآن ، يبدو أنك تتمنين أكثر أن تلتقي بأناسٍ يكونون ...

ـ لا يكونون استثنائيين . نعم لم يعد يشوقني الناس الاستثنائيون بالمرّة . أو ربما ، مرةً بين كل حين وحين . الواقع أنني أتوق أكثر بكثيرٍ إلى تعاطفٍ حقيقي ، عقلي أو أخلاقيّ ...

– ذلك ما أسميه التفتح الحقيقي .

الحديث الثاني

– كنتِ قد أوحيت أمس ، عابرةً ، بصورةٍ كنت قد صنعتِها لنفسك ، صورة معينة للشباب : هل تبقى لك في الوقت الراهن صورةٌ ما لنفسك ؟

• من الصعب أن يعرف المرء ما يسمّيه «صورةً للذات» ... أعتقد أن المرء دائماً عنده مثل هذه الصورة ١ ، وأن ما ضايقني

---

١ – عادت سيمون دو بوفوار إلى هذه النقطة ، في آخر الحديث تماماً ، وأمدتني بهذه التحديدات :

« ليس لي ، في الواقع ، أية صورة لنفسي على مستوى الشخصية والطباع ... الخ . كنت تتكلم عن النرجسية : وصحيح أن المرء إذا كتب ثلاثة كتب عن نفسه (وهو يعد الكتاب الرابع) فان ذلك يميل بالأحرى إلى النرجسية – ومع ذلك فانني أشعر أن مسلكي الواقعي لم يكن نرجسياً قط ، ليس فقط أنني لم أنظر إلى نفسي كثيراً في المرآة قط ، ولا أنني لم أهتم كثيراً بزينتي ، بل أنني أيضاً لم أحاول قط أن أحصر نفسي ، أن أتخذ لنفسي حدوداً ، كما تفعل الكثيرات من المثقفات الصغيرات اللاتي أراهن يتساءلن : من أنا ؟ ماذا أساوي ؟.. وهكذا . وذلك يأتي على كل حال مما تقول : حاجتي إلى أن أسقط نفسي دائماً في المستقبل ، أكثر بكثير إلى أن أتأمل صورة لنفسي ، على الأفق ، نعم ، كنت أحس نفسي طالبة ، امرأة شابة ، مدرسة شابة ، كاتبة شابة مبتدئة ، روائية شابة ... إلى آخره . ولكن ذلك ظل متميع الحدود جداً ، غامضاً جداً ، لم يكن ذلك أبداً مرجعاً يستشار =

بالضبط ، في تلك اللحظة لأزمة «الدخول في الشيخوخة» هو أن الصورة قد انكسرت : وأنه كان ينبغي استبدال صورةٍ جديدة بها ، صورة لم تكن تنطبق عليّ بالمرّة لأنني لم أكن أحسها من الداخل ، لأنني لم أكن أحس نفسي ، لم أكن أرى نفسي كما يراني الآخرون . كنت أعرف بالتأكيد ، على نحوٍ مجرّد ، أنني قد بلغت ذلك العمر ، ولكن ذلك ليس نفس الشيء بالمرّة ... وصحيح أن الصورة التي تُقدم إلى اليوم ما زالت غائمةً عندي إلى حد بعيد : صورة كائنة تصل ، إلى حد ما ، إلى نهاية حياتها ، وقد تركت وراءها ، على كل حال ، أكبر آثارها ، وينتظر المرء منها ، منذ الآن ، تفتحاً ، ووداعة هادئة !.. لا ، حقاً ، لست أدخل هذه الصورة ، ولا أعتقد أنني سأدخلها أبداً . من ناحيةٍ أخرى لا أعتقد أنها صحيحة عند الآخرين أيضاً . لا أعتقد أن هناك عند أحد نضوجاً متناسقاً للشيخوخة ، وأقبل كلمة سارت بوف تماماً : «المرء يتعفن في مكانه ، ولا ينضج أبداً» .

ثم أنّ هناك أيضاً ، ربما ، أنّ صورتي عن نفسي ، من قبل ، كانت دائماً علاقةً بالمستقبل ، أما الآن فالمستقبل يصبح أبعد احتمالا وأبعد ، كلما تقدمت بي الشيخوخة ، وإنني أجد نفسي أكثر بكثير على علاقة بالماضي ، ويترتب على ذلك أن الأزمة تغيم وتضطرب عندي إلى درجة أنني لم أعد أعرف تماماً ما هو الحاضر ...

— يبدو من عدة نواحي ، بصدد هذه العلاقة بالزمن ، انك كنت رغم كل شيء منشغلة بالماضي ، بصفة عامة . بل يبلغ من ذلك ان المرء يتساءل أحياناً عما إذا كنت لا تشعرين بشيء من الصعوبة ، أحياناً ، في كتابة عملٍ من أعمال الخيال ، عندما تقدّر مدى الدقة التي يظل بها

— في شيء ، ويوضع موضع التساؤل ، لم يكن ذلك صريحاً سافراً ، إذا شئت ، حقاً ، أبداً ..

ماضيك كله تقريباً حاضراً بها عندك . ويسترعي نظري أن أرى إلى أي نقطة يظهر فيها كل شيء من جديد ، في كل مرة ، تريدين فيها أن تعالجي هذه الفترة أو تلك : الذكريات ، بالتأكيد ، ولكن اليوميات الخاصة أيضاً ، والمذكرات ، والخطابات ... الخ . دون أن نضع في الحساب الحرص الذي تبديه إذ تصلين بهذا النظام إلى حد الكمال بالرجوع ، هنا وهناك ، مجموعات هذه الصحيفة اليومية أو تلك ، للعودة إلى أحداث الفترة ...

• نعم ، وهنا لا أعرف ما إذا كنت مسددة شطر الماضي ، جزئياً ، لأني كنت أكتب هذه الكتب ، وعندئذ فإن السؤال بالتأكيد يكون لماذا كتبتها . ولكني لا أعتقد أني بصفة عامة أعيش في الماضي أكثر من معدل الناس ، وأنا أعيش في الماضي على كل حال أقل بكثير من معظم النساء . ذلك أن النساء أساساً هن اللاتي يعشن في الماضي ، وأعرف شخصياً عنهن الكثير . أما أنا فليست لي خبرة بهذه الأزمات الكبيرة حيث تستحوذ لحظات معينة من الماضي على المرء ، نفس اللحظات دائماً : لا ، الأمر بالنسبة لي أقرب إلى تجاوب المرنين ... ولكن من الممكن أني الآن أكثر حساسية بالماضي عما كنت ، مثلاً ، في الأربعين من عمري . ذلك أنه في ذلك الحين ، كان لديّ المستقبل ، بالضبط ، كنت أحب أن أرى أشياء جديدة : أما الآن فيسرني أكثر أن أعيد الرؤية ، وأحب لا التكرار ، بل اللُقى الجديدة ، نوع من الحج ، اعادة القراءة ... وهكذا .

– ولكن ألا تعرفين في نفسك ، بطريقة أعم ، حاجة للعودة ، وبعمق ، إلى الماضي للمحافظة عليه ، لانقاذه ؟

• نعم ، بلا أدنى شك . كان ذلك بالفعل معنى الاجزاء الثلاثة من السيرة الذاتية . الا أني وقد كتبت هذه الاجزاء الثلاثة ، لم أعد أفكر

في الماضي كثيراً بذلك الشكل.

– ولكني أريد أن أقول: بقدر ما كنت تعيشين في الحاضر، كانت لديك مع ذلك هذه الفكرة في أنه يجب ...

• ... آه.. انه يجب ألاّ يضيع ؟ نعم، نعم، بالتأكيد !

– نلتقي بذلك كثيراً في أعمالك : بل تذهبين إلى حدّ تخيّل آلة تسجيل كبيرة.

• آلة تسجيل هائلة ! نعم، هذا صحيح، كانت هناك بالفعل تلك الفكرة أن ذلك، على نحوٍ ما، كان يُسجل في مكان ما : مما كان من ناحية أخرى يُغنيني بالضبط عن أن أتكلم عنه. أبداً ... ثم جاءتني الفكرة، مع ذلك، أنّه لم تكن إلا طريقة واحدة لانقاذ الزمن، هي استرجاعه بالكتابة.

– وأنت تقولين أيضاً، لمادلين شابسال : « كنت لأحب أن تكون لي مجموعة وثائق هائلة عن حياتي، كنت لأجد ذلك مبرراً للاهتمام المشبوب، ذلك، بالتأكيد، بالقدر الذي ...

• ... الذي كنت أريد فيه أن أسترجع بالفعل ؟ هذا مؤكد. كان من الافكار الجوهرية في تلك المجلدات الثلاثة، هذا النوع من الاسترجاع الذي هو في الواقع غير قابل للممارسة، لأن المرء لا يسترجع حقاً الماضي أبداً : وما أن تُكتب الكتب، حتى يبقى الماضي مع ذلك غريباً كما كان غريباً من قبل، ولكنه مع ذلك قد استرجع إلى حد ما، تحت شكل لغة وكلام مطبوع في كتاب، على كل حال. نعم، كانت هناك بالتأكيد تلك الفكرة.

– إذا كنت قد عُنيت بأن الحّ على هذه النقطة، فلذلك أن المرء ينتهي إلى التساؤل – وهناك نصوص لك يمكن أن تدعّم هذه القضية –

عما إذا كان المستقبل نفسه ليس ، قبل كل شيء ، في عينيك ، فرصة «للخلاص» أو «للفدية» للحاضر . أي أن الفكرة بالاجمال هي أنه يجب انقاذ الحاضر ، انقاذ الكينونة ، وصنع حاضر كلّيّ من الحياة .

« هذه أيضاً ، بالفعل ، فكرة ٌ كانت عندي ، ولكنها لم تعد عندي إلى هذا الحد الآن فيما أعتقد . يبدو لي حقاً أن فكرة الخلاص ، بالضبط ، قد حطّمت . أريد أن أقول إنني ما زلت أشتهي أن أكتب ، أما فكرة اجمال العالم في إطار حياتي أنا ، فهذا ، هذا ما لم أعد أؤمن به ، أعرف منذ الآن أن ذلك ليس ممكناً . هناك أولاً المستقبل ، الذي يفلت مني ، الذي سوف يفلت مني أكثر فأكثر ، وهناك أيضاً أن الخبرة سوف يعيشها آخرون ، عندما أموت ... وعلى ذلك ، فلا يمكنني أن أحتفظ بهذا الوهم الذي كان عندي في أن أجعل من حياتي تجربة لها امتيازات ، للوضع الانسانيّ » . وكنت أعرف ، بالتأكيد ، من قبل أن ذلك زائف : ولكنّ ذلك لم يمنع من أنه ظل يراود حياتي ، كرد فعل ضد العبثية بحيث كان المستقبل يبدو لي عندئذ ، بالأحرى ، باعتباره شرطاً لانجاز هذه التجربة . ذلك أنها دائماً كانت غير منجزة : كان هناك تلك البلد التي لم أرها ، وينبغي أن أراها ، وذلك الكتاب الذي لم أقرأه ، هذا المصوّر الذي لم أكن أعرف لوحاته ... وتلك الأعمال ، بالطبع ، التي لم أكن قد كتبتها بعد . وهنا ، كان الأمر أكثر غموضاً من أن أستطيع تخيّل تلك الاعمال (إلا اذا كان ذلك ، ربما ، « في قالب أجوف خاوي الوفاض ») إلا أنني كنت ، ببساطة ، والثقة ُ أن ّ الالهام سيأتيني يوماً أن أكتبها . لكن ذلك ، كما ترى ، هو من نوع الأشياء التي تستطيع أنت أن تراها خيراً مني بكثير ، عندما تعيد قراءة ما كتبت ، ووفقاً للنصوص التي كتبتها .

ـــ سؤال ُ الآن ، مختلف كل الاختلاف . أهناك قيمة ايجابية في

الأمومة عند النساء الأخريات ، أريد أن أقول : قيمةً يمكن لكِ حقاً أن تتصوريها ؟

- آه .. بلا أدنى شك ! نعم ، يمكن لي أن أتصورها تماماً ، من خلال الوقائع الكثيرة التي لاحظتها عند النساء .

— هل تعطينها قيمةً ايجابيةً حقاً ، للأخريات ولكِ ؟

- أفكر أنه بالنسبة للأخريات ، يمكن لذلك أن تكون له قيمة ايجابية . وذلك صحيح ، أولاً ، بالنسبة لكل تجربة . ويمكن للأمومة دائماً أن تكون لها قيمة ايجابية ، ولو لم يكن ذلك إلا أنّ تعلّم النساء شيئاً عن أنفسهن . إن المرأة التي تنتظر طفلاً ، والتي ولدت ، إذا كانت تحب هذا الطفل ، فتلك ، رغم كل شيء ، تجربة بالنسبة لها : حتى لو كانت عاشتها على نحو سيّء للغاية ، إذا كانت ضدّها ، فهي تجربة — تماماً كما يمكن القول إنّ الألم الجسماني الذي لا أعطيه أية قيمة أخلاقية ، يهمّ بالرغم من كل شيء لأنه يعلّمنا شيئاً عنه ، مما يتيح لنا أن نفهمه عند الآخرين . ثم إن المرأة إذا لم تكن مطلوبةً صراحةً من أشياء أخرى ، فلا بُدّ أنّ ذلك شيء مثير للاهتمام المشبوب ، اكتشاف ماذا يكون عليه طفل . وأفكّر من ناحية أخرى أن ذلك يهمّني اليوم أكثر بكثير مما كان يهمّني في العشرين من العمر (حيث أنني اليوم أعطي أهمية أكثر للتحليل النفسي) أن الاحظ طفلاً ، أن أتتبع من الصباح إلى المساء تصرفات رضيع . لا بأس ، فلن أفعل ذلك (عندي أشياء أخرى عليّ أن أفعلها ، ثم أن هذه ليست مشكلتي ، فلسفياً ، ابديولوجياً) : ولكني أعتقد أن ذلك مشوّق جداً ، ان ذلك يثير كثيراً من المسائل — وإذا كان هناك ، كما هو واضح ، حالات يمكن أن يفسد الأمر فيها ، فيمكن أيضاً أن يجد المرء في حياة الأطفال نوعاً من إطالة حياته نفسها ، وشخصه نفسه . لقد رأيت تجارب مشوّهة

باترة ، للأمومة ، ولكني رأيت الكثير منها أيضاً ، تجارب سعيدة حقاً ومثْرية .

– إذن فالأمومة يمكن في رأيك أن تكون ...

• يعني أنني لا أرى بالفعل الفرق بينها وبين الأبوة ... إلا في واقعة الحمل والولادة ، نفسها : الا أنني أجد أن هناك خطراً عند النساء في أن يضفين إلى أنفسهن شيئاً من ذلك ، أن يعطينه أهمية كبيرة ، وأخشى أن يكون في ذلك ، من جانبهن ، نوع من النرجسية . الأمومة بلا شك فيها شيء نوعيّ خاص بها ، ولكنها تبدو لي ، في الجوهر ، من نفس طراز الأبوة تقريباً . أو على الاصح أنها يمكن أن تكون : ذلك أنه صحيح ، في مجتمعاتنا ، أن المرأة تعتبر نفسها عامة مسؤولة أكثر عن الطفل الصغير وأنها أقرب اليه من الرجل . ولكن ذلك ، هنا أيضاً ، مسألة ثقافة ، فأنا أظن ، أكثر بكثير من أنها مسألة غريزة أو فطرة . وقد رأيت حالات كانت فيها الأبوة معاشة على نحو مضطرم مشبوب . وحقاً ، نعم ، أظن أنه بالنسبة للرجل والمرأة على السواء ، يمكن أن تكون تجربة انجاب الاطفال تجربة مشوقة جداً ومثرية جداً .

– وليست ، بوجه خاص ، تدعو لاغتراب الزوجين ؟

• لا ، على الاطلاق .

– هل أحسستِ – أنتِ تتكلمين عن ذلك – أشكالاً معيّنة من الغيرة ؟

• نعم .

– ألم تشعري قط أنه في أساس كل غيرة ، عندما يتغلب المرء على كل ما يمكن أن يكون فيها مما هو غير مقبول ، يبقى مع ذلك نوعٌ من الرواسب يبرزها إلى حد ما ، مثلاً ، الاختيار الكليّ الذي قام به ،

لاشتراكٍ معين في الحياة ، لاشتراكٍ معين في التطلّب ، وبالاحساس انه إذا كانَ الآخر يقوم ، من ناحية أخرى ، بمشروعٍ من نفس الطراز مع شريكة أخرى ، فان كل شيء سوف ينهار بالضرورة ؟

• نعم ، أعتقد أن هناك شيئاً ما صحيحاً وحقيقياً على وجه الاطلاق في بعض حالات الغيرة . إذا كان «أ» يحيا شيئاً مع «ب» ، ثم يأخذ «ب» في أن يحياه مع «ز» فواضحٌ أنه سوف يترتب على ذلك ، بالنسبة ل «أ» شعور بالتنحية : انفصام مشروعٍ مشترك ، شيء لا يعوّض عاشه مع «ب» . ثم أن هناك أخيراً أشياء كثيرة جداً في الغيرة .. ولكن هناك بالتأكيد ما تقول باعتباره صحيحاً له قيمة .

– سؤال آخر : في كل مرة تتحدثين عن النساء في كتبك ، تتحدثين عنهن مع سرور . أريد أن أقول : أنتِ تحبين أن تريهن ، وتعتبريهن ، عن طيب خاطر ، جميلات ، وسيمات ، رشيقات .

• نعم .

– ... ولا شك أنكِ لم تنسي أنكِ كنتِ موضع هجوم خبيث ، منذ بعض الوقت ، لأنكِ وجدتِ أن «م» كانت لها أجمل ابتسامة في العالم ...

• آه نعم !

– إذن فذلك شيء أود أن تحدديه بالدقة : كيف يبدو لك هذا ؟ هل تجدين حقاً أنه هناك ، في المرأة ...

• لا أدري ، ذلك عندي تلقائي . أريد أن أقول إن تصوّراً للمرأة يشمل كل شيء دائماً ، أكثر من الرجل بكثير ، يشمل مشيتها ، رشاقتها ، تكوينها الجسمانيّ ، ابتسامتها ، وجهها .. إلى آخره . وذلك شيء كلاسيكيّ على أي حال ، عند الرجال وعند النساء على السواء .

وأعتقد أن النساء – حتى فيما بين بعضهن البعض – يعطين أهمية أكبر بكثير للمظهر الجسماني للنساء الأخريات، مما يعطين لمظهر الرجال.

– نعم، ولكنهن لا يعترفن بذلك دائماً...

• أعرف أن ذلك قد أخذ علي أحياناً. هناك مثلاً، أمريكية كانت قبيحة جداً (أتكلم عنها في يومياتي تحت اسم جوان) أخذت تهاجمني بعنف في هذا الموضوع: في كتبك وفي كتب سارتر على السواء، للفتيات، على الأقل، رشاقة، هن جميلات، وسيمات، فيهن شيء تطيب له النفس، وأبداً لم تهتمي بفتاة قبيحة، ذلك جائر. لأن ذلك أيضاً معطى في البداية، ثم مقيد به إلى حد مخيف فيما بعد... نعم، ذلك يعتد به، بالتأكيد، ولكن يجب أن نقول إن ذلك نادر، صحيح، اليوم، أن تكون امرأة ما قبيحة حقاً. أو أن يكون الأمر في هذه الحالة أمر خاصية مميزة، ودقيقة محددة إلى حد أنه يجب ذكرها: لم أستطع أن أتكلم عن فيوليت لوديك دون أن أذكر أنها قبيحة، ولم يجرح ذلك شعورها على أي حال. وهناك من جانب آخر نساء لا تثور المسألة عندي في محضرهن، يبدو لي تكوينهن الجسماني محايداً وأنظر اليهن كما أنظر إلى رجل. ولكن في أغلب الحالات، وخاصة بالنسبة للنساء في شبابهن، فذلك مهم. نعم، في العلاقات التي يقيمها المرء معهن، أن يكون حضورهن مما تقبله وتستريح اليه النفس. وعندما يكون القبح معلناً عنه صراحة، عند امرأة ما، فانني أجد ذلك شيئاً تعافه النفس.

– بصفة عامة، عندما تكتبين كتاباً، هل تكون الخطة كلها في رأسك منذ البداية؟

• آه لا.. لا صحيح!

– أنتِ تكتشفين ، بقدر ما ستقولين ؟

• نعم ، بالتأكيد . 'خذ' مثلاً عندما بدأت «الجنس الثاني» (وهو مع ذلك مقالة . أريد أن أقول إنه لو كان مبنياً ومشيداً سلفاً لكان ذلك يصدمني أقل) ، فقد بدأت بالأساطير ، وكانت هذه هي النقطة الوحيدة التي كنت أنوي أن أعالجها . ثم بعد ذلك ، ظهر لي أنه يجب أن أتناول التاريخ أيضاً . ثم بعد ذلك ، كان يجب علي أن أهتمّ بالفيزيولوجيا ، إلى آخره .. أما الروايات ، هي أيضاً ، فان التصوّر الأولي لها يستأنف دائماً من جديد ، وفي أغلب الاحيان أكتب نسخة أخرى ، وتظهر شخصيات لم تكن متوقعة ، والنهاية أحياناً تتغير تماماً . وما دمت كنت تتكلم عن النساء فانظر مثلاً شخصية «نادين» في «المثقفون» : حاولت أن أجعل منها امرأة قبيحة لارشاقة فيها ، ولكن ينتهي المرء بأن ينسى أنها قبيحة ، لأنني لم أستطع أن أمنع نفسي من أن أعطيها شيئاً من السحر ، شيئاً يجعلها لطيفة – مما عدّل في الوقت نفسه شخصيتها ، ومصيرها ، إلى آخره . وحتى في السيرة الذاتية : في نقطة البداية من كل جزء كنت أجهل كيف سوف أعالج المسألة ، وأية نغمة سوف أتخذها ، وأية مسافة سوف أقف منها على مبعدة من نفسي . ذلك كله يجده المرء في الطريق ، وهو ليس معطىً سلفاً ، أبداً .

– عندي انطباعٌ حقاً أنك تتقدمين بالفعل بطريقة اجواء كلّيّات جزئية .

• نعم ، بالضبط .

– أمن الغباء أن يسألكِ المرء ما كتابكِ المفضّل من بين الكتب التي كتبتِ ؟

• لا ، ليس ذلك من الغباء في شيء . ولكن من الصعب مع ذلك

أن أقارن ... الكتاب الوحيد الذي أدافع عنه ، على كل حال - أدافع عنه ضد كل العواصف وضد كل هجوم - هو « الجنس الثاني » : لأنه ليس فقط من قبيل الأدب ، لأن فيه مضموناً ومحتوىً دقيقاً كل الدقة وأحرص عليه . ومن بين الكتب التي أحبها على نحو خاص ، بعد ذلك ، هناك بلا شك المجلدات من السيرة الذاتية ، وقد قال لي بعض الناس ، من جانب آخر ، أنهم يجدون كتاب « موتٌ عذب غاية العذوبة » هو أكثرها نجاحاً ، ربما ... لا أدري . على الاجمال ، كتابي المفضل إذن هو السيرة الذاتية ، برغم ذلك ، دون أن أعرف تماماً أي جزء من الاجزاء الثلاثة أفضّل . الجزء الأول بالتأكيد أكثرها نجاحاً من ناحية البناء : فالشباب يبدو دائماً أنه يمضي إلى هدف ، والجزء الثالث أكثر تفككاً بكثير ، وتفسد فيه الكتابة في بعض المواضع ، ولكني قلت فيه أشياء أكثر بكثير : أما الجزء الأوسط ، فأنا أحبّه ، لأنه يتصل بفترة من حياتي معمورة عندي قليلاً ولكني اهتممت اهتماماً حاداً بأن أبتعها من الموت . والحق أنني لا أستطيع الاختيار من بين الثلاثة ، ثم أنها تتفق جميعاً ، وتكوّن كلاً واحداً ، أليس كذلك ؟

- ذلك رأيي بالفعل ! ومن بين رواياتك ؟

● آه « المثقفون » اذن ، رغم كل شيء ! أعرف أن هناك قراء يفضلون « المدعوّة » ولكني أنا أحب « المثقفون » أكثر ، بكل ما أراه فيها من عيوب ... أجد أن فيه أشياءً أكثر بكثير .

- المسرح الآن . لماذا لم ...

● لأنني أعتقد أنني لم أجعل لذلك .

- أنت فكرت حقاً في ...

● لست أحس أن المسرح هو أسلوبي في التعبير . عندما أرى

المسرحيات التي أحبّ (سواءً كانت مسرحيات سارتر أو مسرحيات معينة من بيكيت . أو بعد ذلك — ولكن ذلك شيء آخر بالمرة — مسرحيات بريخت) يبدو لي أن المسرح بعيد جداً جداً عن وسائلي الخاصة بي : ذلك أنني في الأساس دائماً ميّالة إلى التعبير المباشر عن الحقيقة . وإذا كان صحيحاً أنه يجب الكذب أيضاً في الرواية ، فليس ذلك بنفس الدرجة ، مع ذلك النوع من الغنائية والميثولوجيا التي يقتضيها المسرح . فهنا يجب أن يكون هناك شكل من النقل إلى موضع آخر ، شيء من الفنّ (من الاندفاع ربما) لا يستجيب مع مزاجي . أحب المسرح كثيراً ، عندما يكون ناجحاً ، ولكنه لا يدعوني حقاً اليه . حاولت مرة ، ولم تمض الأمور على وجهها ، ولكن كان ذلك بعد كل شيء فشلاً مشرفاً . كان من الممكن جداً جداً أن أقول : « لا بأس ، لقد فاتتني مسرحيتي الأولى ، سوف أكتب غيرها » . الواقع انه لم تثبط همتي : هذا القالب للتعبير ، ببساطة ، لم يكن يدعوني اليه .

— سؤال غبيّ آخر : هل هناك من كتبك كتاب لا تحبينه ؟

• لا أحب كثيراً « اخلاقية الاستبهام » ولا « فيرهوس وسيفيا » بالتأكيد . ولكن هذا الكتاب الأخير ، على الأقل ، كان كتاباً صغيراً . أما الآخر (وقلت ذلك في مذكراتي (١)) فهو أقلها عندي . ثم بعد

---

١ — في « قوة الاشياء » : « من كل كتبي ، هو الذي يثير غيظي اليوم أكثر ما يثير . جانب المناقشة والحملة فيه يبدو لي صحيحاً له قيمته ، ذلك لا يمنع ، ففي الجموع تجشمت عناء كبيراً لأن أضع ، وضعاً مقلوباً ، مسألة أعطيت لها اجابة جوفاء خاوية خواء البديهيات الكانتية ... كان من الشطط أن أحاول تعريف أخلاقية ما خارج السياق الاجتماعي . كان من الممكن أن أكتب رواية تاريخية دون أن تكون لي فلسفة للتاريخ ، ولكن لم يكن ممكناً أن أضع نظرية للفعل ، دون فلسفة للتاريخ (ص ٧٩ — ٨٠) .

أما عن « فيرهوس وسيفيا » فهذا هو النقد الذي تكتبه له في « قوة الاشياء » : « لست أعيب حرصي على أن أعطي للأخلاقية الوجودية محتوى مادياً ، ولكن المعيب أنني في الوقت الذي كنت أظن فيه أنني تفاديت الفردية ، ظللت موحلة فيها ... وكانت ذاتيتي=

ذلك ، ربما ، «المسيرة الطويلة» وهو عملٌ جادّ ولكن لعلّه قد فات أوانه (كنت أتوقع ذلك حقاً ...) وهو في نفس الوقت ، في جوهره، عملية تصنيف وتجميع – كتب في ظروف مختلفة بالمرة ، وأقلّ حياةً بكثير ، من «امريكا يوماً بعد يوم» . لو كان عليّ أن أقذف بشيء من حافة السفينة ، كما يقال ، لقذفت بهذين الكتابين في المحل الأول ، كما هو واضح : «نحو أخلاقية للاستبهام» و«المسيرة الطويلة» .

– هل تستطيعين أن تشيري ، من بين الذين هاجموك ، أولئك الذين كافحوا فكرك ، إلى ذلك الذي يمكن منهم أن يكون ، إذا جرؤت على القول ، خصمك في الانتخابات ؟

• لا ، صحيح لا !... يبدو لي بصفة عامة انهم يهاجمونني بطريقة مقلوبة ، بطريقة جانبية ، بطريقة أميل إلى الغباء .

– ذلك بالفعل هو ما أشعر به . وأجد ذلك غريباً جداً ، انه ليس هناك ، على الجملة ، خصوم حقيقيون لسيمون دو بوفوار ...

• يعني ، هناك كثيرون يظنون أنفسهم ذلك . ولكن ذلك لا يوجد، بالنسبة لي . لأنني في نهاية الأمر ، في الميدان الايديولوجي ، واثقة تماماً مما أفكر فيه ، ومن أنني على حق (بالاجمال ، على الأقل) : فالمناقشات التي تشوقني إذن هي المناقشات مع أناس قريبين إليّ ليسوا خصوماً حقاً ، ولكنهم يُخطّئونني في هذه النقطة أو تلك . إلا أن هناك ، مثلاً ، من المناهضات للمذهب النسائي ، مثل «ميني جرجوار» أو «جينفيف جيناري» من يبدأن بالقول إنّ القضايا التي أدافع عنها قد راحت موضتها ، وفات أوانها .. إلى آخره . أجد ذلك غبياً وهو يضحكني على الأكثر ...

= تقترن ، بالضرورة ، بمثالية تنزع كل أثر ، أو تكاد ، عن تأملاتي النظرية . لا تهمني هذه المقالة الأولى ، اليوم ، إلا لأنها تحدد لحظة من لحظات تطوري » . (ص ٥٦٣ – ٥٦٤) .

– نعم ، ذلك شيء لا يتعلق بك في شيء ...

• بالضبط . ومن ناحية أخرى فإن خصوم سارتر يضايقونني على الأقل بقدر ما يضايقني خصومي !

– شيء قد استرعى نظري أيضاً ، عند قراءة واعادة قراءة سيرتك الذاتية : هو مشاهدة قافلة حقيقية من ألوان الصدق المتعاقبة ، فيها . فبالنسبة لكل لحظة ، مرة بعد المرة ، يبدو أنك تعتبرين الوعي الذي تقدمينه بناء عليها ، نهائياً .

• نعم . أعتقد أنني أردت أن أصور أنها في كل مرة كانت معاشة، باعتبارها ذلك . ولكن هناك أيضاً ذلك الاتجاه الذي كان عندي طويلاً (وما زال عندي ، بلا شك ، قليلاً ، حتى الآن ، على الرغم من أنني اتخذ منه حذري بما فيه الكفاية) أن أعتبر كل حالاتي الروحية تقريباً ، نهائية . نعود مثلاً إلى هذه الخاتمة لـ «قوة الاشياء» : من المؤكد أنني كنت أنقل فيها نوعاً من الاستبشاع للعالم كنت مقتنعة أنه لن يتخلى عني أبداً بعد . أما في الواقع ، ولما كانت هناك في المرء مرونة ، وطيش ، لما كان العالم يتغير ، وكذلك علاقات المرء مع الآخرين ، فقد حدث أنني في الوقت الراهن ، كما قلت لك ، في حالة عقلية أخرى وأحس نفسي أكثر توافقاً مع نفسي ... دون أن أنكر مع ذلك ما كتبت : ولكن من الواضح أنني كتبته كما لو كان لن يتغير أبداً . وصحيح أنني عملت على هذا النحو طوال حياتي كلها تقريباً : في السادسة والعشرين كنت أفكر أنني عجوز ، نهائياً ، وفي الثامنة والعشرين (وهذه فقرة أوردتها في كتابك) كنت أقول لسارتر ان حياتنا قد انتهت بالفعل وأنه لن تحدث لنا بعد شيء أبداً ... كل مرة ، نعم ، كل مرة ، كان هناك هذا المظهر «النهائي» . ولكن ذلك لم يعد ، اليوم ، نفس الشيء ، بالتأكيد .

— ألم تكن تلك طريقة لتسجيل اللحظة الحاضرة في المطلق ؟

• نعم ، بلا شك . تلك طريقة لإنكار الزمن ، لعدم توقعه ، لعدم الاحساس بالخبرة به . ونحن بصدد خبرة تعوز الكثير من الناس ، فما أعتقد ، من ناحية أخرى . وليست لي هذه الخبرة ، بالاجمال . فأنا أعتبر الأشياء كأنها أبدية ، كأنها دائماً ما هي عليه : فكرة أن المرء يمكن أن يتغير — سواء كان في عاداته ، أو صداقاته ، أو حتى يتغير شغفه — ذلك يبدو لي ، دائماً ، باعثاً على أشد الدهشة . ولكني لا أدري ما إذا كان ذلك ميلاً للمطلق ، إلى هذا الحد . بل أرى ذلك ، على الأكثر ، باعتباره وهماً لا بالأبدية ، حتى ، بل بالدوام ، بالاستمرارية . إذا لم أكن أتوافق تماماً مع التغيير ، فلعل ذلك لأنه يخيفني ، لأنني أحب أن أبني نفسي بنفسي ، أن أسقط نفسي كمشروع ، صدوراً عن شيء ما ثابت مستقر ...

— أعتقد أنه يمكن أن يقال عنك ما قاله سارتر عن نفسه : أنه قد تغير ، مثل كل الناس في داخل دوام معين ؟

• نعم .

— ولكنك تغيرت رغم كل شيء . هل تعتقدين أن ذلك صحيح أيضاً ، ولو قليلاً ، فيما يخص علاقتك بالزمن ؟ أريد أن أقول : هل تقبلين ، أكثر قليلاً ، مرور الزمن ، ونسيته ؟

• نعم : أعرف ، على كل حال ، أن الزمن يمر . أعرف ذلك معرفة عميقة . هذا شيء يبقى ، من تلك الخاتمة ، وسوف يبقى فيما أعتقد حتى موتي : تحطم هذه الأنواع من المطلقات التي لم تكن عندي لحظات فقط ، بل فترات وعهود حياتي . أما الآن ، نعم ، فأعرف حقاً أن الزمن يمر ، أن لي حياة محدودة ، وبمعنى ما ، كنت أعرفه من قبل ، ولكن الموت كان مع ذلك شيئاً بعيداً جداً . وفي نفس الوقت

هناك أشياء ما أزال مقتنعة أنها لن تتغير : هنا أيضاً ، أعرف ذلك : مثلاً ، علاقاتي مع سارتر : واضح كل الوضوح أنها لن تتغير بعد ، مهما حدث . ولكن الباقي كله يبدو لي منذ الآن كأنه يمكن أن يراجع ، ويُعدَّل إلى حد قد يقل وقد يزيد .

– هل تظنين أن ذلك سوف يُحس به في كتابك القادم ، ما دمت تتصورين بالضبط أنك سوف تتحدثين فيه عن نفسك ؟

• هنا .. لا أعرف شيئاً . لأنني في الحقيقة أجهل كل شيء عن هذا الكتاب .. بل يبدو لي أنني تكلمت معك ، وقرأت ما كتبته عني ، فذلك سوف يعطيني شيئاً من الانطلاق لبدء العمل فيه . وعلى أي حال ، فان موضوعات هذا الكتاب هي التي أحب أن أتكلم عنها : العلاقة بالزمن ، الدوام ، التغيّر ... الخ .

– هناك جانبٌ في تنشئتك تعودين اليه كثيراً : التطهّرية . وأنتِ تشدّدين ، في وقت معاً ، على أصوله ، وعلى نوع من الاستدامة له طوال حياتك . ولكن المرء مرغم أن يلاحظ ، من جانب آخر ، أنك لا تهربين من أي موضوع ، ان أوصافك ، غالباً ، خشنة عارية خام جداً ، وأنه لا حياتك ولا آثارك تبدو من الممكن ضربها كمثال على رفض الجنسية أو مشاكل من هذا الطراز ...

• لا بالتأكيد !

– إذن فهل تعتقدين أننا هنا بازاء وضعين ، موقفين يتواجدان منذ الأول ، دائماً ، أو أنك في هذا الصدد كنت تشيرين إلى تطور معين ؟

• لا ، أعتقد أن هناك وحدة معينة . هناك هذا التحفظ الذي كان يجعلني مثلاً أخاطب زازا بصيغة الجمع ، تأدباً ، وكانت تعتب عليّ ذلك ، على كل حال – نفس التحفظ الذي جعلنا أنا وسارتر ، دائماً نخاطب أحدنا الآخر بهذا الشكل – وهو ما يدهش الناس كثيراً . هذا

التحفظ ما يزال هناك ، دائماً ، وما يزال يؤثر إلى حد ما على مظاهر عواطفي ، وصداقاتي ، دون أن يذهب مع ذلك إلى أن يُشلّجني أو يشلّني . ولكن يعني ... قلت ذلك ، كما تعرف : كان ذلك شيئاً أدهشني كثيراً من «لانزمان» عندما تعرفت به ، ذلك النوع من الحرية في التعبير عن عواطفه – دون أية استعراضيّة ، بل على العكس بطريقة كنت أحبها كثيراً ، في عفوية طبيعية لم ألتق بها لا عند سارتر ولا عند بوست ، ولا عندي (فنحن الثلاثة ، بالرغم من كل شيء ، ما أطلق عليهم «تطهريين») .

– إذن فلا يمكن حتى أن نتكلم عن تطوّر ، عن جهدٍ قد تكونين بذلتِه لكي تتخلصي من هذه التطهرية . مجرد أنك واءمتِ بينها وبين نفسك ..

• أوه ! أنت تعرف ، أن كل قسمات الطبائع تنتهي بأن تهن وتلين ، ثم إن المرء من ناحية أخرى ، لم يعد في وضع يسمح له باظهارها . لا ، لن يعني ذلك شيئاً كثيراً عندي أن أقول عن نفسي إنني تطهرية : بل أفضل أن أقول إنني كنتُ تطهرية . ان نزعة تطهرية معينة قد وسمت حياتي في مجموعها ، رغم كل شيء .

– حاولت أن أقدّم مجموع حركة وجودك ، وفي نفس الوقت حركة فكرك ، تحت النوع الذي يعرف باسم «مشروع الحياة» .

• نعم ، وهو عنوان حسنٌ جداً من ناحية أخرى .

– ما الذي تقيمينه اليوم من علاقة بين مشروع الكتابة ومشروع الحياة ؟ وأين أنتِ الآن من ذلك ، في هذا الصدد ؟

• أين أنا الآن منه ؟ لم تعد الحياة تبدو لي بالمرّة كأنها مشروع ، بل ، بالأكثر ، على اعتبارها إطالةٌ لما بدأ أن يكون : كأنها حركة تطّرد في سُبُلها ، ووفقاً لقواعد مجراها ، بعضها مختار ، ومرادٌ على

نحوٍ متصل ، بينما البعض الآخر لا يُعزى إلاّ إلى الصدفة . لا بأس ، إنني هنا ، أعيش في هذه الشقة ، هناك صداقات قد أنعقدت أواصرها ، فاذا عنّت صداقة جديدة من حين إلى حين ، تنضاف اليها ، فان الأمر في مجموعه ، رغم كل شيء ، لا يتعلق بمشروع ، إلى ذلك الحد ... لم يعد لي مستقبل أبنيه ، لم أعد أنوي أن أملك العالم . سأذهب ، ربما ، لليابان في العام القادم مع سارتر ، وسيكون ذلك شائقاً ، لكنه لن يكون هذه الجدّة التي كنت أحس من قبل بنشوتها . وبالتأكيد لن أتحمّل أبداً حياتي ، لأن المرء ليس سلبياً حقاً ، أبداً ، لأن ذلك ليس من شيمتي ، ولكن الخمسة عشر أو العشرين عاماً التي بقي لي أن أجرّها ، فانني أود الآن ، على الأكثر ، أن أجرها دون كثير شقاء ، ذلك في جملة موقف دفاعيّ . حاولت أن أقول ، في هذا الصدد إنه لا يمكن أن تحدث لي بعد شيء هام جداً ، إلا إذا كان شيئاًيأتي بالشقاء : ولكنني هنا أيضاً لم يُفهم عني حقّ الفهم ... ومع ذلك فان الأمر بسيط : إن شيئاً هاماً جداً ، سوف يكون ... أن ينكسر عمودي الفقري ، أو أن يصبح سارتر عجوزاً أصابه التلف ، أو أن يموت ، أو أن تسقط على فرنسا قنبلة ذرية ... أما عن الأشياء السعيدة ، فمن الممكن أن تحدث لي منها الكثير مما قد يكون لطيفاً مستحباً ، بل مستحباً جداً ، لكنه لن يكون هاماً جداً ، أبداً . وعلى أي حال ، فليست عندي بعد أية فكرة عن أنني سوف أصنع من حياتي شيئاً آخر عما كانته من قبل . نعم ، يمكن أن يحدث لي أن آخذ بزمام مبادرات : ولكن ذلك سوف يكون من صنع الظروف .

ومن ثم فلا أشعر بالمرة ، بعد ، أنّ حياتي مشروع . وفي مقابل ذلك ، فان مشروع الكتابة ، هذا نعم ، هذا حقيقيّ مايزال . اختراع في كل مرّة ، خلق شيء جديد ... لم أعد أعرف بعد حق المعرفة لماذا أحس بتلك الرغبة ما أزال ، ولكني أعرف أنني أحسها ما أزال ، مما

يؤدي إلى أن الحياة بمكن، رغم كل شيء، بمعنى ما، أن تظل بالنسبة لي مشروعاً : في الحدود التي يتضمن فيها مشروع الكتابة .

– نعم . ولكن أن يحيا المرء هو أيضاً – وأنت تؤكدين ذلك بنفسك ، في قوةٍ تكفي – هو أيضاً أن يشيخ ، وأن يكون عليه أن يموت : فهل مشروع الحياة يتضمن أيضاً أنّ على المرء أن يتخذ ذلك على عاتقه ؟ وعلى نحوٍ أدق ، مثلاً ، هل يظل الموت على نفس الأهمية ؟ هل تحسين ، مازلتِ ، بازائه ، نفس الـ ...

• نعم ، نفس الهول والاستبشاع ! وبالضبط ، نفس فكرة « اتخاذ المرء ذلك على عاتقه » هنا ، أجدها فكرة تبعث على الضيق : لأن ذلك معناه الاستسلام . هناك بلا شك ، طرق للمرء لاتخاذ الامور على عاتقه ، لا صلة لها بالاستسلام ، ولكن عندما يتعلق الأمر بالشيخوخة ... ليس ذلك شأنه شان حربٍ مثلاً ، في وسع المرء أن يحياها على أسلم نحوٍ ممكن : هي مجرد حالة ، يتحملها المرء وهو فيها . هو تجسّد ، تغيّر ، في الجملة ، يمر به المرء . ومن ثم فان فكرة أنه يجب أن يحياها المرء « على نحوٍ حسن » تضايقني ، لأنها تلحق بكل النصائح التي تُزجى بشأن وداعة الشيوخ وهدوئهم ، الخ . ولكن يهمني ، بالضبط ، أنك سألتني هذا السؤال ، لأن ذلك يتيح لي أن أفهم نوع الغيظ والحنق الذي كنت أحس به : نعم ، أعتقد أن المرء لا يمكن أن يتمثل ، في مشروع واقعة تَحَمّل ما يفرض عليك ، بكل بساطة . قد تقول لي إن الحرب قد تفرض عليّ أيضاً ، لكن ذلك ليس نفس الشيء : يمكن للمرء أن يضع نفسه في مواقع مختلفة ، بطرق كثيرة ، في سياق الحرب ، وهي تقتضي دون انقطاع ابتداعات ، واختيارات . أما الشيخوخة ، فعلى العكس ، لا يمكن للمرء أن يتخذها على عاتقه ، لأنها وضعٌ في جوهرها لا يمكن تجاوزه . في داخل الشيخوخة نفسها ، كما هو المفهوم ، هناك

أوضاع جزئية تتطلّب التجاوز : لست أعرفها ، لا يمكنني أن أتوقعها ، ولكني طالما لم أكن ضحيةً لوهن الشيخوخة وعطبها ، فسوف أكون دائماً هناك ، هذا واضح ، دائماً على يقظة وتحفز ، لكي أحيا هذه الأوضاع . أما ما أجده خاطئاً كل الخطأ فهو أن يقول المرء لنفسه : آه ! سوف تكون لي شيخوخة هادئة وادعة ، سوف أضرب قدوة تحتذى في الموت براحة حقاً وبلا توتر ، مما يثبت أن المرء يستطيع أن يستغني عن الاخلاقية المسيحية ، وهكذا ! ذلك أنني لا أعتبر بالمرة ، أن الوجودية ، أو العلمانية ، تُرغم على النظر إلى الموت بوداعة . ومن ناحية أخرى فان كثيرين من المؤمنين أنفسهم ... وبعد كل شيء ، يمكن للمرء حقاً أن يعتبر الشيخوخة والموت فضيحةً دون أن يُفهم من ذلك ضمناً أن الله موجود وأنه يجب أن يكون المرء مؤمناً . هذا هو الأمر ، يجب أن يشيخ المرء وأن يموت ، ولكن ذلك لا يصنع مشروعاً .

ـ حدثتني عدة مرات عن كتاب تتصورين كتابته الآن ، تضعين فيه شيئاً أشبه بحساب ختامي لنفسك ، صقل نهائي ، على الجملة ، لسيرتك الذاتية ؟

ـ ما زال هذا ، كما تعرف ، شيئاً غامضاً كل الغموض : ربما كان ذلك ، بالأكثر ، نعم ، لتسكين حدة ما في السيرة الذاتية مما يضيق به المرء ويزعجه ، حيثُ تتراكبُ الزمن عول دون أن يدرك المرء عمق اللحظة أياً كانت ، إذ المرء دائماً يعدو جرياً من لحظة إلى أخرى ... لذلك كنت لأريد أن أحاول اتخاذ نظرة مختلفة كل الاختلاف ، نظرة العلاقة بالحياة ، بالفعل ، إذ أتأمل فيما هي السيرة الذاتية ، فما هو المُعاش ، فما هي الكتابة ... أي على الجملة ، أن أستأنف قليلاً علاج هذه المشاكل جميعاً التي لم أعالجها حقاً ، والتي تدعوني اليها ، بمجرد أن أعيد التفكير في كتبي . وأكثر ما يضايقني بالطبع في هذه القضية

هي فكرة أنني سأكتب عن نفسي مرة أخرى : لقد أخذ عليّ كثيراً منذ الآن ، أنني شُغلت بنفسي أكثر مما ينبغي ... ولكني أعتقد أن الأمر هنا ، مع ذلك ، يتعلق بنقد خارجيّ قليلاً : ذلك أنني ، في الأساس ، إذا كنت أرغب في ذلك فلا شك أنه ما زال لديّ ما أقول في هذا الصدد . ثم أنه على أي حال ليس هناك معيار آخر لاتخاذ قرار بكتابة كتاب .

— يبدو لي ، من ناحية أخرى ، أن هناك مأخذاً آخر سأُسدد اليك (وقد قلت ذلك ، فيا أظن ؟) : فيا يتعلق بالسير الذاتية من الطراز الكلاسيكيّ .

• نعم . وأعتقد أن النقاد كانوا يستهدفون أساساً سيرتي الذاتية ... على أي حال ، كان مأخذهم أن الكاتب يظل دائماً في «السابق» في «المقدمة» ويجعل القارئ ينتظر ، في غير طائل ، لحظة الانتقال إلى الجوهريّ . وأعترف أنني عندما أعدت قراءة سيرتي الذاتية ... بل عندما كنت أكتبها من قبل ... أحسست إلى حدّ ما ، بالفعل ، أنني ما زلت أعدّ لشيء آخر . وأنا الآن أحس ، قليلاً ، الحاجة إلى عمل هذا الشيء الآخر الذي سوف يكون نوعاً من الحلّ ، أو شيئاً أشبه بالقرار ، في مجموع العمل كله .

— أحس ان هذه الحاجة موجودة أيضاً لدى قرائك .

• بالفعل ! أتلقى كثيراً من الخطابات تطلب شرحاً ، أو تطلب بـ «البقية» . وذلك كله معاً هو الذي يجعلني أحس الرغبة في الكتابة عن نفسي مرةً أخرى ... مما لا يعني مع ذلك أنني سوف أواصل حتى أبلغ الثمانين من العمر !

— وفي خارج هذا الكتاب ، أهناك مشروع آخر يدعوك اليه في هذه اللحظة ؟

• موضوعات غامضة لروايات ... ولكنها حقاً أكثر غموضاً بكثير من أن تمكنني من الكلام عنها . بدأت ، قليلاً ، إذ أن هناك حقاً في ذلك رغبة عميقة جداً أن أتكلم عن شيء آخر . كنت أظن أنني في نهاية هذه الأجزاء الثلاثة ، سوف أتخلص تماماً من نفسي : وتحدث أنني لم أتخلص منها بعد . ولكني آمل حقاً اني سأكتب رواية أخرى ، وعندئذ ، هذه المرة ، سوف يكون في وسعي أن أتكلم عن شيء آخر .

— لأنك منذ مدة طويلة ، مع ذلك ، لم تكتبي رواية ...

• منذ عشر سنوات ! ولا أدري ما إذا كنت سوف أستطيع أن أعيد نفسي إلى العالم الروائي ، ولكني أشتهي ذلك حقاً . والفكرة إذن ألا أسقط نفسي بعد ، على شخصياتي : مما يثير كثيراً من المشاكل الأخرى . وصحيح على كل حال أنه يجب إعادة تفكير مشاكل الرواية. لست بالمرة من أنصار «الرواية الجديدة» ولكني موافقة على طائفة كبيرة من النقد الذي وجه إليّ من هذه الناحية (وكنت أوجهه إلى نفسي ، من قبل ، إلى حد ما ، عند كتابة «المثقفون») . وإذا كنت سأكتب رواية أخرى ، فمن المؤكد أنها لن تكون من نفس الطراز ، وأنها سوف تثير أمامي مشاكل تكنيكية جديدة (طريقة السرد ، المسافة بيني وبين الشخصيات الخ ...) ، وبالاضافة إلى ذلك فسوف تكون بصدد أناس لن يكونوا بالمرة موضوعين في نفس الأوضاع التي أنا عليها .

— إذا حكمنا تبعاً لكثير من جوانب عملك ، فان المرء يميل إلى أن يكشف فيه عن إغراء بالاخلاقية : لأنه يحدث لك غالباً أن تكتفي بأن تكوني «واضحة الرؤية» — دون أن تظهري بالمرة مشغولة بتعديل نظام العالم ، ولو في أقل القليل ، ولا تعديل موقفك نفسه .

• نعم . تلك بلا شك من النقط التي تغيرت فيها أكبر التغير ،

«من خلال دوام معين» . لقد سألتني أمس عما إذا كنت قد تفتحت على الناس أكثر قليلاً : وأعتقد أن التفتح بالضبط هو أن يصبح المرء، أقل فأقل ، داعية أخلاقياً ، وأن يصبح أكثر فهماً وتسامحاً ، فأكثر الاخلاقيين ، الناس الذين يتفقون وقتهم في الحكم ، واللوم ، والادانة ، أو على العكس ، في الموافقة والتصديق والاطراء ، في فرز الاخيار والأشرار ، أعترف أنني أضيق بهم أكبر الضيق . قد يشوقني أويسليني من الناحية السيكلوجية ، أن أراقب عند شخص ما هذه «السمة في الخُلُق» أو تلك ، أن أقول لنفسي : انه مثل هذا أو مثل ذاك ، ولكن ذلك بصفة عامة لا يؤدي لا إلى تحبيذ كلي ولا إلى ادانة مطلقة . أما عن «وضوح الرؤية» في هذه الحالة ، فأنت تعرف هنا ، اني است غرة يسهل خلها ، أيضاً : فهناك الكثير جداً من وضوح الرؤية الزائف ... بالطبع أحب أن يريد المرء نفسه على أكبر قدر من الوعي بوضعه . ولكن المرء ، في البداية ، لا يكون أبداً واضح الرؤية ، ذلك وَهْم . ثم انني أرى بعض الناس ، دون أن يزعموا لأنفسهم وضوح الرؤية ، يستطيعون أن يصارعوا حقاً ضد صعوبات الوجود - ثم أخيراً ، هذا على الأصح هو ما يهمني : نوع من الشجاعة على الحياة ، عقلية وعملية معاً .

— أردت أن أشير إلى هذه النقطة ، لأنه يبدو لي أنك في الحقيقة ، من خلال طيب النية في روائك الواضحة المتتابعة ، لا تنقطعين عن أن تجري على نفسك عملية واقعية من شأنها إلى حد يقل أو يزيد إحداث تغيير وتحويل فيك ، ويدهشني أنني لم أرك تؤكدينها قط .

● ذلك بلا شك أنها لا تجري في وعيي بها ، ولكن إذا استطعت أن أن تضرب لي مثلاً ...

— نعم . عندما تقولين إن سارتر يتهمك بأنك قصامية ، عندما

تزوديننا أنتِ نفسكِ عدة مرات بأمثلة على هذا الفُصام ، لا نراكِ أبداً تعلنين عن حرصكِ على الشفاء منه ، على شنّ الحرب عليه . ومع ذلك فأنتِ في كل مرة تأتين بأدق وصف ممكن لموقفك .

• ولكني لا أحاول الشفاء منه لأنني لا أحاول أن أكون غير أنـا الذي عليه ! وفي النهاية ، انني أتمسّك بهذا الفصام ... انه حقاً أنا نفسي ، وأنا أجده في نفسي طول الوقت . عندما بدأت ، منذ خمس أو ست سنوات ، أستمع إلى الموسيقى ، كان سارتر يقول لي : «أنت تفعلين ذلك ، في هذه اللحظة ، كما لو أنك تقومين بالمشي على القدمين ساعات طويلة ! » ذلك أن جهلي في هـذا الميدان كان عظيماً : وعلى ذلك فقد اشتريت كل ما استطعت أن أجد ، وأنفقت من الوقت ما كان يقتضيه الأمر ، ولكنّي استمعت إلى كل شيء . كان ذلك نوعـاً من العمل ، كما لو أنني أخذت أدرس اللغة الروسيّة ، أو أي شيء آخر من هذا القبيل . وكنت أعرف حق المعرفة ، بالفعل ، أنه كان في موقفي هنا ، شيء جنونيّ إلى حدّ ما ، ولكني لم أكن أرى كيف كان من الممكن لي أن أتخذ سبيلاً آخر ، وبمعنى ما كان ذلك عندي شيئاً مستحباً لطيفاً ، على الأكثر . والواقع أنني مستعدة للبدء من جديد ، لو أن جنوناً آخر استحوذ عليّ يوماً ما : نعم ، هذا مؤكد ، من الممكن أن يولد ذلك من جديد ، دائماً .

ـ ولكن أليس ذلك في الحدود التي يظهر فيها أن هذا الموقف ايجابيّ إلى حد كاف ، على نحو متصل ، في نهاية الأمر ، ودون أن يكون عليكِ أن تشغلي نفسك به ؟

• نعم بالتأكيد .

ـ لأنه يلوح لي ، في الحقيقة ، أنك لا تنقطعين عن التطور ، في

نفس الوقت الذي يبدو عليك فيه أنك تجدين نفسكِ كل مرّة في نفس النقطة .

• تريد أن تقول مثلاً بالنسبة إلى هذا الفُصام ؟

– يلوح لي ...

• نعم ، هذا صحيح ، على أي حال . لأنني في نفس الوقت أحس أكثر بكثير عرضيّة ما انشغل به : عندما أكون في روما (وليس ذلك فقط لأنني أضع ميول سارتر موضع الاعتبار ، فانه يحدث لي أيضاً عندما أكون وحدي) ، لا أحاول بعد ، أن أرى كل شيء ، أن أسترجع حِفْظ روما عن ظهر قلب ، بل أترك نفسي أحياناً أكثر بكثير عن ذي قبل . وذلك يلحق بما كنت أقوله لك منذ قليل : لا أحس الآن ، إلا بأقل عن ذي قبل بكثير ، احساس بمشروع يجب أن أنجزه: أحب أن تكون اللحظات مما تطيب له النفس ، أن تجري الأمور مجرىً طيباً ، ولكن ذلك ، منذ الآن ، دون أي خَبَال مستعرّ . وما زلت أحب ، بعد ، في الرحلات ، أن أذرع كل شيء وأقلّب كل شيء ، وأن أرى كل شيء ، كما أقول : كما حدث في العام الماضي مثلاً ، في سردينيا ، ولكن لم يكن لذلك بالمرة خاصية الضرورة الصارمة ، لم أكن لأقع مريضة لأنني أغفلت أن أرى هذه الناحية أو تلك . نعم ، هذا مؤكد : ان فصامي ، باعتباره جنوناً ، قد سكنت حدّته كثيراً . لكنه ليس ميتاً ...

– ولا حرصك على العمل ، فيما يلوح لي ... انني من ناحيتي ، تزداد حساسيّتي بالمفارقة عندكِ بين الجانب «الكادح» والجانب «الموهوب» .

• هذا ... هذه الموهبة ... لعلها شيء يميل المرء إلى إنكاره عليّ ! لست أدري ، على كل حال ، أنا ، ما معنى أن يكون المرء «موهوباً» .

– هناك رغم كل شيء هذه الامكانية على التأمل والتعبير التي يبدو حقاً أنها قد «أعطيت» لك ، إلى حد ما . أريد أن أقول : إن الحاجة التي كنت تحسينها إلى العمل عليها ، تشير منذ ذلك الحين ، إلى وجودها .

• ربما ...

– وأتساءل عما إذا لم يكن المرء يستطيع القول بأنّ ما أعطي لك حقاً ، بعد وضع كل شيء موضع الاعتبار ، هو تطلّب معيّن .

• نعم . هذا صحيح ، من ناحية أخرى : وقد استخدمت أنا نفسي كلمة «موهبة» ، عندما قلت إنني لا أعرف أحداً على موهبة للسعادة مثل موهبتي . فالموهبة إذن كانت بلا شك هي نفس واقعة التطلّب . ولعلي لم أكن شيئاً آخر إلاّ هذا التطلّب ... ولكننا هنا ، نعود إلى كلّ مسألة ديالكتيك البداية : إذا كنت أتطلب السعادة ، فذلك رغم كل شيء لأنني كنت قد أصبحت قادرة عليها . وأعتقد أن هناك حقاً طفولات مدمّرة اجتاحتها التخريب ، وأن المرء غير قادر حقاً على أن يكون سعيداً إذا لم يكن قد عرف منذ وقت مبكر جداً حضور السعادة . وإذن فصحيحٌ أن المرء يستطيع أن يتحدث عن تطلب كان معطىً لي – ولكن صدوراً عن خبرة كانت تضمن لي ، بطريقة ما ، أنها خبرة قابلة للتحقّق ... لأنه إذا كان التطلّب خاوياً ، فان ذلك يعطي على العكس نوعاً من عدم الرضى المتصل يؤدي إلى أن ارادة السعادة تستحيل باستمرار ، إلى شقاء .

معالم في هذه الحياة ، وهذا العمل

٩ يناير ١٩٠٨ : ولدت في باريس ، في بولفار راسباي .

اكتوبر ١٩١٣ : « قرروا أن يدخلوني مدرسة لها اسم جذاب : مدرسة ديزير (مدرسة الرغبة) » .

اكتوبر ١٩١٧ : تلتقي بزازا .

اكتوبر ١٩٢٥ : تدخل حياة الطالبات (تدرس الآداب في نويي Neuilly على جاريك Garric تدرس الرياضيات العامة في المعهد الكاثوليكي) .

اكتوبر ١٩٢٦ : تنضمّ إلى « الفرقة الاجتماعية » التي يرأسها جاريك تدرس الفلسفة في السوربون .

اكتوبر ١٩٢٧ : السوربون (آخر شهادات الآداب والفلسفة) .

نوفمبر ١٩٢٨ : السوربون والايكول نورمال (تحضير دبلوم الدراسات العليا والأجريجاسيون في الفلسفة) .

١٩٢٩ : التدريب في ليسيه جانسون دي‌ساي Lycée Janson-de Sailly. الحصول على الاجريجاسيون . تلتقي بسارتر .

١٩٣٦ : العودة إلى باريس (ليسيه موليير) ، بعد مارسيليا وروان .

١٩٤١ : سارتر يعود من الأسْر .

١٩٤٣ : ظهور « المدعوة » L'Invitée رواية ، (جاليار) ، تترك الجامعة .

١٩٤٤ : « فيرهوس وسينيا » Pyrrhus et Cinéas (مجموعة « المقالات » جاليار) .

١٩٤٥ : «الأفواه اللامجدية» Les Bouches inutiles مسرحية من فصلين وثماني لوحات (جاليار). و «دم الآخرين» Le Sang des autres رواية (جاليار).

١٩٤٦ : «كل البشر فانون» Tous les hommes sont mortels رواية (جاليار).

١٩٤٧ : «نحو اخلاقية للاستبهام» Pour une morale de l'ambiguïté (مجموعة «المقالات» جاليار). الرحلة الأولى إلى أمريكا.

١٩٤٨ : «امريكا يوماً بعد يوم» L'Amérique au jour le jour (موريهيان، جاليار ١٩٥٤) «الوجودية وحكمة الشعوب» L'existentialisme et la sagesse des nations (مجموعة «الفكر» ناجل).

١٩٤٩ : «الجنس الثاني» Le deuxième Sexe (جاليار)

١٩٥٤ : «المثقفون» Les Mandarins (جاليار) جائزة جونكور

١٩٥٥ : «امتيازات» Privilèges (مجموعة «المقالات» جاليار).

١٩٥٧ : «المسيرة الطويلة، مقالة عن الصين» (جاليار).

١٩٥٨ : «مذكرات فتاة مستقيمة» Mémoires d'une fille rangée (جاليار).

١٩٦٠ : «قوة العمر» La Force de l'âge (جاليار)

١٩٦٢ : «جميلة بوباشا» بالتعاون مع جيزيل حليمي (جاليار)

١٩٦٣ : «قوة الأشياء» La Force des choses (جاليار)

١٩٦٤ : «موت عذب غاية العذوبة» Une mort très douce (جاليار).

١٩٦٦ : «الصور الجميلة» Les Belles Images (جاليار)

فهرست

مقدمة ٧

الجزء الأول
العوامل الثابتة في موقفها « الطبيعي »

١ ــ الاستعدادات الطبيعية الأولى ١٥
٢ ــ العلاقة بالعالم الطبيعي ٦٣
٣ ــ العلاقة بالعالم الإنساني ٨٧

الجزء الثاني
تاريخ علاقتها بالآخرين

١ ــ البيئة العائلية المباشرة والأزمة الأصلية ١١٥
٢ ــ الحب والصداقة ، العلاقات ، « الآخرون » ١٧٣

الجزء الثالث

المواضيع الأساسية في علاقتها بالذات

١ — النزعة إلى رواية السيرة الذاتية «الاوتوبيوجرافية» ، «النرجسية» وصورة الذات ٢٤٥

٢ — الحياة ٢٦١

٣ — الحلم بالكينونة ، الديمومة ، الوجود ٢٨٤

خاتمة ٣١٠

حديثان

مع سيمون دو بوفوار

الحديث الأول ٣١٩

الحديث الثاني ٣٥٥

معالم في هذه الحياة وهذا العمل ٣٨١

هذا الكتاب

تعتبر هذه الدراسة الهامة اوفى وأشمل واعمق ما صدر من دراسات عن الكاتبة الوجودية العالمية سيمون دو بوفوار .

ولا غرو ، فالمؤلف هو الباحث والناقد المعروف فرانسيس جانسون الذي يقول في المقدمة :

« لقد اتيح لي منذ عشرين عاماً ان القى سيمون دو بوفوار باستمرار ، وكنت قد قرأت كتبها ، واعتقدت اني أعرفها . وخطر لي في العام الماضي ان أعيد قراءة كتبها بانتباه شديد ، فكان هذا الكتاب الذي يهدف الى محاولة فهم « مشروع الحياة » لديهم ، واختيارها « ان تكتب » وان « تعترف لنا » .

وبعد ان استجوب فرانسيس جانسون نتاج الكاتبة ، اراد ان يستجوبها هي بالذات ، فأجرى معها حديثين هامين نشرهما في آخر هذا الكتاب الذي ترجمه ترجمة امينة دقيقة الاستاذ ادوار الخراط .

كتاب لا غنى عنه لمن اراد ان يفهم شخصية الكاتبة الفرنسية الكبيرة ، ونفسيتها ونتاجها كله .